الوطنية للدراسات والبحوث

الكتاب السنوي الثالث

سنة العراق ...

اي سلام ينبغي ... واي حق يريدون

حقوق نشر جميع مقالات وبحوث ودراسات المؤسسة محفوظة لـ © NASR

بسم الله الرحمن الرحيم

الوطنية للدراسات والبحوث

تقدم:

الكتاب السنوي الثالث

سنة العراق ...

اي سلام ينبغي ... واي حق يريدون

اسطنبول ٢٠١٤

حقوق نشر جميع مقالات وبحوث ودراسات المؤسسة محفوظة لـ © NASR

الفصل الاول

- معايير اساسية لإعادة التجديد والتغيير
- دور الأمة الامريكية في بناء دولة العراق الحديث
- المعلومات والمعرفة في بناء دولة العراق الحديث
- مستقبل الادوار الخارجية في صياغة مستقبل المنطقة
- تفكير نمطي لحلول مطروحة
- السياسة العثمانية تجاه شيعة العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
- إعادة رسم النظام العالمي الجيو- سياسي اليوم من خلال خريطة الطاقة العالمية الجديدة.
- وماذا بعد... ان يكون العراق مورد النفط العالمي
- الانتقام من الأكراد .... الانفصال عن بغداد

المقدمة:

تود المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث ان تفتح امام حضراتكم الابواب كاملة على القصة الفكرية المتكاملة لحرب العراق وما نتج عنها من احداث ادت الى الوضع القائم الان من خلال نشر الوثائق والتقارير الرسمية التي امكن للمؤسسة الاطلاع عليها واهم الدراسات والابحاث التي قام بها ابرز المفكرين العراقيين والعرب والذين شاركوا المؤسسة بأفكارهم ومؤتمراتها الخاصة بالفكر العراقي المعاصر والتي يمكن من خلالها رسم مفاتيح المستقبل العراقي... وتدعو المؤسسة كافة قرائها بتزويدها رؤيتهم المستقبلية للعراق خلال الخمس سنوات المقبلة وما يمكن ان تنتجها هذه السنوات القادمة من احداث على الصعيد المحلي والاقليمي.....

هناك إصرار على تقسيم العراق ومن قبل جماعات عراقية تساندها مؤسسات أميركية وصهيونية قد تعاملت مع تلك الجماعات العراقية لتوافق وتوقع على وثائق سرية تخص مخطط تقسيم العراق في عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣، والحقتها بوثائق أخرى بعد احتلال العراق، من قبل جماعات نراهم يتكررون في مناصبهم. حيث أن السياسة التي أتبعتها هذه الجماعات ومنذ ٢٠٠٣ كان عنوانها ـ التطهير العرقي والطائفي وخاصة في بغداد ثم التهجير والاستحواذ والاستملاك والإقصاء والاجتثاث، والنهب والسلب، والانتهاك العلني لحقوق الأنسان، والترويع والتجهيل والتخدير ـ وكلها بدعم منظم من المؤسسات الأميركية والصهيونية، والتي تعهدت بحماية ودعم ومساندة تلك الجماعات العراقية الحاكمة التي لازالت مهيمنة على القرار السياسي والاقتصادي والأمني في العراق، وبدعم من دوائر أميركية مقربة من اللوبي الصهيوني في أمريكا والغرب.

فبينما تفضل طهران عدم تقسيم العراق لأن التقسيم خطرا عليها، ويكون الافضل لها جعل العراق بلدا ضعيفا على الدوام لكي لا يشكل خطرا عليها في المستقبل، ومن ثم تريده سوقا استهلاكية على المستوى التجاري والزراعي والدوائي والعسكري والاستخباري والتقني، وساحة رخوة يمكنها المرور من خلالها لتنفيذ أجندتها في أماكن أخرى من العالم العربي لخدمة مشروعها القومي والاستراتيجي. فإيران تمتلك رؤى استراتيجية بعيدة المدى، فهي تؤمن بالحماية المجانية لمشاريعها المصدرة نحو الخارج، وهي الحماية القادمة من خصوم إيران وبمقدمتهم الولايات المتحدة وإسرائيل، فهي تتحرك أينما تحركت إسرائيل أي تجدها دوما بجوار المشاريع الإسرائيلية والأميركية وسواء في المنطقة العربية، أو في أفريقيا أو في القوقاز، وحتى في أمريكا اللاتينية، وبهذا حصلت على حماية مجانية تعطيها

إسرائيل والولايات المتحدة الى مشاريعهما فتشمل المشاريع الإيرانية الملاصقة لمشاريعهم، وهو السبب الذي جعل البعض من المحللين والمختصين يعتقدون بأن هناك تعاونا سريا بين إيران وإسرائيل من جهة، وبين إيران والولايات المتحدة من جهة أخرى.

وربما ستشكل تركيا خطرا جديدا في تقسيم العراق، وربما ستجبر إيران على هذا التقسيم، وأن لم يكن " جغرافيا" فسوف يكون تقسيما " قوميا وطائفيا" حيث دفع الرئيس الأميركي أوباما برئيس الوزراء التركي " أردوغان" نحو إيران والأكراد العراقيين، ليحتوي الأكراد، ومن ثم ليقنع إيران بتقاسم النفوذ في منطقة الشرق الأوسط مقابل التعاون الأمني والاستراتيجي مع الولايات المتحدة، خصوصا وأن المنطقة الخليجية سوف تكون من حصة "الناتو + واشنطن" كي تبقى بمثابة الأرض المحايدة بين واشنطن وطهران من جهة، وبين أنقرة وطهران من جهة أخرى بينما إيران حذرة للغاية وتطالب بتعهد تركي مكتوب وتطالب بمفاوضات مباشرة مع واشنطن وبدون شروط مسبقة. وبالتالي ربحت طهران الجائزة وحيدت تركيا من منطقة الشرق الاوسط برمته واصبحت تقود المفاوضات مع الولايات المتحدة بمفردها ودون مساعدة تركيا.

من الجانب الآخر يُفترض أن تكون " سوريا" الدولة المحايدة بين إيران وتركيا وبرعاية أميركية، ولضمان الأمن الإسرائيلي، أي دولة محايدة بشروط صارمة ولكن هذه الرؤية لها معارضة من قبل الجمهوريين والمحافظين الجدد. فسوريا برزت بديلا عن مصر وحاملة للواء " المشروع القومي العربي" ولكن هل سيُسمح لدمشق بهذا، وهي التي ضدها سلة من الملفات الخطيرة التي جمعتها واشنطن وتل أبيب ،والتي ستشكل زخما ابتزازيا ضد دمشق؟

مخطط أوباما الذي أقتنع أخيرا بأن التعايش مع إيران النووية ليس عيبا ولا ذنبا ومجرد وقت، خصوصا وأن إيران لم تصل بعد الى أنتاج السلاح "النووي" وبشهادة من رئيس الاستخبارات الإسرائيلي السابق عندما قدم تقريره " شهادته" الى الحكومة الإسرائيلية عندما قال ليس هناك خطرا نوويا من إيران، ولم تصل إيران بعد الى السلاح النووي، وسوف تحتاج الى سنوات حتى تصل الى السلاح النووي، وهذا يعني أن التهويل والترهيب من إيران جاء لصالح أمريكا وفرنسا وإسرائيل لبيع أعلى صفقات السلاح في العالم وهي الصفقات التي وقعتها الدول الخليجية التي تعرضت لأكبر عملية نصب من خلال التلويح بالنووي الإيراني. وقد اعتبر أوباما ورئيس الوزراء التركي أردوغان سقوط نظام مبارك، مؤشرا على نجاح رؤية

أوباما التي تقود الى أيداع المنطقة ولو مؤقتا عند تركيا وإيران، لكي تتفرغ واشنطن لإعادة النظر في استراتيجياتها الخاصة بالمنطقة، فالاضطرابات التي بدأت في المنطقة هي بفعل أميركي وإسرائيلي بدليل اننا لم نلاحظ أن هناك اعتداءات على المصالح الأميركية والإسرائيلية وليس هناك حرقا للأعلام الأميركية والإسرائيلية، فواشنطن شرعت بالفوضى والحرائق لكي تحتويها فيما بعد وبعد أن تعيد النظر في استراتيجياتها، وبالتالي التقت نظرية أوباما مع أحلام أردوغان، وهو مؤشر إيجابي لأحلام تركيا بقيادة العالم العربي والعودة الى الحلم العثماني الجديد.

رغم ان الدبلوماسيين الاميركيين يؤكدون أن ٧% من المواطنين الأتراك يدعمون شكلا من أشكال الراديكالية الإسلامية". ووفقا لوثائق الخارجية الأميركية فان الإسلام في تركيا ليس "متجانسا" وينقسم سياسيا، بين العلمانيين والاسلاميين المحافظين الذين يحاولون التعامل مع دور الدين في الشؤون العامة لأهدافهم الخاصة حيث تقمع المعتقدات الإسلامية التي لا تتناسب مع الاتجاه الرسمي..

واذ كانت مصر بمثابة الشوكة في فم ايران والمعوق للمشروع الشيعي العالمي الجديد، وبنفس الوقت كانت تمثل جدارا بوجه إيران ومشروعها القومي الجديد، ولكن بعد سقوط نظام مبارك ونظام مرسي سوف يتشكل ميزان قوى جديد في منطقة الشرق الأوسط، وسيكون عنوانه " هيمنة الدول ذات المشاريع الدينية وهي إيران وإسرائيل" وهنا سيكون أمام مصر أملا كبيرا في أحياء "المشروع العربي" ولكن لن تسمح لها طهران، خصوصا وأن هناك صراعا خفيا في مصر وورائه دول خفية أيضا تحاول فرض أجندتها على المصريين.

تمهيد:

يمثّل ما يحدث اليوم في بلاد ما بين النهرين مصدرا فريدا من نوعه في تشكيل الدول، فهو يبين أثر الجهل على النشاط البشري في تشكيل الدول والجماعات. وسيكون الشاهد الذي لا يمكن الاستغناء عنه فيما سينتج عنه من أحداث في المستقبل في هوية الأفراد والجماعات المكونة للمجتمع العراقي. هذا التشكيل الذي اعلن عنه في تأسيس الدولة العراقية الجديدة والحكومة سيبقى مادة هشة معرضة لمختلف المخاطر والتي اهمها صراع العلم الحتمي مع الجهل.

لذا فإن المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث ستتبنى المنهج العلمي وستبذل قصار جهودها لحماية هذا الاتجاه لتشكيل دولة جديدة في العراق وضمان الوصول إليها، من خلال وضع المعايير، وتنمية القدرات المهنية، لتمكين الحوار بين المتعلمين وصانعي القرار ومنتجي ومستعملي السياسة.

إن المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث هي منظمة حيادية وغير حكومية، يتكفل أعضاؤها بتمويل نشاطها الذي يقوم أساسا على نشاطات الأعضاء المتنوعة صفاتهم. من أجل ترشيد تسيير الادارة السياسية لضمان حماية الاتجاه العلمي في التفكير وإنتاج معايير تحظى بالاعتراف الدولي وإرساء ممارسات مهنية حسنة تشجع الحوار والتبادل وتوصيل المعرفة والخبرة خارج الحدود الوطنية.

وتكمن قوة المؤسسة في ذلك في قدرتها على توجيه التنوع الثقافي الذي يميز أعضاؤها نحو اقتراح الحلول الفعالة وإضفاء المرونة والإبداع في صياغة الافكار والعمل مع صانعي القرار على أعلى المستويات وكذا بالتعاون المكثف مع الهيئات الحكومية.

إن العلم ضروري للحكم الراشد لتبقى شعلة العلم متوهجة امام سيف الجهل الذي تمثله الحكومة والعملية السياسية الحالية فهي الأداة التي تمكننا من تحمل مسؤولياتنا عند المحاسبة وإثبات قدراتنا على إرساء العدل والحكم الوطني الرشيد وفي كل ما يتعلق بالأداء لبناء دولة وطنية حديثة قائمة على اسس الحق والعدل

معايير اساسية لإعادة التجديد والتغيير

علينا قبل كل شيء إن نحدد الاولويات. كاعادة بناء تحالفاتنا الداخلية والسير باتجاه حلول مشتركة للمشاكل المشتركة. نحن بحاجة الى استعادة الاحترام والتقدير للقيم التي توحدنا، وأن نعيد التزامنا بالقانون الوطني والى التعاون المتعدد الاطراف. وهذا يعني احترام كلا من نص وروح الاتفاقيات التي تؤسس اسس السلام الاجتماعي الداخلي. وعلينا كذلك وقبل كل شيء احترام حقوق الانسان. وان نرتقي بثبات نحو البناء مع اولئك الذين يريدون بناء بلدهم ويعلمنا التاريخ أنه اذا اراد شعب الاستقرار فعليه اول كل شيء معالجة الفقر الذي هو أساس العنف من خلال زيادة المساعدات والمضاعفة من المساعدات الانمائية والرعاية الصحية وخلق فرص العمل وتحفيز الشراكات بين القطاعين العام والخاص وتمويل خطط البناء والعمران.

كانت الكسور العراقية خلال السنوات العشر الماضية في مسيرته على طول الخطوط الطائفية، ومختلف الجماعات التي تقاتلت من اجل السلطة في العراق، تختصر بكلمة واحدة هي التاريخ ..... فمستقبل العراق، ومستقبل الوجود الاجنبي فيه مرتبط بتاريخه الشاسع وما يخفيه تحت اراضيه.

فالسياسة التجارية الأمريكية قامت على أن كل البلدان يجب أن تكون فيها التجارة حرة ومفتوحة والفرص التجارية والاقتصادية يجب أن تكون متساوية في تنمية الثروات فيها. ولقد دعت هذه السياسة في أن تتحد الأفكار الانكلو- أمريكية في الوصول إلى مشاركة المصالح الأمريكية إلى مركز كبير في العراق. وجعل الفرص متساوية في امتلاك ثروات هذا البلد. لذلك جعلت الولايات المتحدة الأمريكية لنفسها مكانا له الحق في إن تشارك في أية محادثات تتعلق بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفي كل مجالات بناء الدولة الجديدة التي تريد أقامتها فيه .

إن دخول ونمو النموذج الأمريكي في المنطقة في استكمال أبعاد تلك العلاقة قد ادخلها بفضل ذلك إلى مرحلة الاحتكار الاقتصادي والسياسي والصناعي إلى جانب التركيز الرأسمالي منذ وقت مبكر من دخولهم مما صاحب ذلك نمو واستقطاب اجتماعي خطير تمثل في تحول المجتمع الشرقي في هذه الفترة إلى ما يشبه المجتمعات الرأسمالية الاحتكارية حيث استحوذت الأقلية العددية من سكان المنطقة لوحدهم على معظم المناقصات التجارية للبلاد. وهذا ما انعكس على واقع الأحداث السياسية فهذه الحركة الجديدة في المجتمعات المحلية عجزت بدورها تأسيس واقع جديد فيه نوع من الرفاهية الاجتماعية بل فشلت في ذلك وهيأت الأذهان أكبر في تقبل الحركات الثورية والدينية والقومية وحتى العنصرية والطائفية مما كشف بصورة واضحة حقيقية الأزمة السياسية التي نعيشها اليوم.

ولتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث والمعاصر دوراً كبيراً في التأثير المباشر وغير المباشر على الأحداث العالمية وبخاصة على الأحداث التاريخية التي أدت إلى بناء الإمبراطورية والدولة الأمريكية فقد استند واقع الولايات المتحدة

الأمريكية في علاقتها مع منطقة الهلال الخصيب والعالم كونها قد سبقته باعتبارها أحدى ولايات المستعمرات البريطانية في أمريكيا الشمالية ، حيث أن دراسة الثورة الأمريكية وقادتها وما استفاد المهاجرون من تلك الثورة والتي أدت إلى الاستقلال في ٤ تموز ١٧٧٦ ثم الحرب الأهلية بعد ذلك، ورغم ذلك عدت تلك الثورة امتداداً طبيعياً للتطور الغربي الحديث .

ثم كانت الإمكانات الاقتصادية الهائلة التي امتلكتها الولايات المتحدة الأمريكية لتحدد نوعا جديداً من العلاقة بينها وبين العالم لم تألفها أي من الدول في العالم، فقد دخل الصراع السياسي مثلاً في سمة تلك العلاقة وكان التنافس الامبريالي حول العالم والتوافق بينهم وحتى التكامل في العلاقات هي التي حكمت العلاقة بين دول العالم والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يحول تدهور ومن بعد توثيق الصلات بينهما من خلال تغيرات جوهرية تناسب مع توسع النفوذ الجديد للولايات المتحدة في العالم.

وبينت السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية على مدى التخلخل الاقتصادي والسياسي وحتى الاجتماعي الأمريكي في داخل الولايات المتحدة وفي الخارج. وحين جاءت أحداث العراق في فرض النظام بالقوة المسلحة ودخول ثقافة العنف السياسي فيه من قبل الأحزاب والحكومة العراقية والمرتزقة ليواجه العراق مشكلة بنيوية كبيرة منها توجيهه بالقوة التي تخيف وهي لا تؤدي بالضرورة إلى النتائج المرجوة ، وانتقل عنف الدولة إلى المجتمع في وجوه أخرى منها عدم استطاعة الحكومة استغلال الموارد المتاحة أو السعي إلى توافق الانقسامات الاجتماعية والدينية والعرقية أو إلى شراء الولاء للأقليات إلى جانب استخدامها القوة مع الصفوة المتعلمة والمثقفة في البلاد الأخرى .

هذا التغير في التعامل مع المجتمع جاء بعد ما أحس الأمريكيون بلذة النصر السريع الذي أحدثوه في العراق وأرادوا إن يؤكدوا على ضمان الحقوق والامتيازات لمواطني ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية ورعاياها في العراق ، وجاء إقرار هذه السياسة تجاه العراقيين بان تكون ثابتة وليس قابلة للتغيير ويمكن العمل بها من خلال التعامل مع رؤساء العشائر أو مع المنفيين والمنشقين وأصحاب الأطماع، أو مع أصحاب الاتجاه الديني والذين تتمركز أهدافهم بصورة واضحة مع المعتقد الديني وليس مع بناء الدولة ، ولم يتم التعامل مع أبناء المدن المثقفين ذو المستوى الثقافي العالي، وقد ساعدت تلك السياسة على زيادة الهوة بين أبناء العشائر وبين أبناء المدن أو بين أبناء المجتمع المتماسك وأدى ذلك إلى الحد الذي فضلت فيه بعض العشائر العراقية الحكم العسكري الأمريكي الأجنبي المباشر على حكم ابن المدينة الوطني .فأصبحت السياسة الأمريكية قادرة على أن تدير المتناقضات السياسية وليس كسب التوافقات وأصبحت العلاقات العراقية المحلية في السياسة الأمريكية تقوم على معرفة الصراعات ونشأتها وإدارتها ثم حلها وفقاً لمصالحها الخاصة.

ولم تجعل لتاريخ شعب المنطقة التي تعاملت معه أي اثر في تلك العلاقات فهي في نظرها تصنع التاريخ وتعرف كيف تسير إلى المستقبل وبذلك خالفت المبادئ الأساسية للعلاقات الدولية في حقوق السيادة والمواطنة والسلوك المحلي للدولة وحتى تغير مفهوم توازن القوى واستخدام القوة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول

ألأخرى لصالح مفهوم التدخل الإنساني العالمي في الحرية والديمقراطية والسلام الأمريكي.

كانت هذه السياسة قائمة على إرساء دعائم صراع طويل داخلي وإقليمي وخارجي حول العراق واستطاعت بفضل دبلوماسيها وقناصلها المعتمدين في العراق من إنشاء أنواع مختلفة من الصراعات، ثم وبفضل قوتها العسكرية والاستراتيجية العالمية والتي تتمتع بها تمكنت من إدارة تلك الصراعات وبالتالي حلها أو تركها أو حتى إشعالها من جديد وبوجوه أخرى وبحسب مصالحها القومية.

وكان على هذه القوة العظيمة أن تأخذ بنظر الاعتبار وهي تنشئ هذه الدولة العراقية الحديثة وبالمصاف الأول المصلحة القومية لدولتها ضمن صفات محدودة تتمثل بالحدود والهوية والحدود السياسية والعرق الاثني إلى جانب خلق البيئة الملائمة لمحيط هذه الدولة مع التركيز على بناء النموذج الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع وضمن الدائرة الرأسمالية الكبرى خصوصاً وبالنظام العالمي بشكل عام . إذ أن معارضة خارجية قوية لإنشاء الدولة المستحدثة أو إرادة شعبية لا تريد مثل تلك الدولة قد يؤدي إلى فشل فرض نجاح قيام مثل هذه الدولة.

ثم إن تلك المعايير بعد ذلك اختلفت لتجعل من تطلعات الشعب المعينة في الحرية والاستقلال أمراً جوهرياً وقانونياً مهماً في انتشار الدول فأصبح الاستقلال وتقرير المصير والإرادة الوطنية وهو حقاً من حقوق الشعوب في القانون الدولي ودخل ذلك في حسابات المستعمر من جديد.

وان أهم الملامح الأساسية لتطور السياسة والتغيير في النظام ألأمريكي تجاه العراق، معتمداً على التطورات العالمية في التجدد والتغيير أكثر من الحاجات والمصالح المنظورة عند السياسيين والموظفين الحكوميين فقد كانت الرؤية الرأسمالية في صناعة الاحتكارات إلى جانب السيطرة والتملك أهم السمات التي اتسمت بها هذه الرؤية، بالرغم ما عصف بالعالم الغربي من حروب وكوارث اقتصادية سادت تلك الفترة نتيجة تلك السياسات، وكان للحركة العلمية والتقدم التكنولوجي والصناعي والتأكيد على المذاهب الفكرية في الديمقراطية والحرية السياسية أثر بالغ في تطبيق واستمرار هذا النظام السياسي العالمي ودون الحدود الضيقة التي كانت تقيد الساسة المحليين في إطار القومية والوطنية وحتى الدينية الايدلوجية .

لعبت الشخصية الأمريكية المظهر الأكثر تميزاً في العلاقة ألأمريكية تجاه منطقة الهلال الخصيب فمن المعروف أن السمة الغالبة للمجتمع الأمريكي هو تعدد المعتقدات والتحولات الدينية وأشكالها وهي في غالبها مبنية على أسس من الاندماج بين تلك الحركات والأحزاب رغم بقاء بعضها ضمن خصوصيتها الدينية، وانعكس ذلك كدافع للشخصية المسيحية ألأمريكية لتشجيع ممارسات سلوكية معينة وتركت انطباعا أكبر في رسم صورة الشخصية الصامدة الثابتة القوية والرغبة المتعجرفة لتحقيق كل ما أراده الرب ودعاهم إليه فكان هناك نوع من الميثاق بين الرب الموثوق الذي يمكن الاعتماد عليه وبين أناس مؤمنين قادرين من خلال حضاراتهم وثقافتهم

الرأسمالية من تحقيق ما يريده الرب منهم وهذا ما اعتبروه تحدياً أخلاقياً وأيدلوجياً واضحاً ودافعاً إلى معرفة السلوك الأمريكي في العراق في هذه الفترة.

قبل ستين عاما، قدمت الولايات المتحدة نموذجا في القيادة العالمية في سبيل احتواء السلطة السوفياتية وتلك الرؤية الاستراتيجية وضعت الاساس لواقعية ومبدأية للسياسة الخارجية الأمريكية فيما بعد وعلى الرغم من الاخطاء والنكسات في فترة الحرب الباردة. الا انها كانت ناجحة بحسب النتائج التي وصلت اليها تلك الحرب.

في ١٩٤٧ قدمت طروحات حول اساليب ادارة الحرب الباردة ضد النظام السوفييتي والايديولوجية الشيوعية من خلال ديمقراطية ذات مصداقية في القيادة. وان احتواء الشيوعية السوفياتية سوف يتطلب قيادة قوية اميركية ودولية على حد سواء مع الدعم العسكري، ديناميكية اقتصادية.

وهذه الرؤية الاستراتيجية استندت الى الحقائق الاساسية والقيم هي التي رسمت لسياسات هاري ترومان ودوايت آيزنهاور وكل الرؤساء الامريكيين بعدهم لجيلين. وكان المفتاح التاريخي للقيادة المشتركة الفعالة هو الذي سيستعيد وسيسعى الى ايجاد ارضية مشتركة، بربط مصالح الولايات المتحدة الامريكية الخاصة مع مصالح الآخرين. فقد فهم ترومان وايزنهاور ان الدفاع عن اوروبا وامريكا من السوفيات يتطلب وجود عسكري قوي، لكنهم فهموا ايضا انه لا يمكن ضمان النجاح اذا لم يكن الاوربيون يريدون ذلك. من هنا فهم الرؤساء الاميركيون أهمية القيادة الاخلاقية والتي تعطي القوة للقيادة، من خلال الالتزام بالكرامة الانسانية واحترام القانون الدولي وحقوق الإنسان والحريات المدنية وهذا مالم تفعله الولايات المتحدة الأمريكية في تعاملها مع شعوب وامم العالم الثالث ومنطقتنا بشكل خاص تحت ظل هذه الادارة.

اليوم، ونحن في بداية عهد جديد لم يسبق له مثيل من الفرص والتهديدات العالمية والتحديات الجديدة التي تتطلب رسم استراتيجية جديدة. فى ظل عالم اليوم - عالم سريع التغير التكنولوجي والاقتصادي وتدهور مصادر تامين الطاقة والمخاطر البيئية والتحديات الامنية غير المتماثلة .

في القرن الحادي والعشرين، والعولمة في جميع اشكالها من تآكل اهمية الحدود الوطنية والتي تعتبر من اكبر التحديات التي يواجهها العالم إلى جانب الانتشار النووي والاحترار العالمي. فان السياسة الوطنية الجديدة يجب ان تكون قادرة على التعامل بفعالية مع هذه الحقائق. ويجب عليها ان ترفض كل التخيلات الانعزالية من عدم المشاركة الاخرين ومن تخيلات الحكام الجدد من تحويل وتغيير المنطقة من خلال التطبيق الانفرادي باستخدام القوة العسكرية فقط.

لقد تطورت هذه الحرب الى حرب متعددة الجبهات، فبعد مراحل نهب المدن وسرقة المتاحف والمكتبات والكنوز إلى عنف الغوغاء والتطهير المذهبي الاعمى والابادة البشرية للسكان المتعاطفين مع المقاومة إلى الاشكال الاخرى بحصار وتجويع وتدمير المدن اصبحت صحاري وبراري ومدن العراق ساحات القتال لتشمل مختلف الجماعات المقاومة والمتمردة، والجنائية والميليشيات القبلية والطائفية وفرق الموت، في جميع انحاء الدولة .

فالعراق اليوم هو بلد ممزق ويجري تفجيره. وفيه من القوى الداخلية المدمرة اكثر بكثير تلك القوى التي تريد بناؤه. وهو البلد الذي فيه قوى الانقسام والهيمنة الساحقة قد غلبت قوى التعاون والمصالحة، ولكن هل يمكن للتاريخ إن يساعدنا قليلا للخروج من هذه المحنة التي تعصف بالعراق وتساعده وتهيئه للاستعداد للتعافي من جديد كتب لورانس العرب في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) عن القبائل (العربية) التي قاتلت ضد الاتراك العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، عن حلم جميع الرجال العرب، "الذين يحلمون بدولتهم ليلا وفي النهار مع الغرور الذي كانوا يحملونه يقاتلون العثمانيين، ولكن الحالمون من الرجال -كما يقول- اليوم هم اخطر الناس لان حلمهم هذا سيفتح اعينهم لجعله ممكنا".

"وحلمهم هذا يتمثل بخلق امة جديدة، لاستعادة النفوذ المفقود، ولإعطاء للعشرين مليون من العرب الساميين الاسس التي تبنى من وحي افكار حلم الوطنية. وحينما انتصرت بريطانيا في الحرب العالمية الاولى كان خصمنا شركات النفط البريطانية والتي كانت امتيازاتها في بلاد ما بين النهرين مريبة إلى جانب السياسة الاستعمارية الفرنسية في بلاد الشام والتي حولتها إلى خراب" .

"واخشى - والقول للورنس - إلى إن نولي اهمية لهذه الامور اكثر من الشرف والحفاظ على الارواح البريئة ومن جعل النساء والاطفال سعداء. حيث كنا سنلقي الالاف من ابنائنا إلى النار لكي تكون الذرة والارز والنفط في بلاد ما بين النهرين لنا". "لكن ومع حكمة اللنبي هزمنا الاتراك باقل الخسائر من خلال استخدامنا للمظلومين في تركيا. العراق الذي يمتد تاريخه إلى اكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ويحتل جزءا كبيرا من المنطقة التي تعرف باسم بلاد ما بين النهرين، والتي نشات عليها الثقافات والحضارات على مدى القرون السابقة".

في تشرين الثاني ١٩١٤ اعلنت بريطانيا العظمى الحرب على الامبراطورية العثمانية بعد إن شكل العثمانيون تحالفا مع الألمان في الحرب العالمية الاولى. وفي ذلك الوقت نزل الجيش البريطاني في الكويت وبعد ست سنوات مريرة من الحرب وخسارتها لاكثر من مائة الف قتيل واربعين مليون باون ذهب تولت بريطانيا السيطرة على حقول النفط، والتي كانت تستخدم لتزويد القوات البحرية البريطانية واقر البريطانيون بان كردستان كانت مكتفية ذاتيا، وانها يمكن ان تستقل لوحدها داخل العراق. وكانوا يعرفون ان في العراق أكثر من السنة والشيعة يعيشون في هذه البلاد (وفي اجزاء منفصلة) ورغم هذا فقد اوصت بريطانيا وبقوة ان السنة هم القاعدة الاهم لحكم العراق لانهم كانوا القادة التاريخيون وانه اذا حكمت الشيعة فسيصبح العراق دولة دينية والتي من شان ذلك إن يؤدي إلى عدم الاستقرار في المنطقة . فكما نرى اليوم حقيقة أن التيار الإسلامي الشيعي المهيمن على غالبية الحكومة العراقية الحالية، ليس لديه النية للتخلي عن السلطة أو حتى المشاركة مع الاخرين في حكم العراق مما استدعى الكونغرس والادارة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى تبني خطة بديلة عن هذه الحكومة اذا لم تستجب الى اي من الأفكار الجديدة .

ففي (٢٦ ايلول ٢٠٠٧ ، اقر مجلس الشيوخ الأمريكي خطة السيناتور بايدن بالتعديل رقم ٢٩٩٧ والذي يعبر عن "احساس الكونغرس عن الفدرالية في العراق والذي قال في قراره هذا قال "نحن في الاساس نهدف لان يكون للاميركيين خطة في العراق-- خطة من اجل النصر والسلام فى العراق-- وتجسد خطتنا "الذكية" ترتيب القوى الديناميكية والعرقية لسكان العراق الى بلد يفتخر باستقلاله والذي يمكن ان يرتفع ثانية مثل العنقاء من هذا الرماد من اليأس"- نص قرار الكونغرس الامريكي. غير إن الامن والسلام لا يتحقق الا اذا كانت هنالك خطط مشتركة ترسم لعراق مسالم ومزدهر وتمثل الرغبة بذلك عن طريق الاحترام المتبادل، والأمن الحقيقي، والتطلعات المشتركة بين ابناء العراق الواحد إلى جانب ديناميكية المساهمة لكامل منطقة الشرق الاوسط والعالم . كذلك فان تزايد القوة وتطور الشبكات الاجرامية فيه والفساد الاداري وقلة الكفاءات الادارية قادرة على تعطيل الاقتصاد العراقي. كذلك اصبح النفط والسيطرة على موارد الطاقة واحدة من اسباب والتحديات التي تواجه العراق اليوم فهو نافذة للإغراء والتسلط وتقدم النزعات القومية والعنصرية والمذهبية. إلى جانب المشاكل البيئية والصحية والاوبئة والفقر، والصراعات المذهبية، والتوزيع السكاني العشوائي على امتداد الحدود الوطنية.

إن هذه الاتجاهات الحالية من التحديات والمشاكل والتي تتطلب حلولا محلية بالدرجة الاولى ثم اقليمية ودولية ستحدد بالتأكيد الواقعية الجديدة لمواكبة هذا العالم الجديد، فنحن بحاجة الى واقعية جديدة في سياستنا الفكرية والداخلية والخارجية . سياسة أخلاقية، ومبدئية تستند على هذه الواقعية التي تتفهم اهمية الحوار والدبلوماسية والتعاون المتعدد الاطراف. فنحن بحاجة الى واقعية جديدة على اساس الفهم بأن ما يجري داخل بلدنا له اثار عميقة لا يضمن لاحد النفوذ بشكل مطلق، ولا السيطرة، فنحن بحاجة إلى إن نفهم كيف نحل مشاكلنا، والى العمل مع شركائنا الاخرين في الوطن على الاحترام والثقة.

لذلك علينا قبل كل شيء إن نحدد الاولويات التالية. اولا وقبل كل شيء، انه يجب علينا اعادة بناء تحالفاتنا الداخلية والسير باتجاه حلول مشتركة للمشاكل المشتركة. ونحن بحاجة الى استعادة الاحترام والتقدير للقيم التي توحدنا، ويجب أن نعيد التزامنا بالقانون الوطني والى التعاون المتعدد الاطراف. وهذا يعني احترام كلا من نص وروح الاتفاقيات التي تؤسس اسس السلام الاجتماعي الداخلي.

ويجب علينا كذلك وقبل كل شيء احترام حقوق الانسان. وان نرتقي بثبات نحو البناء مع اولئك الذين يريدون بناء بلدهم ويعلمنا التاريخ أنه اذا اراد شعب الاستقرار فعليه اول كل شيء معالجة الفقر الذي هو أساس هذا القدر الكبير من العنف من خلال زيادة المساعدات والمضاعفة من المساعدات الانمائية والرعاية الصحية وخلق فرص العمل وتحفيز الشراكات بين القطاعين العام والخاص وتمويل خطط البناء والعمران. ان التحديات التي نواجها اليوم والتي لم يسبق لها مثيل بحاجة الى ان نتعلم من اخطاء السنوات السابقة ومن اخطاء الاحتلال بان نرى انفسنا كما هي من خلال هذه الرؤية الواقعية الجديدة ومن خلال سياسة فعالة لمواجهة التحديات التي تعصف بمنطقتنا.....

دور الأمة الامريكية في بناء دولة العراق الحديث

إن تحديد مفهوم، "بناء الدول" مصطلح تبنته الولايات المتحدة يقوم على "نشر الديمقراطية" ويعنى "استخدام كافة القوى والوسائل المتوفرة الأخلاقية منها وغير الأخلاقية والمشروعة منها وغير المشروعة بهدف تحويل الدولة المعنية إلى دولة "تابعة لها"، بعد مكابدتها لعقود من الفساد والاستبداد، كما هو الحال في العراق.

الشيعة ودور الولايات المتحدة الأمريكية في التعامل مع هذه المجموعة، والمنظومة الاجتماعية الجديدة في التعامل الأمريكي معها في المنطقة، والمراسيم والمناسبات الرسمية للمجتمع الغربي الذي نشأ وسط المنطقة بكل أساليبه وعاداته كنتيجة مباشرة لوجود مئات الآلاف من الجنود الغربيين في المنطقة وبالتالي استدراج التقنيات الثقافية الجديدة ودورها في تعزيز المفاهيم والتوجهات الغربية.

القطن والتمر والصوف بأنواعه والزراعة بشكل عام والمسائل الاجتماعية كالطلاق والزواج والاحتفالات الدينية وسواها، إضافة الى صناعة السينما قبل التقدم الصناعي في المجالات الأخرى وكذلك التعامل الأمريكي مع الأقليات وضماناتها كل هذه المسائل كانت ذات روابط متداخلة ومشتركة.

تلك الشؤون تحدثنا صراحة كما يبلغ وزير الخارجية الامريكية ميلز الملك فيصل الأول " أن الأمريكيين لا ينظرون الى هذه القضايا على أنها مجرد شؤون محلية وبعكسه فان الولايات المتحدة لن تعترف بالعراق كدولة في المجتمع الدولي إذا جرت الأمور بعكس ما تتمناه الحكومة الأمريكية وان جهود القناصل الأمريكيين في هذا الشأن هي في موازنة النفوذ المحلي النشط تجاههم".

كذلك يرسل المندوب السامي البريطاني رسالة الى رئيس الوزراء العراقي يحثه فيها الحكومة العراقية على تسوية هذه المسائل قبل اجتماع تشرين الثاني ١٩٢٦ في جنيف ولأن لديه تكليف من اللجنة الدائمة في جنيف ولأنه بخلاف ذلك فان ردوده على ولاية اللجنة قد تخلق انطباع غير مواتي في أوربا والولايات المتحدة حول العراق تحديدا وعلى منطقة الهلال الخصيب بشكل عام.

ومما لاشك فيه أن الحكومة العراقية كانت مهتمة كثيرا بموقف الولايات المتحدة واتجاهات رؤيتها تجاه المنطقة وبالاعتراف بدول المنطقة وقد تكون استقالة رئيس الوزراء آنذاك في العراق عبد المحسن السعدون من أسباب عدم اتخاذ مثل تلك الإجراءات بهذا الشأن.

هذه الادوار هي استكشاف للدور المركزي للعراق ومنطقة الهلال الخصيب في تشكيل السياسة العامة للحكومات في الغرب والولايات المتحدة الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين.

ان تاريخ العراق الزراعي والاجتماعي منذ بدء الانتداب البريطاني في عام ١٩٢٠، وحتى الاستقلال في عام ١٩٣٢، تعود إلى خضم الأحداث الهائلة في القرن العشرين من ظهور وفاعلية ثم وفاة الإمبراطورية البريطانية وربما كان الأكثر أهمية بالنسبة للشرق الأوسط. ولا يمكن لهذا أن يكون أكثر وضوحا مما كان عليه من أن ينظر إلى العلاقات بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية.

التحول الهائل في موازين القوى التي وقعت، خلال هذه الفترة والامتيازات الزراعية التي أثرت على الاقتصاد العالمي وسياستها الخارجية بصورة أعمق مما يمكن أن يتوقع، صنعت إمكانية الحفاظ على قاعدة قوية للعمليات في المنطقة الغنية بالموارد الطبيعية في الشرق الأوسط – حيث التعمير والصناعة والتوسع في ذلك يتوقف على تلك الامتيازات – وذلك يعني أن الولايات المتحدة كانت على استعداد للموافقة على ما يقرب من أي شروط يتم التفاوض عليها بينها وبين العراق مقابل قبول وجودها هناك. وهذه السنوات تظهر تقريبا العلاقات بين واشنطن وبغداد. حيث أصبح العراق أكثر قوة من الناحية الاقتصادية، وكأنه قد وصل إلى درجة من الاستقلال الذاتي والحتمية التي لا يمكن إزالتها. فدروس التاريخ مهمة لتعلم الدروس المهمة بالنسبة للعالم الحديث .

الفكر الاستراتيجي في وزارة الخارجية الامريكية وتغطيتها لقضايا التخطيط الاستراتيجي والأمني للمنطقة. وجميع المواد مستقاة من السجلات الروتينية واليومية والتقارير والتعاقدات، والدوريات بصورة عامة، لا تمثل إلا وصفا للمشاكل والمقارنة بين مناطق الهلال الخصيب المختلفة. وكان هناك ما سيجعل في وقت لاحق ما سيناقض تماما هذه السياسة، ويبدأ الخطر الذي سيهدد المصالح الأمريكية في المنطقة والذي سيصبح الآن منبثقا من العراق.

أن الخاصية التي تتمتع بها المصالح الأمريكية تتمثل بشكل أساس بان لديهم مرجعية في المنطقة تتمثل بوجود الشيعة والأرمن فيها وهذا يعتبر ذا فائدة تعود الى الأمريكيين نظرا لانتشارهم على نطاق العالم كله وهذا يعني إن الدفاع عن المثل والعدالة الأمريكية في قضية كقضية الشيعة في بغداد أو في استغلال وتوطين الاقليات في مناطق الهلال الخصيب تعد بمثابة الولاء للمصالح الشخصية للآلاف من

المواطنين الأمريكيين في العالم، لهذا فان وزارة الخارجية تحتفظ بالعديد من الملفات الهامة عن هذه القضايا الحساسة.

حجم الصراع الإداري بين وزارة الخارجية ومكتبها المختلفة وإتباعها السياسة الأحادية والمنفردة التي انتهجتها الولايات المتحدة تجاه المنطقة والتي كان يمكن أن تؤول لنتائج أفضل إذا حظيت بحسن النوايا، فالتكاليف على الجانبين العراقي والأمريكي كانت ماديا وبشريا تفوق كل التصورات ولا يمكن مقارنتها بحالات سابقة مماثلة كانت الأمم الأخرى قد أعيد بناء دولها بعد الحرب العالمية الأولى وهذه هي النتيجة الرئيسية التي يمكن استخلاصها دور الأمم في بناء الدول مقارنة بحالات مشابهة قامت فيها الولايات المتحدة بدور مماثل.

إن تحديد مفهوم، "بناء الدول" مصطلح تبنته الولايات المتحدة يقوم على "نشر الديمقراطية" ويعنى "استخدام كافة القوى والوسائل المتوفرة الأخلاقية منها وغير الأخلاقية والمشروعة منها وغيرها بهدف تحويل الدولة المعنية إلى دولة "تابعة لها"، بعد مكابدتها لعصور من الفساد والاستبداد، كما هو الحال في العراق.

يخلص التاريخ الى تحول العراق الى دولة فاشلة أو ضعيفة بسبب تلك السياسات بما حمل من علامات عدم الاستقرار والتي تعد الأقرب لأن تكون دولا فاشلة، اعتمادا على مؤشرات اجتماعية واقتصادية وسياسية .

والآن، فإن مخاطر فشل الدول أصبحت محورا لاهتمام جميع المراقبين للشأن العالمي، خاصة بعد أن صار تصدير مشكلاتها أمرا حتميا، سواء تعلقت بعدم الاستقرار أو الحجم المشاكل التي تواجهها وليست لديها القدرة على صدها أو في طريقها للانهيار؟

ذلك طبعا يكون عندما تفقد الحكومة المركزية سيطرتها على أراضيها، لكن ثمة مقدمات حادة للفشل، منها أن لها مقدمات تاريخية والتي تجعل بعض الدول لا تتمكن من الاحتكار والاستخدام الشرعي للقوة بما يعرضها للاضطرابات. فبعض الأنظمة تنقصها السلطة الكافية لاتخاذ قرارات أو تكون لها القدرة على تقديم الخدمات المجتمعية. والدول الفاشلة على المستوى الخارجي، تكون سيادتها مقيدة تلقائيا من خلال عقود الاحتكارات والامتيازات الاقتصادية والسياسية.

كذلك هنالك المؤشرات الاجتماعية كتصاعد الضغوط الديموغرافية والحركة غير النظامية للأفراد التي تخلق معها حالة طوارئ معقدة تنتج الأمراض، ونقص الغذاء والمياه الصالحة، والتنافس على الأرض الذي يجعل الجماعات المظلومة

تنتظر الثأر والفرار الدائم والعشوائي للناس كهجرة العقول، وهجرة الطبقات المنتجة من الدولة، والاغتراب داخل المجتمع.

ومن المؤشرات الاقتصادية غياب التنمية الاقتصادية لدى الجماعات المتباينة مثل عدم المساواة في التعليم والوظائف والدخل، ومستويات الفقر، وتزايد النزعات الإثنية والانحطاط الاقتصادي الحاد في الدخل القومي، وسعر الصرف، والميزان التجاري، ومعدلات الاستثمار، وتقييم العملة الوطنية، ومعدل النمو، والفساد، والتزامات الدولة المالية.

ومن المؤشرات السياسية فقدان شرعية الدولة من حيث فساد النخبة الحاكمة، وغياب الشفافية والمحاسبة السياسية، وضعف الثقة في المؤسسات السياسية.

كذلك في التدهور الحاد في تقديم الخدمات العامة وعدم أداء الدولة لوظائفها الجوهرية مثل حماية الناس، والصحة والتعليم والتوظيف، والحرمان من التطبيق العادل لحكم القانون وتشتت الأمن والذي قد يخلق دولة داخل الدولة فظهرت نخبة عسكرية داخل الجيش، وظهرت النزاعات المسلحة، وتنامت الانشقاقات داخل النخب في الدولة وأصبح تدخل الدول ألأخرى كفاعل أسياسي خارجي بأشكاله التدخل العسكري أو شبه العسكري داخليا في الدولة أو في مؤسسات المجتمع.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نؤكد أن هناك مساحة واسعة بين ما نأمله لشعوبنا ومنطقتنا من تقدم وازدهار وثقة بثوابتنا الأساسية في تغير الأحوال وبين المسار التاريخي والحقائق الأرضية الواقعية والتي يختلف فيها اللاعبين وتتغير فيها قوانين الفوز والخسارة بينهما طبقا لكل طرف .

المعلومات والمعرفة في بناء دولة العراق الحديث

لا يحق لنا كمؤرخين الاستدلال بما جرى لإثبات نجاح فرضياتنا التاريخية بل يجب ان تبنى فرضياتنا التاريخية بحسب قواعد الصواب والنجاح والقوة والعدالة والاستمرارية التاريخية. لان تاريخنا الطويل ببساطة هو سلسلة مترابطة تؤثر في مسارتها عوامل محلية بامتياز اكثر مما تكون خارجية.

طوال القرن الماضي كان هناك لبس لدى المفكرين والمؤرخين بين الوسائل والأهداف لدى الذين عاشوا وكانوا فاعلين على مستوى التاريخ ودخلوه بأعمالهم وبنتائج أفعالهم وبين صور المتغيرات التي تأسست على طول الفترة التاريخية المذكورة. على المستوى الفكري كان سائدا طوال القرن العشرين في منطقتنا على نحو واسع تركز التفكير نحو الحكم والقيادة نحو الهدف الاسمى في التغيير والتطور فكانت لدى البعض هي في إعادة الخلافة بما تمثله من قوة الإسلام والتي ضاعت نتيجة مؤامرات الغرب ونتائج الحرب العالمية وكما هو معروف في سقوط آخر خلافة إسلامية هي الخلافة العثمانية. بينما كان لدى الآخرون أهداف أخرى في عودة قوة العرب من خلال إحياء المجد العروبي والقومي التقدمي من خلال أيديولوجيات محلية بامتياز مستفيدة من ارث طويل لعلوم وعادات العرب طوال قرون طويلة ومن علوم عصرية.

ومنهم من ارد التزاوج بين الفكر العربي المعاصر وبين الحضارة الغربية لميلاد وليد هجين يجمع بينهما لموازنة هذا التطور وبين تلك الأفكار وأخرى كثيرة سادت هذه الفوضى العقلية التي تخبطت بتتويج العقل الغربي لها باحتلاله بغداد في نيسان ٢٠٠٣. لتعود منطقة الهلال الخصيب من جديد لتبحث عن هوية خالصة لها في مواجهة تلك التحديات الجديدة ولتبحث عن سبيل جديد يقودها الى النمو والمكانة المرموقة بين الأمم.

وبطبيعة الحال لا نقصد هنا ان ما آل إليه مصير منطقتنا المعاصر هو نتيجة لتلك الفوضى الفكرية ولا بالتأكيد هي محصلة لفكر غربي حازم ومقيد بأسس وقواعد خاصة منطقية ومرتبة بواقعية طوال القرن العشرين ومن علاقات غير متكافئة بين قوى مستعمرة وبين قوى محلية مختلفة في الرؤى والوسائل والتفكير.

تبرز اليوم ونؤكده في هذا المجال الاعتراف الكامل والحقيقي لقوى مجتمعات منطقتنا والتي تمثلت في احدى صورها بالمقاومة العراقية ضد الاحتلال المتنوع والمتغير وبالمقاومة الوطنية الفلسطينية الطويلة. وبالرغم من العوائق والأخطاء التي شابت تلك التجربتين الا إنها رسمت لنفسها ولشعوبها مسارا تاريخيا احق بدراسته والاعتبار به قبل أي اعتبار آخر ليكون السبيل الأمثل في الاستقلال والتنمية.

فنقطة الضعف للغازي الغربي المحتل ان ليس لديه الحكمة فيما يفكر فيه او يفعله رغم امتلاكه جميع مقدرات المعلومات والمعرفة ووسائل الاتصال والمصادر. ورغم ذلك فهو يعيد نفس الأخطاء التي مارسها أثناء احتلاله في بداية القرن الماضي

في احتلاله الجديد لأسباب شتى كثير لسنا في صدد بحث أسبابها ولكننا نهدف من وراء هذه السلسلة من المصادر الوثائقية ان نبين الفوضى السائدة في الفكر الغربي تجاه منطقتنا بالرغم من قواعد الالتزام الصارمة بالحرية الحاكمة للعقل الغربي.

في بداية القرن الماضي في أثناء الاحتلال الغربي لمنطقة الهلال الخصيب أعيدت نفس العقول خلال الاحتلال الامريكي لبغداد في بداية القرن الحالي لتعود الى تأسيس دولة على نمط مختلف مما كان سائدا قبل الاحتلال بعد ان دمر مؤسسات البلاد وإداراته وأنظمة الحكم فيه.

وبغض النظر عما كان راينا بالنظم التي حكمت بلادنا قبل الغزو غير ان الجميع كان متفقا على ان تلك النظم كانت وطنية ومحلية بامتياز ولا وجود للمستشارين الأجانب في حكوماتهم ورفعت شعار الوطنية والقومية والاستقلال رغم الأخطاء التي شابت المسيرة الحاكمة لعقود.

هذه الميزة الوطنية كانت الركيزة السليمة في بناء المجتمع والدولة والتي تحت ظلها تم المحافظة على الأوطان بمساحتها المعروفة واذا فقدت او استبدلت هذه السمة والميزة بسمات التطور والحداثة والعولمة او أية سمات أخرى فسوف يفقد المجتمع المحلي خواص ثباته واستقراره وحفاظه على خصوصيته. فالعولمة الثقافية أول ما تكون في فردية الأفراد بما تحملها من حرية وهذا ما كان مخالفا لمسارات تاريخ شعوب هذه المنطقة على طول تاريخها الطويل.

ان الأبطال هم من يصنعون تاريخهم وتاريخ شعوبهم ولأجل ذلك عمد المستعمر على طمس إنجازات الأبطال بشكل متعمد وأساء لهم ولذكراهم على مدى التاريخ المنظور وكانت عنده استراتيجية تشويه الأعداء المتبعة واضحة بامتياز وبعد ذلك التدمير بدأ المستعمر المحتل بالشروع في بناء الدولة الجديدة على أسس عصرية ومدنية كما يراها ويدعي ويصور للمجتمع والراي العام ان الدولة التي كانت قائمة قبل الغزو إنما هي دولة خارجة عن النظام الدولي بكافة المقاييس وعاجزة عن تلبية طموحات مجتمعها وتطلعاته وبالتالي فهناك ضرورة للغزو من اجل التغيير وبالتالي فان المجتمع المحلي البائس والمهزوم من تلك المعارك بكل طبقاته يصدق هذا التوجه والادعاء ومن بعد سيكون متبنيا لهذا الطرح.

المفارقة هنا ان المحتل ومن معه في هذا المشروع حينما يبدأون في بناء دولتهم العصرية هذه يواجهون سلسلة من التحديات الكثيرة تبدأ بالمستوى الإداري والقانوني والوظيفي والاجتماعي ولذلك نراهم يعمدون في نهاية محاولاتهم الفاشلة طوال سنيين عديدة من المحاولات الى العودة الى القوانين التي كانت سارية المفعول قبل الاحتلال بعدما فشلوا في تطبيق قوانين المحتل او تجارب الأمم الأخرى وإسقاطها على هذا المجتمع المحلي.

ورغم ان هذه العودة الى القوانين السابقة وتشكيل الإدارات التجارية على نسق الإدارات السابقة فإننا نراهم رغم اعترافهم بذلك فإنهم يجدون ما يبرر لهم ذلك من إطلاق تسميات وحجج تبرر لمن حولهم فشلهم بالبناء كنجاحهم في التدمير.

ولكي تستمر عملية التدمير للمجتمع بعدما دمرت إداراته عمد المستعمر الى استخدام نصوص القوانين دون التأثر بروحها كي يبقى المجتمع أسرى نصوص لا تتطور بحسب قواعد التطور البشري السليم.

ربما كان هؤلاء الذين تصدوا للعمل العام وأرادوا ان يكونوا قادة لهذه المنطقة بشكل او بآخر من خلال تعاونهم مع المستعمر او من خلال الفساد بالرغم من إنهم لا يمتلكون الأهلية والمواصفات الشخصية والعلمية والتربوية لتبوئهم هذا المنصب او ذاك الا ان اعتماد المحتل عليهم يجعلهم ان يستمروا على أمل التغيير في المستقبل وهكذا تنتهي السنوات والعقود ويكون حال الأمة من سيء الى أسوأ. وربما لم تتح الفرصة لعلماء الأمة ان يديروا شؤون بلادهم خلال الفترة الماضية ولكنهم بالتأكيد كان عجزهم هذا يعود عليهم بشكل مباشر خاصة حينما يتاح لهم بعض الفرص للتغيير ولكننا نراهم يعرضون عنها او يفشلون في تغيير واقعهم او من حولهم لان طغيان الجهل وسيف الباطل أمضى من مشاعل النور التي يريد البعض من حملها.

عمل المستعمر والإدارات المحلية واضطرت بعد سنوات عديدة وعقود من السنوات العديدة من الاحتلال ثم الانتداب ثم الحكم المباشر مع الاتفاقيات والمعاهدات التي تضمن بقاء المستعمر من العودة من جديد الى القوانين العثمانية والتي كانت حاكمة ونافذة المفعول في البلاد وقبل الاحتلال. لقد عجز المستعمر بعد محاولات عديدة في تطبيق قوانين البريطانية والهندية او الفارسية او غيرها في تطبيقها لإدارة البلاد وعاد مرغما الى القوانين العثمانية من جديد لتطبيق ما يمكن له ضمان مصالحه في تسجيل الشركات والعلامات التجارية وحقوق التأليف وبما يؤمن من موارده الداخلية في إعادة النظم العثمانية في الضرائب والمكوس والكمارك والتنظيم المالي للبنوك والمصارف وفي المؤسسات التجارية وغرف التجارة والصناعة وغيرها.

ولذلك فان التغيير الذي حصل بعد الاحتلال الغربي لمنطقتنا لم يكن تحولا من التخلف عن النظام العالمي الى دولة عصرية متخصصة بقدر ما كان تغييرا واحتلالا بالقوة المسلحة لم تنوي البناء الجديد مع من كان معها من المحليين وانما رجعت بالجهل والفقر والفساد الى مستويات دنيا عن شعوب وأمم العالم المختلفة لأنها الضمانة الأكيدة لاستمرار مشروعها الاستعماري.

ان نظام الهلال الخصيب المحلي الشرقي المسلم له من الخصائص الفريدة التي تناسب شعبه وأمته. ولقد كان النصف الأول من القرن العشرين فرصة مناسبة له في ظل تحركات الأمم والشعوب الأخرى في حربين عالميتين من ان يكون نموذجا ناجحا للسلام والحياة ولكن قادته أصروا على ان يكونوا تابعين للمحتل وأنظمته.

نلاحظ أن الدول الغربية قد حققت تقدماً ملحوظاً في تطبيق الحكومة العصرية أما الدول منطقتنا العربية فقد تتفاوت في مدى تطبيقها للحكومة العصرية ولعل السبب في ذلك هو تجاهلها للموضوع أو تطبيق الحكومة العصرية بشكل غير مدروس وغير متقن مما أدى إلى تأخرها في هذا المجال.

من بين المتغيرات والتطورات العلمية التي شهدها العالم في مجال المعلومات والمعرفة والمؤسسات التي تحتضن الأفكار الإبداعية والابتكارية، وتحليل المشاكل واختيار الحلول المناسبة التي تعتمد على التفكير والتخطيط الاستراتيجي ووفق قيم رفيعة لثقافة المؤسسات والأفراد والتي تعمل في ظل مفهوم التحول التدريجي نحو التطور الفكري، والحاجة إلى التغيير والتطوير، وباعتبار حقل المعرفة والتعليم ضرورة تنموية وتطويرية لإدارة الحياة الشاملة والرؤية الطليعية الصاعدة والواعدة. نحو المعلومة، البيانات والمعطيات، وتكوين مؤسسات المعرفة، لخلق الإبداع والابتكار، وتنمية ثقافة الأفراد في المؤسسة من حيث التكنولوجيا والتغيير والتنظيم، للقدرات والمؤهلات، وتبادل المعارف.

تعتبر المعرفة والمعلومات إحدى مفرزات التطور التكنولوجي التي عرفها العالم في القرن العشرين حتى أصبح يطلق عليه عصر المعلومات ومؤسسات المعرفة نتيجة لتأثيره المباشر على الاقتصاد القومي للدول، وقد تحول اهتمام المجتمعات الحديثة من مجرد الاهتمام بإنتاج السلع والخدمات إلى الاهتمام المتزايد بمؤسسات المعرفة وثقافة الأفراد والمؤسسات والمعلومات والشركات التي تستطيع أن تتلاءم مع المتغيرات، وأن تواؤم مع المنافسة القاسية، ومؤسسات تبادل المعرفة والتعليم الحتمية والتنموية التي تتفاعل على القدرات الابتكارية الإبداعية التي تسعى للأداء المتميز ورؤية المستقبل المتطور.

وقد تعددت المفاهيم والآراء حول المعلومات التي أصبحت جزء لا يتجزأ من نظام المؤسسة، وتعتبر موردا تنظيميا أساسيا تعتمد عليه في تدعيم العملية الحكومية وتدعيم القرارات الاستراتيجية لنمو المؤسسات الأمريكية وبقائها وتطورها وتحقيق الميزة التنافسية.

لقد عاش العالم في القرن العشرين بعصر سمي بعصر المعلومات ثم أطلق عليه عصر ما بعد الصناعة وأخيرا أطلق عليه البعض عصر المعرفة. وكانت سمات وملامح هذا العصر وآلياته ومعاييره تختلف جذريا عن كل العصور السابقة وأصبحت المعلومات تغذي جميع وحدات وأقسام المنظمة الحكومية بما تحتاج إليه لأداء مهامها وأعمالها وتشكل موردا استراتيجيا لها، والتي ينبغي توفيرها بالمواصفات المطلوبة من حيث الدقة والوقت والثقة.

وإذا كان رأس المال والعمل هما الموردان الرئيسيان للأعمال تقليديا، فأهمية المعلومات يمكن اعتبارها المورد الثالث في ذلك إضافة إلى هذا فإن المعلومات تساعد في الحفاظ على وحدة وتماسك المنظمة الحكومية، فالحاجة إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى مثلها مثل المورد البشري والمورد المالي.

تعتبر المعلومات من أدوات ووسائل الاتصال ويتجسد ذلك من خلال الدور الذي تلعبه في تسهيل عملية الاتصال الداخلي والخارجي وفي خلق ثقافة المنظمة بالتعريف الأفراد وتعليمهم وكذا في تكوينهم وترقيتهم.

تلقى المعلومات اهتماما متزايدا وانتشارا واسعا وحاجة ملحة أكثر على الصعيد كافة المستويات الإدارية للمنظمة، موردا استراتيجيا يرفع من إنتاجيتها وسلاحا تواجه به المنافسة الحادة. وعلى العموم فإن أهمية المعلومات يكمن في

اعتبارها القاعدة الأساسية لعملية اتخاذ القرارات في المنظمة، إذ بدون معلومات كافية وجيدة تتوافق وتنسجم مع الاحتياجات العامة للمنظمة لا يمكنها الوصول إلى قرارات ناجحة، ليس هذا فحسب بل أن فعالية اتخاذ القرارات ترتبط أساسا بنوعية المعلومات المتوفرة والتي بدورها تنعكس على أداة المنظمة كما أن المعلومات تعتبر المورد الأساسي لكل قرار يخص المنظمة وهذا راجع كأحد عوامل الإبداع فيها.

وقبل التطرق إلى مفهوم مؤسسات المعرفة يجدر بنا الإشارة إلى نظم المعلومات بشكل عام. يقوم نظام المعلومات بجمع المعلومات و معالجتها وتخزينها، وتحليلها و نشرها من أجل تحقيق هدف معين وكما هو الحال مع أي نظام آخر فإن نظام المعلومات يتضمن الإدخالات مثل المعلومات والمخرجات مثل التقارير والحسابات ويقوم بمعالجة الإدخالات وإنتاج المخرجات التي تم إرسالها إلى المستخدم أو إلى نظام آخر يحتوي على عدد من العناصر التي تتفاعل فيما بينها، مع محيطها الهدف جمع البيانات ومعالجتها وإنتاج وبث المعلومات لمن يحتاجها لصناعة القرارات

يتضح لنا أن نظام المعلومات الذي اعتمدته المؤسسات القنصلية الأمريكية في منطقة الهلال الخصيب هي عبارة عن مجموعة من البيانات المتفاعلة مع محيطها بصورة دائمة وذلك لمساعدة مستعمليها في وزارة الخارجية وباقي المؤسسات الحكومية على اتخاذ القرار من خلال تصميم الأنظمة ونظم المعلومات الإدارية لتزويد الخارجية الأمريكية بالمعلومات اللازمة للخطط والتنظيم والقيادة والرقابة على نشاطات منطقتنا.

لقد أصبحت بفضل ذلك الإدارات الحكومية الأمريكية كالخارجية وغيرها والجامعات المهتمة بالشأن العربي ومراكز الفنون والثقافة والشركات كمؤسسات المعرفة وحقول تتفاعل فيه تبادل المعرفة والأفكار الإبداعية الخلاقة بفضل تطوير ثورة المعلومات، وهذا التحول التدريجي المعروف من عصر الصناعة إلى عصر المعلومات والمعرفة إلى بيئات المتفاعلة والتأثير وتبادل المعرفة فأطلق عليها مؤسسات تبادل المعرفة أو مؤسسات التعليم هي في الحقيقة علم إدارة المعرفة أو مؤسسات التعليم لزيادة القدرة التنافسية وتفادي الهبوط المؤسسي.

ولتحسين الخدمة وللإقدام على المخاطر دون خوف ولزيادة القدرة الابتكارية والإبداعية لمؤسسات وزارة الخارجية ولمساعدة العاملين على إثبات ذاتهم في البحث عن المعرفة، وتدريبهم على مهارات التفكير ولزيادة القدرة على إدارة التغيير والاستفادة من فرص المستقبل ولفهم النظام المؤسسي وعدم الخوف من تعقيده ولخلق قيمة الولاء والالتزام بين قوى العمل، فإن تلك المؤسسات كانت تقدر أراء ومعارف العاملين بغض النظر عن مواقعهم الوظيفية التي ترقي بمستوى أدائهم إلى كامل قدراتهم للاستجابة لمتطلبات العاملين في مستقبل أكثر إشراقا في علاقة عمل تبنى على التكافؤ والمساواة ووحدة المصير.

تعرض الرؤية المشتركة صورة مثالية وفريدة للمستقبل. وهنا نشير إلى أهمية المشاركة من خلال الحوار وتبادل الرأي والمعرفة في صياغة رؤية مشتركة، كما نؤكد على صعود أهمية الطريقة التي تصاغ هذه الرؤية إلى قيمة نفسها، وذلك لأن

المشاركة تخلق الالتزام، وتنمي الشعور بالمسؤولية والانتماء. ولهذا تمت العملية التي من خلالها امكن صياغة رؤية مشتركة لتدريب القناصلة والمبعوثين الرسميين الأمريكان الى منطقتنا من القيادات الشابة لتطوير قدراتهم على صياغة رؤية المستقبل.

فالنماذج الذهنية تمثل رؤية الشخص للعالم من حوله وترجع أهمية النموذج الذهني إلى أنه انعكاس لمعتقدات الإنسان التي قد يتسبب بعضها في إعاقة قدراته، ومن المهم في مؤسسات التعلم أن يتبادل الأعضاء نماذجهم الذهنية حتى يمكن مناقشتها وتصحيحها وصياغة نموذج مشترك أقرب إلى أرض الواقع وهذا ما كان مع الموظفين الحكوميين وممثلي الشركات الأمريكية الذين بدأوا بتأسيس مواطئ قدم لشركاتهم ومؤسساتهم في منطقتنا.

وليست كل التجارب ناجحة، ولكن التغيير المستمر هو الطريق الوحيد لتصحيح الأخطاء والوصول به إلى تجارب النجاح . وتتطلب التجارب المؤسسية أن يتعرف كل عضو فريق العمل على النماذج الذهبية للآخرين وذلك يهدف الوصول إلى فهم شامل للنظام المؤسسي المعقد حتى يمكن التعامل مع أوجه قصوره أو معوقات. كذلك من بين المرتكزات الضرورية التي يجب إتباعها للتحول من مؤسسات الإنتاج بعض السلع أو الخدمات إلى مؤسسات التعليم المستمر وتبادل المعرفة وما يتطلبه من جهد ووقت ومال وكافة الإمكانيات تعتبر استثمارا فيما تقتنع كافة الأطراف العاملين المسؤولين وتوفير البيانات والمعلومات ومعالجتها حتما ستؤدي إلى اتخاذ القرار الرشيد و الواضح وإلى سرعة في الآراء المتميزة وإلادارة الشاملة وتحقيق الميزة التنافسية.

ولا تخلو مؤسسات المعرفة هذه من المخاطرة، ولعل أهم المخاطر المحسوبة هي الثقة في العناصر الشابة وإعطاؤها فرصة لبناء تجاربها الشخصية من خلال الممارسة التي تدعمها السلطات المفوضة إليه من جيل الرواد.

ان المعرفة من خلال تشجيع التفاعل وتبادل النماذج الذهنية والرؤى يمكنها من فهم هذا النظام الجديد والوصول إلى كل بدائل الحلول. مع وجود قاعدة إدارية تؤكد أن الجهل بالمشاكل يزداد كلما ارتفعنا علوا في السلم الوظيفي، وعليه فلا مفر من الإفادة من معرفة العاملين من تقرب مواقعهم الوظيفية من مراكز الإنتاج والخدمات. كذلك فان العمل الجماعي والانفتاح الذهني والموضوعية بصفة عامة تكافئ بيئة المبادرة والمخاطرة والابتكار والإبداع، وكلها من مفردات لغة المستقبل التي استخدمها الأمريكان في بناء ثقافة مؤسساتهم القنصلية والتجارية في منطقتنا والتي يجب ان تحفظ تجارب النجاح والفشل في أي مؤسسة وتحويل هذه التجارب إلى دروس مستفادة للمستقبل، الى جانب الذاكرة التي تعتبر أحد المصادر المهمة في تقييم الأحداث.

ويعتبر موضوع ثقافة المؤسسة من المواضيع الجديدة في الفكر الإداري والتنظيمي خصوصا في ممارسات إدارة الموارد الدقيقة وغير المنهجية فهي التي شاعت فيها ظواهر سلبية انعكست فيما بعد على هذه المؤسسات ونجد من يعتبرها بمثابة الممارسات السلوكية الناجمة عن تفاعلات الأفراد واستخدامهم للغة، حول ما

هي السلوك والأعراف التي تظهر في جماعات العمل والقيم السائدة داخل المنظمة والفلسفة التي توجه سياسة.

تجدر الإشارة إلى أن الثقافة العامة تتفاوت من بيئة إلى أخرى ومن فئة اجتماعية إلى فئة أخرى داخل البيئة الواحدة كاختلاف ثقافة المديرين عن ثقافة العمل في مؤسسة واحدة. وإذا كانت الثقافة تتفاوت من بيئة لأخرى فإنها أيضا قابلة للتعديل والتحويل بمرور الزمن نتيجة للإصلاحات الثورية أو ظهور الاختراعات أو الاستعارة من ثقافة أخرى وتنتظم الخصائص الثقافية للمجتمع في نظم اجتماعية متميزة تشمل نظم الأسرة والمؤسسات الدينية والتربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك.

لقد كانت هناك مجموعة من القيم المشتركة التي تحكم السلوك والعلاقات والتفاعل السياسي بين السياسيين الأمريكان مع العملاء والموردين وغيرهم من الأطراف خارج الادارة الرسمية الأمريكية او من المحليين، من خلال ما يمكن تحقيق الكفاءة والفعالية وتحقيق الميزة التنافسية للدولة الأمريكية مع منافستها بريطانيا العظمى وباقي الحلفاء الأوربيين.

وكان تحقيق التكامل الداخلي بين أفراد المجموعة الأمريكية من خلال تعريفهم بكيفية الاتصال فيما بينهم والعمل معا بفعالية لتحقيق التكيف بينهم وبين البيئة الخارجية للقيام بدور المرشد للأفراد والأنشطة لتوجيه الفكرة والجهود نحو تحقيق أهدافهم ورسالتهم لتحدد أسلوب وسرعة استجابة تلك المجموعة لتحركات المنافسين واحتياجات العملاء بما يحقق لهم تواجدهم ونموهم.

وتمثلت ثقافة المجموعة الأمريكية في إطارها العام في تصرفات وسلوكيات وأداء وخلق الإبداعات التي تركز على الاحتياجات المتبادلة والنظر إليهم كأعضاء في أسرة واحدة بما يتوجب عليهم من إيجاد القيم والأهداف المشتركة بينهم لترسيخ معايير أداء متميز وتوفر قدر من الاحترام وإتاحة المشاركة.

لجأت الدراسات المعاصرة إلى محاولة فهم العلاقة بين المحددات الثقافية وطبيعة الأفراد داخل المؤسسات وتوصلت الدراسات إلى وجود قيم ومعتقدات وأنماط تفكيرية ساهمت في بلورة نماذج أضحت فيما بعد مرجعيات يتم الرجوع عند محاولة تبني سلوكيات معينة.

تعدد مصادر المعرفة الإدارية كحقل معرفي وتطبيقي يستخدم حصيلة مختلفة من العلوم لبروز نماذج معرفية جديدة مثل الإدارة بالمعرفة إدارة الجودة الشاملة بما يجعلها ملائمة للاندماج الاقتصادي.

وتأتي أهمية براءة الاختراع في المجال العملي من تثبيت البحث والتطوير ولنشاطات أخرى كالإبداع التكنولوجي والاختراع، وبدقة لا تستطيع المؤشرات الأخرى توفيرها، بالإضافة إلى أن براءة الاختراع تغطي بشكل كلي كافة الأعمال التكنولوجية التي تمثل براءات الاختراع في نفس الوقت مدخلات ومخرجات نشاطات الإبداع التكنولوجي، وعدد البراءات المودعة كل سنة عبارة عن ثمرة الاستثمارات في البحث والتطوير، وهي بذلك تتميز بعدة إيجابيات وأهمها: كونها مصدرا للمعلومات الزمنية والجغرافية والتكنولوجية حول نشاط الاختراع والإبداع

التكنولوجي. وهي مؤشر جيد للبعد التنافسي للتغير التكنولوجي. وتسمح كذلك بكشف خصائص ونشر الإبداع التكنولوجي، وفي نفس الوقت تنشأ حقوق منقولة، وهي تمثل وسيلة لكشف القيمة المستقبلية للجهد التكنولوجي لمؤسسة ما.

واليوم تشغل حقوق الملكية الفكرية أهمية كبري علي الصعيد الوطني والدولي بعد أن انتشرت السرقات الفكرية والعلمية وأهدرت حقوق العديد من أصحاب الإبداع والعلم فهذا العصر يتسم بعصر الإنتاج والإبداع والنشر والتأليف والابتكار ولكن مع هذا الانتشار المستمر تنتشر أيضا العديد من الاعتداءات علي هذه الابتكارات والإبداعات فكانت لأهمية حقوق الملكية الفكرية على المستوي الدولي أهمية ضرورية كبري لحماية الإبداع والابتكار من النهب والسرقة خصوصاً مع تزايد المنافسات الدولية بين الإبداع والابتكار والايدلوجية الجديدة للعالم الحديث.

اليوم تتفاعل وتنمو في جميع نواحي الحياة من خلال البحوث والدراسات والتأليف والابتكار التي تحمل في حناياها فكر وثقافة ولغة وأدب وسياسة ونمط جديد للحياة لذلك فان حماية حقوق الملكية الفكرية أصبحت من الموضوعات الهامة التي تلقي الاهتمام المتزايد إزاء التطور التكنولوجي وتداعياته وبات من الضروري ملاحقة هذا التطور المتسارع في هذا الشأن والاهتمام بحماية حقوق الملكية الفكرية والتصدي لمحاولات الاعتداء عليها باعتبارها من الحقوق التي ترد على ملكية الإنسان لنتاج ذهنه وتفكيره وإبداعاته الفكرية والعقلية. ان الاقتصاد الجديد يقوم على السلع غير المادية ويتعامل بالأفكار وعنصر إنتاجها من المعلومات بديلا عن السلع المادية والأرض والأجهزة والعملات النقدية المباشرة .

ومن هنا يركز الاقتصاد الجديد على الخدمات التي تمثل هذا النمط من السلع غير الملموسة. وأصبحت المعلومات ثروة العديد من دول العالم بل وتمثل اقتصادها الحالي وتشكل ٨٠ % من الدخل الوطني بينما يكون باقي الدخل، والذي يمثل ٢٠ % موجه نحو النفط و الصناعات والسلع المادية الأخرى.

فاليوم تستحوذ الدول الصناعية الكبرى على ٩٤ % من حقوق الملكية الفكرية، وتتلقى سنويا ما يزيد على تريليون دولار من إتاوات براءات الاختراع التي لا تعتمد على مواد خام وعناصر تقليدية بل على القدرات الذهنية والفكرية والإبداعية لأصحابها. ويقدر أن ترتفع تكلفة إنتاج مخرجات الصناعات الهندسية و الإلكترونية في الدول النامية بنسبة ٦٣ % بعد قيام هذه الدول بتسديد حقوق براءات الملكية الفكرية في مكونات هذه الصناعات مما يشكل تهديدا لقدراتها على التطوير والمنافسة وقد نجحت في النهاية الدول المتقدمة بتوصلها إلى حل توفيقي مع الدول النامية على إدراج حقوق الملكية الفكرية المرتبطة بالتجارة ضمن المفاوضات المتعددة الأطراف التي تم التوصل فيها إلى اتفاقية الجوانب أو التدابير المتصلة بالتجارة من حقوق الملكية الفكرية التي دخلت حيز التطبيق في العام ذاته، وشهد مطلع عام ٢٠٠٠ انتهاء الفترة الانتقالية الأساسية المحددة للدول النامية الأعضاء، مما يعني أنها أصبحت مطالبة، اعتبارا من ذلك التاريخ، بالالتزام بأحكام الاتفاقية وتوفير التشريعات الوطنية التي تتسق مع أحكامها.

ومما لاشك فيه أن السنوات المقبلة ستشهد اهتماما متصاعدا بتطبيق اتفاقيات حماية الملكية الفكرية، وتناميا في التوجه نحو تيسير مزيد من الانسجام بين معايير حماية الملكية الفكرية الوطنية بشكل متكامل على المستويين القطري والعالمي، وتعظيم المنافع المتوخاة مع الأعمال، والعمل الدؤوب لتشجيع الابتكار والتجديد ونقل التكنولوجيا على أسس تجارية، وحماية المستهلك بأحكام الرقابة على تجارة السلع المقلدة والقرصنة .

وستعالج المسائل الجديدة الناجمة عن انتشار استخدام التجارة الحديثة، خاصة حالات التعدي على حق التأليف، وسيتطلب ذلك تحديد مسؤولية الشركات في منع التعدي أو التحصين ضده وتعزيز الالتزام بالضوابط التي تحكم المبادلات الإلكترونية وتحقيق حماية الخصوصية والأمن في المعاملات.

يحظى انتشار تكنولوجيا المعلومات باهتمام كبير في جميع أنحاء العالم فأسهمت التكنولوجيا في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما أدى الى حدوث الكثير من المشاكل التي تقف وتعوق هذا الانتشار أثر حماية حقوق الملكية الفكرية على أمن المعلومات فيمكن أن تؤثر حماية حقوق الملكية الفكرية على امن المعلومات في عدة مسائل رئيسية تساعد حماية حقوق الملكية الفكرية على انتشار المعلومات في جميع أنحاء العالم فحماية حقوق المبدعين تحفزهم على نشر أعمالهم وتسويقها في جميع أسواق العالم دون الخوف عليها من الضياع. فخلال العقد الماضي اتخذت إجراءات إصلاحية عديدة لإعادة هيكلة نظام الملكية الفكرية لكي يواكب دورة الحياة المستمرة خاصة أن تكنولوجيا المعلومات آخذه في التطور المستمر.

كانت منطقة الهلال الخصيب من أوائل مناطق ودول العالم الحديث استخداما لهذه الأنظمة والقوانين سواء أكان ذلك بسبب القوانين العثمانية السابقة ام بصدور القوانين للدول الحديثة التي أنشئت على طول منطقة الهلال الخصيب ولكن ذلك السبق لم يعذرها بالتخلف في هذا الميدان فيما بعد عن بقية دول العالم لأسباب داخلية ومحلية وخارجية منها زرع الكيان الصهيوني في قلب منطقتنا وما ولد ذلك من عنف ودمار او بأطماع غربية سمح لها بعض المحليين لدوافع شتى من تحصين الحقوق الغربية بشكل غير عادل من خلال إقرار قوانين تجيز ذلك وبالتالي تطورت تلك المصالح لتكون حقوقا وملكية للشركات الغربية جعلتها فيما بعد بصور مختلفة كما سنرى في الجزء الذي سيتحدث عن العلاقة النفطية والسياسية بالمطالبة بها كجزء من استحقاقات مستقبلية.

لذا نحن هنا نتحدث عن منطقة غير مستقرة منذ قرن من الزمان ولازالت الولايات المتحدة لم تستطع السيطرة عليها رغم كل الإمكانيات المتاحة لها طوال الفترة الماضية والتي توجت بجيش قوامه ١٥٠ الف من الجنود النظامين ومثلهم من المرتزقة لتواجه نوع جديد من التحدي المحلي تمثل بالمقاومة العراقية في ادارة معركة صراع الإرادة في العراق.

ونتيجة لذلك بعد مضي سنوات طويلة من الصراع الدامي على أرض الواقع والعلاقات المصنوعة بعناية كبيرة مع القادة المحليين، اصبح الجيش الامريكي يمتلك

ثروة المعلومات حول المجتمع والسياسة المحلية بدلا من الخارجية والديبلوماسيين. وهذه المعرفة وهذه العلاقات ستكون هي الحاسمة بالنسبة لدور الولايات المتحدة في المستقبل العراقي وسيكون التحدي أمام الادارة الأمريكية في ادارة الصراع بالوسائل السابقة الذكر من الوسائل الديبلوماسية ام بعقل العسكري المحترف من ضباط الجيش من المستوى العالي والمتوسط والذين لديهم الاتصالات في جميع أنحاء البلاد في الصراع المباشر مع التحديات الداخلية.

وبعد لا يمكن لاستراتيجية الولايات المتحدة أن تكون فعالة في دول دائمة الصراع بسبب عوامل داخلية وخارجية كثيرة ولكن إذا نظرنا الى التاريخ السياسي العالمي الحديث سنجد ان تاريخ الدول التي خرجت بعد الصراعات تشير إلى أن العراق سوف يكتسب قوة سياسية وتماسكا، وسيكون له فرصة أفضل لتجنب تجدد الانقسامات والحرب الأهلية.

ومع ذلك لم يتحول العراق بعد إلى مجتمع ما بعد الصراع الحقيقي. فالهجمات المتواصلة من جانب المقاومة سيرسخ المزيد من الطائفية كعامل في السياسة العراقية والمجتمع، إذا ان المقاومة لبست بشكل ثابت لون معين في حين ارتضى قسم من الشعب العراقي العيش كيفما كان في ظل الاحتلال ولهذا فسيكون لدى المقاومة القدرة على إثارة العنف إلى أبعد من ذلك حتى التحرير الكامل.

طبق واضعوا السياسات حلولا اليوم لمشاكل الأمس في الشرق الأوسط. ولكن الشرق الأوسط ليس كما كان عليه قبل قرن من الزمان، ويتعين على الجميع ان يدركوا ان هناك انقسام بين المعسكر المعتدل الموالي للولايات المتحدة وبين محور المقاومة وعليه ان يأخذ في الاعتبار الديناميكيات في المنطقة المتغيرة بسرعة.

النمط المألوف وعلى مدى عقود كان الغرب يلعب مع منطقة راكدة لكن منطقة الشرق الأوسط اليوم تتطور بشكل أسرع وأقل توقعا من تصور صانعي القرار في الغرب.

وكقاعدة عامة فهمت الولايات المتحدة والحكومات الأوروبية في نهاية المطاف من الأخطاء، ولكن في الوقت متأخر من الإدراك لذلك فإن التعديلات التي تلت ذلك في مجال السياسة في نهاية الأمر عفا عليها الزمن وكانت غير فعالة.

في أعقاب الحقبة الاستعمارية، نشأت الحركات القومية العربية واستولت على السلطة في منطقة الشرق الأوسط وتجاهلت أوروبا التحدي الذي تطرحه أو كيفية التعامل معها وبحلول الوقت فهم الغرب أهمية وشعبية هذه الحركات، بينما طاقة أوروبا القومية تلاشت منذ فترة طويلة، وأصبحت ذات سمعة ملوثة بشكل لا يمكن إصلاحه عن طريق وصمها بالاستعمار. لذلك كان اتجاه الغرب في اعتماد سياسات الشرق الأوسط التي لم تعد محلية وبدأت الحياة السياسية تعاني من الافتراضات الخاطئة حول ميزان القوى الإقليمي.

مستقبل الادوار الخارجية في صياغة مستقبل المنطقة

بعد هذه السنوات الطويلة من التدخل والاحتلال لبلادنا يتولد قدرا كبيرا من التأمل في مسار العلاقة بين الشرق والغرب وتكرار لخططها بكيفية التعامل مع الحرب الدائرة والخطط الحالية والمستقبلية للمنطقة أكثر من التعرف إلى الأسباب والدوافع لتبرير قرارات خاطئة. إن مواجهة الصراع العسكري من منظور السياسة الخارجية وإنهاء الاحتلال من شانه أن يسمح بمزيد من الفعالية في مواجهة التهديدات التي تعكس الواقع الجغرافي والسياسي والاستراتيجي للعراق .

قضت الحدود التاريخية والجغرافية بأعراف وممارسات موحدة وحددت مهام ومسؤوليات لشعب منطقة الهلال الخصيب لتطوير استراتيجيا خاصة تمكنهم من الاستمرار بشكل أوسع لمواجهة التغييرات في السياسة الدولية والقيام بما يلزم لإعادة تقييم المراحل السابقة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى يومنا هذا.

فالولايات المتحدة كانت على استعداد تام لكافة تلك المراحل التاريخية التي مرت على المنطقة وكانت تتمتع بالقدرة على القيام بعملية الانتقال في التعامل مع المتغيرات بشكل سريع وبما يلائم مصالحها واستمرار وديمومة مشاريعها ومصالحها في المنطقة وصلت في أحيان كثيرة إلى اتفاقات طويلة الأجل مع الحكومات المحلية تعتزم فيها تشكيل العلاقات القانونية والاقتصادية والثقافية والأمنية بينهما.

من الناحية التاريخية، فان الإطار الذي حدد كيفية مستقبل الدور الأمريكي في المنطقة وملخص السطحية أو الرؤية المرتجلة للأحداث في المنظور الأمريكي ضمن لمؤسسة السياسية العامة في الولايات المتحدة نجاح نظام المصالح الضيقة الخاصة بها في منطقة غير مستقرة من نواحي عدة وتواجه تحديات محلية وإقليمية وعالمية .

فالخلافات المحلية هي بالتأكيد مهمة جدا لكنها ليست أهم المشاكل السياسية، فمن نواح عديدة هناك المشكلة الأكبر وهي عدم النضج للنظام السياسي في المنطقة والصراع على السلطة الذي حدث طوال قرن من الزمن والأبعد من ذلك، كانت حدود السلطة الأمريكية والاتجاه الأمريكي السائد وبشكل متزايد نحو التركيز على الموارد والسيطرة واحتكارها إلى جانب تحديد السلطة هناك. وكما هو الحال في الشرق الأوسط دائما، فإن الوضع في غاية التعقيد فالتنافس على النفوذ وعدم السعي لمعرفة كيفية التعامل مع المتغيرات العالمية ومن جانب آخر ظهور عناصر عدم

الاستقرار بسبب تغير التركيز على القضايا الأساسية للبناء الحضاري والتي ستكون في غاية الأهمية لتطوير السياسة العامة للمنطقة فالمسألة الأهم هي ما إذا كنا قادرين على معرفة حقيقة شعبنا والأبعاد التي يمكن أن تصلها الشعوب والمدى لكي يكون الظهور أهم عامل يبحث عن تعبير جديد لما هو في مصلحة الشعوب والاتجاه الوطني.

لقد بدا واضحا أن القرن العشرين كان متعدد الأقطاب. ولكن بعد ٥٠ عاما تقريبا، وبعد حربين عالميتين، وكثير من الصراعات الصغيرة، برز نظام القطبية الثنائية. وبعد ذلك مع نهاية الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفيتي، ألقيت الثنائية القطبية وأضحت أحادية القطب وهو النظام الدولي المهيمن على العالم كقوة واحدة، وفي هذه الحالة كانت الولايات المتحدة. فالعالم اليوم يختلف اختلافا جذريا عن كلاسيكية تعدد الأقطاب: فهناك العديد من مراكز القوى وبالتأكيد لم تكن بلاد الهلال الخصيب واحدة منها، فعدد غير قليل من الأقطاب هذه ليست من الدول القومية.

وفي الواقع فان واحدة من السمات الأساسية للنظام الدولي المعاصر هو أن الدول القومية فقدت واحتكرت السلطة في بعض المجالات كأولوية أيضا. ويجري تحدي ذلك من جانب المنظمات الإقليمية والعالمية؛ وكذلك من جانب الميليشيات ومن مجموعة متنوعة من المنظمات غير الحكومية والشركات. فهناك العدد الكبير من المنظمات ستكون على لائحة مراكز قوى، بما فيها تلك التي تعتبر على الصعيد العالمي (صندوق النقد الدولي، ومنظمة الأمم المتحدة، والبنك الدولي)، والإقليمية (كالاتحاد الإفريقي، وجامعة الدول العربية، ورابطة دول جنوب الأمم الآسيوية، والاتحاد الأوروبي، ومنظمة الدول الأمريكية، ورابطة جنوب آسيا للتعاون الإقليمي)، وتلك التي تؤدي وظيفتها (كوكالة الطاقة الدولية، منظمة البلدان المصدرة للنفط، منظمة شنغهاي للتعاون، ومنظمة الصحة العالمية). كذلك أيضا، الدول في إطار الدول القومية، مثل كاليفورنيا وولاية اوتار براديش في الهند، والمدن، مثل نيويورك، ساو باولو، وشنغهاي. ثم هناك شركات عالمية واسعة النطاق، بما فيها تلك التي تسيطر على العالم من الطاقة، والمالية، والصناعة التحويلية. كذلك يمكن إدراج الكيانات الأخرى التي تستحق إن تكون كمراكز للقوى كوسائل الإعلام العالمية (الجزيرة، بي بي سي، سي ان ان)، والميليشيات (حزب الله، جيش المهدي، وحركة طالبان، وهناك الأحزاب السياسية والمؤسسات الدينية والحركات والمنظمات)، وكارتيلات المخدرات، والمنظمات غير الحكومية الأكثر اعتدالا كمؤسسة بيل وميليندا غيتس، أطباء بلا حدود، منظمة السلام الأخضر.

ومن الناحية التاريخية، كانت هناك لحظات في تاريخ الشعوب والنظرية الواقعية التقليدية من شأنها أن تتنبأ وتفجر عوالم متعددة الاتجاهات. ووفقا لهذا الخط من التفكير، فان الدول الكبرى، عندما تتصرف كما هي متعودة على القيام به، في تحفيز المنافسة مع الآخرين سيشوبه الخوف أو انه سيستاء منه، وحتى لمجرد الاشتراك في هذه النظرية، لكن مما لا شك فيه إن تعدد الأقطاب الذي سيأتي في الوقت المناسب.

لقد وضع مؤرخو السياسة العالمية ثلاثة شروط كمساعدة ناجحة لأي احتلال خارجي في أية منطقة من العالم وطبقته الولايات المتحدة في احتلالها العراق:

الأمر الأول: التوصل إلى فهم مشترك من قبل كل من الدولة المحتلة والشعب المحلي إلى أن الاحتلال هو أمر ضروري. ففي الحالات التاريخية التي تجمع بين ذلك نجد حالة اليابان وألمانيا حيث توصلت شعوبهما إلى الاستنتاج بأن الاحتلال الأجنبي ضروري لوضع حد للحرب والعنف.

أما الأمر الآخر فان البلد المسيطر عليه يجب أن يدرك أن الاحتلال الأجنبي الحاسم أمر ضروري أمام التهديد الخارجي أو الداخلي أو الإقليمي الوشيك. ففي حالتي ألمانيا واليابان كان ينظر إلى التهديد السوفيتي كحقيقية تهدد بعدم احترام سيادة البلدان لذلك سيكون عامل الاحتلال الغربي هو عامل الاستقرار الضروري لمنع ذلك.

أما الأمر الثالث فيجب أن تكون هنالك مصداقية لهذا الاحتلال سواء من حيث المبررات ومصداقية للتنمية في الوقت المناسب. وإذا استوفيت هذه الشروط الثلاثة ، فان هذا الاحتلال لا يمكن له إلا أن ينجح في إقناع السكان بعدم مقاومته وهذا ما كان طوال القرن الماضي من تدخلات غربية واحتلال لمنطقة الهلال الخصيب.

ولعل التحدي المتمثل في استراتيجيات التدخل الغربي في المنطقة تعد اليوم من أهم السياسات المتعلقة بشؤون الدفاع والسياسة الأمنية في الدراسات الاستراتيجية التي تنشر على كافة الصعد لمراكز الأبحاث والدراسات العالمية في هذا الوقت. وربما تكون تقارير فرق التخطيط الأمريكية وإيجاد الهدف من التحول في السياسة الأميركية هو أهم سبب علني موجه ضد الوهم الذاتي والضعف العسكري، والتهديد للسلام اليوم الذي تواجهه القوات والوجود الأمريكي في المنطقة.

اذا أردنا أن نبين الفوضى العقلية السائدة في مراكز البحث والدراسات الأمريكية حول مستقبل المنطقة بعد الفشل الاستراتيجي الذي تواجهه اليوم الإدارة

الأمريكية والدول الإقليمية المجاورة والمشاركة بالغزو الأمريكي لبغداد وبعد أكثر من ستين عاما من زرع كيان مغتصب على ارض فلسطين... بعد هذا التاريخ الطويل والحافل بالكثير من المعرفة والمعلوماتية لجميع التفاصيل الحياة المختلفة في المنطقة. لقد تعددت أسباب وصور هذا الصراع والفشل الأمريكي في المنطقة وبعد أن فقدت أمريكا أيضا السلطة المعنوية وقواها الناعمة في المنطقة وبحلول الوقت الذي بدأت الحرب كانت مصداقية أميركا في الحضيض في الشرق الأوسط وفي العديد من البلدان في المنطقة بسبب عدم التوازن والإنصاف في سياستها الخارجية تجاه هذه المنطقة.

ولكن يحق لنا هنا التساؤل عن ماهية هذه المعركة التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية على الأرض العراقية. فالعراقيين يجدون وحتى هذا اليوم صعوبة الفهم في جوهر هذه المعركة وهل تستحق كل هذه التضحيات والخسائر وفي بعض المؤسسات السياسية في الولايات المتحدة صعب عليها فهم الأساس المنطقي وراء تبرير الاحتلال واستمرار الحرب. فمنهم من وصفها بأنها "حرب من أجل النفط ،" البعض سماها "الحرب الاستعمارية" وآخرون أطلقوا عليها "الحرب بين الخير والشر" ولكن ما هو واضح هو أن المخططين للحرب قد تجاوزوا طموحات التخلص من حاكم بغداد. وكانت الإيديولوجية المتقنة والتي كانت معظم الإدارة الأمريكية تتطلع لإقامة نظام عالمي جديد وخريطة جديدة في الشرق الأوسط بعد كل هذا التاريخ الطويل والحافل في هذه البلاد.

فأمريكا لم تقف من اجل الديمقراطية في الشرق الأوسط في الماضي ولا في الوقت الراهن في ظل هذه الإدارة أو سواها، على الرغم من الخطب الرنانة لان العملية والنتائج والكلف لا يمكن التنبؤ بها لهذا البلد. والديمقراطيات في الشرق الأوسط تاريخيا ليست صديقة للولايات المتحدة على الأقل في البدايات وليس من الحكمة لواشنطن أن تدفع تكاليف هذا عاجلا وليس آجلا. فأمريكا هي أكثر اهتماما في التعامل مع النظام الاستبدادي في الكويت بدلا من الديمقراطية في تركيا أثناء هذا الصراع.

لقد جلبت الحرب والاحتلال للشعب العراقي وللشرق الأوسط الدمار وعدم الاستقرار والتدمير الواسع النطاق من الحرب المعلنة بدأ من نهب المتحف العراقي في الأيام الأولى للاحتلال إلى ما امتد إلى التدمير الكامل للمدن الكبرى في العراق لا سيما بغداد التي تم تطهيرها عرقيا تماما. هذه البلاد التي حرصت الوثائق التاريخية لدخول المصالح الأمريكية إليها من اجل التنمية.

فواشنطن قد تجاهلت كليا الرأي العام العراقي في هذا الصراع وهي مقصرة في هذا الأمر تجاه تجاهلهم المسؤولية الأخلاقية والمعنوية للعراقيين في هذا الصراع، واستمرار الأخطاء الأمريكية في العراق سيحددان بالتأكيد الخطوات المستقبلية التي ستقوم به الإدارة الأمريكية تجاه العراق.

وحيلة الولايات المتحدة في العراق لم تقف عند هذا الحد ولابد لنا من الاعتراف أن المخطط الاستراتيجي الأمريكي نجح في العراق وعلى الأقل في تعزيز مفاهيم جديدة أدت إلى تغير في قناعات الرأي العام العراقي بشكل كبير تجاه الوجود الأمريكي في بلاده، ومن ذلك برزت قناعات جديدة بان الاحتلال والتهديد الإيراني على العراق هو اشد ضررا وتدميرا في العراق من التهديد والوجود الأمريكي الغير دائم فيه وهذا ما أدى إلى تخلي البعض عن مقاومة المحتل الأمريكي والتوجه نحو الوقوف خلف الوجود الأمريكي العسكري لمواجهة التهديدات الإيرانية وهو ما شابه الحالة في ألمانيا بعد الحرب تجاه التهديد السوفيتي آنذاك.

والذي زاد من ذلك السياسة الباردة الأمريكية الجديدة تجاه إيران من التهويل الكبير للخطر الإيراني وتوسيع نفوذه وحالة الحرب واللاحرب مع إيران والتي ستعيدنا إلى أجواء الحرب الباردة التي استمرت أكثر من خمسين عاما، ولعل هذا السيناريو يتكرر في العراق بعدما فشلت سيناريوهات كثيرة رسمت في العراق خلال سنوات الاحتلال السابقة ولذلك ستكون سلطات الاحتلال هي عامل الاستقرار الضروري لمنع التوسع للنفوذ الإيراني في العراق والمنطقة. إن مصداقية الاحتلال اليوم قد تغيرت أو في طريقها إلى التغيير فبعد محاولات الاعتذار غير العلنية عن السياسات السابقة الفاشلة جرت محاولات لتغيير قناعات في مصداقية الاحتلال من خلال تغيير وجوه الإدارة الأمريكية كفرصة جيدة لمراجعة بعض القرارات المهمة كجدولة لانسحاب القوات وغيرها لتجعلها مناسبة لبقاء طويل للقوات الأمريكية المحتلة لسنين أخرى.

وبعد هذه السنوات الطويلة من التدخل والاحتلال الأمريكي في بلادنا يتولد قدرا كبيرا من التأمل في مسار العلاقة بين الشرق والغرب وتكرار لخططها بكيفية التعامل مع الحرب الدائرة والخطط الحالية والمستقبلية للمنطقة أكثر من التعرف إلى الأسباب والدوافع لتبرير قرارات خاطئة. إن مواجهة الصراع العسكري من منظور السياسة الخارجية وإنهاء الاحتلال من شانه أن يسمح بمزيد من الفعالية في مواجهة التهديدات التي تعكس الواقع الجغرافي والسياسي والاستراتيجي للعراق .

تفكير نمطي لحلول مطروحة

- هل من الممكن ان تستمر العملية السياسية الحالية بوضعها المحاصصة الطائفية لعشر سنوات مقبلة في ضوء المعارك القادمة ذات الوجوه المختلفة لها وبالتالي ستستمر التقسيمات الطائفية والعرقية للبلد واستمرارية الدولة الهشة المصدرة للنفط.
- ما هي فرص نجاح التغيير وجعل استمرارية العراق كدولة ناجحة ومستقرة وغير فاشلة للعشر سنوات المقبلة في ضوء التغييرات في المنطقة. الثورة في سوريا وتغيير الانظمة الجمهورية العربية.
- هل الالتزام بالقيم الديمقراطية كفيل باستمرارية العراق كدولة واحدة؟ ام يكون المستبد العادل هو خلاص هذه الامة
- كيف يمكننا من صنع نهاية لحرب العراق من خلال الوصول الى حل مع الادارة الامريكية الحالية

في الاعراف والممارسات الفكرية نبحث دوما عن حلول وافكار جديدة تبتغي الحل ولكن بطبقات فكرية لا تتسع للجميع ادراكها او معرفة قيمها. ومما يؤسف له ان الاتجاه الفكري السائد يتجه نحو ما يشبه نظرية القطيع حيثما يتجه بعض رؤوس الناس ايا كانت مناصبهم بافكارهم فان مجموع " القطيع" يتجه نحوه وبالتالي يتم اسقاط جميع المعارف والقوانين الصالحة لتكون مناسبة لراي راس القطيع. اننا نرى هذه النظرية سائدة بقوة في الاسواق المالية واهل الاقتصاد اكثر الناس خبرة بها ولان عموم الافكار والحلول المراد انجازها اليوم اصبحت عرضة للعرض والطلب فاننا نورد هذا المثل لتسليط الضوء على شكل الازمة الحالية التي تعصف باهل السنة في العراق والشام.

ان الثنائية في الحلول والتي عممها اهل الاسلام واسقطوها في السياسة العامة "اما او" ... وكان العقل البشري يعجز من ايجاد اي حل ثالث. حتى وان وضعنا خيارات كثيرة ولكنها بالاساس متعلقة بـ "اما او" جعلت من دوائر الفكر عاجزة من التخطيط والتفكر الصافي الخاص.

بمعنى حينما نستقبل الافكار الاخرى سنكون اما قابلين وعملاء لها او رافضين ومسحوقين ضدها وبالتالي منعنا تفكيرنا من ايجاد السبيل الخاص والمحلي.

كذلك ادى هذا النمط من التفكير الى التصريح بكل ما في قلوبنا من خير لهذه البلاد استنادا على ادلة واضحة وصريحة وبهذا خالفنا اهم قواعد السياسة العامة بعدم التصريح بالاهداف لاي سبب كان. من هنا نطرح افكارا للحلول تكون بمجملها لا تتبع لمنطق الرفض والقبول على اسس خارجية منها او داخلية. فماذا لو اتبع اهل السنة في العراق والشام استراتيجية التنمية كسلاح بدل القوة المسلحة والمواجهة او

التقسيم والوحدة. وتكون اهداف هذه الاستراتيجية ورسمها لا تتبع التفكير النمطي للحلول المطروحة.

بمعنى ان تكون اهدافنا مرحلية. ولمدة زمنية معلومة قدرها الخمس سنوات القادمة وتكون محصورة بالمنطقة السنية في الهلال الخصيب. وتبدأ هذه الاستراتيجية بنقطة انطلاق محددة وهي اعلان المؤتمر الوطني لسنة العراق وتنتهي بهدف محدد هو ان يكون معدل دخل الفرد السني في المنطقة بعد خمس سنوات ٢٠٠٠٠$.

كثير سيجادلون ان مشكلتنا ليست اقتصادية وانما تتعلق بالكرامة والهوية والوجود واجادل ان هذه الاستراتيجية ليست لعموم اهل السنة ولكن لطائفة منهم بمعنى من رضي بحمل السلاح فهو خياره ومن رضي الحوار والمهادنة والسياسة مع الاخرين فهو خياره ايضا وان كان كل طرف من هؤلاء يرى المصلحة لاهل السنة في خياره دون سواه. لكنني ازعم وامل في مرحلة ما سيتوافق الجميع نحو العمل الواحد وبعد سنين خمس. خاصة اذا اعتمدنا سياسة الخطوط المتوازية لمستويات متعددة بدل الخطوط المتقاطعة لناشطينا.

بمعنى ان اهل السبق بالمقاومة المسلحة يرون انفسهم اولى بالصدارة لاي مجال عام بينما الذين دخلوا في المجال السياسي غير مستعدين بالمرة للتخلي عن كراسيهم ومكتسباتهم التي حصلوا عليها. ومن هنا فان التقاطع سيكون له الاثر الكارثي بين المجتمع السني الواحد وهنا فقط تبرز اهمية الخطوط المتوازية للعمل.

تتلخص اهداف هذه الاستراتيجية باختصار بعد انجاز الهدف الاول منها وهو مشروع المؤتمر الوطني لسنة العراق وبقيادة شابة كي لا تتحمل وزر تبعات السنوات السابقة التي تحمل بها رموز اهل السنة المعاصرين، بانجاز الهدف الاخر وهو تنظيم المجتمع السني من خلال صناعة تيارات ومنظمات وجمعيات ونقابات على اساس المصالح الفردية لكل فرد سني وبحسب مهنته وصناعته وتتوزع على النساء والرجال على حد سواء وبدون اي تدخل سياسي لاي نشاط. وبالتالي سيساعد ذلك على انجاز الهدف الثالث المتمثل بالبدء بالتنمية الزراعية والصناعية والاقتصادية بشكل فردي من خلال التجمعات اعلاه ويضاف اليها مفهوم المقاطعة الاقتصادية. مما سيساعد على انجاز الهدف الاخر وهو البدء بالمشاريع التنموية الاستراتيجية السنية كمشاريع السكك الحديدية والطرق البرية الرابطة بين المناطق السنية المختلفة مع الراعي لها واستغلال الموارد الطبيعية في مناطقنا وتكون بداية انجاز للسوق الاقليمية المشتركة العابرة للحدود من حيث الانتاج والتوزيع لراس المال والادارة والاستهلاك. الوصول الى الهدف النهائي السابق ذكره من خلال التنمية الشاملة لجميع جوانب الحياة الاقتصادية والثقافية والادارية مع اعتبار المكان بمعنى ما يصح لاهتمام اهل المدن والحواضر لا يصلح لأهل الريف وبالعكس واذا ما اخذنا طبائع الرجال والنساء فيهما.

وتجارب الامم الاخرى وان كانت بصور مختلفة لكن اساسها كان مبنيا على مثل هذه الافكار تجعلنا واثقين من نجاحها خاصة اذا ربطنا هذه الاستراتيجية باخرى متوسطة الامد تعتمد العمل السياسي بشكل كبير لتحقيق منجزات هذه الاستراتيجية.

المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث اذ تقدم هذه الافكار بين يديكم فانها على يقين من ان تكاملها والجهود التي يقوم بها المخلصون ستوصل بالتأكيد لبلوغ ما تطمح اليه شعوب المنطقة. والمؤسسة على يقين من ان هنالك الكثير من الخطط والاحلام التي ترسم من قبل من يهمهم امر المنطقة على اختلاف اهدافهم لكنها مستعدة لاحتضان تلك الافكار الصالحة وتقديمها بصورة لائقة خدمة لابنائنا وسعيا لتحقيق السلام والاستقرار لمنطقتنا.

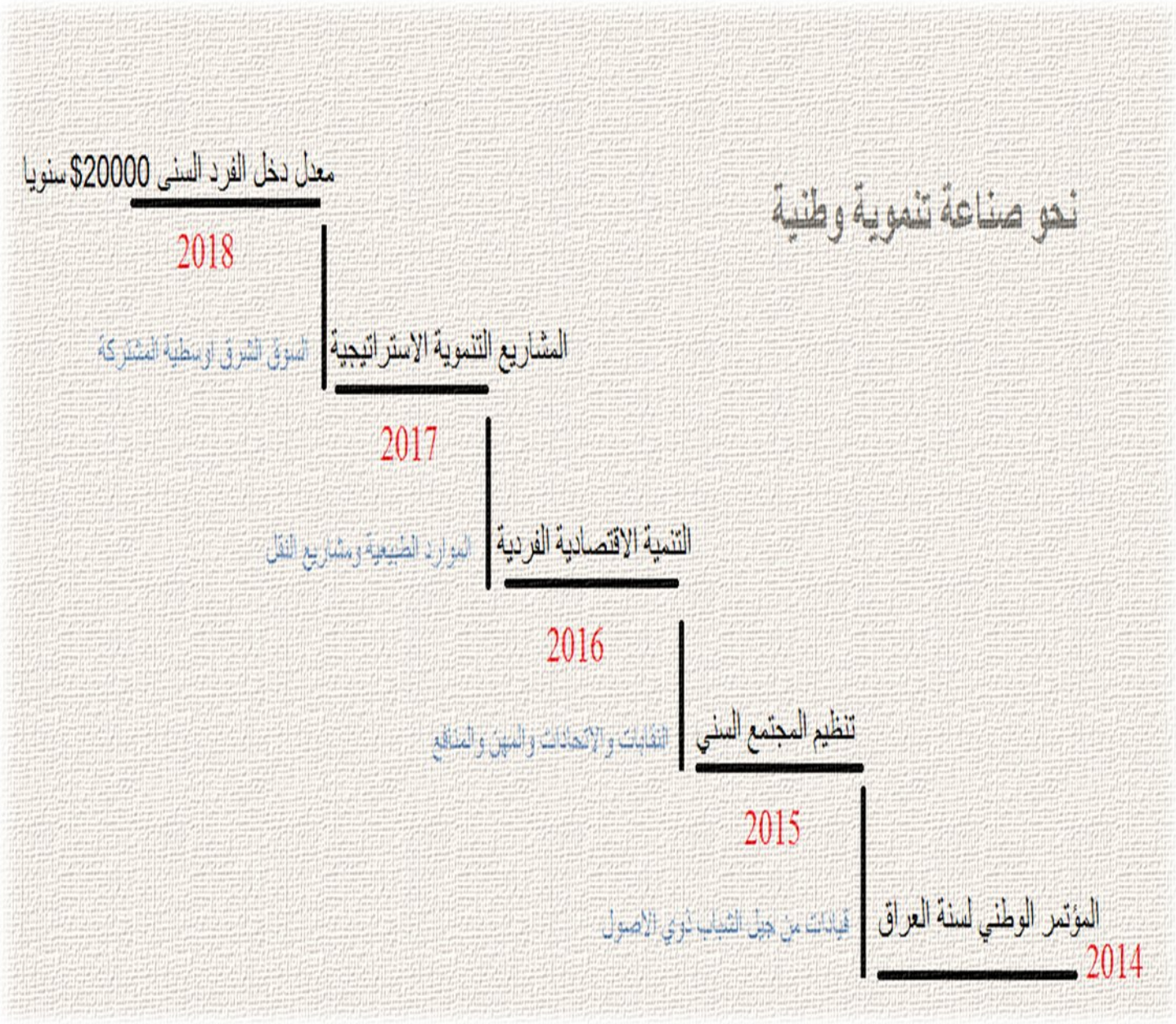

السياسة العثمانية تجاه شيعة العراق

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

عاش عدد كبير من الشيعة الناطقين بالعربية في المحافظات العراقية بغداد والبصرة. والعدد الدقيق لهؤلاء الشيعة ليس واضحا اذ ان الحكومة العثمانية لم تقم بأية إحصاءات من هذا القبيل.

علاوة على ذلك، وطوال القرن التاسع عشر، فانه لا يبدو أنه كان هناك نمو لهذه الطائفة السكانية الشيعية على حساب الاغلبية السنية، وكان وجود أعداد كبيرة من الشيعة ومتنامية من السكان في العراق يمثل مشكلة سياسية خطيرة للسلطات العثمانية، اذ كانت الإمبراطورية العثمانية دولة سنية، وكان لا يمكن لها من الوثوق برعاياها من الشيعة. ومن حيث المبدأ، لم يعترف الشيعة بالمطالبة العثمانية بحيازة الخلافة الإسلامية العظمى، وهو ما ادعاه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) الذي شدد مرارا وتكرارا، على محاولة إضفاء الشرعية الدينية لنظامه.

والمشكلة أيضا لها أبعاد دولية. فالعراق يحده إيران، وهي دولة شيعية كانت تدعي المرجعية الشيعية التاريخية والدينية فيها، وخلال قرون، كانت تخوض حروبا كثيرة مع الدولة العثمانية للسيطرة على العراق. وحتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حينما كانت الدولة العثمانية ضعيفة دوليا، بقي شعور قوي بأن ايران تشكل تهديدا عسكريا، وخصوصا في حال وقوع الغزو الروسي للأناضول.

بالإضافة إلى ذلك، كانت مسألة ترسيم الحدود العثمانية وإيران مصدرا دائما لعدم الاستقرار وايضا موضوع ثابت للاتصالات بين العراق وايران. فالعراق يضم أقدس الأضرحة الشيعة، وتقع في النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية، التي تعرف مجتمعة بالعتبات.

في القرن الثامن عشر، أصبحت العتبات مركزا للأصولية الشيعية ومدارس للفقه الشيعي، والتي صنعت دور سياسي للعلماء الشيعة، وإبقاء تفوق العتبات كمركز للسلطة الدينية لجميع المجتهدين الشيعة.

فالعدد الكبير من الطلاب الذين أقاموا ودرسوا في هذه العتبات كان لهم دور مميز في احتجاج التبغ ١٨٩١-١٨٩٢، وبعد ذلك في ١٩٠٢ ، وخصوصا دورهم خلال سنوات الثورة الدستورية الإيرانية (١٩٠٥-١٩١١) حيث اشترك مجتهدو العتبات وشاركوا بنشاط في السياسة الإيرانية. بالإضافة إلى ذلك هناك التجار والحجاج. حيث في كل عام هناك عددا كبيرا من الناس من إيران، والهند، يزورون المدن المقدسة في العراق أو لدفن موتاهم في هذه العتبات.

وكان لبريطانيا، أيضا، صلات مع العتبات. ليس فقط من خلال زيارة العديد من الشيعة من رعايا الهند البريطانية الى العتبات، ولكن الروابط المباشرة للحكومة البريطانية مع المجتهدين الشيعة من خلال تركة العود. حيث كانت هذه التركة والتي أنشأها الملك عود من الهند، تنص على التوزيع السنوي من الصدقات لأغراض

خيرية للعتبات. وبعد ضم الحكومة البريطانية للهند في ١٨٥٠، كانت السيطرة على تركة العود وتنفيذ الوصية قد أجريت على أيدي القوات البريطانية، فكان التوزيع السنوي للأموال من قبل القنصل العام البريطاني في بغداد، من خلال اثنين من المجتهدين المختارين واحد في النجف وواحد في كربلاء.

وبالنسبة لهؤلاء المجتهدين، كانت التركة مصدرا رئيسيا من مصادر النفوذ والهيبة المحلية، وبشكل غير مباشر، وكانت قناة محتملة للنفوذ البريطاني، اضافة الى انه كانت هناك أيضا صناديق أخرى، من إيران والهند، والتي تم التبرع بها إلى العتبات. فالحكومة الإيرانية، على سبيل المثال، قدمت منحا سنوية للأضرحة في كربلاء والنجف والكاظمية. ولهذا يتمتع العلماء الشيعة بالرخاء والثروة العظيمة من خلال وصية العود والهبات الأخرى، ولذا فهي تمارس نفوذا كبيرا في العراق، وخصوصا بين القبائل.

و يبدو أنه من خلال المدارس الدينية الشيعية في المدن، ومن خلال الملالي الشيعة الذين كانوا يتجولون بين السكان القبليين فان الطائفة الشيعية بدأت بالتوسع في المنطقة. نظرا لحقيقة أن المجتهدين بدأوا بتوزيع مبالغ مهمة من المال لطلبة المدارس الدينية وخصوصا من الفقراء منهم، كما أنهم بدأوا بتوزيع المال لبعض من رجال القبائل ولا سيما تلك التي استقرت حديثا، وكذلك الى بعض سكان البلدات الصغيرة. ومن ناحية أخرى، هناك بعض أدلة على وجود انخفاض في المؤسسات الدينية السنية في العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. نتيجة لسياسات التنظيمات المركزية، وسحب الإيرادات من أراضي الوقف التي كانت معتمدة لصالح المدارس الدينية السنية والعلماء الى الحكومة. وترتب على ذلك تخفيض الحصص المالية وهذا يعني إضعاف المؤسسة الدينية السنية.

لقد كان معروفا نمو التشيع في صفوف أبناء القبائل إلى الباب العالي قبل فترة عبد الحميد، ورغم أنه لم ينظر إليها بالجدية خلال فترة حكم مدحت باشا للعراق (١٨٦٩-١٨٧٢)، لكن كان من الواضح أن هناك مشكلة لإثارة قلق بالغ من جانب السلطات العثمانية ويبدو أن هذا القلق سرعان ما هدأ، وابدت الحكومة العثمانية القليل من الاهتمام لهذه المسألة، فعلى سبيل المثال، يذكر أن عدد قليل من التقارير حول الشؤون العراقية المقدمة للسلطان عبد الحميد قبل ١٨٨٥ تذكر المشكلة الشيعية. لكن من عام ١٨٨٥ فصاعدا، تغير الموقف، حيث أكدت التقارير استمرار نمو التشيع في المنطقة. وكل هذه التقارير أزعجت النظام الحميدي.

ففي أواخر ١٨٨٠ دفع القصر إلى الشروع في دراسة جادة للشيعة وقد اتخذت تدابير مختلفة من أجل قطع الطريق على النمو الشيعي. وتم ارسال عدد من اللجان للمنطقة وطلب من المسئولين المحليين كتابة تقارير مفصلة حول هذا الموضوع، واتخذت بعض الخطوات في مجال التعليم. اضافة الى ذلك، بدا ان هناك شيئا جوهريا سيبدأ من خلال جهد السلطان عبد الحميد حين سمح ببدء مناقشة فكرة التقارب بين السنة والشيعة وإيجاد حل طويل الأجل للمشكلة الشيعية في العراق.

في أواخر اب ١٨٨٦، استشار عبد الحميد الشيخ ميرزا حسن الريس، وهو منشق إيراني مهم، ويقيم في اسطنبول، من خلال اثنين من المقربين له، جودت باس

ويوسف رضا، ووفقا لهؤلاء فان الشيخ الريس ابدى كل الميل والرغبة لاقتراح السلطان (في إزالة العداء بين الشيعة والسنة)، ويبدو ان عبد الحميد طلب أيضا أن يقوم جودت باس ورضا، بإعطاء الآراء الخاصة بهم في تقرير وهو، الباحث الشهير ووزير العدل السابق حيث قاما بالدعم الكامل لقضية التقارب بين السنة والشيعة. وأوضحا أن التطور التاريخي والوضع الحالي للطائفة الشيعية، يوجب وضع فكرة الوحدة بين السنة والشيعة والتحالف بينهما والاتحاد ضد "الطغيان وسيادة الدول المسيحية" من خلال السلطات المعنية للخليفة والمجتهدين الشيعة .

وجادل جودت باس، أنه يجب توافر ثلاثة شروط:

أولا: قبور ال البيت من الأسرة النبوية في المدينة المنورة، التي تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة للشيعة فانه لا بد من إصلاحها، ويجب أن ترسل الهدايا لهم.

ثانيا: يجب المساواة في الاجر بين المجتهدين الشيعة في العتبات مع نظرائهم من السنة، في الإمبراطورية العثمانية.

ثالثا: ينبغي تنفيذ بعض الأشغال العامة للعتبات.

في تقرير آخر مؤرخ وغير موقع، يشجع التقرير السلطان للتوصل الى تفاهم بين السنة والشيعة. فبعد إعطاء الخلفية التاريخية وشرح المبادئ الأساسية للطائفة الشيعية، يصف يوسف رضا باس، العلاقة بين العلماء الشيعة وحكم سلالة قاجار، ودور علماء الدين في الحياة السياسية في إيران. ويذكر أن المجتهدين "كان لهم تأثير بألف مرة وأكثر فعالية من تلك التي يتمتع بها الشاه في إيران ولهذا السبب كان الشاه يحاول إصلاح المقابر المقدسة في العتبات، وبسبب معارضة المجتهدين فان الروس لا يمكن لهم من تنفيذ القوانين الأوروبية في ايران. وجادل التقرير بأن معظم المجتهدين اذا ارادوا ان يعيشوا في ظل الإمبراطورية العثمانية، فانهم سيتمكنون من ذلك بمجرد الإشارة، وجعل الناس يقومون بالثورة ضد الشاه في ٢٤ ساعة، وإجبار الدولة الإيرانية ما يريدون.

حتى الروس، يدركون جيدا للغاية قوة العلماء المجتهدين في إيران، حيث كانوا يرسلون لهم الهدايا، و يتم تكريمهم بطرق مختلفة، من أجل التأثير في الشؤون الايرانية وفي نفس الوقت الحفاظ على هدوء السكان الشيعة في داغستان.

وبحسب رأيه، فأنه على الرغم من أن الخلاف بين السنة والشيعة قديم جدا، لكن لم يكن هناك أي عداء لمنع وحدتهم في سن مبكرة من الإسلام. وكانت الظروف السياسية هي التي أدت إلى العداوة المتبادلة: ففي أيام السلطان سليم الأول والشاه اسماعيل الصفوي، كان الصراع السياسي بين الدولتين سببا في تشيع الدولة الإيرانية، في حين ذهب العلماء العثمانيون إلى حد إعلان ان التشيع هو كفر.

ومع ذلك ففي الوقت الحاضر فإن الالتزام الديني للمسلم يوجب أن توحد الدول على أساس مشيئة الله في الوحدة ضد الطغيان وسيادة الدول المسيحية، ولأن كل واحد منهم يرى في هذه النقطة القدرة على الوحدة والتحالف فانه بات واضحا لكل من السنة والشيعة السير في هذا الاتجاه". وأن السياسة العثمانية في العراق جعلت الجماعة الشيعية هناك في ١٨٨٠ تميل وترغب في إزالة الفتور بين السنة

والشيعة. وقد لوحظ هذا الميل والرغبة بين علماء الشيعة خلال جميع الرحلات التي قام بها كاتب هذا التقرير الى بغداد.

ويخلص التقرير اخيرا الى ان السلطان عبد الحميد هو أنسب شخص لهذه المهمة، حيث يعتبر امام وخليفة المسلمين عند السنة، في حين أن شاه ايران ليس لديه مثل هذه السلطة بين الشيعة. فالوحدة الوطنية لا يمكن تحقيقها إلا من قبل السلطان، ومن قبل المجتهدين الذين لديهم السلطة الحقيقية على الشيعة في العالم.

بالنظر إلى أن المجتهدين عاشوا داخل الإمبراطورية، فان المهمة المقدسة للسلطان عبدالحميد هي في إزالة هذا العداء بين الطائفتين وبهذا الصدد، يقترح التقرير بعض التدابير، كإصلاح المقابر في المدينة المنورة. وفي العمل لبعض التحسينات للعتبات. وان تقوم السلطات العثمانية، ووفقا لاعتبارات سياسية، بدعوة العلماء الشيعة لهذه المهمة وتوفير المخصصات المالية مع التأكد من أن هذا الإجراء الأخير لن يكون على حساب العلماء السنة ويكون متوازنا وينبغي تنفيذ سياسة عادلة بين العلماء السنة والشيعة في هذا المجال.

وبعد سلسلة من المراسلات بين السلطان والجيش والمسؤولين المحليين، في مسألة تواجد الشيعة في الجيش العثماني في العراق، فضلا عن الأبعاد الأخرى للتهديد الشيعي في العراق ونتيجة لذلك، تم إيفاد لجنة من التفتيش العسكري إلى العراق في منتصف عام ١٨٩٠، وبينما كانت اللجنة في العراق، استمر السلطان بالتشاور مع العلماء في وسط العراق، وطلب النظر في هذه المسالة وتشير مختلف التقارير في وثائق الارشيف العثماني في هذا الصدد على ان هذه المسالة كانت على ما يبدو تسبب القلق للسلطان عبد الحميد الذي كان يعدها على درجة كبيرة من الخطورة.

لذلك كانت الخطوة العملية الأولى له، في حزيران ١٨٩١، بإقالة والي بغداد بسبب تغلغل الايرانيين فيها، وفي نفس الوقت، كان السلطان منزعج من أنباء وجود الكثير جدا من الشيعة في الجيش، وبعد عدة مشاورات أصدر السلطان تعليمات إلى الصدر الأعظم بنقل بعض الجنود الذين ينتمون الى الطائفة الشيعية لجيوش أخرى، والحفاظ على الجنود السنة فقط في بغداد.

ولأنه كان من المستحيل تغيير حياة الناس والمعتقدات بالقوة، وأن السياسة القسرية هي المحرك للسكان المحليين على التظاهر ولن تضمن سيطرة السنة الا لفترة من الوقت. وفي ظل هذه الظروف، فانه لا يمكن تحقيق هذا الهدف الا عن طريق التعليم والوعظ. لذلك تم الاقتراح على السلطان عبد الحميد بإرسال عدد قليل من الطلاب من كل البلدات والمدن التي يسكنها الشيعة، مثل بغداد والبصرة والنجف وكربلاء، وإرسالهم إلى مدرسة الأزهر في مصر، مع رواتب من الحكومة العثمانية. فبمساعدة التعليم، فإنه يمكن التخلي عن "الاعتقاد بالخرافات" ويعود بهم إلى الوطن وهم من السنة ثم يمكن تعيينهم لتدريس مواطنيهم. فمن خلال هذه القناة، سيتم زيادة عدد من هذا النوع من العلماء ويمكن لهم من أن يتغلبوا على المجتهدين الشيعة الذين كانوا قد اغروا الناس بجهل الخرافة. ولدعم وجهة النظر هذه فقد أعطي مثال على المبشرين الأمريكيين الذين كانوا يهتمون بالمقام الاول ببعض الشباب الأرمن في

المدارس وفقا للعقيدة البروتستانتية، ثم يتم أرسالهم في وقت لاحق كمعلمين و دعاة للمجتمع الأرمني وجذبهم إلى الايمان بالبروتستانتية .

وافق السلطان عبد الحميد على هذا الاقتراح باستثناء نقطة واحدة، فبدلا من ارسال الطلبة الى مصر التي تعد كمركز المعارضة المحتملة للخلافة العثمانية. قرر السلطان إنشاء مدرسة للطلاب في اسطنبول يكون التدريس فيها باللغة العربية مع رواتب مجزية تقدم الى أساتذة المدرسة المعينين مع ضمان ان يكون لهم رواتب كافية عند عودتهم إلى مناطقهم الأصلية بعد الانتهاء من التعليم.

وتبعا لذلك، اختار والي بغداد عشرة من الطلاب السنة والشيعة من بغداد وكربلاء، وتم أرسالهم الى اسطنبول. وفي قت لاحق تم ارسال المزيد من البصرة. ولكن وخلافا للتوقعات، غادر ستة الطلاب المدرسة وعادوا الى العراق، وكما انه في أواخر عام ١٩٠٧، لم يحصل إلا على عدد قليل منهم على شهادات تخرجهم وتم تعيينهم كمدرسين وخطباء بأمر من السلطان في بغداد.

في تلك الاثناء بدأت العتبات بالظهور كمركز مهم للمعارضة في السياسة الإيرانية، حيث بدأ المجتهدون في العتبات بالتورط في الشؤون الايرانية الداخلية، للمرة الأولى من خلال أزمة التبغ ١٨٩١، والتي اثارها منح الشاه امتياز احتكار بيع وشراء وتصدير التبغ الايراني الى الرعايا البريطانيين. وكان أول احتجاج عام ١٨٩١، بقيادة المجتهدين الشيعة في المدن الكبرى في إيران. وكان أحد ابرز المتظاهرين ضد هذا الامتياز جمال الدين الأفغاني، الذي كان يعيش في إيران. والأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧)، هو رائد النشاط السياسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان معروفا لفترة طويلة إلى عبد الحميد.

في أوائل عام ١٨٩١، تم طرد الأفغاني إلى البصرة من قبل الشاه. وفي حزيران ١٨٩١، أرسل الافغاني رسالة من البصرة إلى ميرزا حسن الشيرازي، المجتهد الكبير في سامراء، وحثه على التحرك. وفي أواخر عام ١٨٩١، تحت ضغوط من علماء الدين الشيعة في ايران ومن العتبات، أصدر الشيرازي فتوى قائلا فيها "أن استخدام التبغ هو ضد إرادة الإمام الثاني عشر، ويجب اتباع مقاطعة عالمية للتبغ في جميع أنحاء إيران". وبسبب هذه الفتوى اضطر ناصر الدين شاه إلى إلغاء الامتياز الداخلي، وبعد اضطرابات اخرى، الغى امتياز التصدير.

لقد أظهرت العتبات والمجتهدين، مدى قوتهم السياسية داخل ايران وجاء هذا التطور في أعين السلطان عبد الحميد بانه بداية الصدع بين الحكومة الإيرانية والمجتهدين الشيعة ثم باعتباره فرصة لترويج برامج جذرية لتأمين التقارب الديني بين الشيعة والإسلام السني، وتوسيع نطاق نفوذه السياسي الخاص به على حساب الشاه. ولأجل ذلك كانت اداته جمال الدين الأفغاني، الذي كان قد سبق وكتب إلى السلطان في مناسبات عدة من اجل الحصول على دعمه " لوحدة المسلمين".

دعي الافغاني الى اسطنبول من قبل عبد الحميد كجزء من السياسة العثمانية في العراق تجاه الجماعة الشيعية في ١٨٨٠. وفي صيف عام ١٨٩٢، كان في ذهن عبد الحميد من دعوة الافغاني هو توظيفه في المشكلة الشيعية ضد إيران، وفي منعه من التدخل في مناقشات مستقبل الخلافة المنبثقة من مصر.

وصل الأفغاني الى اسطنبول في أواخر صيف عام ١٨٩٢ وكان في البداية على علاقات جيدة مع الشيخ ابو الهدى مستشار السلطان الديني. وبحلول الوقت، لوحظ بروز المشكلة الشيعية في العراق وتم بالفعل اتخاذ بعض التدابير من قبل السلطان، لكن ومن خلال عدد التقارير والواصلة إلى القصر حول المشكلة. أصبح من الواضح أن التدابير المتخذة حتى الآن هي فاشلة ولا سيما سياسة التعليم كما هو مبين أعلاه. وهذه الحقيقة مذكورة، في رسالة عبد الحميد الى الافغاني، باعتباره السبب في التحول نحو سياسة جديدة للتقارب بين السنة والشيعة، وبعد فترة من الدراسة والتشاور والنشاط من قبل السلطان، لكن سياسة الوحدة بين السنة والشيعة لم تبدأ إلا في وقت مبكر من عام ١٨٩٤ وفي غضون ذلك، اتضح من خلال الوثائق ان عبد الحميد اقتنع بسبب مستشاريه، أن سياسة الوحدة بين السنة والشيعة ستكون هي الأفضل على المدى الطويل لحل مشكلة الشيعة في العراق.

ويبدو أن عبد الحميد، وربما في أواخر ١٨٩٣، كتب إلى الافغاني بشأن هذه المسألة وطلب رايه. في الجزء الأول من رسالته، تحدث السلطان عن أنشطة المبشرين المسيحيين داخل الإمبراطورية، متهما اياهم بالعمل ضد السكان المسلمين. ثم يؤكد على نقطة: "انه لا يوجد خلط بالمفاهيم بالنسبة للمسلمين لتقوية انفسهم من خلال التحالف والوحدة ضد التصاميم والمبادرات المؤذية للمسيحيين ". وبعد ذكر جهود السلطان سليم الأول لتأمين وحدة المسلمين في القرن السادس عشر، وجادل عبد الحميد بما يلي: الإيرانيون، ومن اجل الحفاظ على معتقداتهم فانهم يؤمنون بالهرطقة باستمرار من اجل العيش بمعزل عن الحكومة العثمانية، ولقد سعوا إلى تحويل السنة الى طائفتهم من خلال خداع الجهلة في العراق وبغداد.

ومن أجل تحييد هذه الجهود والخداع، والحيلولة ضد هذا الضرر فقد أرسل السلطان الى بعض الدعاة والعلماء في هذه المناطق، وكرر أوامره إلى الولاة والمتصرفين بهذا الصدد، ثم في نهاية رسالته يشكو السلطان حماية الثوار الأرمن من قبل السلطات الإيرانية على الرغم من أن الإيرانيين هم أساسا من المسلمين، ويصلون مثلنا، نحو الكعبة في مكة المكرمة، لكنهم يدعمون ويقومون بحماية الطائفة الأرمنية الأشرار الذين يعملون ضد المسلمين. واختتم عبد الحميد بضرورة اعتماد معالجة جادة واتخاذ تدابير ضد هذه الظروف المؤسفة غير الواضحة.

ومن الواضح أن هذا العلاج والتدابير سيتم من خلال إنشاء التحالف الإسلامي والوحدة الاسلامية من خلال إزالة الصراعات والتناقضات المتصلة. وعرض عبد الحميد المهمة التالية للسيد جمال الدين الذي سافر الى معظم ديار الإسلام، وأمضى وقتا طويلا في إيران، ودرس جيدا الفرق بين المذاهب الأربعة للسنة ودرس الطائفة الشيعية، ومن خلال الوقت الذي كان يقضيه في أوروبا، والمعرفة بالشؤون العامة، فرغبة السلطان تبدو واثقة برغبته في تحقيق الاتحاد الاسلامي. وبصفته الخليفة والذي يعاود بالمبادرات التي أثبتت سابقا انها عقيمة بسبب عدم وجود العلماء الذين يفهمون السياسة، بإلغاء الخلافات الطائفية بين المسلمين في بعض أجزاء الدولة العثمانية، وكذلك في بعض الدول الاخرى من خلال تشكيل لجنة من شخصين أو ثلاثة أشخاص من علماؤنا وعلماء الدين الشيعة،

والقضاء على الفتن الطائفية، وربما لإزالتها تماما. وهناك ميزة بالنسبة للإيرانيين ان يأتوا الى تفاهم مع العثمانيين، لكي لا يكونوا لعبة بيد روسيا وانكلترا. لكن بدا انه لن يكون هناك اتفاق كامل سيكون في هذا الصدد، ولن يتحقق التقارب بين الاثنين، ويبدو أن تأجيل عبد الحميد لأي إجراء اخر اجل لبعض الوقت بحسب الحسابات المتاحة التي بدأ بها تنفيذ هذا المشروع.

في وقت مبكر من عام ١٨٩٤اندلعت اضطرابات خطيرة بين السنة والشيعة في سامراء. هذا الحادث في سامراء اعطى حافزا إضافيا لجهود السلطان لشراء التقارب السني الشيعي ، واستحق التحقيق بالحادث الذي وقع خلال فترة السياسة العثمانية في العراق تجاه الجماعة الشيعية في ١٨٨٠.

التحذير جاء في نيسان ١٨٩٤. حينما بدأت مشاجرة بسيطة حول بعض المعاملات المالية بين السنة والشيعة من سكان المدينة، ولكنها تطورت بسرعة في ما يشبه الحرب الدينية بين السنة والشيعة، والذي قتل فيها العديد من الناس وبعد الحادث، سعت السلطات العثمانية والقنصل البريطاني العام في بغداد، بزيارة سامراء من اجل ضمان سلامة الطلاب الهنود البريطانيين المقيمين فيها. ومن المثير للاهتمام، أن السلطات العثمانية كانت منزعجة أكثر من ذلك بكثير من الزيارة التي قام بها القنصل العام البريطاني بسبب حادثة سامراء نفسها، وحاولت عبثا وقفها وفي الوقت نفسه، دعا مسؤول السفارة الروسية وزير الخارجية العثماني للموافقة على سفره إلى سامراء لتمكين المجتهد من الهرب إلى الهند.

هذا ما عزز الشبهات حول الاسباب التي تسببت بحادث سامراء ومتاعب الشيعة في كل من العتبات وايران. فبعض علماء الشيعة في سامراء امروا أتباعهم بفتح محلاتهم، والتوقف عن الصلاة باعتبارها سبب الاحتجاج، لكن في نهاية المطاف، كانت سياسة عبد الحميد المحلية وغفلة السلطات ويرجع ذلك إلى حقيقة أن هناك مواطنون أجانب والقناصل الأجانب كانوا من بين المتورطين في الحادث، و خصوصا القنصل البريطاني العام. وأعرب السلطان عن قلق خاص خوفا من محاولة بريطانية من احتواء المجتهد الشيعي الاعلى. وأمر عبد الحميد بتأليف لجنة من مسؤولين من الذين كانوا مطلعين على المنطقة، ويتم تشكيلها للتحقيق في الوضع، وذلك بالتشاور مع والي بغداد.

في الوقت نفسه، قام عبد الحميد بالتشاور أيضا مع علي غالب بك، السفير العثماني في طهران وسمع رأيه في حادثة سامراء والتشيع والمجتهدين في العراق. حيث رد السفير أن ايران استفادت من تلك الحادثة من خلال الغرس في العقول المحلية للشعب الإيراني بفكرة أن استمرار بقاء أبناء الطائفة الشيعية في بغداد ليس نتيجة حماية صاحب الجلالة الخليفة الإمبراطور، ولكن بسبب كما يعتقد بسبب نفوذ الدولة الإيرانية وفشلت مبادرات القناصل الإيرانيين في المسائل المتعلقة بالطائفة وعلماء الشيعة، و باختصار، فالدولة الايرانية والمسؤولين فيها يتظاهرون على انهم يدعمون الشيعة في العراق ماديا لكن العكس هو الصحيح حيث التزام السلطنة العثمانية هو الذي سبب الازدهار والخلاص للشيعة في العراق. . .

ويكشف تقرير اخر عن أن السلطان عبد الحميد قد قرر بالفعل استمالة بعض المجتهدين الايرانيين الى جانبه بعدما اعتقد أن الإيرانيين كانوا وراء حادث سامراء. وانه يواجه بالفعل مشكلة مع الثوار الأرمن عبور الحدود الإيرانية في شرق الأناضول، ويبدو أن السلطان شعر أيضا بان شاه إيران وضع الضغوط عليه في العراق وردا على ذلك، قرر عبد الحميد تنفيذ مقترحات قدمت له في وقت سابق عن التقارب السني والشيعي بهدف احتمال التوصل إلى حل نهائي لمشكلة الشيعة في العراق، وأيضا ايجاد وسيلة للهجوم المضاد ضد شاه ايران.

ونتيجة لذلك، تم تشكيل مجموعات عمل في إطار مبادرة الافغاني، وأرسلت مئات الرسائل الى العلماء الشيعة البارزين في جميع أنحاء العالم الإسلامي. .، وحمل السلطان العثماني إلى الاعتقاد بوحدة إسلامية مختلفة ، وطلب من السيد جمال الدين الكتابة إلى علماء الدين الشيعة في ايران و العراق ودعوتهم إلى الوحدة.

ونتيجة لاستجابة المجتهدين الشيعة فقد خصص السلطان لهم راتب شهري، وسوف يقوم المسؤولون العثمانيون بمراقبة سير المعاملة الطيبة تجاه الايرانيين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وفي المدن المقدسة في العراق تقديرا لهذا العمل العظيم لعمل العلماء الشيعة..

وبعد ستة أشهر من بدء هذه المبادرة وصلت الى السلطان حوالي ٢٠٠ رسالة جوابية من العلماء العرب والإيرانيين الشيعة مع بعض الهدايا والتحف ردا على مبادرة السيد جمال الدين. وتم ترجمة هذه العرائض إلى اللغة التركية، وسلمت إلى السلطان وكان الخليفة العثماني في غاية السعادة لرؤية هذه الرسائل.

ومع ذلك، فإن المراسلات بين دائرة اسطنبول الافغانية والعلماء الشيعة كانت بعلم القنصل الايراني في بغداد، والسفير الايراني في اسطنبول، وقد ذكرت للشاه. ونتيجة لذلك طالب السفير الايراني بترحيل الافغاني، ومن جهة أخرى، بدأت السلطات الإيرانية باستخدام "المسألة الأرمنية"، كوسيلة ضغط، واعطاء الحرية للثوريين الأرمن، داخل إيران وعلى الحدود.

ويبدو أن تلك الضغوط كانت فعالة. وينبغي التذكير الفترة التي شهدت بين آب ١٨٩٤ وصيف عام ١٨٩٦ والتوصل إلى أزمة مسألة الأرمن ، سواء في الأناضول او في اسطنبول. حيث يبدو ان في هذه المرحلة، أجبر عبد الحميد على التخلي عن دعمه للمهمة، بسبب هذا الدعم الإيراني أو التسامح مع الثوار الأرمن في الأناضول الشرقية. وبحلول نهاية عام ١٨٩٥، كانت العلاقات بين الافغاني مع عبد الحميد متدهورة، وذلك بفضل عدد من الحوادث التي قوضت الثقة لدى عبد الحميد به فبعد اللقاء السري بين الأفغاني والخديوي في مصر في صيف عام ١٨٩٥، والخلافات المستمرة مع المقربين من السلطان مهدت الطريق لسقوطه من حظوة السلطان وحاول الافغاني مغادرة اسطنبول، لكنه فشل في الحصول على إذن من السلطان، في حين نجح في محاولته للحصول على جواز سفر بريطاني من السفارة البريطانية.

في غضون ذلك، قاوم عبد الحميد بقوة المطالب الإيرانية بترحيل الأفغاني. لكن نتيجة للضغط الايراني المستمر ألقي القبض على ميرزا آغا خان كرماني،

والشيخ أحمد روحي، وميرزا حسن خان ونفوا الى طرابزون، وفي ١٨٩٦ تم اغتيال الشاه ناصر الدين، من قبل رضا ميرزا كرماني، وهو موظف وتلميذ سابق عند الأفغاني، وكان قد زار الأخير في اسطنبول، وبعد زيادة الضغوط الإيرانية وبعد مطالبة الحكومة الايرانية بتسليم الافغاني والرجال الثلاثة المحتجزين في طرابزون، والمتعاونين في عملية اغتيال ناصر الدين شاه. ، ومن ناحية أخرى، كانت تسبب المشاكل لا تزال على الحدود مع الأرمن. نصح الصدر الاعظم رفعت باس، السلطان بتسليم الافغاني والرجال الثلاثة، الذي اتهم سابقا بأنه زنديق ويحافظ على اتصالات مع الأرمن، والماسونيين، تم تسليم الرجال الثلاثة الذين اعتقلوا في طرابزون و وأعدموا في تبريز ١٨٩٦، وبقي الافغاني في اسطنبول كأسير حتى وفاته مارس ١٨٩٧. وفي وقت مبكر من عام ١٩٠٠ واصل السلطان عبد الحميد جهوده لحل المشكلة الشيعة في العراق، لكسب التأييد بين العلماء الشيعة في العتبات.

وماذا بعد... ان يكون العراق مورد النفط العالمي؟

خلال كل تلك الحروب التي مرت بالعراق خلال ٣٠ سنة الماضية والغزوات، والموت والدمار، والتعذيب والنفي، والمقاومة والانهيار والتي لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا هنالك عالم قد تقلصت لديه احتياطيات الطاقة، ومتعطش لنفط العراق الممزوج بالدم .

وحتى قبل وقوع الكارثة والفوضى في العراق يشار الى مصيره الحديث مقترنا بالنفط على اعتبار ان النفط كان دائما في قلب كل شيء فيه. ووجوده كدولة موحدة مرتبط إلى حد كبير بالنفط المنتج.

في عام ١٩٢٠، قامت بريطانيا بترقيع جزء من السلطنة العثمانية من ولايات ثلاث هي ولايات البصرة وبغداد والموصل ووضعتها تحت رعاية عصبة الأمم، واطلقت عليه مملكة العراق من أجل تحسين استغلال امتيازات شركة البترول التركية - (شركة نفط العراق).

في وقت لاحق، قام القوميون في العراق وحزب البعث وصدام حسين بتأميم النفط وشنوا عداء لا هوادة فيه ضد بريطانيا والولايات المتحدة. قام صدام بمكافأة حلفائه في حزب البعث من خلال منحهم وظائف حكومية مربحة في الشركة، وجزء من هذه العملية أسفرت عن صدع خطير مع الشيعة في البلاد. وهذه ليست سوى بعض القصص من التاريخ العراقي الحديث الذي يحكمه النفط .

بطبيعة الحال يحفظ العراق واحدة من كبرى الاحتياطيات الهيدروكربونية في العالم. ووفقا لشركة النفط العملاقة بي بي، يؤوي العراق احتياطيات النفط المؤكدة بحدود 115 مليار برميل -- أي أكثر من أي بلد باستثناء المملكة العربية السعودية 264 مليار برميل وإيران ١٣٨ مليار. مع ذلك فكثير من المحللين يعتقدون أن العراق لم يستكشف بأكمله بعد، ولو استخدمت التقنيات الحديثة للبحث فسوف تسفر عن مزيد من الاحتياطيات يضاف ما مجموعة من ٤٥ الى ١٠٠ مليار برميل. وهو ما سيضيف الى ما يصل من ٦ إلى ٨ ملايين برميل في اليوم من الانتاج العالمي وبالتالي سيؤجل الوصول الى ذروة النفط وتقلص إمدادات الطاقة العالمية.

لقد أحبطت الحرب، والتدخل الأجنبي، والعقوبات، والفوضى الداخلية والفساد وانعدام الكفاءة من استفادة العراقيين من النفط وقد نجح صدام حسين نسبيا ولبعض الوقت من رفع انتاج النفط، وفي عملية رفع مستوى الدخل القومي وخلق قدر جيد من التعليم والطبقة المتوسطة. ومع هذا، فإن حرب ايران في عام ١٩٨٠ والكويت في عام ١٩٩٠ قد ادتا الى هجمات مدمرة على منشآت النفط العراقي، وجاء الحظر على التجارة والديون، ليمحي المكاسب الاقتصادية السابقة .فالعقوبات التجارية التي فرضها جورج هـ بوش وبيل كلينتون في أعقاب حرب الخليج الأولى، زادت من تآكل طاقة البلاد ومن انتاج النفط

عندما قام جورج بوش بشن الحرب على العراق في آذار ٢٠٠٣، فإن جميع الأهداف الشاملة لتلك الحرب كانت تدور حول الجغرافيا السياسية للنفط. فقد كان

بوش وكبار المسؤولين في ادارته يأملون من استبدال نظام صدام حسين من شأنه أن يثبت عودة ودية للمصالح النفطية الاميركية. فقد كان بوش يتصور، بان العراقيين سيستقبلونه باعتباره محرر وبالتالي سيتمكن من رفع مستوى القدرات النفطية للعراق، وبالتالي ضمان إمدادات كافية للمستهلكين الامريكيين وبسعر جيد. ومن خلال بناء مجموعة من القواعد العسكرية الرئيسية في العراق لحماية مصادر النفط فسيعتبر ذلك ضمان لاستمرار الهيمنة الأميركية على كامل النفط في منطقة الخليج العربي، وبالتالي على الطاقة في قلب الكوكب.

بطبيعة الحال كل هذا ثبت أنه سراب. فالغزو الامريكي للعراق وما تبعه من سياسات الاحتلال استفز المسلحين السنة وسرعان ما طغى ذلك على جميع المخاوف الاميركية الاخرى، بما فيها النفط. ونتيجة لذلك، وبغض النظر عن حجم الاموال التي تدفقت فإن ادارة جورج بوش ووكلاءها في بغداد وجدوا انفسهم غير قادرين على زيادة انتاج النفط الى مستويات أسوأ أيام نظام صدام حسين -- وبالتالي فشلت خططه لاستخدام عائدات النفط لدفع ثمن الحرب والاحتلال واعادة اعمار البلاد .

البيانات التي قدمتها بي بي على الإنتاج السنوي مرتبط بأثر التمرد على انتاج النفط وانتشار الفساد وضياع صناع النفط من المهنيين (والذي فر كثيرون منهم الى المنفى في ظل الاقتتال الطائفي)، وغيرها من العوامل ذات الصلة . قبل الغزو الأميركي، كان العراق يصدر في فترة ما قبل الغزو ٣.٥ مليون برميل في اليوم. لكن في السنة الأولى من الاحتلال الامريكي، سرعان ما انخفض الانتاج الى ١.٣ مليون برميل يوميا. في عام ٢٠٠٧ لم يصدر الا ٢ مليون دولار، ومع تحسن الأمن، ٢.٤ مليون في عام ٢٠٠٨. وعلى افتراض استمرار التحسن في الظروف، ويمكن ان يتجاوز انتاج العراق، للمرة الأولى، مستويات ما قبل الغزو، في عام ٢٠١٣ وبعد عشر سنوات أو أكثر بعد سقوط بغداد في ايدي القوات الاميركية.

معظم المحللين يفترضون أن العراق سوف يستمر، في أفضل الأحوال، بإحراز تقدم متواضع في جهوده لزيادة الانتاج اليومي. هناك العديد من العقبات، من أجل تحقيق تقدم كبير. وتشمل هجمات المسلحين على خطوط الأنابيب ومرافق الإنتاج؛ الفساد في وزارة النفط والشركات الكبرى لإنتاج الطاقة ؛ فشل البرلمان في اعتماد قانون النفط والغاز الوطني؛ الخلافات بين الحكومة الاقليمية الكردية والحكومة المركزية بشأن من الذي لديه الحق في منح أي نوع من عقود النفط الكردية في الأراضي التي يسيطر عليها، وإحجام شركات النفط الأجنبية الكبرى على المغامرة في الاستثمار في مثل هذه الخطورة وغير المستقرة .

ومع ذلك، هناك مؤشرات واضحة على أن صناعة النفط في العراق يمكن أن تكون مهيأة لتحول كبير. فمن أهم التطورات الأخيرة توقيع العراق اتفاقا بقيمة ٣.٥ مليار دولار، لعشرين سنة قادمة اتفاق خدمة مع شركة سي ان بي سي الصينية لتطوير حقول النفط في الاحدب محافظة واسط جنوب شرق بغداد.

بداية التفاوض كان عن طريق نظام صدام حسين، وقد جمدت هذه الصفقة بعد الغزو في عام ٢٠٠٣ ولم تتم الموافقة النهائية إلا في تشرين الثاني ٢٠٠٨. وهذا هو أول عقد رئيسي للحكومة في بغداد وقع مع شركة نفط أجنبية في العراق منذ تأميم

شركة النفط في ١٩٧٠ كما أنه يمثل أول استثمار كبير من جانب شركة من الصين في العراق. وبموجب الاتفاق، تقوم الشركة الوطنية الصينية للبترول وشركائها في حقل الاحدب في مجال تطوير وتقديم كل ما يلزم لإنتاج النفط الخام ونقله الى مصافي الدولة؛ وسيتم دفع الرسوم للشركة الوطنية الصينية للبترول من قبل الحكومة العراقية لكافة الأعمال الهندسية وتسليم النفط.

كذلك وصلت وزارة النفط الى اتفاق مع حكومة إقليم كردستان يسمح فيه للأكراد بتصدير النفط من الحقول التي تقع تحت سيطرتهم. في السابق رفضت الحكومة العراقية الاعتراف بأية عقود وقعتها حكومة إقليم كردستان مع شركات النفط الخاصة لتطوير حقول النفط في أراضيها ومنع الاكراد من تصدير النفط من هذه الحقول من خلال خطوط الأنابيب التي تسيطر عليها الحكومة المركزية. وبموجب الاتفاق، يسمح لحكومة إقليم كردستان بتصدير ١٠٠،٠٠٠ برميل في اليوم من حقلي طق طق وطاووق، مع معدلات أعلى من المتوقع في المستقبل، و ٧٣ % من الايرادات الناتجة ستكون من نصيب الحكومة المركزية، و ١٥ % الى الاكراد و ١٢ % لشركات النفط الأجنبية التي وقعت على عقود الإنتاج مباشرة مع حكومة إقليم كردستان، متجاوزة الحكومة المركزية في بغداد. وهذا الاتفاق يمهد الطريق لزيادة كبيرة في الانتاج من المناطق الخاضعة لسيطرة الأكراد، والتي يعتقد وجود حقول هائلة من الاحتياطيات النفطية غير المستغلة.

كذلك أجرت وزارة النفط أول مزاد لتشغيل الحقول القائمة في البلاد وفي المناطق الرئيسية للإنتاج. وهذا يمثل تحول في السياسة النفطية، حيث سيفتح الباب لأول مرة لثلاثة عقود بمشاركة كبرى شركات النفط العالمية في هذه العملية -- إن لم تكن تملك – منذ تأميم حقول النفط في البلاد.

وعلى الرغم من معارضة العديد من المجموعات الرئيسية في العراق، بدءا من نقابة عمال النفط إلى البرلمان، لكن هذه الخطوة التي اتخذت هي لتأمين الخبرات الخارجية في مجال تحديث وتطوير البلاد ومنع انهيار البنية التحتية للنفط، وبالتالي زيادة الانتاج في هذا البلد الذي لا يزال يعتمد على النفط لأكثر من ٧٥ % من ناتجه المحلي الإجمالي ونحو ٩٥ % من ايراداته. وفي الواقع، شركة واحدة غربية هي بريتيش بتروليوم (في شراكة مع شركة النفط الوطنية الصينية)، حصلت على حق لتشغيل حقل الرميلة العملاق، والاكبر في العراق.

هذه الخطوات تهدف الى تأمين ما يلزم من الخبرة والتمويل الخارجي من أجل تحقيق زيادة كبيرة في الانتاج والتي تمثل تغييرا حقيقيا في الطريقة التي كانت وزارة النفط تشرف بها على صناعة النفط والغاز في البلاد.

واذا سارت الامور كما هو مخطط لها، فسيتم زيادة الانتاج بمقدار ١.٥ مليون برميل يوميا، وسيرتفع الانتاج الى ٤ - ٥ ملايين برميل بحلول عام ٢٠١٧. وهذه الجهود، في حال نجاحها فمن شأنها أن تضع العراق بين أكبر أربع أو خمس دول منتجة للنفط، إلى جانب المملكة السعودية وروسيا والولايات المتحدة

ولا ينبغي لأحد أن يقلل من احتمال العقبات في طريق تحقيق هذا الهدف. منها ارتفاع المعارضة حول التخلي عن أي جزء من الارث الوطني للأجانب،

والزيادة الكبيرة في أعمال العنف من جانب المسلحين، وتصاعد القتال بين الفصائل في بغداد، وتشديد حدة التوتر بين بغداد والأكراد، والزيادة في الفساد -- قد يحول دون تحقيق هذه الأهداف الطموحة. وعلاوة على ذلك، في انتظار مرور قانون النفط والغاز في البرلمان وهو الهدف الذي تسعى اليه الولايات المتحدة لسنوات لتحقيقه، ورغم ذلك ستبقى كبرى شركات النفط الاجنبية تتردد في دفع المال الى بغداد، خوفا من أن أصولهم لن تتم حمايتها .

ومع ذلك، يبدو أنه لأول مرة منذ اندلاع الحرب العراقية الايرانية في عام ١٩٨٠، يبدأ بزغ العراق كنجم في سماء الطاقة لكن المشكلة هي في التوفيق بين الطرق التي قد تؤيد عودة العراق كمنتج رئيسي للنفط. فالقوى الكبرى تتنافس فيما بينها على النفوذ في العراق أو المدعومة في الجهود الرامية إلى إضعاف أو احتواء ذلك البلد، لكنها كلها تبدو الآن تميل للاستثمار فيه والاستفادة منه، وإعادة بناء بنيته التحتية للطاقة. فإدارة بوش، التي هددت الرئيس العراقي السابق صدام حسين حول علاقاته المتنامية مع روسيا والصين، وغزت البلاد في جزء منه لتأكيد الهيمنة الأميركية في منطقة الخليج العربي، ولتقليل من الدور الذي تقوم به موسكو وبكين. نجد واشنطن اليوم ترحب بالدور المتزايد للشركات الصينية والروسية في العراق لإعادة تأهيل البنية التحتية المتهالكة في مجال الطاقة .

ومن المعقول الافتراض بأن وراء هذا التحول الذي لم يسبق له مثيل يقع تحت تأثير واقع لا مفر منه وهو ذروة النفط. فالعالم سيصل قريبا الى الحد الأقصى لمستوى انتاج النفط يوميا، ثم سياتي مما لا مفر منه وهو انكماش الإمدادات المتاحة. ويعتقد كثير من الخبراء أن الذروة التقليدية لإنتاج النفط السائل يمكن أن تحدث في المستقبل القريب جدا، ربما في الفترة الزمنية ٢٠١٠- ٢٠١٥، حيث تجاوز الانتاج العالمي إلى 10 مليون برميل يوميا، وعلى هذا المستوى، فسيكون هذا الانتاج مدمرا للاقتصاد العالمي، ورغم ذلك فالطلب العالمي على الطاقة يمكن أن يقفز الى أعلى من ذلك بكثير، وذلك بفضل ارتفاع الاستهلاك في الصين والهند وغيرها من المحركات في العالم النامي. لذا فإن إضافة تكميلية ربما ٦ ملايين برميل يوميا من العراق من شأنه أن يصنع الاختلاف في معادلة الطاقة.

في الواقع، قد يكون النقص الكارثي للطاقة في جميع أنحاء العالم. دفع القوى الكبرى الآن الى مصلحة مشتركة في هذا البلد، وتسهيل انتعاشه باعتباره أكبر الدول المصدرة للنفط .

تدمير العراق، في السنوات الأخيرة كانت كارثة حقيقية وإعادة بناء البلد لا يزال بعيد المنال. بالنسبة للولايات المتحدة، ذهبت توقعات تحويل العراق الى نموذج ديموقراطي في الشرق الأوسط، أو جعل الذين يحكمون بغداد من الذين تلقوا تدريبا في الغرب، وموالية لأميركا. كما لا يوجد أي أمل بخصخصة شركة النفط الوطنية العراقية المملوكة للدولة وسوف يكون مجرد حلم للمحافظين الجدد في عهد بوش. ومع ذلك، فإن إعادة ظهور العراق كدولة نفطية تعمل بشكل وثيق مع شركات الطاقة الاجنبية لزيادة امدادات النفط العالمية بحماية القوات الأمريكية، سواء كانت مقيمة في العراق أو في الدول المجاورة، لتوفير الأمن المطلق فستكون النتيجة التي يمكن

أن تباع للكونغرس، ولغالبية الرأي العام الاميركي والداخل العراق نفسه، وربما الظروف لصالح هذه النتيجة.

وعلى الرغم من الاختلافات الهائلة بين مختلف الفصائل العراقية، علينا أن نعترف بأن الازدهار في المستقبل يتوقف على النجاح في تطوير الأمة من احتياطيات النفط. ففي حين أن الشيعة والسنة والاكراد يأملون من الاستفادة غير المتناسبة من هذا الكنز العظيم، الا أنهم جميعا يدركون أن قدرا من التعاون على الاقل هو في بناء وصيانة مرافق التصدير الذي لا بد ان يتغلب على طموحاتهم المتباينة. وفي حين أن التفاوض حول شروط التعاون بينهم قد يبدو بلا نهاية، وقد يصاحب العنف في بعض الأحيان هذه المفاوضات، فمن المحتمل أن يكون هناك نوعا من الهيكل التعاوني، في نهاية المطاف، وعلى الأرجح، لن يكون هناك سوى تسريع هذه العملية التي وصلت في النهاية إلى هذا السوء الممكن:

بعد كل هذه الدماء والدموع، وكل الموت والدمار، من جميع الأطراف عامة والسنة بشكل خاص يبدو أن العودة إلى الرؤية لوحدة البلاد اصبح بعيد المنال وان العراق قد فشل في اثبات قدرته على البقاء. في المستقبل، من المرجح أن يتحول العراق من دولة نفطية الى وظيفة أخرى وهي خدمة الأسواق العالمية. وسيساعد في ذلك إثراء النخبة المحلية، فضلا عن مساعدة التكنوقراط. وربما هذه لن تكون الرؤية الملهمة وخاصة بالنسبة للعراقيين الذين عانوا كثيرا ولكن ربما ستكون الحقيقة الوحيدة المتاحة لهم للالتفاف على نتائج سفك الدماء على مدى الأعوام الثلاث والثلاثين الماضية.

إعادة رسم النظام العالمي الجيو- سياسي اليوم من خلال خريطة الطاقة العالمية الجديدة.

ان تكنولوجيات استخراج الطاقة غير التقليدية، كالتكسير الهيدروليكي، وجدت لتبقى. حيث انها تنتج بالفعل وفرة هائلة من الغاز الطبيعي في الولايات المتحدة، وخلال السنوات القادمة، ستعيد هذه التقنية تشكيل السياسة العالمية للطاقة، والثروة والسلطة لأولئك الذين لهم السيطرة خلف الدكتاتوريات النفطية.

يبدو ان النظام العالمي الجيو- سياسي اليوم يسير على غير هدى. فنحن نتحرك بعيدا عن عالم يهيمن عليه عدد قليل من الموردين الكبار للطاقة، مثل روسيا والمملكة السعودية، وفنزويلا.

ومعظم البلدان التي لديها بعض الموارد المحلية لتلبية احتياجاتها من الطاقة، يمكن لها استيراد التوازن من الموردين. وفي هذا العالم الجديد تتميز أسعار الطاقة أقل بكثير، وبالتالي، ستعتمد الجغرافيا السياسية بدرجة أقل على النفط والغاز. في غضون السنوات الخمس إلى العشر القادمة، سوف نرى الأنظمة التي تعتمد على صادرات الطاقة قوتها قد تقلصت. ولم تعد قادرة على جمع مبالغ ضخمة من مبيعات الطاقة ليتم توزيعها في الخارج، بل ستقوم بفرض الضرائب على مواطنيها.

الثورة في تقنيات إنتاج الطاقة غير التقليدية اليوم ستجعل من حفر واستخراج الصخر الزيتي من تحت الأرض سهلة ورخيصة على نحو متزايد. وواحد من الوسائل الداخلية المتطورة هي، التكسير الهيدروليكي، الذي ينطوي على حقن مزيج من الرمل، والمواد الكيميائية، والمياه ، على شكل هلام، أو ضخ غازات دفيئة في التكوينات الصخرية لاستخراج النفط والغاز من هذا الصخر الزيتي.

وعلى الرغم من ان هذه التقنية استخدمت لأول مرة في عام ١٩٤٨، إلا انه في الآونة الأخيرة وصلت هذه التقنية حدا جعلها مجدية تجاريا. (وبتعزيز تقنية الحفر الأفقي، الذي يسمح للشركات من الاستفادة من الودائع الضحلة الواسعة وبدقة ملحوظة). وقد استخدمت على نطاق واسع تقنية التكسير الهيدروليكي في السنوات الخمس الماضية. والنتيجة - وفرة هائلة من الغاز الطبيعي في الولايات المتحدة – حيث انخفضت أسعار الغاز الطبيعي في البلاد إلى ربع ما كانت عليه في عام ٢٠٠٨. وتاثر انخفاض أسعار الغاز على جميع أنحاء الاقتصاد الأمريكي.

والمتوقع ان سدس الفحم الموجود في الولايات المتحدة سيكون له قدرة توليد كامل الطاقة التي تحتاجها الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٢٠، وسيتم تحويل مئات الآلاف من السيارات من البنزين إلى الغاز المضغوط، وسيتم الاستغناء عن احتياجات البناء الكيميائية من الصين ، والبلاستيك، والأسمدة وسيتم تحويل المصانع كي تستخدم الغاز الطبيعي بدل المواد الخام والوقود. وبحلول عام ٢٠٢٥، تتوقع شركة برايس ووتر هاوس كوبرز وهي شركة خدمات مهنية، ان صناعات الطاقة الكثيفة ستوفر مليون وظيفة جديدة في الولايات المتحدة بسبب هذه التقنية.

وفي الوقت نفسه، فإن الولايات المتحدة تستخدم اليوم تكنولوجيات الطاقة المبتكرة اكثر من أي وقت مضى لاستخراج النفط من الصخر الزيتي، وغاز الميثان من طبقات الفحم. ووفقا لذلك، انخفض نصيب استهلاك الولايات المتحدة من النفط الذي يتم استيراده من الخارج بشكل حاد، من نحو ٦٠ % في عام ٢٠٠٥ إلى أقل من ٤٥ % هذا العام. وسوف يستمر على الأرجح أن ينخفض على الأقل في أمريكا الشمالية، حتى تصل الطاقة الى الاكتفاء الذاتي.

وقد وعد اوباما الرئيس امريكي في دورته الجديدة الثانية بان هدف حكومته انهاء اعتماد الولايات المتحدة على نفط الشرق الاوسط .. وسيشعر بالصدمة الاقتصادية والجيوسياسية جميع أنحاء العالم. بسبب انخفاض الطلب في الولايات المتحدة على الغاز الطبيعي السائل، وواردات النفط، والفحم مما سيحد من الاسعار العالمية لهذه السلع.

ونتيجة لذلك، سيكون لدى الدول الأوروبية موقف أقوى في المفاوضات بشأن واردات الغاز الطبيعي مع روسيا، والتي تحصل منها على ربع إمداداتها. وربما ستشجع هذه التقنية المكتشفة حديثا الاتحاد الأوروبي لفتح تحقيق بنظام تحديد الأسعار لغاز بروم، عملاق الطاقة الروسية. وبالإضافة إلى ذلك، سيتم اعادة التفاوض من قبل الدول الأوروبية على عقود الغاز طويلة الأجل مع روسيا والتي ترتبط بها سعر متفق عليه للغاز من النوع الذي تفضله غاز بروم.

وبدلا من ذلك، سيختار الاتحاد اوربي لشراء حصة - على المدى القصير كعملية من عمليات الاستحواذ على أساس أسعار السوق - على أمل ارتفاع الإمدادات وهبوط الأسعار. وقد منحت روسيا اليوم بالفعل بعض البلدان خصومات تصل الى عشرة في المئة على العقود القائمة.

وحتى وقت قريب، كانت غاز بروم في حالة إنكار حول هذه الثورة الجديدة للغاز الصخري، مدعية أن التكنولوجيا غير التقليدية للغاز ليست مجدية تجاريا،

وأنها تشكل أخطارا شديدة على البيئة. علما بأن روسيا تتكون معظم عائداتها من صادرات الطاقة الاتحادية - بنحو ٦٠ %، وفقا لمعظم التقديرات – وان انخفاض مبيعات الغاز الطبيعي ستكون كارثية من الناحية السياسية. فكل من انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الرئيس الروسي السابق بوريس يلتسين في أواخر التسعينات تزامنت مع فترات انخفاض أسعار الطاقة؛ وفلاديمير بوتين، الرئيس الحالي، يعرف هذا التاريخ جيدا.

المشكلة هي أن كل خيارات بوتين في عالم يفيض بالطاقة الرخيصة سيئة. ويسعى نظامه الى محاولة الحفاظ على حصة روسيا في السوق في أوروبا من خلال الاستمرار في خفض الأسعار، ولكن ذلك يعني قبول عائدات أقل بشكل كبير.

ولجعل الأمور أسوأ، ستكون هوامش الربح لغاز بروم منخفضة. نظرا لأنه يبيع ٦٠ % من احتياجاتها من الغاز محليا في حيرة، لذلك يجب الحصول على هوامش الربح لغاز بروم واسعة من صادراتها الأوروبية للبقاء واقفة على قدميها. (حاليا، تبيع الغاز في أوروبا بحوالي هامش ربح ٦٦ %).

فصادراتها إلى أوروبا، تبيع غاز بروم بسعر ١٢ دولارا لكل ألف قدم مكعب من الغاز الطبيعي. في حين ان (سعر الغاز الطبيعي في الولايات المتحدة اليوم أقل من ٣ دولارات للألف قدم مكعب.) وجزء من السبب في ذلك هو أن الدولة والنخبة المحتكرة، مسيسة وغير فعالة، وغير شفافة. والفساد يتزامن مع المناورات الجيوسياسية في مشاريع خطوط الأنابيب الكبيرة.

روسيا لديها خطوط الأنابيب إلى كل مكان. ننظر، على سبيل المثال، نورد ستريم، خط أنابيب الغاز الطبيعي البحري الذي يربط روسيا إلى ألمانيا مباشرة، تجاوز كل من أوكرانيا وبولندا. المشروع غير مبرر من المنطق الاقتصادي، بل كان أرخص بكثير بالنسبة لموسكو للتوصل إلى اتفاق مع كييف على رسوم العبور. ولكن روسيا مستعدة للقيام بكل شيء. كالعادة، لعب الفساد دورا أيضا: اركادي روتنبرغ، صاحب الشركة التي وضعت خطوط الأنابيب، هو صديق الطفولة لبوتين والحكومة الروسية تدفع رسوم باهظة له - تبلغ هامش ربح ٣٠ % لعمله. الآن، تخطط شركة غاز بروم بحماقة اخرى هي بناء خط انابيب ساوث ستريم الذي سيتفادى مرة أخرى طريق أوكرانيا من تحت البحر الاسود الى جنوب اوروبا.

مثل هذه المشاريع البنية التحتية الفاحشة ستصبح أكثر روتينية بعد محاولات غاز بروم لتعويض تراجع إيراداتها في أوروبا من خلال زيادة مبيعاتها إلى الصين. للقيام بذلك، فإنه سيتعين عليها أن بناء خطوط أنابيب طويلة عبر تضاريس سيبيريا

التي لا ترحم. وهذه المهمة خطرة بالمقارنة مع التحدي المتمثل في إقناع الصين بدفع مبلغ لروسيا مساو مع الثمن الذي تتقاضاه حاليا من الدول الأوروبية - ليس فقط لأن المفاوض الصيني صعب ولكن أيضا لأن الصين تمتلك أكبر ودائع من الغاز الصخري في أي بلد في العالم (٨٨٦ تريليون قدم مكعب مقارنة مع الولايات المتحدة ٧٥٠ تريلون). على الرغم من أن مشروع الصين هو مجرد البداية للاستفادة من ودائع الغاز، في الوقت الذي يمكن أن يكتمل مشروع خط انابيب بين الصين وروسيا، قد يكون الغاز غير التقليدي بما يكفي ليكون طاقة الاكتفاء الذاتي. ووفقا لتقديرات الحكومة الصينية، فالبلاد لديها ما يكفي من الغاز الطبيعي لتوفير احتياجاتها الداخلية لمدة تصل إلى قرنين من الزمان. والأمل الوحيد لغاز بروم هو أن التكوينات الصخرية الصينية لن تستجيب بشكل جيد للتكنولوجيات الجديدة - ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن هذا سوف يكون عليه الحال.

في الوقت الراهن، روسيا تحاول حماية حصتها في السوق من خلال منع تكنولوجيات الطاقة غير التقليدية من الانتشار. من جانبها، الولايات المتحدة، من خلال برنامج الغاز لعام ٢٠١٠ والتقنية غير التقليدية، ستنقل هذه التكنولوجيات للدول التي تود أن ترى نفسها مستقلة الطاقة مثل الهند والأردن وبولندا وأوكرانيا. وهي من اكثر الدول التي تريد ان تحقق أكبر قدر من الاستقلال في مجال الطاقة.

روسيا، وفي الوقت نفسه، تحاول منع أو على الأقل إبطاء العملية. وواحدة من تكتيكات موسكو المفضلة تنطوي على الضغط على الشركات التي ترغب بالقيام بأعمال تجارية في روسيا بعدم التنقيب عن الغاز الصخري في أماكن أخرى. على سبيل المثال، تضغط موسكو على إكسون موبيل للانسحاب من بولندا، والتي يمكن أن يكون لها أكبر ودائع الغاز الصخري في كل أوروبا، في مقابل اتفاقية تعاون مع روسنفت. وكما هو الحال دائما في السوق الحرة، ولكن عندما تخرج شركة واحدة، تندفع آخرى لملىء الفراغ. الشركة الامريكية شيفرون بدأت التنقيب عن الغاز الصخري والنفط في جميع أنحاء المنطقة بين بحر البلطيق وبحر الأسود. الممول جورج سوروس، وعلاوة على ذلك، فقد استثمر سوروس بالفعل ٥٠٠ مليون دولار في مشاريع الطاقة غير التقليدية في بولندا. التكتيك الروسي الأكثر فعالية ينطوي على تمويل لوبي من جماعات بيئية ضد الغاز الصخري. لكن حتى الآن لا يوجد أي دليل علمي موثوق يشر الى أن التكسير الهيدروليكي له آثار سلبية على الهواء أو الماء. وقد خلصت العديد من الدراسات، بما في ذلك تلك التي أجرتها الجمعية الملكية، ووزارة الطاقة الأمريكية والمجلس الاستشاري، ووكالة الطاقة الدولية، أن التكسير الهيدروليكي آمن إلى حد معقول عندما ينظم بشكل صحيح. حتى الآن، وبعد

تضخم الاحتجاجات البيئية، سواء في بلغاريا وجمهورية التشيك فرضت مؤخرا حظرا على استخدام هذه التكنولوجيا. وعلامة النفوذ الخارجي واضحة في بلغاريا، فهناك ندرة للمظاهرات من أي نوع، والجماعات بيئية في الجمهورية التشيكية بقيت أمية على القضايا الرئيسية الأخرى، مثل التوسعات المخطط لها في محطة الطاقة النووية في تيميلين.

الأعضاء السابقين في الكتلة السوفييتية - مثل بلغاريا، وجمهورية التشيك، وبولندا، وأوكرانيا لا يزالون يشترون كل أو معظم الغاز الطبيعي من شركة غاز بروم. بولندا وأوكرانيا لديها ما يكفي من إمكانيات ودائع الصخر الزيتي لتحرير نفسها تماما من هذه التبعية. على الرغم من عدم مباركة بلغاريا وجمهورية التشيك بذلك، حيث يمكن للإنتاج المحلي المتواضع من تحدي سلطة غاز بروم التي تحتكر تخفيض سعر الغاز الطبيعي المستورد. ويتوقع بعض المحللين أن الطلب الآسيوي على الطاقة لا نهاية له تقريبا، وبالتالي فمن غير المرجح أن أسعار الطاقة يمكن أن تنخفض إلى حد كبير. ولكن كما يقول محللوا مورجان ستانلي فان النمو الاقتصادي سيتباطأ في آسيا وقد يتسطح قريبا. وفي الوقت نفسه تتزايد إمدادات الطاقة من مصادر غير تقليدية، حيث اكتشف حديثا حقول الغاز تحت سطح البحر قبالة ساحل شرق افريقيا واسرائيل، وهناك زيادة في الحفر في منطقة القطب الشمالي، لذلك فإن العالم قد يتمتع قريبا بتخمة الطاقة. وعلى أقل تقدير، فعصر انخفاض أسعار الطاقة العالمية يبدو لا مفر منه.

بالنسبة لروسيا، فإن أفضل سيناريو هو أن وفرة الطاقة وقلة العائدات سيجبر الى البدء بالإصلاحات الهيكلية بشكل أقرب إلى تلك التي خضعت لها استونيا وبولندا في التسعينات والتي لم تكتمل روسيا. هذه التغييرات يمكن أن تؤدي في النهاية إلى إقامة ديمقراطية حقيقية وسيادة القانون هناك. في السنوات المقبلة، سوف تتحول مجرد الضرورة الاقتصادية التي تلوح في الأفق والإفلاس الى إجبار روسيا على الإصلاح. ولكن على مر التاريخ الروسي، فالتحديث لم يؤد عادة الى تحرير، وهناك القليل من الأدلة أن هذا الوقت سوف يكون مختلفا.

ومع ذلك، فتكنولوجيا الطاقة غير التقليدية لم تصل بعد لترسم الخطوط الجديدة لخريطة الطاقة في العالم، لكن سيتم تشغيل وتغيير العديد من الحقائق الجغرافية السياسية والأقدم والأكثر استقرارا في ضوء الاكتشافات التقنية الجديدة.

الانتقام من الأكراد .... الانفصال عن بغداد

كردستان العراق بابتهاجهم وباحتفالهم بثروتهم النفطية المكتشفة حديثا تزداد بعدا عن الحكومة المركزية والاختلال في بغداد.
بعد قيام الدولة - الحلم النهائي لأكراد العراق - من المرجح سيتأجل مرة أخرى، وستنتقل كردستان العراق إلى الاعتماد أكثر الى حضن تركيا.

المزاج العام في أربيل والسليمانية، ودهوك - أكبر المدن الثلاث في كردستان العراق - مزدهر حديثا في هذه الأيام، ولسبب وجيه. أكراد العراق، الذين يشغلون المنطقة شبه المستقلة التي تديرها حكومة إقليم كردستان، لديها الكثير للاحتفال. يتمتعون بالسلام والاستقرار النسبيين مقارنة مع بقية البلاد، يتباهى المجتمع المفتوح بشكل معتدل، وخلال السنة الماضية، تلقى اقتصادهم الوليد الدعم من بعض الشركات ومن أكبر شركة للنفط في العالم ، بما في ذلك شركة إكسون موبيل، شيفرون وتوتال، وغاز بروم، والتي وقعت عقود التنقيب مع حكومة اقليم كردستان. ليس فقط كردستان العراق يشهد طفرة غير مسبوقة بالنماء، ولكن شعبه والتعبير عن الافكار اصبح الآن لا يمكن تصوره: اليوم سوف يتحرر من بقية العراق عن قريب.

كما أن الأكراد نمو بشكل متزايد مبتعدين عن حكومة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، والعلاقات الشخصية بين المالكي ورئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني، قد وصلت إلى أدنى مستوياتها، والنزاعات تتركز على السلطة، والأرض، والموارد. وحاول بارزاني وغيره من معارضي المالكي للإطاحة برئيس الوزراء من خلال تصويت على سحب الثقة.

وكما اجتاحت المظاهرات الشعبية أنحاء العالم العربي في عام ٢٠١١، أمل العديد من صناع السياسة الأمريكيين والمحللين أن هذه الحركات ستكون فاتحة لعهد جديد في المنطقة. ووصف باراك أوباما الانتفاضات بأنها "فرصة تاريخية" للولايات المتحدة "لمتابعة العالم كما ينبغي أن يكون" ورددت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون هذه التعليقات، معربة عن ثقتها بأن التحولات من شأنها أن تسمح لواشنطن المضي قدما "نحو الأمن والاستقرار والسلام والديمقراطية" في الشرق الأوسط .

كانت النتائج الأولية ملهمة فالانتفاضات ذات القاعدة العريضة ازالت من تونس زين العابدين بن علي، وحسني مبارك من مصر، ومعمر القذافي من ليبيا عن السلطة . ومنذ الاطاحة بهؤلاء الحكام المستبدين، قامت الدول الثلاث بالانتخابات التي اعتبرها المراقبين الدوليين تنافسية ونزيهة، والملايين من الناس في جميع أنحاء المنطقة يمكنهم الآن من التعبير بحرية عن آرائهم السياسية...

بعد ثلاثة اعوام من اندلاع ما أصبح يعرف باسم الربيع العربي، امست الديمقراطيات الناشئة في شمال أفريقيا تكافح من أجل المضي قدما أو حتى الحفاظ على سيطرة الحكومات، في الخليج العربي وأماكن أخرى حافظت على الاستقرار في الخليج، وفي سوريا كان الانزلاق أعمق من أي وقت مضى الى حرب اهلية تهدد بإشعال الشرق الأوسط بحرب مفتوحة للنظام الاستبدادي القديم .

في يونيو ٢٠١٣ رفض الجيش المصري الديمقراطية الجديدة فعطل البرلمان واعاد عقارب الساعة إلى الوراء واندلعت النيران حول الرئاسة واصبح صعود الرئيس المصري محمد مرسي على السلطة في تشرين الثاني محاولة للحنين إلى الماضي. وخلال القرن الماضي - بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب العالمية الثانية، وخلال الموجة الثالثة كما تسمى في العقود الأخيرة اصبحت الرغبة في الديمقراطية كطريقة للحكم في مناطق معنية شكلا من اشكال التقدم السياسي، وضد الاضطراب من العهد الجديد. وما يبدو ان التنمية السياسية في الواقع ومثلما بدأت في الغرب بقدر ما في الشرق الأوسط، لكن الطريق أمامنا يغرق إلى الأمام ويحن للعودة الى الوراء ...

وجه الثورات التي تجتاح الشرق الأوسط تحمل شبها واضحا للزلازل السياسية السابقة كما هو الحال في أوروبا في عام ١٨٤٨، وقد أدت الى ارتفاع أسعار المواد الغذائية وارتفاع معدلات البطالة والاحتجاجات الشعبية من المغرب إلى سلطنة عمان وكما هو الحال في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي في عام ١٩٨٩، وقد أدى الإحباط مع الأنظمة السياسية المغلقة، والفاسدة الى الانشقاق بين النخب وسقوط الأنظمة القوية مرة واحدة في العراق وفي شمال العراق على وجه التحديد.

فبينما تحاول أنقرة احتواء أكراد العراق وبرعاية سرية من إسرائيل، ولهذا لعبت أنقرة دورا خفيا في عملية تشكيل الحكومة العراقية ٢٠١٠ التي أنتجت بـ ٤٣ وزارة، والغاية منها منع بروز معارضة في البرلمان العراقي، أي أشراك الجميع في الحكومة لكي تمضي المشاريع الخطيرة والمتبقية في العراق، والتي ستنفذها الحكومة العراقية - سرا او جهرا - ولكن الاحتواء التركي للأكراد مشروخا لأن هناك احتواء إيراني موازٍ لأكراد العراق، وهو أقدم بكثير من الاحتواء التركي، والولايات المتحدة تعرف بهذا، فسارعت فخلقت لنفسها لوبيا كرديا غير متصالح مع جناح "البرزاني" ومتخاصم على الدوام مع جناح "الطالباني" وهو الذي يمثله جناح " نيشروان - التغيير" وهو الجناح الذي لوح أخيرا بـ" الانتفاضة" الشعبية، التي ساندها الشعب الكردي وهذا ما يخيف البرزاني هذه الأيام، خصوصا وأن هناك

تحركات شعبية قد انتشرت أخيرا في العراق، وبالضد من النظام السياسي في العراق.

وبعد الاعتراض الشعبي على دعوات بعض القادة السياسيين والقادة القبليين في الأنبار حول " تأسيس أقليم الرمادي" وهي الدعوات التي تصب في مشروع " تقسيم العراق" وحاول البعض تجميل الدعوة عندما قال " ننادي بإقليم مشترك بين الرمادي وكربلاء" وهي الدعوة التي حوربت أيضا لأنها احتيال والتفاف على الدعوة الأصلية والمثبتة في أجندة الدوائر الأميركية، والتي وقع ووافق عليها بعض القادة السياسيين والقبليين من " السنة".

كما لا يمكن انكار حقائق مهمة للغاية، وهي أن هناك أقاليم أصبحت جاهزة وهي:

- الإقليم الكردي ، والمرشح الى ثلاث أقاليم صغيرة.
- اقليم الموصل، والذي قطع شوطا كبيرا في الإعداد السري له مع الأتراك.
- اقليم كركوك ، والمرشح الى ثلاث أقاليم صغيرة، وبالتفاهم السري مع الأتراك وإسرائيل.
- اقليم سهل نينوى " مسيحي" والذي قطع شوطا كبيرا بدعم المسيحية الصهيونية.
- اقليم الأنبار وهو الإقليم "السوبر" بالنسبة لإسرائيل والاردن والمرشح وطنا بديلا للفلسطينيين.
- اقليم الفرات الأوسط " حلة ، الديوانية، والسماوة".
- اقليم الجنوب العراقي " الناصرية والبصرة والعمارة وأجزاء من الكوت.
- إقليمان دينيان "صغيران" بمواصفات خاصة جدا تشبه "الفاتيكان" في النجف، وكربلاء.
- اقليم خاص " وخطير" يتكون من ما تبقى من محافظتي " ديالى، والكوت، وصولا للحدود الإيرانية شرقا، وبمدينة الصدر غربا" .

هذه الأقاليم التسعة التي رسمها نائب الرئيس الامريكي بايدن ومستشاره للأمن القومي الأميركي تكمن خطورتها في البداية ببقاء الولايات المتحدة في العراق ولـ"

٣٠ عاما" مقبلة لضمان نجاح تلك الاقاليم، واليوم نلمس بأن هناك ملامح لهذه الأقاليم التسعة، وأن هناك قوى عراقية مدعومة من الخارج تعمل سرا على تطبيق هذا السيناريو الخطير.

اما مشروع تقسيم العاصمة بغداد فالمخيف فيه ان هذا المشروع " تقسيم العاصمة بغداد" الى عدة جيوب أي هناك مخطط لفرض نظام يشبه "الغيتو اليهودي" في العاصمة بغداد، وهو المشروع الذي من أجله أعطيت المناصب العليا في العاصمة بغداد الى شخصيات ليس من سكنة العاصمة بغداد لتباشر في عملية التمهيد لهذا المشروع، وهي مرتبطة بأحزاب وجماعات قد وقعت على وثائق سرية في واشنطن عام ٢٠٠٢ والحقتها بوثائق سرية أخرى طيلة السنوات الماضية تتعلق بمشروع احتلال العراق وتقسيمه.

وأن الإهمال المتعمد في الأعمار والتنمية والإصلاح هو مرتبط ارتباطا مباشرا في مشروع الدوائر الأميركية المرتبطة باللوبي الصهيوني والذي ينص على "تقسيم العراق بشكل عام، وبغداد بشكل خاص" وهو الأمر المتعلق ببيع الأراضي المحاذية لدجلة الى مافيات حاكمة واشهرها مافيا الجلبي والتي تعمل بشكل مباشر تحت مظلة المافيات اليهودية. فالعاصمة بغداد مقسمة من حيث المبدأ ، وتقسيمها على أساس " طائفي ومذهبي" من حيث المبدأ ولكن الجانب الكردي وبدعم إسرائيلي سارع ليكون له موطأ قدم في تقسيم "العاصمة بغداد" أيضا والغاية تأسيس مخلب كردي مملوك لإسرائيل في داخل العاصمة بغداد، أي تأسيس " غيتو قومي" للأكراد يكون ساحة عمليات لإسرائيل.

فعملية التهجير التي تمت في حي " الصالحية" مثلا في العاصمة بغداد هي ورقة خطيرة تقود لتقسيم العاصمة بغداد، ليتم تأسيس الإقليم الكردي في حي الصالحية، وهي المنطقة التي أستحوذ عليها الأكراد وبتخطيط إسرائيلي. فحال سقوط النظام العراقي أصبحت مغلقة " أمنيا واستخباريا وعسكريا" على جميع الحكومات التي حكمت العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، ولن نستغرب ما حدث أخيرا من أطلاق نار من مجموعات كردية ضد المتظاهرين الذين رفضوا التخلي عن بيوتهم، ولم يتجرأ أي نظام سياسي أو حكومة أو حزب غير كردي من التوغل أو معرفة تضاريس منطقة " الصالحية" التي أصبحت " كردستان مصغرة بخدمة إسرائيل" في داخل العاصمة بغداد والتي تمتد من حديقة الزوراء وصولا الى شواطئ دجلة.

العمارة رقم " ٤" في الصالحية ـ على سبيل المثال ـ والتي تحرك ملفها قبل أكثر من عام كانت الغاية منه هو تفريغ تلك العمارة تحديدا لكي يسكنها عملاء

الموساد الإسرائيلي ورؤساء وموظفي الشركات الإسرائيلية ولأنها العمارة التي تطل على " المنطقة الخضراء" تماما وتكشف جميع تضاريس ومكاتب الحكومة والأحزاب والسفارات الأجنبية. لقد كانت عملية التهجير من الصالحية مقصودة ومتفق عليها بين الأكراد وأطراف سياسية حاكمة والهدف هو " تقسيم العاصمة بغداد الى أقاليم صغيرة، وسيكون من حصة الأكراد أقليم الصالحية وضواحيه وصولا لشواطئ دجلة كلها" فالأكراد الذين يسكنون في بغداد يقال أن تعدادهم حوالي " ٦٠٠ ألف نسمة" ولقد زيد خلال السنوات الثمانية وبدعم من الأحزاب الكردية ليكونوا أكثرية تستحق أن يكون لهم " أقليم خاص" علما أن هؤلاء الـ ٦٠٠ ألف كردي في بغداد لم يتعرضوا يوما الى اختطاف، أو تجاوز، أو ابتزاز، أو اجتثاث، أو تهجير ، وليس بينهم عاطلا عن العمل.

ان خطر الأجندات الغربية والشرقية التي تنفذها الأحزاب الكردية في العراق وتحديدا في العاصمة بغداد، من خلال شغلهم " وزارة الخارجية العراقية" وأخيرا أضيف لهم وزارتي التجارة والصحة وغيرها من الوزارات الخطيرة مثل وزارة الأمن الوطني والتي سوف يؤخذ مقرا لها في " بناية أتحاد نقابات العمال" والغاية لكي تؤخذ هذه البناية وللأبد والمناطق المحيطة لتضاف الى " أقليم الصالحية" الذي سيكون أقليم كرديا. والتي تمثل عصب الدولة والنظام في العراق مع ما يخططون له من أن تكون الصالحية وضواحيها ملكا لأكراد العاصمة بغداد، أي في جعلها أقليم مغلق للأكراد لن تجرؤ الدولة على دخوله أبدا، وتكون الصالحية " غيتو كردي مغلق" ضامن لوجود إسرائيلي فيه على المدى المتوسط والطويل.. مثلما صارت الكرادة "غيتو طائفي لجماعات ايران المحلية، والذي سوف يتطور في المستقبل ليصبح غيتو قومي فارسي".

الفصل الثاني

مبادئ اهل السنة وتأسيس مجتمع ودولة قائمة على المبادئ الاسلامية والانسانية

- هوية الأمة ومفهوم أهل السنة والجماعة

د محمد عياش الكبيسي

التحديات التي تواجه الهوية السنية وتحديات التمثيل السياسي والاحزاب.

- التحديات التي تواجه الهوية السنية وسبل مواجهتها

د ميسر أحمد المكي

- المحدثون ومصطلح (أهل السنة والجماعة): الاتفاق والافتراق

د. محمود المصري

مدارس اهل السنة وتأثيرها على تأسيس الهوية السنية.

- دور الإجازات العلمية في بناء هوية الأمة (الإجازة البغدادية نموذجا)

د. عثمان سعيد العاني

تجارب البلدان الاسلامية المعاصرة في تعامل الاسلاميين مع الاخرين.

- المرجعية الإسلامية مرشّحًا لإدارة الحياة المعاصرة

د. محمود أبو الهدى الحسيني

المقدمة:

تاسيس الهوية السنية ينحصر بين التاصيل الشرعي لها والتاسيس الحضاري التي يتم بموجبه معرفة وبناء الشخصية السنية بكافة جوانبها. والبحث عن هذا التاسيس يستوجب طرح اسئلة قبل البحث عن اجابات جاهزة وذات قوالب يمكن تركيبها واسقاطها على الوضع الراهن. واول تلك الاسئلة الواضحة هل يمكن لمبادئ اهل السنة في الشرق الاسلامي من تاسيس مجتمع ودولة قائمة على المبادئ الاسلامية والانسانية العامة. وان التجارب بين الامم الاسلامية المعاصرة في تعامل الدين مع الاخرين ممن يتخذون من المناهج المدنية تحتاج الى اعادة النظر ام انها اتخذت ابعادها كافة لتكون بهذه الصورة. فتحول الفكرة الى مشروع يستوجب العودة الى التاريخ وقبلها الى البحث عن محور الغيب في الهوية والعلاقة بين الاسلام والهوية والابعاد كافة من القومية والفكرية والثقافية والاجتماعية وحتى الاقتصادية .

فالمعالجات كون الاسلام دين الرحمة ويرنو الى الوحدة بين الامم وهو دين الرحمة بلا جدل ورغم وضوح النص الديني في هذا المجال نرى ان الناس قد تفرقوا وهو ما يقابله ان الاختلاف رحمة وجاء لتسهيل الحياة اليومية. وقد لعب تطور المفاهيم الدينية ليخلق نوع من التوازن والسلم الاجتماعي. واصبحت المدرسة السنية مصدرا للتعايش السلمي بغض النظر عن نظرة السلفيين لباقي اهل السنة.

ازمة السلم بين الشيعة واهل السنة والتعصب الديني ورفض الاخر واتهام كلا الطرفين بعضهم للبعض الاخر تجعل اهل السنة يتسائلون اين الخطا الذي وقع فيه اهل السنة بهذا الامر وما هو الهدف من التامر على اهل السنة وهل سيبقى اهل السنة يدافعون عن انفسهم وعقائدهم امام الاخرين وتحسب افكارهم داخل ردود افعال الاخرين ومتى يستطيع اهل السنة من التجرؤ والتقدم بمفاهيم وقيم اصيلة وجديدة.

ولاننا وصلنا الى درجة الى اعتبار ان الامة السنية وهي الغلبة الغالبة من مجموع المسلمين في العالم تشعر الان ان التهديد الحقيقي بدا من الشيعة كقوة مهددة للسنة. واصبح الصراع الشيعي السني تصادم بين الايمان والهوية وبين هويات متضاربة واصبح مجموع ما يعيشه السنة اليوم في الشرق الاسلامي خاصة هو من وراءه الشيعة وايران وتناسينا او بدانا ننكر التحديات الاخرى التي واجهناها طوال القرن الماضي من القوى العالمية المختلفة. ولنا ان نتجرأ على السؤال هل الشيعة والسلفيون هما مصدر التناحر وان الاصولية لدى الطرفين وربما لدى الاطراف الاعتقادية الاخرى من الذين يدعون الى فرض اعتقادهم بالقوة مع اعتبار ان الخلافات اللاهوتية كانت ومازالت مغذية الصراعات. من الجانب الاخر هل لدينا الشجاعة والاعتراف بان من يمثلون الوسطية وطوائفهم واحزابهم هم من يمثل اهل السنة؟

لازلنا نعتقد اننا حينما نتكلم عن جمهور الاسلام فنحن نعني اهل السنة فهم ليسوا طائفة وانما هم جمهور المسلمين. لذلك توجب اختيار لغة الحوار والمبادرة بالتخطيط للعمل المستقبلي بغية التكامل وضمن جداول زمنية محددة تحت مرتكزات واضحة تعد كمشتركات مستقبلية وتتلخص بالمصالح والثقافة والتنمية تحدد رسم الاستراتيجيات المستقبلية . ويمكننا اعتبار هذا الملتقى واللقاء الخطوة الاولى الذي سيسير بهذا الاتجاه.

مبادئ اهل السنة وتأسيس مجتمع ودولة قائمة على المبادئ الاسلامية والانسانية

هوية الأمة ومفهوم أهل السنة والجماعة

د محمد عياش الكبيسي

مقدمات

الهوية: التعريف :

يعد مصطلح الهوية من المصطلحات المستحدثة، ولا يعرف أصل لغوي لاشتقاقها إلا ضمير الغائب (هو)،فكأنها تقع جوابا لسؤال: من هو؟

وربما جاءت النسبة لضمير الغائب لأنه الأحوج للتعريف بخلاف ضمير المتكلم المعرف بالذات، وضمير المخاطب المعرف بالحس والمشاهدة.

وفي معناها الاصطلاحي لا تبعد الهوية عن أصل اشتقاقها اللغوي، إذ هي تعريف بآصرة الانتماء والولاء التي تميز مجتمعا ما عن غيره.

إذاً الهوية لا تعنى بكل الأفكار والسلوكيات والنقاشات العلمية إثباتا ونفيا واستدلالا وتفصيلا، بل هي معنية بالصورة الكلية للمجتمع بحيث يتحصل في الذهن التمييز بين هذا المجتمع وغيره.

الهوية... العناصر :

تختلف العناصر بحسب اختلاف الهويات، فالهوية المبنية على فكرة أو معتقد تختلف عن الهوية المبنية مثلا على أساس النسب أو الوطن، ويمكن الإشارة هنا إلى أهم العناصر التي تتشكل منها الهوية في الغالب:

أولا: محور الولاء، وهذا هو العنصر الأساس، فالدين هو محور الولاء في الهوية الدينية، والأرض هي محور الولاء في الهوية الوطنية، والنسب هو محور الولاء في الهوية القبلية.. وهكذا، وكل العناصر الأخرى إنما تنبثق من هذا العنصر وتدور في فلكه.

ثانيا: التراث، ويقصد به المعالم الرئيسة التي أفرزتها الحركة العلمية والثقافية المتفاعلة مع محور الولاء، فهناك جهد علمي وفكري يبذله المنتمون لهذه الهوية أو تلك تفسيرا وشرحا أو حوارا ونقاشا أو تقعيدا وتأصيلا.. الخ

ثالثا: التاريخ، ويقصد به المعالم الرئيسة للجهد العملي الميداني المتفاعل مع محور الولاء، بناء الدول والإمبراطوريات، الصراعات والتحديات الكبرى.. الخ

رابعا: الرموز العلمية والقيادية، فالعنصران الثاني والثالث لا بد أن يفرزا قيادات ثقافية وميدانية، ثم تتحول هذه القيادات إلى رموز مرتبطة بالهوية ارتباطا وثيقا بحيث أن اسم الرمز يستدعي في الذهن الهوية بكاملها

خامسا: الفن، ويقصد به طريقة المجتمع في تعبيره عن هويته واعتزازه بها، وهذا باب واسع يتضمن الشعارات والرايات والنشيد الوطني والأزياء والأعياد ..الخ

الهوية: الأنواع

تصنف الهوية بشكل عام إلى أنواع كثيرة، وهذه التصنيفات تؤثر في السلوك الإنساني المستند إلى الهوية انفتاحا أو انغلاقا، ومن تلك الأنواع :

أولا: الهوية المفتوحة، وهي الهوية التي تسمح لكل إنسان بحملها والانتساب إليها، وهذا الشأن العام في الديانات والمذاهب الفكرية والفلسفية.

ثانيا: الهوية المنغلقة، وهي عكس الأولى، وهذا الشأن العام في القوميات والأوطان والقبائل.

ثالثا: الهوية المتداخلة، وهي الهوية التي يمكن أن تدخل في إطار هوية أوسع، وقد يختلف شكل التداخل بحسب الفلسفة الناظمة، فمثلا يرى البعض أن الهوية الدينية هي الأوسع وتدخل في إطارها الهوية الوطنية، بينما يراها البعض معكوسة، فيتحدثون عن الهوية الدينية كهوية فرعية في مقابل الهوية الكبرى وهي الوطنية أو القومية.

رابعا: الهوية المتضادة، وهي لا تكون إلا بوجود هويتين يستحيل الجمع بينهما، مثل الهوية الإسلامية مثلا مع الهوية المسيحية، وكذلك الهويات المستندة على الأسس العرقية والقومية.

خامسا: الهوية المرنة، وهي الهوية التي تحتمل الاجتهاد والتنوع الداخلي، فالهوية الإسلامية تتسع للكثير من المذاهب والاجتهادات المختلفة، وكذلك الدولة الديمقراطية الحديثة القائمة على حرية الاختيار والتعددية.

سادسا: الهوية الحادة، وهي الهوية التي لا تقبل إلا شكلا واحدا من الأفكار، وفيها شروط قاسية للانتساب، وهذا شأن التنظيمات العسكرية والأحزاب الشمولية.

سابعا: الهوية المزدوجة، وهي الهوية التي تكون إلى جوار هوية أخرى من دون تداخل أو تضاد، وذلك مثل من يمتلك جنسيتين اثنتين، فهو يشعر بالانتماء لهذه الدولة وللدولة الثانية معا وفي وقت واحد.

أهل السنة والجماعة وهوية الأمة

تحليل المصطلح

هناك تصورات كثيرة ومختلفة عن دلالة مصطلح (أهل السنة والجماعة) والحقيقة أن هذا المصطلح لا يحتمل كل تلك الدلالات أو التصورات، فأهل السنّة لا تعني إلا أهل الإسلام، لأن المدلولات الأخرى لكلمة السنّة لا صلة لها بالموضوع وتحمل في داخلها ما يؤكد هذا التباين، فالسنّة قد تطلق ويراد بها (الحديث النبوي الشريف) وهذا المعنى قطعا ليس هو المراد هنا، فالسنة هنا مصدر للتشريع يأتي بعد القرآن الكريم، وأهل السنة يؤمنون بمصدرية القرآن أولا ثم السنة ثم بقية المصادر المعروفة في كتب الأصول، ولا وجه لاختصاص التسمية بهذا المصدر دون بقية المصادر.

وتطلق السنة على معنى النافلة والمستحب ويقابلها الواجب، وهذا المعنى أيضا لا علاقة له بالموضوع، إذ يبعد اختصاص أهل السنة بالنوافل دون الواجبات والأحكام التكليفية الأخرى.

ولكن حينما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي) فهذا معناه طريقتي، وطريقته عليه الصلاة والسلام هي الإسلام، وليست جزءا من الإسلام، ومن ثم فالمراد بمصطلح(أهل السنة) إنما هو (أهل الإسلام)

أما (الجماعة) فمن المقطوع به أن لم تكن هناك جماعات أو أحزاب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا أطلقت هذه اللفظة أيام رسول الله فلا يمكن أن تحمل إلى على جماعة المسلمين كل المسلمين، وهذا بالضبط هو المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام (عليكم بالجماعة) وعليه فالجماعة في هذا المصطلح إنا هي الأمة، لكن هوية الأمة من النوع الواسع والمرن والذي يقبل الاجتهاد والتعددية في إطار الثوابت المعروفة.

وعليه فحينما نقول :هوية أهل السنة والجماعة، أو نقول: هوية الأمة الإسلامية، فإننا نتكلم عن هوية واحدة وبدلالة التطابق التام.

لماذا أهل السنة والجماعة ؟

هناك تساؤل قد ينقدح في الذهن وهو إذا كان أهل السنة والجماعة هم الأمة فما فائدة هذا المصطلح؟ أو ما المبرر لوجوده إذا كان لا يضيف معنى جديدا؟

إن هذه الأمة سماها القرآن الكريم بقوله :(هو سماكم المسلمين) وهذا الاسم يجمع كل من ينتمي للاسلام تحت هوية واحدة لها أركانها ومعالمها، لكن بعد خروج الفرق المنحرفة والتي خالفت الأمة في معلم من معالم هويتها أو أكثر مع أنهم لم يتنصلوا من اسم الإسلام ولا من مسمى المسلمين، اقتضت الحاجة أن نميّز بين من بقي من المسلمين على الهوية الإسلامية الأصيلة وهم السواد الأعظم في الأمة، وبين من خرج في أصل من أصولها أو معلم من معالمها، سواء حكمنا بخروجه من الملة أو لم نحكم، إذ أن المعتقدات أو الأفكار المخالفة لهويتنا الإسلامية ليست على درجة واحدة، فمنها ما يصل إلى درجة الردة والكفر ومنها ما هو دون ذلك، فأهل السنة والجماعة هم المتمسكون بالهوية الأصيلة بأركانها ومعالمها الأساس، والآخرون هم من خرموا معلما في تلك الهوية أو أكثر ولم يكن ذلك المعلم محل اجتهاد معتبر.

إن اختيار مصطلح (أهل السنة والجماعة) عند خروج الفرق والطوائف المختلفة في تلك المرحلة من التاريخ أشبه ما يكون باختيار مصطلح (الإسلاميين) اليوم، والذي يميز مجموعات من المسلمين تتفق على حماية الهوية الأصيلة للإسلام بخلاف غير الإسلاميين الذين يعملون وفق مناهج أخرى لا تنبثق من الهوية الإسلامية وإن لم تكن تصل إلى مستوى الردة والخروج من الملة.

عناصر الهوية الإسلامية السنّية

بمنهج علمي وموضوعي يستطيع أي باحث أن يصل إلى حقيقة أن الهوية السنّية هي نفسها الهوية الإسلامية، وربما نستطيع هنا أن نتتبع بإيجاز عناصر الهوية الإسلامية لنكتشف أنها هي نفسها عناصر الهوية السنية:

أولا: في محور الولاء (الإسلام) وهو العنصر الأساس في الهوية، يرفض أهل السنة الزيادة أو النقص في هذا المحور، بل ويرفضون حتى مجرد التقديم أو التأخير ولنأخذ النماذج الآتية:

١- الإيمان با لله، هو محور الهوية الإسلامية في جانبها الغيبي وهو أساس العقيدة وركن الإيمان الأول، وأهل السنة مجمعون على أن لا يقدموا شيئا على هذا الأصل مهما كان، ومن هنا جاء اهتمام أهل السنة بمسألة التوحيد.

٢- محمد –عليه الصلاة والسلام- هو محور الهوية الإسلامية في جانبها البشري، وأهل السنة لا يقدمون بشرا ما على رسول الله، بل هم لا ينظرون إلى كل إنسان إلا من خلال قربه أو بعده من رسول الله، وهذا بخلاف الشيعة الذين جعلوا من الحسين محورا لهويتهم، حتى وصل الاهتمام بذكره وحادثة استشهاده أكثر من ذكر رسول الله وسيرته المباركة.

٣- القرآن هو محور الهوية الإسلامية في جانبها العلمي والمعرفي، وكل المصادر الأخرى تستمد حجيتها من القرآن، وكل المعارف الأخرى إنما توزن بميزان القرآن، وهذا هو شأن أهل السنة في تعهد القرآن تلاوة وحفظا وتفسيرا، بل إنه لا يوجد في سلسلة من روى القرآن الكريم ونقله عبر الأجيال إلا من أهل السنّة، فالشيعة مثلا لا يملكون سندا واحدا للقرآن عن أئمتهم! وبالتالي فهم يقعون في التناقض حينما يؤمنون بالقرآن –على خلاف بينهم- ويكفرون أو يفسقون الصحابة والتابعين الذين جمعوا القرآن ونقلوه.

٤- الكعبة هي محور الهوية الإسلامية في جانبها المكاني، فلا يصح تعظيم بقعة ما من الأرض أكثر من الكعبة، وهذا هو شأن أهل السنة بخلاف الشيعة الذين جعلوا كربلاء أهم من الكعبة نظريا وعمليا، ويكفي الاطلاع على ما كتبه علي شريعتي تحت عنوان (كربلاء أم الكعبة؟) في كتابه المعروف التشيع مسؤولية.

٥- رمضان هو محور الهوية الإسلامية في جانبها الزماني، واهتمام أهل السنة برمضان صياما وقياما وابتهاجا لا يدانيهم فيه أحد، بل إنك تمر في المدن المختلفة أيام رمضان فتستطيع أن تميّز المدينة السنية عن غيرها.

هذه النماذج تشكل فارقا جوهريا بين أهل السنة وغيرهم، كما أنها تدل دلالة قاطعة أن أهل السنة لم يبتكروا لهم معالم جديدة في هويتهم لتميزهم عن غيرهم، وهذه العناصر الخمس لم يكن للاجتهاد البشري دخل في اختيارها أو ترتيبها وإنما هو الوحي المنزه، ولذلك عرف عن أهل السنة قولهم (لله خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص) بمعنى أن الله هو الذي اختار هذه المعالم لهويتنا وليس للبشر دخل في هذا، لكنك لو سألت الشيعي مثلا عن سند من الوحي لاهتمامه بيوم الطف أو التربة الحسينية.. الخ فإنه يعجز لا شك لأن الصنعة البشرية بادية في هذه المعالم.

ثانيا: في محور التفاعل البشري مع الوحي المنزل، نجد أن أهل السنة منسجمون مع كل ما أنتجته الأمة ويشعرون بالانتماء إليه، ولنأخذ هذه النماذج:

١- في التاريخ الإسلامي، ينسجم أهل السنة مع العصر الراشدي ويفضلونه على غيره ثم العصر الأموي والعباسي والعثماني، ودول الإسلام الكبيرة كالدولة الأيوبية ودولة الإسلام في الأندلس ودولة المرابطين والموحدين.. الخ بينما نجد الطوائف الأخرى لا تتقبل هذا التاريخ مع أنه تاريخ الأمة، وهذا يدلل على أن أهل السنة هم وحدهم الأمناء على هوية الأمة.

٢- في التراث الإسلامي، يعتز السنة بكل المدارس الكلامية والفقهية التي امتزجت مع حركة الأمة التاريخية، فجهود الأمة العلمية والثقافية محط اهتمام أهل السنة على اختلاف توجهاتها واجتهاداتها، فترى السنة يقرؤون لأبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد ويقرؤون لابن حزم وداود الظاهري كما يقرؤون للأوزاعي والليث بن سعد، ويهتمون بما كتبه الماتريدي والأشعري وابن تيمية على ما بينهم من الخلاف في الاجتهاد والاستنباط، ويعظمون من شأن المفسرين والمحدثين وكل العلوم والفنون الأخرى.

٣- في الرموز الإسلامية، حيث يتغنى أهل السنة بكل رموز الأمة ويوثون حبهم وتعظيمهم للأجيال، مع اختلاف الرموز هؤلاء في مواقفهم وتوجهاتهم، فالمعتصم ينتمي لمدرسة كلامية وفكرية تختلف عن مدرسة صلاح الدين الإيوبي ومحمد الفاتح، لكن أهل السنة يعتزون بهم جميعا، وهذا دليل آخر على مدى الانسجام أو التطابق بين هوية الأمة وهوية أهل السنة والجماعة.

٤- في التعبير الفني عن معالم الهوية، فأهل السنة يعتزون بكل ما أنتجته الأمة في هذا المجال تعبيرا عن ذاتها واعتزازا بهويتها، فشكل الكعبة وزخرفتها جهد بشري لكنه محل اهتمام أهل السنة وكذلك المصف الشريف المطبوع بهذه الخطوط والزخارف المميزة، وقريب من هذا اهتمامهم بالآثار الإسلامية في الأزهر ومساجد اسطنبول ومدارس بغداد والزيتونة والقيروان ومسجد قرطبة.. الخ فأهل السنة لا يفقون في هذا بين المنتج العربي أو العثماني، أو التراث الحنفي أو الحنبلي.

من هم أهل السنة والجماعة؟

في خضم المنافسات الداخلية قد يحاول البعض أن يحتكر هذا الاسم لهويته المذهبية الفرعية، كما ادعى بعض الأشاعرة قديما أنهم هم أهل السنة، وكما يدعي بعض السلفية اليوم هذا الادعاء، وهذا نمط من التفكير خطير لكن خطورته تبقى منحصرة في إطارها النظري والنفسي ولا يمكن أن يغير من الواقع شيئا.

أهل السنة والجماعة ليسوا مذهبا فكريا ولا فقهيا ولا حزبا سياسيا ولا مجموعة دعوية أو إصلاحية، أهل السنة هم الأمة بكل تاريخها ورموزها ومذاهبها واجتهاداتها، ويمكن وضع معيار دقيق فيمن ينطبق عليه هذا الاسم فنقول: كل من

يشعر بالانتماء لهذه الأمة وهويتها الجامعة بعناصرها ومعالمها المعروفة فهو داخل في مسمى أهل السنة والجماعة، بغض النظر عن انتمائه الفرعي قوميا أو قطريا أو مذهبيا أو حزبيا، وبغض النظر عن مستوى التزامه السلوكي العملي، فأهل السنة ليسوا رابطة للصلحاء والفضلاء، وبهذا تنفتح الهوية السنّية لتجمع بين السنة بمعناها الديني وبين السنة بمعناها المجتمعي.

وفق هذا المعيار يمكن تصنيف الخارجين عن هذه الهوية بالآتي:

١-الخارجون من الملة بإنكار معلوم من الدين بالضرورة كمن ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أو يقول بتحريف القرآن ونحو هذا.

٢-الخارجون عن الأمة بالتنكر لتاريخها وأمجادها كمن يتبرأ من الخلفاء الراشدين وجيل الفاتحين، أو يعتقد أن هذه الأمة قد ارتدت بعد نبيها، أو يسمي الفتوحات الإسلامية استعمارا.. وهؤلاء وإن اختلف في ردتهم إلا أنهم لا ينتمون قطعا لهذه الأمة وهويتها، وعلى هذا وجب تمييزهم عن الأمة أو تمييز الأمة عنهم، والكلام هنا عن الشعور العام، أما من ينتقد ظاهرة معينة في ذلك التاريخ أو موقفا أو شخصا معينا فهذا الباب مفتوح بضوابطه العلمية، فأهل السنة لا يقدسون التراث أو التاريخ البشري لكنهم لا يبخسون تراث الأمة وتاريخها، وبين التقديس والتبخيس يجد المسلم موقعه الذي يجمع بين اعتزازه بهويته وقدرته أيضا على التدقيق والتمحيص، والتمييز ما بين الوحي المقدس وبين الجهد البشري المتأثر به والمتفاعل معه.

من حيث الواقع يمكن الجزم بأن مدلول أهل السنة ينطبق على الآتي:

أولا: من حيث التحقيب التاريخي لعصور الإسلام الكبرى، يتناول المصطلح دولة الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين، وأما الدول الإسلامية المعاصرة فكلها داخلة في الفهوم المجتمعي للسنة عدا إيران، فالشعوب كلها سنية، والحكومات وإن لم تطبق الإسلام كنظام للحكم لكنها في الغالب لا تتنكر له، فهذه الدول هي دول إسلامية سنية، وإن كانت الأنظمة فيها ليست إسلامية، فهذا لا يضر في هوية الدولة وإن كان مضرا بهوية النظام، ولأن النظام لا يعلن خروجه عن الملة ولا عن الأمة، فإذاً هو سنّي مع تقصيره أو ظلمه بمقياس الدين، وهذا ينسجم مع مقولتنا السابقة، أن الهوية السنية ليست رابطة للصلحاء والفضلاء وإنما هي هوية أمة فيها الصالح وفيها الطالح.

ثانيا: من حيث الاجتهاد العلمي والثقافي يستوعب هذا المصطلح كل المدارس الكلامية كالأشاعرة والماتريدية والحنابلة أو السلفية، وكذلك المدارس الفقهية كالمذاهب الأربعة والظاهرية والمجتهدين المعتبرين كالليث والأوزاعي وسفيان الثوري، وكذلك مناهج المفسرين والمحدثين المختلفة، وكذلك المناهج التربوية الصوفية وغيرها.

لكن هناك بعض الإشكالات التفصيلية مثل المعتزلة، والذي أراه أن المعتزلة لم يخرجوا عن مفهوم الأمة، ولا عن مفهوم الملة، والأمة تفخر بإنجازات المأمون والمعتصم، وما حصل من خلاف في بعض المسائل الفلسفية لا يلغي أصل الانتماء والولاء، وهذا ما ينطبق أيضا على الزيدية، فهم وإن اطلق عليه اسم التشيع لكن هذا الاطلاق لم يخرجهم من الملة ولا من الأمة، والعبرة بالحقائق والمعاني

وليس بالألفاظ والمباني، ومثلما نتحفظ على بعض فلسفات المعتزلة نتحفظ على بعض آراء الزيدية في الإمامة والسياسة.

ثالثا: الجماعات الإسلامية العاملة اليوم على اختلاف أسمائها ومناهجها المنتسبين لأهل السنة والجماعة، فهذا انتساب صادق ولا يبطل إلا بدليل قاطع، وأما ما يقال مثلا عن الجماعات الصوفية أو جماعة التبليغ والدعوة أنها جماعات تخالف شمولية الإسلام بتبنيها لطروحات مجزأة وقاصرة، فذا غير صحيح، إذ أن هؤلاء يقرؤون القران والسيرة والسنة ويمنون بذلك كله، أما اختيار الأهداف المحددة في العمل الجماعي واقتصار هذه المجموعة على هدف والأخرى على هدف آخر فهذا لا يخدش في العقيدة أو الهوية، كمن يتفرغ مثلا لتدريس العلم أو لبناء المساجد أو لمساعدة الفقراء، فالإسلام الشامل تقوم به الأمة بمجموعها وليس كل فرد أو مجموعة في الأمة مطالبة بأن تتحمل شمولية الإسلام بكاملها.

رابعا: السواد الأعظم الممتد عبر التاريخ والجغرافيا ممن لم يعرف عنهم خروج عن الملة أو خروج عن الأمة مهما تباينت أفكارهم ومواقفهم وسلوكياتهم، فالمنافسة مطلوبة والتمايز مطلوب لكن داخل الإطار الجامع، فلا يصح أن ينعزل العلماء أو الصلحاء بولاء خاص بهم يعزلهم عن الأمة، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فيأتيه الرجل ورائحة الخمر من فمه، وحينما يقال له :لعنك الله ! يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: (لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله) صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٤٨٩ رقم الحديث ٦٣٩٨

التحديات التي تواجه الهوية السنية وتحديات التمثيل السياسي والاحزاب.

التحديات التي تواجه الهوية السنية وسبل مواجهتها

د. ميسر أحمد المكي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على إمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه واستنّ بسنته إلى يوم الدين وبعد:

فإن من إكرام الله تبارك وتعالى وفضله أن هدانا للإسلام واتباع سنة سيد الأنام ﷺ، بل جعل اتباع سنة النبي ﷺ سبباً للسعادة في الدنيا والفلاح يوم القيامة قال تعالى:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[سورة الأحزاب: (٢١)] وقال تعالى:(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) [سورة النساء: (٨٠)].

وزادنا الله عز وجلّ من فضله أن جعلنا من أهل السنة والجماعة، الذين حفظوا سنة النبي ﷺ وبلغوها، وزادوا عن حياضها وحموها، وحفظوها من كل دخيلة ودسيسة، لأن منهجهم هو المنهج الحق الذي نزل به الوحي الأمين، بعيداً عن الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [سورة آل عمران: (١٠٦- ١٠٧)] قال: الذين ابيضت وجوههم : هم أهل السنة والجماعة، وأما الذين اسودت وجوههم: هم أهل البدع والضلالة، وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى:(وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [سورة طه: ٨٢]. قال: (اهتدى) الهداية: هي لزوم السنة والجماعة.

غير أن أعداء الإسلام ومن لف لفهم، وسار في ركابهم، حاولوا الاعتداء على هذا المنهج النبوي القويم، وعلى هويتنا الإسلامية السمحة، فسخّروا إمكانيات هائلة لمحاولة تشويه صورته، والحط من مكانته، والسعي إلى بث الشكوك والريب في نفوس المسلمين، حتى يعيدوا عصر الخرافات والضلالات، وزمن تقديس الصنم والنار، بلبوس الدين والإسلام، ومظاهر وطقوس الإيمان، لكن سعيهم قد خاب، وعملهم قد بار وسيبور إلى يوم القيامة، مادامت هناك عين ساهرة على سنة النبي ﷺ، وقلم ولسان وسيف يحفظون كيانها من جهل الجاهلين، وتحريف الغالين، وكيد الحاقدين.

لهذا كله، أردت أن أسهم في هذا المؤتمر المبارك، وأدلي بدلوي في بحث عنونته: ((التحديات التي تواجه الهوية السنية وسبل مواجهتها)) وقد تضمن البحث مقدمة وتوطئة وأربعة مباحث هي:

التوطئة: تعريفات ومصطلحات وبيان عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها:
المبحث الأول: خصائص الهوية الإسلامية:
المبحث الثاني: الهوية الإسلامية وصراعها مع باقي الهويات:
المبحث الثالث: التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها.
المبحث الرابع: كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية.

وختاماً أسأل الله تعالى أن يحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يحيينا على سنة النبي ﷺ وأن يتوفانا ويحشرنا عليها، كما أتوجه بالشكر الجزيل للإخوة الأكارم القائمين على هذا المؤتمر، الذي كان لي الشرف في المشاركة في فعالياته وبرامجه، وأن يجعله في موازين حسناتنا جميعاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

توطئة:

لا بد لكل باحث أن يشير في بداية بحثه إلى تعريف بعض المصطلحات الواردة في ثنايا البحث، وبيان حدها ومدلولاتها، لذلك جعلت هذه التوطئة في نقطتين: الأولى: تعريفات ومصطلحات، والثانية: عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها، لأنها تندرج تحت المصطلحات اللازم بيانها.

١ـ تعريفات ومصطلحات:

تعريفُ الهُويـة:

إن المتتبع لأصل كلمة (الهوية) يجد أنَّ أصلها من كلمة (هو) وهو ضمير منفصل يعود على شخص ما، ولذا فمن الخطأ أن ننطق كلمة الهوية بفتح الهاء بل بضمها فنقول (الهُوية) وليس(الهَوية) فالهوية إذاً هي المرجعية أو الخلفية التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية.

والهوية هي: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضاً وحدة الذات. ويشابه هذا التعريف ما جاء في "المعجم الوسيط" الصادر عن مجمع اللغة العربية حيث عرَّفها:(حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره).وبعض الباحثين عرَّفها بأنها:(مجموعة العقائد والمبادئ والخصائص التي تجعل أمة ما تشعر بمغايرتها للأمم الأخرى) ولهذا كانت أمة الإسلامية خير أمَّة أخرجت للناس كما قال تعالى: (كنتم خير أمَّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، وخيريَّة هذه الأمَّة نابعة من استقلاليتها التشريعيَّة والعقائديَّة والسلوكيَّة عن غيرها من الأمم الأخرى.

تعريف أهل السنة:

هم أهل السنة والجماعة وهي أكبر طائفة إسلامية وتعادل نسبة ٩٠% من المسلمين، ومصادر التشريع الإسلامي السني هي: القرآن وسنة نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم المتمثلة في الأحاديث النبوية المنسوبة إليه والصحيحة منها، ويأخذون الفقه عن الأئمة الأربعة، ويقرون بصحة خلافة الخلفاء الأربعة الأوائل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ويؤمنون بعدالة كل الصحابة . وعندما نقول الهوية الإسلامية في هذا البحث نعني بها هوية أهل السنة.

٢- عناصر الهوية الإسلامية ومقوماتها:

حين يندمج المجتمع المسلم مع مبادئ وأسس الجانب العقدي الإسلامي ويتمثلها واقعاً ومنهجاً للحياة، يكون هذا المجتمع بهذه الصورة معبِّراً عن مصطلح الهوية الإسلامية، والهوية تقوم على أربعة أسس وعناصر(الجانب العقدي - التاريخ - اللغة - الأرض) فإن تكونت هذه العناصر الأربعة في الأمَّة المسلمة عبَّرت بمجموعها عن الهوية الإسلامية .

فإذا توافقت هوية الفرد مع هوية مجتمعه كان الأمن والراحة والإحساس بالانتماء، وإذا تصادمت الهويات كانت الأزمة والاغتراب. ومن هنا يمكننا فهم معنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا؛ فَطُوبىَ لِلْغُرَبَاءِ"[مسلم].

هذه الهوية هي التي تتبناها النفس، وتعتز بالانتساب إليها، والانتماء لها، والانتصار لها، والموالاة والمعاداة على أساسها، فبها تتحدد شخصية المنتمي وسلوكه، وعلى أساسها يفاضل بين البدائل. وأما بالنسبة للمجتمع فهي تعدُّ الحصن لأبنائه، فإذا فُقدت تشتت المجتمع، وتنازعته المتناقضات. و لا جرم أن مقومات الهوية هي العناصر التي تجتمع عليها الأمة بمختلف أقطارها من الوحدة العقدية، ووحدة التاريخ، ووحدة اللغة، والموقع الجغرافي المتميز المتماسك، وأعظمها لا شك هي الوحدة العقدية متمثلة في المنظومة الإسلامية ابتداء من الجانب العقدي ثم الشريعة ثم الأخلاق، والتي يمكن أن يذوب فيها بقية العناصر. والهوية الإسلامية في الحقيقة هي الانتماء إلى الله ورسوله وإلى دين الإسلام، هذا الدين الذي أكمله الله لنا، وأتم علينا به النعمة، وجعلنا به الأمة الوسط وخير أمة أخرجت للناس، وصبغنا بفضله بخير صبغة (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)[البقرة:١٣٨].

المبحث الأول: خصائص الهوية الإسلامية:

الهوية الإسلامية لها خصائصها السامية التي تميزها عما سواها من الشرائع والاتجاهات المختلفة، لأنها تشريع إلهي نزل به الوحي الأمين على قلب النبي الكريم ﷺ متكاملاً تاماً، بكل خصائصه ومقوماته ومزاياه.

إنها تشريع معجز لأنه صادر عن خالق السموات والأرض، عن عالم الغيب والشهادة، عن العليم الحكيم: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [سورة

الملك: ١٤]، وبالتالي لا يعتريه نقص، ولا يتسرب إليه زغل، ولا يشوبه لبس أو غموض، ولا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يحتاج لعقد مؤتمرات وندوات فكرية دورية لاستكمال الثغرات، وسد الفجوات، وترميم الهفوات، وتطوير أصوله، وتحوير قواعده، لأنه تنـزيل من رب العالمين.

أما القوانين الوضعية، وما شاكلها من شرائع محرّفة، فإنها تحتاج بين الحين والآخر إلى إرسال نظرات فاحصة في قوانينها، لتقويم المعوج، وإقصاء البالي القديم، وتطوير النافع، وإضافة الناجع، لأن هذه القوانين هي صناعة بشرية، أفرزتها أدمغة وعقول البشر في زمن معين، وحقبة تاريخية محددة، ينحسر عطاؤها مع تقادم الزمن، واتساع المعرفة، وتطور العلم، وتبدل وسائل وأساليب الحياة، لأن واضعها الإنسان، والإنسان بحسب تكوينه محدود العقل، أسير الزمن، قصير العمر، شديد التأثر بمؤثرات خارجية عاتية، وداخلية جامحة...

ويمكن لنا تحديد بعض خصائص الهوية الإسلامية فيما يلي:

١- هوية ربانية:

ونعني بالربانية أن أحكام هذه الشريعة الغراء، صادرة عن وحي السماء، وليست من وضع بشر يحكمه العجز والقصور والتقلب.

ولا بد هنا أن نقول – وبكل اعتزاز وافتخار- إن الهوية الإسلامية بربانيتها، هي التشريع الوحيد الذي حافظ على نقاءه وصفاءه وكماله من التحريف والتزييف، لأن الذي تكفَّل بصيانته وحفظه هو القائل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [سورة الحجر: ٩].

وبما أن الشرع مصون من التبديل والتحريف، محفوظ من الزيادة والنقصان، مكلوء برعاية الله وعنايته، فهو شارع خالد إلى يوم القيامة.

فالربانية تدل على أن التشريع الإسلامي هو دين خالص، ومنهج قويم، نزل هبة وعطية من عند الله تبارك وتعالى لإسعاد البشرية، ولم يكن لأي أحدٍ من الناس دور في رسم ملامحه أو إرساء قواعده، حتى الرسول ﷺ لم تكن مهمته متعدية التلقي من الله تبارك وتعالى، والتبليغ عن الله عز وجل، وفي هذا يقول ربنا سبحانه وتعالى: (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) [سورة الرعد: ٤٠].

ومن هنا تتجلى لنا الأسباب التي جعلت الأديان الأخرى تنحرف نحو الوثنية والضلال، لأنها فتحت أبوابها للأفكار المتعددة، والفلسفات المتنوعة أن تغزو أسسها، وتحوّر ركائزها، وتضيف عليها من مفرزات العقول البشرية مالا يتفق مع فطرة الإنسان وتكوينه وإدراكه عبر العصور والأزمان، ولذلك رمتها سهام النقد، وجرّحتها موازين العالم الحديث الذي لم يعد يرتضي بخرافاتٍ وأوهام، كانت مقبولة لدى شريحة من الناس يوماً من الأيام.

وهذا لا يعني أن التشريع الإسلامي منغلق على ذاته، منكفئ على مبادئه، لا يسمح للعقل البشري بالحركة والعمل، والتفكير والإبداع، والجهد والاجتهاد، بل على العكس من ذلك، فإن الإسلام فتح باب الاجتهاد واستنباط الأحكام إلى يوم القيامة، لكن في فروع الشرعية لا في أصولها، وفي مستجدات الحياة ومعطياتها،

دون المساس بنصوص الوحي الإلهي، إنما بالقياس عليه في استنباط الأحكام وبياناتها.

٢- ملزمة لكل مسلم:

لا يجوز لمسلم الخروج عنها، فهي فرض لازم (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[الأعراف:١٥٨]. ويقول النبي ﷺ " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌ وَلاَ نَصْرَانِيٌ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ".

كما أمر الشرع الحنيف المسلمين أن يطبّقوا أحكامه، ويتفاعلوا مع تعاليمه، ويسارعوا إلى تنفيذ أوامره دون تردد أو اختيار قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [سورة الأحزاب: ٣٦] ، وقال عز وجلّ: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) [سورة النور: ٥١].

وحين يخضع المسلم لأوامر هذا التشريع الحكيم، يفوز بسعادة الدارين، يفوز بسعادة دنيوية، لأن شرع الله تبارك وتعالى هو أحكم وأعدل وأكمل شرع، جاء بكل خير، ونهى عن كل شر، وأمر بكل صلاح وإصلاح، وحرّم كل فساد وإفساد، ووضع من القوانين والتشريعات الكاملة الشاملة ما يسعد الإنسان ويحفظه، ويفوز كذلك بسعادة أخروية، لأن المسلم يشعر أنه بتطبيقه لشرع الله عز وجل يؤدي عبادة يثاب عليها، وقربة يؤجر عليها.

٣- تميزها عمَّا سواها:

وهذا التميز هو الذي يعطي كل قوم مقومات بقائهم، ويحفظ عليهم ثقافتهم ومبادئهم، فلا يذوبون في غيرهم ولذا شمل هذا التميز كل جوانب الحياة بداية من الناحية العقدية (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[الكافرون:٦]، (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)[الفاتحة:٦، ٧]. ونهاية بالشكل الظاهر في الملبس والهيئة " إياكم وزي الأعاجم"، ومرورا بكل أمور الحياة العملية "ليس منا من عمل بسنة غيرنا".[الطبراني في الجامع الصغير]. (أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)[يونس:٤١].

٤-تستوعب حياة المسلم كلها وكل مظاهر شخصيته:

فهي تامة الموضوع محددة المعالم تحدد لصاحبها بكل دقة ووضوح هدفه ووظيفته وغايته في الحياة: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

٥- هي مصدر العزة والكرامة:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)[المنافقون:٨]، (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)[فاطر:١٠]، (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)[النساء:١٣٩]. ويقول سيدنا عمر رضي الله عنه: إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العز في غيره أذلنا الله.

٦- ذات رباط وثيق بين أبنائها:

فهي تجعل الولاء بين أتباعها والمحبة بين أصحابها وتربط بينهم برباط الأخوة والمحبة والنصرة والموالاة، فهم جسد واحد (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)[الحجرات:١٠]، (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)[آل عمران:١٠٣]، وقد ورد في الحديث الشريف" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى" مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

٧- العالمية:

إن الهوية الإسلامية ذات صبغة عالمية، فهي رحمة للعالمين، ومنارة هداية للناس أجمعين، خطابها شامل عام، يتخطى الحدود والأقاليم، ولا يفرّق بين أبيض وأسود، أو غني وفقير، أو عربي وعجمي، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٍ) سورة الحجرات: ١٣. ، وهذا النص القرآني يجعل ميزان التقوى لواءً مرفوعاً عالياً لجميع الناس، فلا مكان لعصبية عرقية، ولا لعصبية جنسية، ولا لعصبية أرضية، ولا لعصبية قومية، لأن كل هذه العصبيات تعّمق الشرخ، وتزيد القطيعة بين الناس، ولذلك لم يأت حكم شرعي واحد مستنداً إلى هذه العصبيات، إنما جاءت الأحكام الشرعية بصفة إنسانية عالمية شاملة.

٨- الإنسانية:

لقد اعتنى التشريع القرآني بالإنسان اعتناء كبيراً، إلى درجة أن الأحكام التشريعية حفلت بكل ما من شأنه أن يسعد الإنسان، ويصون كرامته، ويحفظ حقوقه، ويلبي حاجاته وتطلعاته المشروعة، ويشذب ويهذب دوافعه وغرائزه وينظمها، ويجيب على الإشكالات التي تطوف في ذهنه وعقله، ويشبع ما الْتهب في جوانحه من أشواق روحية سماوية، ويضبط سلوكه، وينظم علاقته مع نفسه والمجتمع، ولذلك كله شريعة الإسلام شريعة إنسانية... إن التشريع القرآني اعتنى بجسم الإنسان وروحه وعقله:

اعتنى بجسمه:

حيث أمره بالاهتمام والمحافظة على جسمه من كل ضرر، لأنه مسؤول يوم القيامة عن إهماله لأعضاء جسمه ، قال تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل ذلك كان عنه مسؤولاً) [سورة الإسراء: ٣٦] ، فهو مسؤول عن سلامة أعضاءه حسياً ومعنوياً، لأن هذه الأعضاء ليست ملكاً للإنسان حتى يهملها إلى حد الضرر والتعطيل، إنما هي في الحقيقة ملك لله تبارك وتعالى... بل إن الإسلام لم يرضَ بإرهاق أعضاء الجسم حتى في العبادات، ولذلك حينما نزل القرآن الكريم، غدا النبي ﷺ يقوم الليل كله بالقرآن تلاوة وتدبراً وذكراً حتى تورمت قدماه، فأنزل الله تعالى (طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى) [سورة طه: ١-٣].

واعتنى بعقله:

فدعاه إلى استخدام عقله وفكره في كل شؤون حياته، ابتداءً من الإيمان با لله تبارك وتعالى، والتفكير في عظمة الخالق عز وجل، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّـهَ

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١] ، وأمره أن يجيل بصره في الآفاق والأنفس، ويتفكر في المخلوقات من حوله، قال تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [سورة الغاشية: ١٧-٢٠]، وأوجب عليه أن يستخدم عقله في سلوك طريق الإيمان من خلال الدلائل والبراهين الساطعة، التي تدل على وحدانية الخالق تبارك وتعالى، وتدل على صدق نبوة محمد ﷺ من خلال دارسة السيرة النبوية، والنظر في طبيعة الرسالة الخاتمة، وأن لا يركن إلى المماحكة والتقليد الأعمى الذي درج عليه الآباء والأجداد، ولذلك نعى القرآن الكريم هذا النمط من التفكير المنغلق، الذي يقتفي سيرة الآباء والأجداد دون تبصر وتمحيص، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّـهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) سورة البقرة: [١٧٠].

واعتنى بروحه:

فشرع له من العبادات والطاعات ما يملأ أقطار نفسه سكينة وطمأنينة، وما يسكب في قلبه من الراحة والأنس بعبادة الله عز وجل، ولو نظرنا إلى أذكار الصباح والمساء الواردة عن رسول الله ﷺ لوجدناها تملأ اليوم بليله ونهاره ذكراً وتضرعاً وتحميداً وتسبيحاً، فكيف بباقي العبادات المفروضة والمسنونة والمندوبة.

من هنا جاءت الدعوة القرآنية إلى ضرورة الاهتمام بتزكية النفس من الأدران والآثام، وتطهيرها مما علق بها من رواسب المعاصي، وترقيتها في سلم الصفاء، ومدارج النقاء، حتى تفوز بالفلاح والسعادة في الدارين، قال تعالى: (قد أفلح من زكها، وقد خاب من دساها) [سورة الشمس: ٩-١٠].

المبحث الثاني: الهوية الإسلامية وصراعها مع باقي الهويات:

لقد أدركت كل الأمم أن قضية الهوية قضية محورية، وأن من لم ينتبه إليها سيذوب حتمًا في ثقافة غيره، وستتلاشى مميزاته الخاصة ليكون ذيلاً أو ذنبًا.. وأعداء الأمة لم ولن يتركوها على هويتها الإسلامية، بل يكيدون الليل والنهار، ليزحزحونا عنها ويطمسوها عنا قال تعالى: (وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)[البقرة:٢١٧] (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[البقرة:١٢٠] (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)[النساء:٨٩]، (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)[البقرة:١٠٩].

والذي ينبغي أن يتنبه له أهل الإسلام أن الآخرين يحرصون على هوياتهم مع اجتهادهم في تذويب هوية المسلمين وطمس معالمها والنأي بهم بعيداً عن دينهم حتى لا يعود الإسلام إلى الساحة مرة أخرى وهذا واضح من خلال تصريحات القوم وكلامهم: ففي آخر عام ١٩٦٧وفي محاضرة في جامعة برنستون الأمريكية صرح أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل حينها: " يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف إلى نسبه الإسلامي بعد الهزيمة ، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل ، ولذا كان

من أول واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي". ويقول الرئيس الأمريكي نيكسون في كتابه انتهز الفرصة": إننا لا نخشى الضربة النووية ولكن نخشى الإسلام والحرب العقائدية التي قد تقضي على الهوية الذاتية للغرب". وقال أيضاً : " إن العالم الإسلامي يشكل واحدا من أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية في القرن الحادي والعشرين". وقد صرح مسؤول في الخارجية الفرنسية منذ فترة بـ: "أن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا عنيفًا هو الخطر الإسلامي. وإن الأمم التي تريد أن تبقى هي التي تحافظ على هويتها، ولذلك لا عجب أن تحاول كل دولة أو أمة أن تصون لأتباعها هويتهم وتحميهم عن غزو الثقافات الأخرى لثقافتهم.. فعندما رأى الفرنسيون أن اتفاقية الجات تؤدي إلى دخول المواد الثقافية الأمريكية بمعدلات كبيرة لفرنسا مما يشكل تهديداً صارخاً لهويتهم القومية ، رفضوا التوقيع على الجزء الثقافي من الاتفاقية وطالبوا بتخفيض تلك المعدلات. وأما الدولة اللقيطة فحدِّث ولا حرج عن تمسكها بهويتها، فهي لم تقم إلا على أساس الدين اليهودي، وتحمل اسم نبي الله يعقوب "إسرائيل"، وليس لها دستور لأن دستورها التوراة ، ويتشبث اليهود بتعاليمها في السياسة والاجتماع وحياة الأفراد أو هكذا يظهرون، وقد أحيوا اللغة العبرية التي انقرضت من ألفي سنة لتكون لغتهم الخاصة ولغة العلم عندهم .يقول "أدولف كريمر" اليهودي: " جنسيتنا هي دين آبائنا ونحن لا نعترف بأية قومية أو جنسية أخرى". وأعجب من هذا أن يقوم الهندوس في بلاد الهند بمنع بيع الزهور في يوم عيد الحب " فالنتاين" وحرق المحلات التي تبيعه لأن ذلك ليس من الهندوسية ويحارب الثقافة الهندية. وهذا كله إن دلَّ فإنما يدل على مدى محافظة كل أمة على هوية أبنائها وحمايتهم من السقوط في هوة الانبهار بثقافات الآخرين .. فمتى نهتم نحن لهذا ونحوطُ أبناء أمتنا ونحميهم من الوقوع في هذه الحمأة..؟.

ثم إن هناك محاولة خطيرة تستهدف دائماً معارضة القول بأن هناك: ظاهرة تغريب، وغزو ثقافي، أو محاولة احتواء للفكر الإسلامي، أو سيطرة فكر وافد، وتحاول هذه المحاولة أن تعتمد على أمرين:

الأمر الأول هو القول: "أين هذه المؤسسة التي تسمى التغريب" ذلك لأن هذه المؤسسة ليست بناءاً مجسماً له دار ولافتة مكتوب عليها مدرسة التغريب أو مؤسسته وذلك هو تساؤل السذج الأغرار قصيري النظر البسطاء الذين يعدهم التغريب أحسن أدواته وأكثرها نفعاً لأنهم يقومون بخدمته دون أجر، وعلى حساب النوايا الطيبة.

والأمر الثاني: هو مداواة التابعين العملاء الذين هم كالحية الرقطاء يخادعون الناس ويخفون حقيقة ولاءهم.

و مع الأسف أن الذين يشككون في التغريب هم من النوع الأول: أولئك الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم.

ذلك أن التغريب لم يَعد بعد هذا الوقت الطويل موضعَ تساؤل أو تشكيك. وربما كان كذلك في الثلاثينيات حيث كان يغطّي العالم الإسلامي والأمة العربية ظلام كثيف وكانت هناك حقائق كثيرة ما تزال محجوبة، ولعل أهمها: بروتوكولات

صهيون التي ظهرت في العالم كله عام ١٩٠٢ م حتى عام ١٩٥٢ م تقريباً وإلى ما بعد أن قامت إسرائيل في قلب الأمة العربية.

ولقد كشفت هذه الحقيقة دعاة التغريب أنفسهم، ولعل أول وثيقة في هذا المجال هي كتاب (وجهة الإسلام) الذي ألفه هاملتون جب مع جماعة من المستشرقين وأعلن فيه صراحة أن هدف البحث هو معرفة:

"إلى أي حد وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب". وذلك للقضاء عليها. ويمكن لقارئ الكتاب أن يستكشف مناهج التغريب واضحة، كالسهام تندفع في أعماق العيون الضالة والمضللة لتسقط عنها غشاوات الغباء والجهل. وجاء بعد ذلك كثيرون فأشاروا إلى ذلك وأوردوا المصادر والوثائق من العرب الدكتوران عمر فروخ والخالدي في كتابهم "التبشير والاستعمار" ومن الغرب: المؤرخ العالمي توينبي في كتابه (العالم والغرب) وهناك عشرات الأدلة والوثائق التي تضع الحقيقة ناصعة أمام من يريدها لوجه الحق. ولا يمالئ فيها خاصة لأقطاب التغريب ودعاة الجنس وعمالقة الغزو الثقافي.

ومن يتابع كتاب "الغارة على العالم الإسلامي" وهو سابق سبقاً بعيداً لكتاب هاملتون جب وقد ترجمه العلامة محب الدين الخطيب في جريدة المؤيد قبل أن يبدأ هذا القرن بسنوات وكان اسمه الحقيقي واضح الدلالة على الهدف هو: فتح العالم الإسلامي يجد أن القضية أكيدة واضحة وأن مخططاتها منسقة وموزعة على المؤسسات: مؤسسة المدرسة والجامعة عن طريق الإرساليات، ومؤسسة الصحافة والثقافة عن طريق الصحيفة والمجلة والكتاب، ثم هناك مؤسسة أخرى أشد خطراً ظهرت من بعد هي مؤسسة القصة والمسرحية والشاشة والإذاعة المسموعة والمرئية.

وليس بعد ذلك دليل على وجود هذه الحقيقة: حقيقة التغريب ولها دعاتها وكتَّابُها المنبثون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولعل من يطالع بعض الاجتماعات التي عقدت في إحدى دور الصحف الكبرى يجد أن الأمر واضح وجلي وليس في حاجة إلى دليل جديد أمام الأغرار الحمقى، الذين أعماهم حرصهم على أن يكونوا أتباعاً أذلة للأسماء اللاحقة من كتُّاب الجنس والقصة. وأن يكونوا ثماراً فجة في هذه الشجرة الملعونة التي شاخت وتحطمت.

ولا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق وما يصدر من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالاً للشك بوجود هذه الظاهرة وحركتها الدائبة.

وعلينا أن لا نضع اللوم على غيرنا في كل معركة نخوضها مع أعداء الدين، فهناك اتجاهات داخلية تعرقل مسيرة النهضة وتقف عائقاً في بعض الأحيان أمام صراعنا مع الآخر، ومن هذه الاتجاهات ما يعمل على تجميد الإسلام، وصبه في قوالب حجرية، لا تقبل المرونة ولا تسمح بالتغيير، ولا تتسع لانفتاح أو حوار.

ويمثل هذا الاتجاه صنفان متناقضان:

١- صنف يتمسك بأقوال الأقدمين من أئمة المذاهب وأتباعهم لا يحيد عنها، ولا يرضى بها بديلاً، معتقداً أن السلف لم يتركوا شيئاً للخلف، رافضا كل اجتهاد جديد أيا كان صاحبه، وكانت الحاجة إليه، فلا يقبل هؤلاء اجتهاد انتقائياً، ولا إنشائياً

لا فردياً، ولا جماعياً، ظانين أن كتب الأقدمين تحوي كل شيء، وفيها إجابة عن كل سؤال، غافلين عما طرأ على الحياة من تغير هائل، وتطور كبير، بعد الانقلاب الصناعي، والتطور التكنولوجي، والتواصل العالمي، الذي جعل العالم (قرية كبرى) كما قال أحد الأدباء.

وإني أسأل هؤلاء: هل يجدون في كتب الأقدمين حكم زراعة الأعضاء في الجسم البشري، وحكم الملاحة الجوية، وصلاة رواد الفضاء، وتخزين القرآن والحديث في (الحاسوب) وغيرها من القضايا الجديدة؟؟ وهذا الصنف لا يمثل تياراً بارزاً في قلب الصحوة الإسلامية، وإن كان يمثل تياراً كبيراً في قلب الأمة الإسلامية.

٢- وصنف يدعي التمسك بالنصوص، وخصوصا من السنة، رافضاً أقوال المتقدمين والمتأخرين، جاعلاً من نفسه (مذهباً خامساً)، يحكم على المذاهب كلها ولا تحكم عليه! يقول عن الأئمة العظام، بل الصحابة الكرام: هم رجال ونحن رجال! وكثيراً ما يغفل هؤلاء عن طبيعة النصوص الجزئية، ودلالاتها وملابسات ورودها: أهي عامة أم خاصة، مطلقة أم مقيدة، محكمة أم منسوخة، ثابتة أو متغيرة موجبة أو مخيرة، أصلية أم فرعية، قطعية أم ظنية؟

فلابد من النظر في هذا كله، ليعلم ما يقبل تعدد الأفهام وما لا يقبل، وما يحتمل وجهة نظر جديدة وما لا يحتمل، وما تتغير فيه الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال، وما لا يتغير بحال.

اتجاه تجزئة الإسلام:

ومن هذه الاتجاهات ما يدعو إلى تجزئة الإسلام، وتقطيع أوصاله، فالإسلام منهج كامل لحياة البشر، مادية وروحية، فردية واجتماعية، دينية ودنيوية، مثالية وواقعية، فلابد أن يؤخذ الإسلام كله كما أمر الله، عقيدةً وعبادةً، وأخلاقاً ومعاملةً، وتشريعاً وتوجيهاً وأخوةً وتنظيماً.

فهناك من يريد هذا الدين مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل، وحسبك أن تنطق بالشهادتين لتأخذ صكا بدخول الجنة والنجاة من النار، مع أن الإيمان الحق لا يوجد بلا عمل، كما يتضح ذلك من مئات النصوص من القرآن والسنة.

ومنهم من يريد عبادة بلا أخلاق، أو أخلاقاً بلا تعبد، برغم قول الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقول الرسول "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ومنهم من يريده عقيدةً وعبادةً وأخلاقاً، ولا يريده تشريعاً ولا نظاماً للحياة.

المبحث الثالث
التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها:

١- التحديات السياسية:

من الواضح للجميع أن هناك تحديات سياسية تواجه هوية أهل السنة والجماعة في مطلع القرن الواحد والعشرين، وكان لها آثاراً سلبية على الأغلب. وهي تحديات داخلية وخارجية:

آ_ التحديات الداخلية : ونذكر من أهمها:

- تطوير النموذج السياسي في البلدان الإسلامية بشكل يضمن المشاركة الشعبية في الحكم على النحو الذي يتفق مع أصول الإسلام وممارساته الصحيحة.
- خطر التفكيك الذي تغذيه قوى العولمة لمصالحها الخاصة مما يهدد باختفاء عدد من الدول الإسلامية في وضعها الراهن.
- الصراعات بين الدول الإسلامية مثل الحرب العراقية الإيرانية، غزو العراق للكويت، ثم الغزو الأمريكي للعراق، وما كان له من تداعيات سلبية على المنطقة برمتها، ثم نتائج الربيع العربي وما فيه من سلبيات وإيجابيات، وما ظهر أخيراً في سورية من حرب واضحة جلية على أهل السنة، وظهور المحور الإيراني الصيني الروسي، والدعم اللا محدود للنظام العلماني الحاكم في سورية (وهو من الأقلية الطائفية) و الذي كشر عن أنيابه للفتك بالأكثرية السنية، وما كان وراء ذلك من ذريعة تمسك بها المكون الأجنبي في معادلة الأمور في المنطقة لتبرير تدخله وبقائه.

ب- التحديات الخارجية : ومن أهم هذه التحديات:

- الصراع العربي الصهيوني.
- سقوط الخطر الشيوعي في مواجهة العالم الرأسمالي وظهور بديل خطر لتكتيل الصفوف والحفاظ على التماسك وهذا البديل هو "الخطر الإسلامي".
- ظهور محور جديد في مواجهة نظام القطب الواحد المتمثل في أمريكا وتبعية الغرب له، وهو المارد الصيني الروسي والذي دعا إلى تحالفات جديدة في العالم، وأشده التحالف الروسي الصيني الإيراني لضرب أهل السنة في سورية، والتصريح الواضح لرئيس الوزراء الروسي ميداييف بأنهم لا يريدون حكماً سنياً في سورية.

٢- التحديات التربوية :

إن من أهم التحديات التربوية التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين وواقعه المعاصر هي:

- استيعاب من لهم حق التعليم ومواكبة متطلبات الإنفاق على مختلف أنشطة التعليم والبحث العلمي.
- توجيه سياسات التعليم وأهدافه وخططه ونظمه ومناهجه للمحافظة على هوية أهل السنة .
- مواكبة التعليم لمتطلبات التنمية في المجتمعات الإسلامية من أهل السنة.

- تحقيق نظم التعليم ومناهجه، التوازن بين فروع التعليم وتنوع أنشطته، واتخاذ قراراته على أسس موضوعية.
- مواكبة التعليم للتدفق العلمي والتقدم التقني المعاصر.
- إتاحة سياسة التعليم ونظمه فرصاً كافية للأفراد والمؤسسات السنية للإسهام في اتخاذ القرارات.
- رفع مستوى التخطيط والإدارة والنظم التعليمية وترشيد الإنفاق.
- توقي سلبيات العولمة واستثمار إيجابياتها.
- الارتفاع بمستوى تربية المعلم بما يواكب متطلبات القرن الحادي والعشرين.
- تعليم أبناء الأقليات المسلمة ومتابعة شؤونهم في كافة أنحاء العالم.
- عناية العملية التعليمية بمخاطر دول الجوار والاستعداد لها.
- إصلاح بيت الجامعات الإسلامية وجعلها كمرجعية علمية تربوية للمسلمين.

٣-التحديات الاجتماعية التي تواجه الأمة الإسلامية وسبل مواجهتها :

والتحديات الاجتماعية الرئيسية وهي :-

- البناء الإدراكي للهوية الثقافية لأبناء المجتمعات المسلمة (نوعية منظومة السمات التي تشكل شخصية إنسان المجتمعات الإسلامية – الخصائص العقائدية – الاجتماعية – الثقافية) وذلك من خلال الهوية وما هي المؤسسات المسئولة عن نشر هذا الوعي بين أبناء الأمة.
- التحدي القيمي وهو الذي يثير قضية الأصالة والمعاصرة في الإسلام.
- كيفية تحقيق الاستثمار البشري وهو المدخل الرئيسي للتنمية بكل أنواعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
- التحدي الذي يتصل بنقل التكنولوجيا الحديثة واستيعابها وتوظيفها وتطويرها واستنبات وإبداع تكنولوجيات وطنية.
- تآكل الطبقة الوسطى داخل المجتمعات الإسلامية فالطبقة الوسطى هي الطليعة الأساسية الرئيسية للانطلاق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في المجتمعات المختلفة وهي قادرة على تحقيق التلاحم الاجتماعي والتطور السلمي والتوازن بين الماديات والمعنويات.
- غياب المشاركة الشعبية الفعالة على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مثل: السلوك الانتخابي والحزبي، النقد الاجتماعي، المجتمع المدني، التطوع للعمل الأهلي.
- التعصب والتطرف والانغلاق الفكري والثقافي والسلوكي.
- التحدي الديموغرافي الذي يتخذ أشكالاً مختلفة باختلاف الدول.
- تآكل سيادة الدولة الأمر الذي يؤثر سلباً على قدراتها على قيادة المشروعات الإنمائية العملاقة القادرة على تقليل معدلات الفقر والبطالة والحد من الحرمان من الخدمات واستثمار طاقات البشر.

- التسيب وعدم تملك المهارات الإدارية، فغياب الانضباط الإداري أثر على إعداد المدير الناجح وبالتالي التنمية الإدارية وإعداد الكوادر الإدارية ذات الكفاءة والقدرة.
- مشكلات الأقلية الإسلامية في دول العالم وما تعانيه داخل بلادها.
- أزمة التنوير الزائف.

٤- التحديات التي تواجه الشباب وسبل مواجهتها ومنها:

- غياب الوعي الديني الصحيح الذي يؤكد أن الإسلام دين التوازن والتسامح والعمل والإنتاج.
- غياب أو ندرة القدوة الصالحة أمام الشباب.
- عدم توافر التوجيه التربوي والمهني للشباب خلال مراحل التعليم وما بعد التخرج.
- البطالة.
- تزايد إقبال الشباب على المخدرات.
- تفشي جرائم العنف والتطرف بين الشباب.
- عدم القدرة على الزواج وتكوين الأسر.
- مشكلات الجنس.

- عدم إشباع احتياجات الأطفال.

ولا شك أن أساليب مواجهة هذه التحديات يكون بتضافر جهود جميع الجهات الحكومية الرسمية، والجهات الأهلية، الهيئات الدولية، والمنظمات إقليمية، على كافة المجالات وبجهود تشريعية، تربوية، سياسية، اجتماعية ، اقتصادية ، قانونية ، إدارية تصب جميعاً في مواجهة تلك التحديات.

٥- التحديات الإعلامية التي تواجه الأمة الإسلامية وسبل مواجهتها :

أصبحت وسائل الاتصال قوة طاغية ومؤثرة في حياة الإنسان المعاصر بما حققته من قوة وجذب وإبهار، أصبح من الصعب التمييز بين تأثير الوسيلة وتأثير الرسالة وأصبح النشاط الإعلامي جزءاً رئيسياً من الحياة اليومية للإنسان، وكذلك أصبح من أقوى أسلحة العصر وتكمن القضية هنا في كيفية مواجهة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية وهي مستقبل القرن الحادي والعشرين وكانت أهم التحديات هي:

- أزمة المرجعية الفكرية في العمل الإعلامي لأهل السنة.
- الصورة النمطية المشوهة للإسلام والمسلمين في الإعلام العربي.
- التحديات المتعلقة بوسائل الإعلام في العالم الإسلامي.
- التحديات المتعلقة بالرسالة الإعلامية.
- أخلاقيات الإعلان وأجهزة الإعلام في العالم الإسلامي.
- التحديات الخاصة بالجمهور المتلقي.
- التحديات المتعلقة بالتقنيات الحديثة وتكنولوجيا الاتصال.
- التحديات الخاصة بالتدفق الإعلامي والغزو الثقافي الموجه.
- تحديات البحث العلمي والتخطيط الإعلامي.

- أزمة العولمة والعمل الإعلامي الإسلامي.
- أزمة الأقليات المسلمة والإعلام الدولي.
- التحديات الإعلامية التي تواجه الطفل المسلم من أهل السنة.
- أزمة الحرية وحق الاتصال في أجهزة الإعلام في العالم الإسلامي
- تحديات الإعلام الغربي والإعلام الطائفي المناهض لأهل السنة.
- العمل على إنشاء شركات إسلامية لأهل السنة للإنتاج التليفزيوني.
- الاستفادة من تكنولوجيا الأقمار الصناعية والتطورات الكبيرة في وسائل الإعلام الدولية لمناهضة الغزو الإعلامي المعادي.
- تفعيل الدور الذي تضطلع به المراكز الإعلامية والثقافية الإسلامية في الخارج، وحثها على أداء واجبها تجاه أهل السنة ولتكون منارات علمية وثقافية تجمع تحت لواءها الأقليات المسلمة في الخارج وترعى شؤونها، وتحل مشاكلها.
- تأهيل الكوادر الإعلامية من أهل السنة القادرة على مخاطبة الرأي العام الدولي.
- خلق قنوات للحوار مع القيادات الفكرية وقادة الرأي والقيادات الإعلامية في العالم الغربي.
- تزويد الأقليات العربية والمسلمة بمجريات الأحداث في العالمين العربي والإسلامي وربطهم بالوطن الأم واستثمار إمكاناتهم لتصحيح الصورة والرد على المزاعم والافتراءات من الإعلام الغربي الصهيوني الطائفي المعادي. ونكتفي بهذه التحديات الخمس الأساسية حتى لا نطيل فهناك تحديات علمية كثيرة وتحديات قانونية وتحديات حضارية.. لا مجال لذكرها في هذه العجالة.

المبحث الرابع: كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية:

إن دين الإسلام يُعْنى بتأكيد الهوية الخاصة ويرفض أطروحات الغرب العقدية والتشريعية، ويأمر بمخالفتها، فا لله تعالى يقول :(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا). وقد روى الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهل المدينة لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان قالوا: كنَّا نلعب فيهما بالجاهليَّة، فقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر) أخرجه أبو داود بسند صحيح. قال الحافظ الذهبي رحمه الله:(فإذا كان للنصارى عيد ولليهود عيد كانوا مختصين به فلا يشركهم فيه مسلم كما لا يشاركهم في شرعتهم ولا قبلتهم) .وجاء عن الشريد بن سويد قال: مرَّ بي رسول الله وأنا جالس هكذا وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتَّكأت على إلية يدي فقال عليه الصلاة والسلام: أتقعد قعدة المغضوب عليهم) أخرجه أبو داود، والمقصود بالمغضوب عليهم: اليهود. إنَّ محافظة الأمة المسلمة على هويتها الإسلامية، والاعتزاز بهذا الدين العظيم ، يولِّد لديها الشعور بأنَّها الأمَّة التي اصطفاها الله بين العالمين لخيريتها وسمو تشريعاتها، ولكنَّا وللأسف نرى أناساً من المثقفين العرب

وغيرهم ، يكفرون بهويتهم ، وينقلبون على واقعهم الإسلامي بالهمز واللمز ، بل ويذوبون في المشروعات الغربيَّة المناهضة للمشروع الإسلامي، و التغريب هي القنطرة التي عبرت عليها العلمانية إلى الشرق ، وهذا التغريب لم يكن لحظة انبهار؛ لأن الانبهار يزول سريعاً فتبدو الأشياء على حقيقتها ، وإنما كان لحظة عمى وعمهٍ حضاري، كان لحظة تعاقد تآمري أو على حد تعبير د. محمد عمارة في كتابه(عمالة فكرية وحضارية). وأول أمر أجده مهماً ورئيساً في الحفاظ على الهويَّة الإسلاميَّة؛ تعميق الإيمانبا لله تعالى فإنَ له أثراً كبيراً في تحصين القلب ضدَّ الأفكار الهدَّامة. فإذا صححنا منهج التلقي، وصححنا بناء على ذلك ما انحرف في حس المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية، بقيت علينا مهمة أخرى لا تقل خطراً، هي مهمة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين. وأخيراً سأسوق قصَّة مفيدة في هذا المجال، تدلل على مدى ضرورة المحافظة على الهوية لكل أمَّة تريد أن تصنع لنفسها الكينونة والخصوصية التي تتسم بها ، فنحن نعلم ما وصلته اليابان من تقنية وتقدم لا ينكره منكر، ونتذكر جيداً أنَّ اليابانيين حين ضربتهم أمريكا بالقنبلة النووية ودمَّرت ناكازاكي وهيروشيما ، رأوا أنَّ من أسباب ضعفهم عدم قدرتهم على مواجهة الأمريكان ، وقلَّة المعلومات التقنيَّة التي لديهم ؛ فأرادوا تحقيق المناعة واستقطاب المعلومات التي يجهلونها فأرسلوا البعثات للتعلم في بلاد الغرب والنهل من علومهم، حتى يرجعوا إلى اليابان وينقلوا إلى أرضها تلك التجارب الغربية الطبيعية فتنهض دولتهم ، وحين بعثت أول بعثة يابانية إلى دول الغرب رجعوا إلى بلادهم متحللين من مبادئهم ، ذائبين في الشخصية الغربية ، فما كان من اليابانيين إلاَّ أن أحرقوهم جميعاً على مرأى من الناس في طوكيو ، ليروا عاقبة من تنكر لأمته وقيمه ، ولم يرعَ المسؤولية التي أُنيطت به ، وبعد ذلك أرسل اليابانيون بعثة أخرى ، وأرسلوا معها مراقباً يراقبهم أولاً فأول ، من ناحية ثباتهم على عقيدتهم وخصوصياتهم البوذية ، ومراقبة انهماكهم في استقطاب واجتذاب المعلومات التي يجهلونها لينقلوها في واقع بلادهم ، وتمضي الأيام وتكون اليابان من أكبر الدول التقنية في العالم أجمع ، بل والمنافسة والمسابقة لأمريكا وأوروبا في كثير من التخصصات التقنية. أليس في هذه القصة درس وعبرة بما يفعله الآخرون من غير المسلمين في الحفاظ على هويتهم، ومع ذلك وصلوا ونجحوا، وذلك لمحافظتهم على الخصوصية والهوية الخاصَّة بهم، فأولى بنا وبالأمة المشهود لها بالخيرية والوسطية بأن يكون أبناؤها خير أناس يحافظون على هوية الأمة الإسلامية ، ويرعون هويتهم حقَّ رعايتها ؟! هنالك نقطة ذات أولويَّة في نظري وتسهم في المحافظة على الهويَّة والخصوصيَّة الإسلامية مما يسمى:(عولمة الثقافة) وإشعار هذه الأمة بخطورة هذه الفكرة، وأنَّ فحواها ومحتواها طمس الخصوصيات الإسلاميَّة ، وإشغال الأمَّة المسلمة بما لدى الأمم الغربيَّة والأمريكيَّة على وجه الخصوص من ثقافات جديدة ، وإغراقهم في المستنقع الثقافي لما يسمَّى بالقرية الكونية [وإذا كانت وزيرة الثقافة الدانماركيَّة اشتكت من هيمنة الثقافة الأمريكيَّة ، وقالت :"لم يعد يحتمل هذا الغزو" وإذا كان الرئيس الفرنسي السابق (فرانسو ميتيران) وقف يخطب في الجموع المحتشدة محذِّراً من تفشِّي ظاهرة لبس الجينز بين الشباب الفرنسي لأنَّه مظهر من

مظاهر الغزو الأمريكي) فإنَّا بوصفنا مسلمين يلزمنا، أن نحذر من ذلك ونكون أشدّ إصراراً على المحافظة على هويتنا وخصوصياتنا وقيمنا ، وعدم التشبه بأعداء الإسلام ، كيف ورسولنا عليه الصلاة والسلام حذَّرنا من ذلك وقال :(من تشبَّه بقوم فهو منهم) أخرجه أحمد وحسَّنه ابن حجر. وأخيراً نبين باختصار أهم وأبرز الأساليب للحفاظ على الهوية الإسلامية:

١ـ التعلُّقبا لله ـ عزَّ وجل ـ والاستعانة والاستعاذة به ، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير.

٢ـ الثِّقة بمنهج الله ووعده وحكمه وأوامره ، واليقين به ومراقبته ، والشعور بالمسؤوليَّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين ، وعدم خلطه بالباطل.

٣ـ تلقِّي العلم عن العلماء الربَّانيين ، وإرجاع المسائل المشكلة إليهم ليحلُّوها ويوضِّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره ، ولا يبقي تلك الشُّبهة في صدره حتَّى تعظم ، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم ؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول:(فاسألوا أهل الذكر إن كنت لا تعلمون).

٤ـ البناء الذاتي بمعرفة مصادر التَّلقي ، ومناهج الاستدلال الصحيحة ، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنَّة، مع ملازمة إجماع أهل السنَّة والجماعة.

٥ـ التعلُّق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبُّراً وعملاً ، ولو أقبل الخلق على كتاب الله والانتهاج بنهجه ، لأجارهم ـ سبحانه ـ من الفتن ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه (وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسلكه عذاباً صعدا).

٦ـ تكثيف البرامج التوجيهيَّة ، وأخصُّ بالذكر وسائل الإعلام بشتَّى أصنافها ، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم

٧ـ إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيَّة برصد الانحرافات الفكريَّة ، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه ، والجواب عن الشكوك و الإثارات التي تخرج من بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه ، والجهاد الفكري ضدَّها، من منطلق قوله تعالى:(وجاهدهم به جهاداً كبيراً).

٨ـ التربية للنشء بما يرضي الله ، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى ، مع قوَّة الإقناع، وأدب الحوار ، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول عمليَّة في التربية.

الخاتمة

وختاماً: فقد تعرّضت في هذا البحث إلى الحديث عن أبرز ملامح الهوية الإسلامية وأكثر ما يواجهها من تحديات وعقبات، فقد ابتدأت بحثي في توطئة بيّنت فيها المصطلحات الواردة في ثنايا البحث، كمصطلح (مصطلح الهوية – ومصطلح الأمة الإسلامية)ثم ذكرت أبرز العناصر التي يجب أن تتوافر في هوية المسلم وشخصيته، مبيناً ضرورة الحث عليها ومراعاتها.

ثم عرّجت في المبحث الأول للحديث عن خصائص الهوية الإسلامية، وأكدت على أهمية الالتزام بها، لأن الخصائص هي التي تجسد الهوية الإسلامية وتميزها عن غيرها.

وجاء المبحث الثاني للحديث عن صور الصراع والعراك التي دخلت ميدان الهوية الإسلامية من الثقافات والهويات المختلفة، وفي المبحث الثالث تحدثت عن أبرز التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية وسبل مواجهتها، فتحدثت عن التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية الداخلية والخارجية، وأومأت إلى التحديات التربوية والاجتماعية والشبابية والإعلامية. وفي المبحث الأخير تعرّضت للحديث عن كيفية المحافظة على الهوية الإسلامية، وذكرت العديد من الأساليب والمناهج التي تكون كفيلة – إن التزمنا بها – في المحافظة على منهجنا وسنة نبينا ﷺ، كما أورد العديد من الوصايا والمقترحات في سبيل ذلك... والحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.
كتب الحديث الشريف.
تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
تفسير روح المعاني للألوسي .
الدر المنثور للسيوطي.
الإتقان في علوم القرآن للسيوطي .
الإسلام بين التنوير والتزوير د. محمد عمارة.
مفاهيم ينبغي أن تصحَّح ـ أ. محمد قطب.
أمريكا والإسلام، د. مختار المسلاتي.
تجديد الوعي ، د. عبد الكريم بكَّار.
التغريب أخطر التحديات في وجه الإسلام، الأستاذ أنور الجندي.
دور التربية في الحفاظ على الهوية الثقافية للمجتمع العربي، د. هاني موسى.
الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، د. يوسف القرضاوي.
الصحوة الإسلامية، د. عبد الكريم بكار.
عمالة فكرية وحضارية، د. محمد عمار.
الاستراتيجيات المفاهيمية للعولمة- وبدائلها آثار العولمة على العالم الإسلامي: أ.د. محمد السيد سليم، موقع الإسلام على الطريق(الإسلام وتحديات الحكم، مركز دراسات الشرق الأوسط في الأردن. الإنترنت) ٢٠٠٣/٠٣/٣٠م).
التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية خلال القرن الحادي والعشرين، تأليف مجموعة من الباحثين، الناشر- رابطة الجامعات الإسلامية، عمان_ الأردن.
المعجم الوسيط.
منابع مشكلات الأمة الإسلامية، د. مقداد يالجن.
مجلة المسلمون، العدد الأول من المجلّد الخامس، تموز ١٩٦٣ .
مجلة هذه سبيلي العدد : ٢ .

المحدثون ومصطلح (أهل السنة والجماعة): الاتفاق والافتراق

د. محمود المصري

مما لا شك فيه أن مذهب أهل السنة والجماعة يعدّ من أكثر المذاهب الإسلامية انتشارا في العالم الإسلامي قديما وحديثا، إذ ينتسب إليه ٩٠% من المسلمين في العالم. وأهل السنة والجماعة هم الغالبية الساحقة في دول العالم الإسلامي اليوم، والتي هي خمسون دولة باستثناء إيران وأذربيجان حيث يشكل الشيعة الاثني عشرية الأغلبية، وسلطنة عمان حيث يشكل الإباضية الأغلبية.

ومن المعلوم أنه شاع تياران فكريان عند علماء السنة في إثبات العقائد، الأول يعتمد على النص فقط، والثاني يعتمد على النص والعقل معا. وقد تجاذبَ أصحابَ الحديث طوائفُ عدّة، كلٌ يريد أن يَنتسب إليهم أو أن يَنسبهم إليه، فما حقيقة انتمائهم؟ وما موقعهم من أهل السنة والجماعة؟ وكيف تبلور مفهوم أهل السنة والجماعة عندهم؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عليه في طيات البحث.

١ـ المحدثون وأهل السنة والجماعة: تاريخ المصطلح وتطوره:

بدأ ظهور تمييز المسلمين الذين هم استمرارٌ لهدي النبوة من أهل البدع، بظهور الخوارج في عهد سيدنا علي، ثم بعد وفاته بظهور الفرق الشيعية، لكنّ مصطلح (أهل السنة والجماعة) كعَلَم على الطائفة التي تمثل الإسلام الحقيقي مقابل مجموع (أهل البدع) ظهر في نهاية العصر الأموي، ولم يشتهر إلا في منتصف العصر العباسي، وذلك أن كثيرا من الصحابة أمثال ابن عمر وأنس بن مالك وسعد بن أبي وقاص، تجنبوا الخوض في الخلاف حرصا على وحدة الكلمة بين المسلمين.

ولعل أول من استعمل هذا المصطلح هو محمد بن سيرين، كما أخرج مسلم في مقدمة الصحيح بسنده إلى ابن سيرين أنه قال: "كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظر إلى (أهل السنة) فيُؤخذ حديثهم، ويُنْظر إلى (أهل البدعة) فيُردّ حديثهم".

وقد نقل الصحابة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَن بعدهم بمنهج شفاهي غايةٍ في التثبت، ثم أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينها، فتم ذلك وفق منهج علمي محكم، واكتمل في القرن الثالث الهجري، وتبنى فقهاء المذاهب الأربعة منهج فقهاء المدينة باعتمادهم على الكتاب والسنة والنقل عنهم. وقد تتلمذ الإمام مالك على يد ربيعة بن فروخ وهو أحد فقهاء المدينة السبعة. وكان إماما الحديث البخاري ومسلم يحتجان بربيعة[١]. وتميز الأئمة الذين جمعوا الحديث من غيرهم من الذين رفضوا الصحابة وخاضوا فيما وقع بينهم. فأهل الحديث يقولون بعدالة الصحابة جميعا، ويقرون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، خلافا للرافضة. وكان جمع الحديث في بداية الدولة العباسية التي تميزت في عهدها المدارس الفقهية الأربعة، والتي

[١] الكواكب النيرات في معرفة الرواة الثقات للكيال ١٦٣، ١٦٧.

اعتمدها العباسيون لا حقاً بشكل رسمي. فالعباسيون سنّة لأنهم اعتمدوا المدارس الأربعة للمذهب السني، وشيعة من اعتبار أنهم كانوا يدعون لآل البيت ليس غير.

وقد استمد فقهاء المذاهب الأربعة علومهم من عقيدة وعبادات ومعاملات وأخلاق من المصادر التشريعية المتفق عليها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولم يختلفوا في العقائد، وإنما اختلفوا في الفروع، لأسباب بحثوها في أصول الفقه. وهكذا فقد كان لمرونة التشريع من جهة والبيئات المختلفة التي اقتضاها تنوع التوزع الجغرافي لبلاد المسلمين من جهة أخرى أثرهما في أن يضع كل إمام قواعد في المذهب يلتزم بها أتباعه من المجتهدين في المذهب لإصدار الأحكام للوقائع المستجدة في كل زمان ومكان. ومع أنه ظهر مجتهدون آخرون مثل الليث بن سعد والأوزاعي وغيرهم إلا أنه لم تخدم مذاهبهم ولم ينتقل تراثهم ويستمر من خلال الأتباع، كما تهيأ لأصحاب المذاهب الأربعة.

كانت نقطة التحول الكبيرة في الصراع بين أهل الحديث والمعتزلة في العصر العباسي هي ظهور أبي الحسن الأشعري وتصديه للمعتزلة، فالتف حوله أهل الحديث باعتباره أقوى معبر عن عقائد أهل السنة في مواجهة المعتزلة وغيرها من الفرق التي اعتبرها أهل السنة مخالفة للعقيدة الصحيحة للإسلام، ومن المعلوم أنه استعمل الحجج العقلية والبراهين منطقية سعيًا لإثبات عقيدة السلف. وفي عهد دولة السلاجقة ازدهر انتشار عقيدة أهل السنة وفق المنهج الأشعري، حيث بنى نظام الملك مدرستي النظامية في بغداد ونيسابور٢. وأصبحت العقيدة الرسمية لدولة الخلافة العباسية عندما نشر الخليفة القادر مرسوماً بالاعتقاد الرسمي للدولة عرف باسم "العقيدة القادرية". ثم توسع انتشار العقيدة الأشعرية بعد أن انتصر السلطان صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين في مصر وقضى على العقيدة الإسماعيلية الشيعية التي كانت مفروضة من قبلهم. ثم تبعه على ذلك سائر سلاطين الأيوبيين والمماليك. ثم اعتمدت الدولة العثمانية المذهب الماتريدي.

ونحن اليوم نرى ظاهرة الجغرافية المذهبية تشكل أزمة كبيرة في العالم الإسلامي، وهذه الأزمة تحرم الأمة من الإفادة من تراثها العلمي والفكري العظيم المتنوع الذي أراد الله بحكمته أن يكون مقبولا عنده رغم اختلافه، وقد ألقت هذه الأزمة ظلالها على دول شرق آسيا حيث لا نرى قبول هذه الدول لغير المذهب الحنفي مرتبطا بالعقيدة الماتريدية، وقلما نرى مدرسة غنية فيها تدعو للتنوع والثراء مثل مدرسة أبي الحسن الندوي، وبالمقابل فإن المغرب العربي حدّد نفسه بالمذهب المالكي مقترنا بالعقيدة الأشعرية، وقلما نرى مدرسة متنوعة استفادت من ثراء الأمة الفكري مثل مدرسة الشيخ بن بيه، وفي تركيا نجد أن قاعدة صارمة تحكم الأمور فكل تركي حنفي ماتريدي وكل كردي شافعي أشعري، بينما تحددت الشيعة بمذهب الاثني عشرية مقرونا ببقايا العقيدة المعتزلية، على ما فيهما من إشكالات لم يقبلها جمهور علماء المسلمين عبر قرون الإسلام وبينوا فسادها، فضلا عن كونها مشوبة بضلالات بغض الصحابة وعداء أهل السنة وتكفيرهم، والتشكيك بقرآنهم، بينما

---

٢ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٢/٨.

انتشرت اللامذهبية في الجزيرة العربية مقترنة بدعوى العقائد الأثرية، التي فسروها على هواهم ممزوجة -مع الأسف- بإشكاليات التجسيم والتشبيه وحظر المباح وتكفير المسلمين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في العالم الإسلامي من أشاعرة وماتريدية، وهذا ما نجده واضحا عند المغالين منهم، وقلما نجد في هذه البقعة الجغرافية مدرسة اعتمدت المنهج الفقهي الحديثي العقدي الذي أقره أهل السنة عبر تاريخ الإسلام، مثل المدرسة المتميزة للشيخ محمد علوي المالكي. بينما نرى في معظم بلاد الغرب انتشار اللامذهبية مقترنة بالفكر المضطرب المشوش، وقلما نرى انتشارا للمدارس السنية المتوازنة، مثل مدرسة الزيتونة في كاليفورنيا. ولا تزال بلاد الرافدين والشام ومصر وبعض البلاد الأخرى مثل الكويت تفيد من ثراء المذاهب الأربعة، وتنشر فكرهم وقواعدهم وأصولهم وفروعهم، وتحقق مخطوطات كتبهم، وتعتني بها. وخير مثال على هذا الموسوعة الفقهية التي قام عليها كبار الأساتذة المعاصرين من فقهاء الشام، وتبنتها حكومة الكويت، وكتاب الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، وكتاب إعلام الأنام للدكتور نور الدين عتر الذي ربط فقه المذاهب الأربعة بالسنة النبوية مؤصلا ومؤسسا.

٢ـ مكانة السنة عند أهل السنة والجماعة:

من المتفق عليه بين جميع طوائف أهل السنة والجماعة أن السنة هي المبينة للقرآن الكريم والمفصلة لمجمله والمقيدة لمطلقه والمخصصة لعامه، فوجب تعظيم السنة وتعيَّن التمسك بها والعمل بمقتضاها ونصرتها، واستدلوا بتواتر الأخبار التي توجب ذلك في الكتاب والسنة والإجماع. ونحن نرى اليوم ظهور طائفة شذّت عن أهل السنة والجماعة، فأنكرت السنة، ولم تر العمل بها، وادعت إمكانية الاكتفاء بالقرآن الكريم، لاعتقادهم أن الله قد وعد بحفظ القرآن فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر ٩) ويستدلون على ذلك بأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي اجتمع المسلمون كافة على صحته، بينما الأحاديث فيها اختلاف كثير على صحتها، كما لا يعتدون بأقوال السلف أو إجماع العلماء أو القياس وغيرها من مصادر التشريع الإسلامي. وقد سمى هؤلاء أنفسهم بالقرآنيين، وهم يشكلون ظاهرة منتشرة في تركيا مع الأسف. وقد كان لهؤلاء نظراء من أهل البدع منذ عهد الصحابة. وها هو عمران بن الحصين رضي الله عنه الصحابي الذي كان راويةً لحديث رسول الله ﷺ يشنع على من قال له: لا تتحدثوا إلا بما في القرآن، عندما كانوا يتذاكرون حديث رسول الله، فقال له: إِنَّكَ امْرُؤٌ أَحْمَقُ، أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الظُّهْرَ أَرْبَعًا لَا تَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ؟ ثُمَّ عَدَّدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَنَحْوَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: أَتَجِدُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُفَسَّرًا؟ إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَحْكَمَ ذَلِكَ، وَإِنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ ذَلِكَ". وفي رواية: لَما نحن فيه يعدل القرآن. وفي رواية: أي قوم خذوا عنَّا، فإنَّكم والله إن لا تفعلوا لتضلُّن[٣]. وفي عصر التابعين يروي أيوب السختياني: أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله ابن

[٣] الشريعة للآجري ٤١٦/١، ومصنف عبد الرزاق ٢٥٥/١١، والبيهقي في مدخل الدلائل ١ / ٢٥، وأخرجه الخطيب في الكفاية ٤٨، وأبو عمر بن عبد البر في الجامع ٢ / ١٩١.

الشخير: لا تحدثونا إلا بما في القرآن، فقال له مطرف: "إنَّا والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا"[٤].

ويبدو أن هذه حالات فردية، ولم تتخذ طابعاً جماعياً إلا أواخر القرن الثاني، غير أنه لا توجد معلومات تفصيلية عن هذه الجماعة في ذلك الوقت إلا ما ورد في كتاب "جماع العلم" من كتاب "الأم" للإمام الشافعي حيث قال: "باب حكاية قول الطائفة التي ردَّت الأخبار كلها". ثم شرع في الردِّ عليهم. ومنذ ذلك الحين نجد طوائف شاذة تتبنى هذا الاتجاه.

ويعّد الرافضة ممن ردَّ السُّنَّة مطلقاً لأنهم يعتقدون الحكم بالردَّة على الصحابة رضي الله عنهم إلا قليلا منهم، وعلى ذلك فكل ما جاء من طريقهم من السُّنَّة فهو مردود، لاسيما وهم يتَّهمونهم أيضاً بالكذب والخيانة في تبليغ الرسالة، وأنهم كتموا كثيرا من القرآن، وأما ما يعملون به مما يسمونه حديثاً أو سُنَّة فهو في الحقيقة لا أصل له يعتمد على أسانيد مختلقة فيها رجال مجهولون، لا ترجمة لهم، إضافة إلى عدم وجود علم الجرح والتعديل الذي هو الأساس في ضبط الرواية لديهم، لتوثيقهم لرجال الأسانيد من أهل البيت دون النظر في حالهم.

وقد رد على هذه البدعة كثير من العلماء، ومنهم ابن حزم الأندلسي والشاطبي والسيوطي في كتابه: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. ومن المعاصرين الدكتور مصطفى السباعي والدكتور نور الدين عتر والدكتور محمود حمدي زقزوق ومحمد أسد ومحمود مزروعة. وقد استدل العلماء قديما وحديثا لوجوب الأخذ بالسنة بما أُمر المسلمون به من طاعة الرسول في آيات كثيرة في القرآن الكريم.

وفي العصر الحديث كان للمستشرقين دور كبير في إحياء ما اندثر من البدع والآراء المنحرفة من خلال بحوثهم في تراثنا الديني، ومن خلال عملهم مع المستعمرين لبلاد الإسلام من جهة أخرى. ومن ذلك فكرة رفض السنة والاكتفاء بالقرآن وحده، التي يرمى من ورائها إلى رفض القرآن، لأنهم يعلمون أن تعطيل السنة يعني عدم إمكانية العمل بالقرآن، واختلاف المسلمين في تفسير القرآن، وظهور فرق وطوائف لا حصر لها نتيجة ذلك الاختلاف.

ففي شبه القارة الهندية استطاع الاستعمار الإنجليزي أن يجند مجموعة تنادي بإنكار الجهاد، ليخفف عنه ما يعانيه من بأس المجاهدين هناك، وكان من هؤلاء "جراغ علي" و "ميرزا غلام أحمد القاديانى"، وما لبث أن تطور الأمر إلى إنكار السنة على يد "سيد أحمد خان" و "عبد الله جكرالوي" و "أحمد الدين الآمرتسري" وغيرهم، ثم جاء "غلام أحمد برويز" فأسس جمعية باسم أهل القرآن، وأصدر كتبا ومجلة شهرية تدعم فكره، وممن أحسن الرد خادم حسين بخش في كتابه "القرآنيون وشبهاتهم حول السنَّة". وفي بلاد العرب تولى هذه المهمة بعض من ينعت نفسه بأنه من اتباع المدرسة الاصلاحية التي نشأت في مصر على يد محمد عبده وشيخه الأفغاني، وهذا ما يؤكده أحمد صبحي منصور الزعيم الروحي للقرآنيين في مصر والعالم العربي. وكانت "مجلة المنار" التي يرأس تحريرها مؤسسها محمد رشيد

[٤] مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ٣٦/١.

رضا أحد أقطاب تلك المدرسة، قد نشرت سلسلة من المقالات بعنوان: الإسلام هو القرآن وحده بقلم الدكتور توفيق صدقي، وقد أيَّد الشيخ رشيد رضا هذه المقالات، الذي كان يقسم السُّنَّة إلى دين عام - السُّنَّة العملية - يجب قبوله، ودين خاص - وهو ماعدا ذلك - لسنا ملزمين بالأخذ به[٥]. وكذلك فإن أبا ريّة المنتمي إليهم وضع هذه الأفكار المنكرة للسنة في كتاب "أضواء على السُّنَّة المحمدية". ورد عليه السباعي في كتابه: "السنة ومكانتها". ثم إن تأثر الدارسين العرب في الجامعات الأوربية بآراء أساتذتهم من المستشرقين، كان له أثره السلبي في زرع شبهات حول السنة لديهم، كان نتيجتها الطعن بالسنة وردها، ومنهم طه حسين، وأحمد أمين وغيرهما. وقد أسس بعد ذلك المصري أحمد صبحي منصور المركز العالمي للقرآن الكريم "IQC" في ولاية فيرجينيا وموقعه على الإنترنت (أهل القرآن). ومن خلاله بدأ ينشر مقالاته وكتبه وأبحاثه للتعريف بمنهجه والدعوة إليه[٦]. ومما نُشر مؤخرا على هذا الموقع مقال بعنوان: (تغيير جذري: تركيا تعيد النظر في معاني الاحاديث)، وفيه أن تركيا تستعد لنشر وثيقة تمثل تغييرا جذريا في الطريقة التي تفسر بها تعاليم الاسلام... وقد كلفت وزارة الشؤون الدينة ذات النفوذ الواسع في البلاد مجموعة من علماء الدين في جامعة أنقرة للقيام بمراجعة شاملة للاحاديث النبوية. ويدعي المصدر أن السلطات التركية تقول بأن عددا لا يستهان به من الأحاديث منسوبة إلى النبي محمد زورا، وحتى بعض التي صدرته عنه فعلا بحاجة إلى إعادة تفسير، حسب رأيها.

وقد بدأ التمحيص الدقيق في الأحاديث في كلية الشريعة بجامعة أنقرة (على زعمهم)، ويقول أحد مستشاري المشروع فيلكس كرونر أن العديد من الأحاديث تم اصطناعه بعد وفاة النبي ﷺ محمد بقرون لخدمة مصالح معينة.

ويضيف كرونر أن الدين الاسلامي استغلته ثقافات متتالية، محافظة في أغلبها، لدعم عدة أشكال من السيطرة داخل المجتمع. ويقول الخبير البريطاني فادي حكورة من مؤسسة تشاتام هاوس بلندن: إن ما تقوم به تركيا الآن هو تحويل الإسلام من دين يجب طاعة تعاليمه إلى دين مصمم لتلبية حاجيات الناس في ديموقراطية علمانية. ويقارن الخبير المشروع التركي بإصلاح الكنيسة: "ليس نفس الشيء بالطبع، لكن إن دققت في ما تفعله تركيا، فهو أيضا عبارة عن تغيير في جذور الدين". ويجدر بالذكر أن كلية الشريعة في أنقرة تقوم بهذا التجديد مستخدمة تقنيات النقد والفلسفة الغربية في التعامل مع الحديث. إن هذه القضية هي نموذج له نظائره الكثيرة في كليات الإلهيات في الجامعات التركية، وهذه الظاهرة يقابلها بالطبع في

---

[٥] انظر: دراسات في الحديث النبوي للأعظمي ١ / ٢٦ -٢٧. ونقل الأعظمي عن الأستاذ السباعي أن رشيد رضا قد رجع عن ذلك في آخر حياته.

[٦] من أبرز المتحمسين والمدافعين عن هذا التوجه في الوطن العربي: عماد الدين الدباغ من السودان، أحمد صبحي منصور من مصر، مصطفى كمال المهدوي من ليبيا، عبد الله السعيد المشتهري من مصر، علي حسن اوريث من ليبيا، محمد صالح بنور من الجزائر.

تركيا تيارات متوازنة تفرق بين الثوابت والمتغيرات في الشريعة الإسلامية، ويتضح فيها المنهج الوسطي للإسلام الأصيل.

٣- مصطلح الجماعة وأبعاده الحقيقية:

أشير إلى الجماعة في السنة بأنها الفرقة الناجية في حديث الافتراق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة فإحدى وسبعين فرقة في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد - صلى الله عليه وسلم - بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة". وفي رواية: ما أنا عليه وأصحابي[٧].

ثم إن علماء المسلمين اجتهدوا في تحديد تلك الجماعة. فلما سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الجماعة قال: "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم"[٨].

ويحدد الشيخ سلامة القضاعي معيار الدخول في تلك الجماعة متمثلا في أصول الدين المجمع عليها بين علماء المسلمين، فيقول: "الافتراق الذي أنذر الرسول أمته إنما هو في أصول الدين وفروعه المتواترة، وفيما أجمع عليه منها؛ ولذلك ألف كثير من الجهابذة مؤلفات خاصة فيما تقدمهم من الإجماعات ليحذر خلافها مَن بعدهم ممن يتأهل للاجتهاد. وهذه الأصول أصول الدين وما ألحق بها هي بحمد الله محل وفاق على ممر القرون، والخلاف فيها هو معيار الابتداع، والقائل به يعرف عند أهل السنة بالمبتدع. فأحكم علم ذلك يرتفع عنك كثير من تشغيب المبتدعة ومن سايرهم من الجهلة"[٩]. وهذا معيار مهم جدا، وهو حجة على من يخالف الأثرية والأشاعرة والماتريدية لانتماء علماء الأمة إليهم، وتصريحهم بالعقائد الموافقة لهم.

ويعدد عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي أصناف أهل السنة والجماعة الثمانية ويجعل منهم أئمة الفقه من فريقي الرأي والحديث ويصفهم بأنهم الذين اعتقدوا في أُصول الدين مذاهب الصفاتية في الله وفي صفاته الأزلية وتبرَّؤُا من القدر والاعتزال، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها، ودوام عذاب النار على الكفرة، وقالوا بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة الذين تبرؤا من أهل الأهواء الضالة، ورأَوْا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة، ويدخل في هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم.

وينقل العلامة السفاريني عن بعض العلماء أن الفرقة الناجية هم أهل الحديث. يعني الأثرية والأشعرية والماتريدية[١٠].

---

[٧] أحمد في المسند ٣٣٢/٢، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٩٧/٧، وأبو داود في كتاب السنة، باب شرح السنة ٤/٥ ، وصححه الحاكم ٦/١ ، ووافقه الذهبي، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ٢٢٥/٣: أسانيده جياد، وصححه السخاوي في المقاصد الحسنه ١٥٨. وقد عدَّه السيوطي والكتاني من المتواتر.

[٨] شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي.

[٩] البراهين الساطعة ١٦٧.

[١٠] لوامع الأنوار ٧٦/١.

ويقول الدكتور نور الدين عتر حفظه الله، وهو من كبار محدثي العصر: إن إضافة مصطلح الجماعة إلى السنة كان من أجل التعبير عن أن من يمثل الإسلام حقيقة هم الذين استمر فيهم نهج جماعة الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فهم الجادة العريضة التي انحرفت عنها طوائف من أهل البدع في كل زمان ومكان.

٤- الإمام أحمد بن حنبل وعقيدة أهل السنة والجماعة:

ارتبط مصطلحا أهل السنة والجماعة وأهل الحديث بفتنة الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن وثباته مع أصحابه فيها. وأحمد بن حنبل هو إمام معتمد عند كل أهل السنة والجماعة باختلاف مشاربهم سواءٌ كانوا حنابلة أثرية أو مالكية وشافعية أشاعرة أو حنفية ماتردية. لكن اختلف المنتسبون لأهل السنة حول تفسير توجهات ابن حنبل في العقيدة، واختلفوا حول صحة بعض الأقوال المنسوبة إليه، فبينما يرى كثير من جماعة السلفية أن الإمام أحمد بن حنبل هو المؤسس الحقيقي لمنهجهم، وأن الإمام أحمد على خلاف حاد مع متكلمي أهل الحديث، وأن السلفية هم الاستمرار التاريخي لمنهج الإمام، ويقدمون أنفسهم على أنهم امتداد لمدرسة الحديث في المشرق الإسلامي؛ ويرون أن معاقلهم تلك كانت خصوصاً في شبه الجزيرة العربية، وكذلك مدارس الحنابلة بالشام، والسلفية في العراق ومصر والسودان، وأهل الحديث في شبه القارة الهندية[١١].

في المقابل يرى بقية أهل السنة والجماعة وأغلبهم من الأشاعرة والماترديةوجانب من الحنابلة بعدم صحة كثير من النقول التي رُويت عن الإمام أحمد بن حنبل، والتي اعتمد عليها السلفيون في تحديد معالم منهجهم، كما يرى هؤلاء أن نشأة أهل الحديث مرتبطة بنشأة أهل السنة والجماعة، وأن المصطلحان استخدما للدلالة على العقيدة الجامعة للأثرية والأشاعرة والماترديةة، وأنهم فقط تميزوا عن بعض أهل الحديث من الأثرية باستعمالهم علم الكلام، ويرون أن الخلاف الذي حدث بين ابن حنبل وبعض المتكلمين من أهل السنة، هو خلاف لا ينقص من صحة معتقد أحدهما.

٥- هل يوجد عقيدة مستقلة لأصحاب الحديث:

في حين يرى السلفيون أن أهل الحديث أصحاب منهج مستقل في العقيدة، فإن الأشاعرة والماترديةمنهم من يرى أن أصحاب الحديث هم أحد مكونات أهل السنة، تميزوا بالاهتمام بالحديث النبوي دون أن يكون لهم موقف مستقل في العقيدة. يقول

---

[١١] انظر سياسات السلفية الإحيائية الجديدة لحسن أبوهنية. والسلفية: هم جماعة ظهروا في القرن السابع الهجري وفقا لما يرونه من صفات لله في القرآن والسنة. وقد اتبعوا ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وفي العصر الحديث ظهروا في شبه الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الوهاب بالتزامن مع تكوين الدولة السعودية الأولى (تاريخ المذاهب الإسلامية أبو زهرة ١٨١-١٨٥).

البيهقي رحمه الله، وهو من أئمة الحديث: "إن الصحابة ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمّة وفقهائها ومحدثيها على عقيدة الأشعري، بل الأشعري على عقيدتهم، قام وناضل عنها، وحمى حوزتها من أن تنالها أيدي المبطلين وتحريف الغالين". ويرفض الكوثري، وهو من أئمة العلم المعاصرين، أن يكون لأهل الحديث عقيدة جامعة، وهو أمر صحيح لا شك فيه يؤيده واقع النظر في تراجمهم. يقول رحمه الله: "وبين أهل الحديث من القدرية والخوارج وصنوف الشيعة والمجسمة من كرامية وبربهارية وسالمية رجالٌ لا يحصيهم العد كما لا يخفى على من له إلمام بعلم الرجال، فليس لهم عقيدة جامعة. فيكون عزو عقيدة إلى جماعة الحديث مُخادعة وتمويهاً على العقول، فإن كان يريدُ تخصيص هذا الاسم بصنوف المجسمة فهذه التسمية إنما تكون تسمية ما أنزل الله بها من سلطان، إنما التعويل على أهل الحديث في روايتهم الحديث فقط فيما لا يُتهمون به، وأما علم أصول الدين، فله أئمة معروفون وبراهينٌ مدوّنةٌ في كتبهم، وأهل الحديث المبرّءون من البدع يسيرون سيرهم"١٢. وقال بهذا كثير من علماء الحنابلة مثل: القاضي أبو يعلى الفرا وابن صوفان القدومي الحنبلي١٣. وعلى ذلك فإن أئمةَ أهل الحديث كأحمد بن حنبل هم على عقيدة أهل السنة والجماعة دون أن يكون لهم منهج مستقل في العقيدة، ومن الأئمة القائلين بهذا الرأي: ابن عساكر والبيهقي وتاج الدين السبكي وعبد القاهر البغدادي١٤. قال ابن عساكر: ولم تزل الحنابلة ببغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات تعتضد بالأشعرية على أصحاب البدع لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فبلسان الأشعرية يتكلم ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم فلم يزالوا كذلك حتى حدث الاختلاف في زمن أبي نصر القشيري١٥. وكان ذلك في القرن الخامس للهجرة.

ويتحدث ابن تيمية عن نفسه قائلا: ولما أظهرت كلام الأشعرى ورآه الحنبلية قالوا هذا خير من كلام الشيخ الموفق وفرح المسلمون باتفاق الكلمة، وأظهرت ما ذكره ابن عساكر في مناقبه أنه لم تزل الحنابلة والأشاعرة متفقين إلى زمن القشيري فإنه لما جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة١٦.

وبعض الأشاعرة والماتريدية يعدون أصحاب الحديث طائفة من ثلاث طوائف، اختلفت بينها من جهة العقيدة في الطريقة وبعض الفروع، دون الحقيقة والأصول. فهم يعتمدون مثلا التفويض المطلق في آيات الصفات، بينما يحقق الأشاعرة والماتريدية التوازن بين التأويل والتفويض، ويقر كلا المذهبين. وعلى كل حال فإن كلا منهما يرفض التأويل المطلق الذي يستعمله المعتزلة، كغطاء في تقديم

---

[١٢] ص ٣٩ من كتاب من كتاب "بحوث في علم الكلام"، تأليف: سعيد عبد اللطيف فودة، دار الرازي، الطبعة الأولى، عمّان بالأردن، ٢٠٠٤ م. وانظر "تكملة الرد على نونية ابن القيم ٢٤.

[١٣] طبقات الحنابلة ٤٧٩، وانظر المنهج الأحمد لابن صوفان نقلاً عن درر الألفاظ العوالي في الرد على الموجان والحوالي لغيث بن عبد الله الغالبي.

[١٤] انظر دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، ج٢: الأشاعرة، تأليف أحمد محمود صبحي.

[١٥] تبيين كذب المفتري ١٦٣.

[١٦] مجموع الفتاوى ٣/٢٢٩.

العقل على النقل. قال أبو عبد الله السبكي في كتابه "تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب": "واعلم أنّ أهل السنة والجماعة كلّهم قد اتفقوا على مُعتقَدٍ واحد فيما يَجبُ ويجوزُ ويستحيلُ، وإن اختلفوا في الطرق والمبادئ الموصلة إلى ذلك، أو في لِمِّيَّة المسالك. وبالجملة، فهم بالاستقراء ثلاث طوائف: الأولى: أهل الحديث: ومعتمَد مبادئهم الأدلةُ السمعيّة، أعني الكتاب والسنّة والإجماع. الثانية: أهل النّظر العقلي والصناعة الفكرية: وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعري، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدي. وهم متفقون في المبادئ العقلية في كل مَطلبٍ يتوقَّفُ السمعُ عليه، وفي المبادئ السمعية فيما يدرِك العقلُ جوازَه فقط، والعقليةِ والسمعيةِ في غيرهما. واتفقوا في جميع المطالب الاعتقادية... الثالثة: أهل الوجدان والكشف: وهم الصوفية. ومبادئهم مبادئُ أهل النظر والحديث في البداية، والكشف والإلهام في النهاية" وقد وافقه على ذلك الإمام المحدث مرتضى الزبيدي رحمه الله١٧.وبهذا قال أيضا بعض الحنابلة مثل الإمام السفاريني الحنبلي، دون أن يخرج الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة، كما يفعل كثير من جهلة الحنابلة أو من يسمون أنفسهم بالسلفية اليوم. يقول رحمه الله: "أهل السنة والجماعة ثلاث فرق: الأثرية: وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية: وإمامهم أبو الحسن الأشعري. والماتريدية: وإمامهم أبو منصور الماتريدي"١٨. ومن هؤلاء الإمام عبد الباقي المواهبي الحنبلي الذي القول إلى جميع كتب الحنابلة، فقال: "طوائف أهل السنة ثلاثة: أشاعرة وحنابلة وماتريدية بدليل عطف العلماء الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكتب الكلامية وجميع كتب الحنابلة"١٩. ومن الحنابلة القائلين بهذا الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الذي ميز بين أهل الحديث والأشاعرة من خلال الموقف من الصفات المتشابهة فقال: وفرقة أخرى أثبتت الصفات المعنوية من نحو السمع والبصر والعلم والقدرة والكلام وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة ومنهم أتباع أئمة المذاهب الأربعة ، ثم اختلفوا فيما ورد به السمع من لفظ العين واليد والوجه والنفس والروح : ففرقة أولتها على ما يليق بجلال الله تعالى وهم جمهور المتكلمين من الخلف فعدلوا بها عن الظاهر إلى ما يحتمله التأويل من المجاز والاتساع خوف توهم التشبيه والتمثيل. وفرقة أثبتت ما أثبته الله ورسوله منها وأجروها على ظواهرها ونفوا الكيفية والتشبيه عنها قائلين إن إثبات البارئ سبحانه إنما هو إثبات

---

[١٧] انظر "إتحاف السادة المتقين" ج٢ ص٩. والصوفية نسبة للتصوف الذي بنى منهجه على طريق الوصول إلى العلم بالله الذي يقوم على التحقق بمقام الإحسان، وذلك من طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق المذموم، وتحليته بالأخلاق المحمودة. والصوفية يتبعون من حيث العقيدة المدارس المعروفة عند أهل السنة، ويتبعون أحد المذاهب الفقهية السنيّة الأربعة، ويأخذون بالكشف والإلهام الذين لا يعارضان القرآن والسنة.وقد تنوعت الطرق التي يسلكها المربون فنشأ عنها ما عرف بـ "الطرق الصوفية".

[١٨] لوامع الأنوار البهية ٧٣/١.

[١٩] العين والأثر ٥٢.

وجود بما ذكرنا لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هي إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف. فإذا قلنا يد ووجه وسمع وبصر فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه فلا نقول إن معنى اليد القوة والنعمة ولا معنى السمع والبصر العلم ولا نقول إنها جوارح[٢٠]. وقد عبر بعضهم عن العلاقة بينهم بشكل مختلف فاعتبر أن الأشاعرة والماتريدية هم قسم من أهل الحديث اعتنى بالعلوم الكلامية، مثل: عبد الله بن خلف الدحيان، ووهبي الغاوجي[٢١]، وفوزي العنجري وحمد السنان. جاء في كتاب "أهل السنة الأشاعرة": "أن الثلاث فرق هي فرقة واحدة لأنهم كلهم أهل الحديث، فإن الأشاعرة والماتريدية لم يردوا الأحاديث ولا أهملوها، فإما فوضوها وإما أولوها، وكل منهم أهل حديث، وحينئذ فالثلاث فرقة واحدة، لاقتفائهم الأخبار وانتحالهم الآثار، بخلاف باقي الفرق فإنهم حكّموا العقول وخالفوا المنقول فهم أهل بدعة وضلالة ومخالفة وجهالة والله تعالى أعلم"[٢٢]. وقديمًا أشار إلى هذا الأمر ابن حزم وابن تيمية حينما عدّا أبا الحسن الأشعري من متكلمي أهل الحديث. يقول عنه ابن تيمية: " كان هو وأمثاله يعدون من متكلمة أهل الحديث، وكانوا هم خير هذه الطوائف، وأقربها إلى الكتاب والسنة، ولكن خبرته بالحديث والسنة كانت مجملة، وخبرته بالكلام كانت مفصلة"[٢٣]. وكذلك يعدّ من أبرز أئمة أهل الحديث المتكلمين البخاري وابن الجوزي[٢٤].

٦- واقع انتماء المحدثين من خلال عقيدتهم:

لعل ما يحسم الجدال نهائيا حول هوية أصحاب الحديث هو النظر في واقع انتماء جمهور محدثي الأمة عبر قرون الإسلام من حيث الاتجاه العقدي، وذلك من خلال تتبع ترجماتهم من جهة، وتتبع ما ورد عنهم من نقول تتصل بالعقيدة من جهة أخرى. وهم من أمثال الحاكم والبيهقي والخطيب البغدادي وابن عساكر والخطابي وأبو نعيم الأصبهاني والقاضي عياض وابن الصلاح والمنذري والنووي والعز بن عبد السلام والهيثمي والمزي والقرطبي وابن حجر وابن المنير وابن بطال وشراح الصحيحين، وشراح السنن، والعراقي وابنه وابن جماعة والعيني والعلائي وابن فورك وابن الملقن وابن دقيق العيد وابن الزملكاني والزيلعي والسيوطي وابن علان والسخاوي والمناوي وعلي القاري والبيقوني واللكنوي والزبيدي والنابلسي وبدر الدين الحسني وعبد الله سراج الدين وعبد الفتاح أبو غدة ونور الدين عتر وغيرهم كثير...

وإضافة إلى ذلك فقد وردت نقول عن كثير منهم يصرحون بأن المراد بأهل السنة والجماعة من انتسب إلى الأشاعرة والماتريدية. ومن ذلك قول الحافظ ابن حجر الهيتمي أن: "المراد بالسنة ما عليه إماما أهل السنة والجماعة الشيخ أبو

---

[٢٠] أقاويل الثقات ١٣٣.

[٢١] مسائل في علم التوحيد ٢٤، ٢٥.

[٢٢] حمد السنان وفوزي العنجري، دار الضياء.

[٢٣] درء تعارض العقل والنقل ٤٦٢/٧ ، وانظر بحوث في علم الكلام، سعيد عبد اللطيف فودة، ٣٥.

[٢٤] انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ١/ ٢٧٥، ٢٩١.

الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي"، ومثل هذا التعبير نجده عند كثير من متقدميهم ومتأخريهم [٢٥].

٧- خاتمة:

إن ما تقدم يضعنا أمام حقيقة معاصرة تمدها جذور ضاربة في عمق التاريخ، مفادها أن أصحاب الحديث قديما وحديثا هم أهل السنة والجماعة، سواءٌ قولنا: إن أهل السنة والجماعة ينتسبون إليهم أو إنهم ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة، فالنتيجة واحدة تتمثل في مسيرة الصحابة والتابعين ومن تبعهم في منهجهم إلى يومنا هذا، وفي إجماع علماء الأمة المعتد بهم عبر تاريخ الإسلام على المذاهب الفقهية الأربعة والعقائد الأثرية والأشعرية والماتريدية التي هي استمرار لذلك المنهج، وأن أهل الحديث هم جزء مهم جدا من علماء الأمة الذين لم يخرجوا عن هذا الإجماع. بينما خرج الشيعة نهائيا عن فقه الأمة وعقائدها ورفضوا منهج أهل الحديث، وانقسم من سموا أنفسهم بالسلفية فريقين: بعضهم غالى فكفر أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية، وهذه المجازفة منهم أخرجت ٩٠% من المسلمين عن الإسلام، وهذا ما فرق المسلمين وشتت شملهم، فكان هؤلاء الغلاة يقولون بما هو مخالف لمنهج المحدثين قديما وحديثا، مع أنهم يدّعون متابعة أهل الحديث، وفريق آخر اتخذ موقفا معتدلا يعترف بأن الأشاعرة والماتريدية هم الكيان الأساسي العظيم للأمة الذي ينتمي إليه الجمهور الساحق من العلماء، ومع هذا الموقف الموضوعي فهم ما يزالون يخالفونهم ببعض الفروع ويعتقدون خطأهم.

وإننا اليوم بأمس الحاجة أن نتبنى الترادف بين مصطلحي أهل السنة والجماعة وأهل الحديث، على أن أهل الحديث هم الأشاعرة والماتريدية والأثرية عقيدة، وهذا ما صرح به علماء الأمة قديما وحديثا، وهذا يمكّننا من أن نُدخل في مصطلح أهل السنة والجماعة الوسطيين من الذين ينسبون أنفسهم إلى أهل الحديث اليوم دون أن ينتسبوا إلى المذاهب الأربعة، لكن دون أن يكفروا غيرهم من المسلمين ودون أن يتبنوا العقائد الفاسدة كالتجسيم وغيره.

أخيرا ...لا بد من حركة علمية اجتماعية سياسية تنشر وعي الاستيعاب في جميع أتباع أهل السنة والجماعة وتؤسس لوحدة سلوكية تكون منطلق نهضة وانبعاث حضاري جديد.

---

[٢٥] الزواجر عن اقتراف الكبائر ٨٢.

مدارس اهل السنة وتأثيرها على تأسيس الهوية السنية.

دور الإجازات العلمية في بناء هوية الأمة (الإجازة البغدادية نموذجا)

د. عثمان سعيد العاني

من المعروف إن للمدارس دورا في تثبيت هوية الأمة وصياغة منهاجها في التفكير، وهي معيار تطورها وقدرتها على الاستجابة لأي تحد، فتعيد تشكيل فكر الأمة وهويتها بما يناسب والمرحلة التي تمر بها.

فمنذ انطلاقتها من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ارتبطت هذه المدارس بالمسجد ودار القضاء ودار الحكم، لتشكل هذه الثلاثية رمز الحضارة الإسلامية..

وإذا أردنا أن نضع معيارا لقياس الحركة العلمية وانتشارها، فيمكننا ذلك من خلال رصد حركة

الإجازات العلمية، وذلك من خلال قراءتها ثم تحليلها وكيفية انتشارها ورصد مقومات تطورها، لنلاحظ مدى تأثير حركة المدارس على تطور الأمة في عصر الاستقرار، وبنائها في فترة الانهيار، وهي بحق استطاعت أن تحقق نقلة نوعية حضارية في فترة توحد الأمة، كما استطاعت أن تجمع شتاتها في فترة الفرقة.

وحينما نقلب صفحات التاريخ قد لا نجد أن العالم الإسلامي توحد بشكل متكامل تحت حكم واحد إلا في فترات محدودة، لكننا حينما ننظر إلى حركة العلوم وانتقالها كانت تخضع لمنظومة معرفية واحدة من حيث إطارها، فهي وأن اختلفت في التفاصيل إلا أنها متحدة في الأهداف تقوم على عنصر التكامل أولا والتواصل ثانيا، ليعطيها حركة تاريخية مؤثرة وواضحة بشكل فاعل قياسا لباقي الحضارات الأخرى...!!

وسأحاول من خلال هذه الدراسة أن انتقل بشكل متدرج بين محاور أربعة هي:

المحور الأول: المحور التاريخي.
المحور الثاني: المحور الوصفي.
المحور الثالث: المحور التحليلي.
المحور الرابع: النتائج والاقتراحات.

ولكي نسلك في بحثنا مسلك الدراسات التحليلية الوصفية، التي تقوم على مقدمات صحيحة تؤدي إلى نتائج مقبولة، وكما يلي: (٢٦)

المدخلات: والمعيار هنا هو انتقاء، ما يناسب الدراسة ومادته هي:

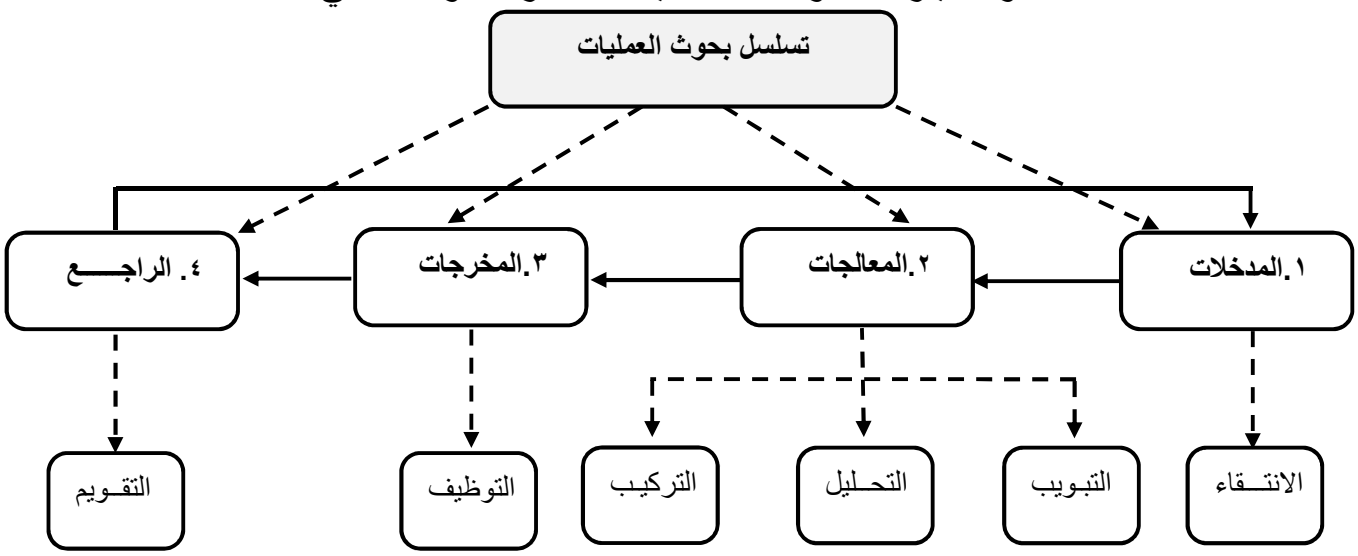

المدارس العلمية، وهي المدارس النظامية وما أعقبها حتى عصرنا.
الإجازات العلمية، وهي الأجازات الأكثر تأثيرا في المنطقة (الكوثري، الدبان....).
المنطقة المراد دراستها (الجيو سياسية)، وتشمل: العراق، تركيا، بلاد الشام، إيران .
المعالجات: ومعيارها هو:
التبويب: المعلومات المراد دراستها.
تحليلها : من خلال معرفة القيم المشتركة.
التركيب : جمع المشترك، وتحديده.
ومن خلال الجمع بشكل متدرج بين المعايير الثالثة وجدنا أن الإجازة هو وحدة القياس التطبيق العملي القابل للاستمرار والتوظيف.
المخرجات: حيث يوظف بشكل تطبيقي عملي من خلال اثر هذه المدارس وانتشار الإجازة بين أقوام مختلفة وبلاد متباينة.
الراجع: من خلال تقويمها والحكم عليها بأنها (مستمرة غير منقطعة وهي متجددة مرتبطة بالتاريخ والواقع معا).

---

(٢٦) ينظر بحثي المنشور في مجلة البحوث الفقهية الإسلامية: İslam Hukuku Araştırmaları Dergi s i , s y. 19, 2012, s. 355-371، بعنوان: الأحناف والمنهجية الفقهية .

إذا نسعى من خلال بحثنا إلى تقويم أثر تلك المدارس من خلال تحليل حركة العلوم وقراءة كيفية انتشار الإجازات العلمية في هذه المنطقة، ودور المدارس في حركة التغير الفاعل في المنطقة.

المحور الأول: المحور التاريخي.

سنحاول فيه أن نطلع على وصف للتاريخي للمدارس بشكل موجز نذكر فيه تطورها وما ألت إليه.

وقبل أن ندخل في تفاصيل البحث المراد عرضه، لا بد من تحديد ملامح الأطر الحاكمة للدراسة لكون الفترة الزمنية المراد النظر فيها هي تمتد من عام ٤٤٧هـ وذلك بدخول السلاجقة بغداد، وتأسيسها بشكلها النظامي على يد نظام الملك ٤٥٩هـ، وانتشارها في دمشق وحلب وخرسان وديار بكر وغيرها ثم الأزهر ومدرسته، والمدارس الشرابيه ٦٢٨هـ وتوسعها ، ثم تتطور شكل المدارس بإضافة القسم العليم والطبي كما حدث في المدرسة المستنصرية ٦٣١هـ ، ثم توسعها ...

إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وتقسيم المنطقة بشكلها الحديثة.. ويمكننا أن نحددها من خلال عوامل مهمة جدا هي:

الفترة الزمنية المراد دراستها: وهي تبدأ من الدور السلجوقي في زمن الخلافة العباسية ثم الخلافة العثمانية.. ولذلك هي فترة تاريخية طويل جدا وفيها من الأحداث الشيء الكثير..!!

المنطقة المراد درستها : وهي المنطقة الجغرافية المتمثلة بالعراق وتركيا وسوريا وإيران، كجزء من تاريخ مشترك يبدأ من الخلافة الأموية ثم العباسية ثم الخلافة العثمانية.

مؤشرات التأثير المتبادل بين المنطقتين وأثر احدهما على الأخرى مع وجود تداخل جغرافي، وارتباط ثقافي، بين العراق وتركيا..

كون دمشق مركز الخلافة الأموية وبغداد مركز الخلافة العباسية، واسطنبول مركز السلطنة والخلافة العثمانية، جعل من هذه المدن لهما قيمة اعتبارية وحضارية.

العوامل المؤثرة في صياغة الأحداث: ما هي وما مدى تأثيرها في السابق.؟ وهل يمكن أن يكون لها تأثير في المستقبل..؟

فمن خلال هذه الأطر التي سنسير عليها لنصل إلى إعطاء ملامح تصور لقراءة التاريخ بما يخدم واقعنا المعاصر ويطور مستقبلنا القريب.. نستطيع أن نحدد ما هو الشيء الذي استمر إلى يومنا هذا وله القيمة المؤثرة في واقعنا، والذي لم ينقطع رغم المتغيرات التي مرت بالمنطقة طول هذه الفترة التي تمتد مدة ١٠٠٠سنة، ولا يزال له بعض التأثير المعاصر، ومن الممكن أن يتطور مستقبلا لتحقيق أثر اكبر بما يخدم المنطقة..؟؟

وبعد تفكير طويل وجدت أن الشيء المشترك في كل هذه المتغيرات والتي استمرت ألف سنة هو الفكر والمعرفة، والذي نستطيع أن نعرف قصة حياته من خلال معرفة المدارس والمؤسسات العلمية والحركة العلمية، علما أن المدارس الدينية كانت اغلبها تجمع من حيث الدراسة بين العلوم الشرعية والعلوم الأخرى..!!

فمنذ ظهور السلاجقة في بغداد تطورت منظومة التعليم متمثلة بالمدارس النظامية أيام الوزير نظام الملك وذلك في بغداد والبصرة والموصل وأصفهان وآمل وطبرستان ومرو ونيسابور وهراة وبلخ، ليتولى تطويرها حجة الإسلام الإمام محمد بن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ، فتتطور بشكل واضح المعالم، وتستمر بدون توقف.. فرغم أن بغداد احتلت على يد المغول إلا أن المدرس استمرت وبشكل واضح في مناطق متفرقة من العراق وجنوب تركيا لتعيد إلى بغداد إستقرارها.(٢٧)

المحور الثاني: المحور الوصفي :

سنحاول في هذا المحور أن نطلع على قيمة التقارب والتداخل في الإجازات العلمية بين العراق وتركيا وسوريا وإيران.

والذي أريد أن انوه إليه هنا ملاحظة مهمة: هي أن ارض العراق وبلاد الشام وأرض تركيا كانوا جزاءا من الخلافة العثمانية يجمعهم نظام واحد ، فلا يشعر الموجد في هذه الدولة بوجود حدود معنوية أو سياسية تؤثر في تفكيره، ولذلك كان هناك تداخل وتمازج في الثقافات والعلوم بما يطورها وينمي مداركها.

وإذا نظرنا إلى تسلسل الأسماء الموجودة في سند الإجازات العلمية البغدادية خصوصا والعراقية عموما، مقارنة مع الإجازات العلمية الموجودة في السند العثماني القديم المتمثل بسند مدارسة الفاتح خصوصا وباقي المدن التركية عموما، وجدنا أن هناك تداخل في نهاية السند وبدايته.

ولذلك سنحاول أن نحلل أسانيد الإجازات العلمية بين اسطنبول وبغداد ودمشق، وما حوته من تشابه وتقارب في الشيوخ والطبقات مع تأثير متبادل بينهما.

وسبب الاختيار لهذا الأمر يرجع إلى العوامل التالية:

كون الإجازات العلمية هي المؤشر العملي والمحرك الرئيسي للحركة العلمية والفكرية الممتدة من زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم مرورا بزمن دولة الخلفاء الراشدين ثم زمن الدولة الأموية ثم العباسية وأخيرا العثمانية..

لم ترتبط بالمسار السياسي أو تتأثر به، فهي مستقلة تمثل المؤسسات العلمية، والتي كلما تطورت تطور معها نظام الدولة والحكم، وهي تدخل في تصحيح هذا المسار فهي حاكمة عليه في الغالب وليس هو حاكم عليها.

تعد الإجازة خصوصيا متميزة للحضارة الإسلامية دون سواها من الحضارات، وهي لا تقف عند حد معين أو ارض أو عرق، ولذلك نجد بعضا من مدارس العلم استمرت في ارض خرجت من سلطة الدول الإسلامية التي حكمتها عبر التاريخ فرغم زوال حكم الدولة المسلمة عليها إلا أن عمل هذه المدارس لم يتوقف.

---

(٢٧) الصلابي: د علي محمد، دولة السلاجقة، دار المعرفة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ص١٤٠ وما بعدها؛ الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، الدار العربية، بغداد، ١٩٨٩م، ص٨٧ . ٩٠.

لا تتأثر بالخلافات السياسية والصراعات، بل هي تتجاوز كل الحدود وتحافظ على استقلالها وبعدها عن دائرة تأثير الحاكم بها.

لم تكن بعيدة من حيث التأثير على هيكل الدولة بشكل علمي، فمن المعروف أن المنظومة المعرفية العلمية المتمثلة بحركة المدرس والمنهاج والشيوخ والأساتذة تدخلت في ضبط القضاء وتعين القضاة مع تقنيين لمود الحكم فيه، وهدفها كان تحقيق نظام قضائي عادل، يوزن بين الثنائيات مثل علاقة الفرد بالجماعة، والحريات بالحقوق، والفرد بالدولة، والدين بالدولة، بما يحقق قيمتي العدل والحرية ، بما لا يخالف أصول الاجتهاد المعتبرة.

لم تقف هذا المدارس والإجازات عند حدود العلوم الشرعية بل تعدت إلى باقي العلوم الأخرى، لتشمل علوم الحكمة والمعرفة من منطق ومناظرة وغيرها، كما امتدت لتشمل علوم الهندسة والرياضيات والفلك وغيرها من علوم الأرض لتعطى إجازة فيها أيضا.

التداخل في الإجازات بين العلماء على اختلاف مذاهبهم الفقهية وقومياتهم ومناطقهم، بالإضافة إلى التنوع في الاختصاصات والعلوم.. يعطينا مؤشرا مهما له اعتباره، كون أن الحركة العلمية هي حركة حرة وفاعلة وأن العلم لأجل العلم والمعرفة لأجل المعرفة.. وفي عصرنا الحالي تفتخر الكثير من الجامعات بالانفتاح على جامعات أخرى خارج بلدانها وتعقد اتفاقيات بما يسمى بنظام (التوؤمة) بين الجامعات عبر الحدود من اجل تطوير البحث العلمي متجاوزتا الحدود والنظم السياسية... ونحن نقول ان منهج الإجازات العلمية سبق غيره في تحقيق الانتشار منذ ما يزيد عن إلف سنة مع وجود نظام مدني له يحفظ مساره عن الانحراف.

كان الخلفاء والسلاطين يعالجون الكثير من التحديات الفكرية والسياسية والخارجية عن طريق إنشاء المدارس العلمية وإجازات العلماء، ولذلك كانت عاملا مهما من عوامل استقرار منظومة الدولة.(٢٨)

الدولة ساهمت في إيجاد هذا التشابك بين مقر الخلافة كمركز للدولة، وبين المناطق المترامية للدولة، بما يخدم البلاد ويحقق حدتها.

وعليه سأقتصر في تحليلي للأسانيد على بعض الأمثلة من العلماء البارزين ولهم أثرهم في اسطنبول وبغداد.. وخصوصا زمن الخلافة العثمانية.

ولهذا سأركز في دراسة إسناد الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٢٩٦-١٣٧١هـ) وإسناد الشيخ محمد سعيد سيدا الجزري رحمهم الله، ودراسة إسناد الشيخ عبد الكريم الدبان رحمه الله والشيخ عبد العزيز السامرائي، وسند الشيخ محمد أمين عابدين سند الشاميين.

---

(٢٨) ينظر ما كتبه: الشوابكة: د أحمد فهد بركات . حركة الجامعة الإسلامية . مكتبة المنار . عمان . ١٤٠٤هـ= ١٩٨٤م، حيث قد درس كيف استثمر السلطان عبد الحميد الثاني دور العلماء والطرق والمدارس وكان من مؤشرات نجاحه سكة الحجاز الشهيرة .

كما سأذكر على سبيل التوثيق لهذا الأثر على المدارس الشامية وخصوا المتمثلة بدمشق والجامع الأموي .

الملة صالح التلمباري (الموصلي) ثم يتصل بسند الحيدريين، فيتصل به الشيخ محمد سيد الجزري ، وسند العراقيين يتصل به عن طريق مفتي بغداد محمد فيضي الزهاوي ثم يستمر كل السندين إلى صبغة الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

عبد الرحمن أفندي الروزبهاني، حيث يلتقي سند الشيخ خليل العمري الاسعردي بسند البغداديين عنده ثم يستمر إلى صبغة الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

مولانا خالد البغدادي ١٢٤٢هـ، حيث يجتمع فيها سند الكوثري وسند الجزري، وسند الشامين من جهة محمد أمين عابدين ١٢٥٢هـ بسند البغداديين ثم يستمر حتى يصل الى صبغ الله الحيدري (١٢٣٢هـ).

الحسين نصر الدين الخلخالي ١٠١٤هـ ، حيث يتصل سند العلامة الكوثري بسند البغداديين عنده.

حبيب الله ميرزجان، حيث يلتقي سند الجزري بسند الكوثري، ثم يلتقيان بسند البغداديين.

عبد الرحمن الكزبري ١٢٦٢هـ ، محدث الشام، فيحدث عنها الكوثري بسنده، والبغداديون عن عيسى صفاء الدين البنندننجي ١٢٨٣هـ، وكذلك عن الشيخ عبد الرحمن النقيب عن عبد الغني الغنيمي الميداني الدمشقي (1298 – 1222هـ، ١٨٠٧ - ١٨٨١ م) عنه.

محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي 1217هـ، حيث يتصل سند العلامة الكوثري بسند البغداديين ، وقد أخذ أبو الثناء الآلوسي عن الشيخ يحي المزوري والشيخ عبد الرحمن الكزبري.

هذا بعضا من أوجه التقارب والتداخل في الطرق العليمة والأسانيد المتصل، وقد استند في هذا التحليل الأولي على مصادر الإجازات المقرة والمعتبرة ليومنا هذا.. (٢٩)

---

(٢٩) ينظر: الإجازات العلمية للشيخ عبد الكريم الدبان، عنه الشيخ احمد الحسن الطه السامرائي أمام الجامع الأعظم وإجازات الشيخ عبد العزيز السامرائي يرويها بسنده الشيخ محمود عبد العزيز العاني المدرس الأول في كلية الإمام الأعظم؛ وينظر: سند الشيخ عبد الكريم المدرس مفتي العراق وشيخ مدرسة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وينظر أيضا: ثبت الشيخ محمد زاهد الكوثري: التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، اعتنى به: عبد الفتح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب؛ وينظر أيضا: سند الإجازة الشامي للشيخ احمد معاذ الخطيب؛ وينظر: الحافظ: محمد مطيع، فقيه الحنفية محمد أمين عابدين، دار الفكر المعاصر/ بيروت، دار الفكر/ دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م؛ وينظر إجازة الشيخ فخر الدين العرناسي، وإجازة الشيخ فهمي بن حسن أفندي، وحول بيت الحيدري وأهميتهم ينظر: السهروردي: عبد الرحمن حلمي العباسي، تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، تحقيق وتعليق: عماد عبد السلام رؤوف، مكتبة الجواد، ١٩٩٦م، بغداد، ص١١٢ وما بعدها.

المحور الثالث: المحور التحليلي:

سنحلل في هذا المحور اثر الإجازات العلمية على واقع الأمة من ناحية علمية وفكرية وسياسية، مستخدمين قوانين معتبرة لذلك ووحدات قياس أصيلة في قراءة المنهج من خلال رصد المقدمات والنتائج.

وعند النظر في دور العلماء الذين تأثروا بهذه العلاقة بين بغداد واسطنبول فمن الممكن أن نقدم بعضا من الأمثلة عن دورهم ومواقفهم بشكل سريع وبحسب الأحداث التي مرت:

الشيخ عبد الله السويدي (١١٠٤ـ ١١٧٠هـ).

وهو من العلماء البارزين في تاريخ العرق، له مكانته العلمية والسياسية، وله دوره في حفظ بغداد من إحتلالها، حيث قام بالصلح بين نادر شاه وبين السلطان العثماني محمود بن مصطفى الثاني (توفي ١١٦٨هـ ١٧٥٤م)، وخصوص بعد أن سافر السويدي إلى النجف للتباحث ومنع الفتنة وحقن الدماء، وقد وفق في ما قام به، ليؤسس لخطوة الجمع بين الدول بين الدولة الصفوية والخلافة العثمانية، وقد تأثر به نادر شاه فيقر بسلطة الخليفة في اسطنبول. (٣٠)

عبد الغني جميل زادة (١١٩٤ـ ١٢٧٩هـ).

العالم الجليل مفتي بغداد وشيخ الأحناف فيها، وهو له مكانته العلمية بين علماء بغداد وعلماء الشام، اخذ الإجازة الشامية من الشيخ عبد الرحمن الكزبري، فرجع الى بغداد ووقف ضد واليها علي رضا اللاز الذي افسد فيها، لتقع حرب بينه وبين الوالي الذي ظلم أهل بغداد وذلك سنة (١٢٤٩هـ ١٨٣٢م).. فيعيد الاستقرار إلى بغداد وتستقر الحكم فيها.(٣١)

ضياء الدين خالد بن احمد النقشبندي (ولد ١١٩٠ هـ ، سنة ١٧٧٦ م توفي ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م).

هو كبير علماء النقشبندية وناشر العلم الشرعي في بغداد درس في مدراس ومساجد بغداد ودمشق شهرته بلغت الأفاق، وإجازته من أعلى الأسانيد في العلوم،

---

(٣٠) ينظر: الوردي: د علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م، دار ومكتبة دجلة والفرات، الجزء١، ص١٠٩ و١٢١ و١٣٤ و١٤٧، الالوسي: محمود شكري، المسك الأذفر، مطبعة الأديب، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، ص٦٠. ٦٤؛ ينظر: السهروردي: عبد الرحمن حلمي العباسي، تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، ص٨٤ والهامش الموجود؛ وينظر: السويدي: عبد الله بن الحسين السويدي العباسي، مؤتمر النجف، اعتنى به: محب الدين الخطيب، مطبعة البصري/ بغداد.

(٣١) ينظر: الوردي: د علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ٢٠٠٩م، دار ومكتبة دجلة والفرات، الجزء١، ص ، الآلوسي: محمود شكري، المسك الأذفر، مطبعة الأديب، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، ص١٢٦.١٦٩؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٩ و٢٤١ و٢٤٦.

هو جسر العلوم بين بغداد وإسطنبول وبلاد الشام وبلاد الهند.. واليه ترجع اجزات عدد من العلماء في هذه البلاد وهي لم تنقطع إلى يومنا هذا.. (٣٢)

أحمد فائز بن محمود البرزنجي (١٢٥٨هـ ١٨٤٢م – ١٣٣٨هـ ١٩١٨م)

وهو من أهل بيت وعلم وتاريخ، كانت في بيتهم مشيخية الطريقة القادرية، وقد جمع بين العلوم النقلية والعقيلة، تولى قضاء السليمانية ثم اربيل ثم الكوت (واسط) ثم في مدينة الناصرية ثم في مدينة كربلاء ثم في ولاية درسيم (سيواس، ارزنجان) ثم في مدينة اورفة ثم في ولاية حلب ثم في ولاية الموصل ، ثم اختير عضوا في مجلس المعارف في اسطنبول، ودفن في مقبرة السلطان محمد الفاتح.

له مؤلفات اشهرها كتاب (كنز اللسن المكنوز فيه ستة ألسن واثنا عشر فنا) حيث جمع اثنا عشر علما مع ست لغات هي العربية والتركية والفارسية والكردية والفرنسية والروسية كتبت بالحرف العربي...!! بشكل جدول يقرأ طولا وعرضا فإذا قرأ من النهاية تحول إلى شعر فريد فيه تاريخ ولادة السلطان عبد الحميد الثاني. (٣٣)

إبراهيم الحيدري (١٢٨٢ـ ١٣٤٩ هـ).

عين بوظيفة شيخ الإسلام في وزارة توفيق باشا مرتين و مرة واحدة في وزارة رضا باشا و مرة أخرى في وزارة صالح باشا و هو شيخ الإسلام السادس و العشرون بعد المائة في الدولة العثمانية ، وقد أسس دار الحكمة لتظم فيها شيخ الإسلام مصطفى صبري وبديع الزمان ومحمد زاهد الكوثري و الشاعر محمد عاكف أرصوي، و في سنة ١٩٢٣ عاد إلى بغداد و ذلك بعد ان انسلخت ولاية الموصل عن تركيا و أصبحت جزءا من العراق، انتخب عضوا في المجلس التأسيسي كما تقلد منصب وزارة الأوقاف في وزارة ياسين الهاشمي الاولى سنة ١٩٢٤ م.(٣٤)

محمد سعيد النقشبندي (١٢٧٧ـ١٣٣٩هـ).

كان يعد من أركان الحركة العلمية وبوابة اسطنبول إلى بغداد، وفي سنة ١٣١٢هـ سافر الى تركيا حيث دعاه السلطان عبد الحميد الثاني هناك فلما وصل أكرمه وأجله وأصدر له ارادة سلطانية ببناء (المدرسة العلمية الدينية في سامراء)

---

(٣٢) ينظر: الدروبي: عبد الغني، البغداديون أخبارهم وجالسهم، المجلس رقم١٣٣ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ مساجد بغداد، ص٢٦٤؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٧؛ رؤوف: د عماد عبد السلام، صفاء الدين البندنيجي حياته وآثاره، ص١٧ ما بعدها ؛ وينظر: الحافظ: محمد مطيع، فقيه الحنفية محمد أمين عابدين، ص١٠ و١٨ وما بعدها.

(٣٣) البرزنجي: السيد أحمد فائز، كنز اللسن المكنوز فيه ستة ألسن واثنا عشر فنا، حققه وعلق عليه: الشيخ محمد الخال، أعاد طبعه عبد الخالد صبار، ٢٠١١ على نسخة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

(٣٤) السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص ١٦.١٤؛ وينظر: الورد: باقر أمين، حوادث بغداد في ١٢ قرن، ص٢٣٩، وينظر: القوسي: الدكتور مفرح بن سلمان، الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد،الطبعة ٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، الرياض، ص٧٢.

حيث عين مدرسا في سامراء وبنى المدرسة العلمية سنة ١٣١٦هـ وقد جعلت ملاصقة للجامع الكبير، نقل بعدها للتدريس في جامع الأمام الأعظم ببغداد ثم عين شيخا ومرشدا في التكية الخالدية سنة ١٣٣٦هـ.

وله نشاطه السياسي فقد أسس وترأس حزب الشورى (المشورة) الإسلامي بعد عزل السلطان عبد الحميد بأربعة أشهر، ويظم الفريق كاظم باشا والفريق محمد فاضل باشا الدغستاني، والشيخ عبد الرحمن النقيب.. وغيرهم، وهو يهدف إلى أعادة الشريعة الإسلامية والوقوف بوجه الانقلاب الاتحادي وإعادة السلطان عبد الحميد الثاني، بعدها أسس حزب العهد للوقوف بوجه التحديات التي تعصف بالبلاد وذلك سنة ١٩١٤م، وقف ضد الاحتلال البريطاني لبغداد وفرض عليه الإقامة في بيته لكونه احد ابرز رجال ثورة العشرين ضد المحتل. (٣٥)

كما ساهم في ترؤس حزب العهد والذي هو امتداد لحزب العهد الذي نشأ في سوريا، علما أن أفكار حزب العهد كانت تدعو للامركزية داخل الدولة. (٣٦)

عبد الوهاب النائب (١٢٦٩-١٣٤٥هـ).

تخرج من على يديه الأفاضل من العلماء فما جاء بعده عالم تسلم المهام وتقلد مقاليد العلوم في العراق وخصوصا في مدينة بغداد إلا وكان من منهله العذب قد ارتشف ومن بحر علومه قد غرف، كان عضو مجلس الولاية على عهد الوالي التركي زكي باشا سنة ١٩١٢، ونائبا القضاء الشرعي ورئيس مجلس التميز الشرعي، كما كان عضوا بمجلس المعارف ورئيس مجلس الأوقاف العلمي ورئيسا لمحكمة الصلح، وعهد إليه بتدريس تفسير القرآن الكريم في (جامعة ال البيت) سنة ١٩٢٤م، كما حرص على استمرار المؤسسات المدنية والقضائية، وقد سعى إلى إقرار مجلة الحكام العدلية وتطويرها وعدم نفوذ المحتل البريطاني إليها. (٣٧)

أحمد منير المدرس (ولد ١٣١٣هـ ١٨٩٢م توفي ١٩٦٩م).

يعد من أكبر علماء القانون والشريعة في تاريخ بغداد الحديث، رئيس تحرير جريدة الحقوق سنة ١٩٢٣م..وعين مديرا لأوقاف بغداد عام ١٩٢٩.. فمفتشا للأوقاف ثم حاكما في محكمة بداءة بغداد سنة ١٩٣٢..فمفتشا عدليا ١٩٣٤ وأستاذا في كلية الحقوق ١٩٣٥ وعميدا لكلية الحقوق ١٩٤٠م.(٣٨)

---

(٣٥) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص٢٧٠ و ٢٨٠؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٢١٠ وما بعدها؛ العطية: د غسان، العراق نشأة الدولة، قدم له: حسين جميل، ترجمة: عطا عبد الوهاب، دار اللام، ١٩٨٨م، لندن، ص٨١.

(٣٦) العمر: الدكتور. فاروق، الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١م – ١٩٣٢م، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٧٨م مطبعة الإرشاد، بغداد، ص ٤٣ وما بعدها.

(٣٧) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص٥٠.١٠، السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٤٦٨ وما بعدها.

(٣٨) آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، ص ٣٩٨. ٤٠٠، السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي علماء بغداد في القرن الرابع عشر، ص٦٧٩. ٦٨١.

تميز بشرحه لمجلة الأحكام العدلية الشهيرة بطريقة مقربا ألفاظها ومبسطا عبارتها، وليترك اثره في القانون المدني العراق من خلال ما ألفه من كتب وخرجه من طلاب.

أمجد محمد سعيد الزهاوي (ولد ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣م وتوفي ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م).

سافر إلى عاصمة الخلافة اسطنبول مع جمع من الطلبة للدراسة في مدرسة النواب (كلية القضاة) وتقدم على أقرانه فيكون ترتيبه الأول عليهم ليتخرج منها بدرجة (علي الأعلى)، ولما رفع اسمه إلى السلطان عبد الحميد الثاني قلده وسام الشرف مع ميدالية، وعرض عليه أن يعينه عضوا في محكمة إستانبول، متجاوزا بذلك شرط مدة خدمة ست سنوات الخاصة بتعين من هم في هذه المحكمة، لكن الشيخ آثر الرجوع إلى بغداد.

رجع إلى بغداد عام ١٣٢٨هـ وكان له موقف الرفض لما وقع من تغيير في الخلافة العثمانية بعد أحداث ١٩٠٨هـ وعزل السلطان عبد الحميد الثاني، فعين في حينها "مفتيا" في منطقة الإحساء لينقل بعدها إلى بغداد فعين عضوا في محكمة استئناف بغداد وذلك سنة ١٣٢٨هـ الموافق ١٩٠٩م، ثم نقل إلى البصرة في جنوب العراق، لينقل بعدها إلى محكمة بداءة الموصل سنة ١٩١٨م ليبقى بها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بعدها ينقل إلى محكمة بداءة بعقوبة بتاريخ ٤/١/ ١٩١٩م ليستقيل منها بتاريخ ١١/١٥/ ١٩١٩م أثر تعيين إدارة الاحتلال البريطاني انكليزيا لرئاسة المحكمة، ليعود إلى بغداد بعد أن كان له صحبة مع علماء اسطنبول حيث بقية له علاقة به ومن بينهم الشيخ سعيد النورسي بديع الزمان.

يعد امتدادا للمدارس العلمية القديمة لكون والده وجده توليا منصب الإفتاء في بغداد، وهو اعتبر من قبل علماء العراق مفتي العراق، لما يحمله من أرث علمي وعائلي واعتباري مهم يمتد إلى العهد العثماني عموما والسلطان عبد الحميد خصوصا. (٣٩)

الملا عبد الهادي أفخم زاده (١٣٢٨ – ١٤١٤هـ) علامة أهل السنة في إيران ، وهو من تلامذة الشيخ محمد القزلجي البغدادي (١٣١٣هـ ١٨٩٥م – ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م) تلميذ الشيخ محمد سعيد النقشبندي.

---

(٣٩)حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧ و ٣٥٩؛ وينظر: المشايخي: كاظم أحمد ناصر، أمجد الزهاوي عالم العالم الإسلامي، الطبعة ٢، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، أنوار دجلة، بغداد/ العراق، ص٣٨.

أثرها في العصر الحديث:

الأثر السياسي:

تأسيس حزب الشورى (المشورة) الإسلامي بعد عزل السلطان عبد الحميد بأربعة أشهر، ويظم الفريق كاظم باشا والفريق محمد فاضل باشا الدغستاني (أبرز قيادات معركة كوت الأمارة)، والشيخ عبد الرحمن النقيب (أول رئيس وزراء للدولة العراقية) والذي يعدُّ شيخا من رموز الخلافة العثمانية ونقيبا للأشراف في بغداد ومن المؤيدين للسلطان عبد الحميد الثاني وحركة الجامعة الإسلامية(٤٠)، والشيخ محمد سعيد النقشبندي (ابرز قيادات الثورة العراقية الكبرى).. وغيرهم، وهو يهدف إلى أعادة الشريعة الإسلامية والوقوف بوجه الانقلاب الاتحادي وإعادة السلطان عبد الحميد الثاني.

دورهم في محاولة تنصيب الأمير عابد أفندي ابن السلطان عبد الحميد ملكا على عرش العراق، حيث قال الشيخ عبد الرحمن النقيب أن يفضل أن يرى ملك من آل عثمان على العراق. (٤١)

رفضهم تقسيم كيان العراق وسعيهم إلى جمع المسلمين محمود الحفيد البرزنجي، ودورهم في حرب الاستقلال.(٤٢)

مثلا في العراق فقد كان أول رئيس للوزراء عبد الرحمن النقيب الكيلاني، والذي يعدُّ شيخا من رموز الخلافة العثمانية ونقيبا للأشراف في بغداد ومن المؤيدين للسلطان عبد الحميد الثاني وحركة الجامعة الإسلامية. (٤٣)

---

(٤٠) حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧.٣٥٩ .

(٤١) حول شخصية هذا الموضع ينظر: الشلاه: د. حسن هادي، طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، الدار العربية للموسوعات، بيروت/ لبنان، ص٤٣٥، حيث نقلة عن المس بيل، وهي حينما تتكلم عن العثمانيين تقول الترك..!! وهي تهدف إلى معنى أن الحكومة البريطانية هي مع العرب ضد الترك ..!!

(٤٢)حمدي: الدكتور: وليد، الكرد وكردستان في الوثائق البريطانية دراسة تاريخية وثائقية، مطبعة سجل العرب، ١٩٩٢م، ص٧١؛ وقد حدثني الشيخ إبراهيم منير المدرس – رئيس مجلسة إدارة جمعية التربية وأحد أركان العلم في بغداد – بعد زيارة الشيخ الصوف إلى الشيخ محمود الحفيد ذكر كيف حاول البريطانيون أن يستميلوه إلى صفهم فرفض أي فعل يضعف الإسلام وأهله.

دورها العسكري:

دورهم في الحرب العالمية الأولى، فمعركة كوت الإمارة انتصر بها القوات المقاتلة بسبب دور علماء العراق، وهزيمة الجيش المملكة المتحدة البريطانية فقد استسلمت القوات البريطانية بقيادة طاونزند إلى القوات العثمانية في ٢٦/ نيسان/١٩١٦ دون قيد أو شرط، وخسائر الجيش البريطاني زادت عن ٣٠،٠٠٠ ثلاثين ألف قتيلا، و ٧،٠٠٠ سبعة الآف أسيرا. (٤٤)

دورها في حرب التحرير وكذلك من حيث الروح العسكرية الموجودة في الجيش العراقي منذُ تأسيسه اختارت أن تستمر بداخلها تحمل العرف العسكري العثماني، وذلك يرجع إلى أن من أسس الجيش كانوا من الضباط العراقيين الذين هم في الجيش العثماني في الأصل، ومن أبرزهم القائد مصطفى راغب باشا الذي قاتل في حرب التحرير في الأرضي التركية.(٤٥)

فتواهم في قضايا الأمة مثل قضية فلسطين وقضية الجزائر وقضية احتلال العراق، فقد أفتى الشيخ عبد الكريم المدرس، والشيخ عبد الكريم زيدان مع مجموعة من أهل العلم بوجوب مقاومة المحتلين.

أثرها في القضاء:

وحتى بعد زوال الحكم العثماني عن العراق واحتلاله من قبل الانكليز، نجد أن مفهوم الدولة ومؤسساتها بقي يحمل داخله العرف العثماني في نظامه المدني والعسكري،(٤٦) فمثلا القضاء كان لمجلة الأحكام العدلية أثرها في صياغة القانون المدني.

---

(٤٣) حول شخصية النقيب ينظر: آل السهروردي: محمد صالح، لب الألباب، مطبعة المعارف، ١٣٥١هـ١٩٣٣م، بغداد، ص١٣٣.١٥٩ ؛ السامرائي: يونس الشيخ إبراهيم السامرائي، تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، ص٣٥٧.٣٥٩ .

(٤٤) ويلسون: أرنلد تي، بلاد ما بين النهرين بين ولائين : خواطر شخصية و تاريخية، نقله إلى العربية و قدم له و علق عليه فؤاد جميل ؛ تقديم و مراجعة علاء نورس.

(٤٥) ينظر حول تأسيس الجيش العراقي: تاريخ القوات العراقية المسلحة، نخبة من المؤلفين، وزارة الدفاع العراقية، الدار العربية، ١٩٨٦م، بغداد، ج١. كان اللواء مصطفى راغب باشا برتبة رئيس (نقيب) في الحرب العالمية الأولى، ثم اشترك في حرب التحرير وعاد على العراق عام ١٩٢٤م، ثم رئيسا للمجلس العراقي العسكري، ثم أشترك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م حيث رفض العمل بالهدنة وكان دوره مميز..!! ينظر: بصري: مير، أعلام التركمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، دار الوراق للنشر، لندن، ص٧٨.

(٤٦) فوستر: هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الطبعة١، ١٩٨٨م، دار الفجر للنشر، بغداد، ينظر الجزء الأول وكيفية اختيار ملك العراق.

حاولت إدارة الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى تعطيل الفقه القضائي الإسلامي بمحاولة تعطيل العمل بمجلة الأحكام العدلية، دفع ذلك فقهاء بغداد بعد عام ١٩٢١م إلى تقنين قوانين مجلة الأحكام العدلية بثوب جديد أساس لقيام فقه إسلامي قضائي يتناسب مع احتياج الأمة، مما دفع الدكتور عبد الرزاق السنهوري إلى وصف القانون العراقي: بأنه (أول قانون مدني يتلاقى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الغربية الحديثة جنبا إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف) وهو يرى أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث) ثم قال: (مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدرا لأحكام حديثة تُجاري مدنية العصر وتُساير أحدث القوانين وأكثرها تقدما ورقيا..)(٤٧)

أثرها الاجتماعي:

انتشارها في مناطق صراع سياسي، فنمط الإجازات العلمية وعرف المدارس العلمية منتشر في منطق العرب والكورد والترك والفرس.. يجمعها عقيدة واحدة ومنهج علمية واحد منظبط..

ساهمت المدارس التقليدية في معالجة العديد من الأزمات الاجتماعية، فدور المدرس والطالب يكمن في خدمة المحيط الذي يعيش فيها، مما دفع الدولة العثمانية في أواخر عهدها وخصوصا في زمن السلطان عبد الحميد الثاني إلى إقرار وضيفة الواعظ السيار الذي يذهب إلى البادية وينقل بين أهلها. (٤٨)

المحور الرابع: النتائج والمقترحات:

حيث سنستخلص النتائج، من خلال قراءة التاريخ وأثره المستمر ليومنا هذا، ثم نعرج إلى توصيات مستقبلية عملية تنفع الأمة وتخرجنا من دائرة التنظير إلى واقعية التأثير..

تبين لنا من خلال البحث والاستقصاء، ورغم تجربتنا المحدودة وجدت أن من الصعوبة أن تجمع كتاب ومصادر تخص الجانب التاريخي للمنطقة بشكل يوجد ربط وتشبيك بين هذه البلاد فلا تزال تلك المصادر هي قليلة قياسا للفترة المراد دراستها، علما أن ما هو موجود من وثائق ومعلومات تعد مصادر مهم لدراسة العلاقة القائمة بين اسطنبول لكونها عاصمة وبين بغداد ودمشق وغيرهما لكونها ولايات تتبع مركز الخلافة.. ولا يزال ما ترجم من الوثائق قياسا لما هو موجود يعد قيلا جدا جد، ولذلك لا بد من إيجاد طريقة للترجمة والأرشفة يسهل الوصل إيها من قبل الباحثين العرب.

---

(٤٧) ينظر: بحث السنهوري عن (القانون المدني العربي) نقله: حسين: الدكتور: محمد محمد، حصوننا مهددة من داخلها،ط٦، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الرسالة، بيروت / لبنان، ص ١١٢ ، وينظر: القاضي: منير؛ شرح المجلة، وزارة المعارف العراقية، مطبعة العاني، ط١ ١٩٤٩م.

(٤٨) ينظر: السامرائي: تاريخ علماء بغداد في القرن الربع عشر الهجري؛ وينظر: المشايخي: أمجد الزهاوي عالم العالم الإسلامي، ص٥٧ .

إذا أردنا أن نعيد التواصل بين شعوب المنطقة، فعلينا أن نبحث عن نقاط الاتفاق ومواطن الاختلاف، محللين إياها أولا، ثم واضعين برامج عمليه تحقق ردم هذه الفجوة، فنحن بأمس الحجة إلى تكرار لقاءات استشارية، تؤسس للتصورات فكرية من اجل الوصول إلى خطوات عميلة، كما أن هناك حاجة إلى تأسيس قسم في مراكز الدراسات للوصل إلى قراءة التاريخ بصورة موضوعية ومنهجية.

تحقيق قيمة التاريخ المشترك الذي يجمع شعوب المنطقة على اختلاف أجناسها، منذ زمن الخلافة الراشدة ثم الأموية ثم العباسية ثم العثمانية، فالكل

يشترك في موروث هذه الحضارة الإسلامية، فهي حضارة متسلسلة و متراكمة ومتكاملة.

هناك عقد تحتاج أن يتجاوزها بعض الباحثين المعاصرين تمثلت بكون ما نتصوره الآن عن المنطقة من حدود (سيكس بيكو) هو الذي يجب أن نحاكم التاريخ عليه، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة..!! فكلا أرض العراق وأرض تركيا وأرض سوريا كانوا ضمن الحكم العثماني وأنا كعرقي لا يمكن أن أتجاوز التاريخ من كون العراق هو جزء من الدولة العثمانية القديمة، كما لا يمكن للتركي والسوري أن يتجوزوا ذلك..!! ولذلك فمهما حاول بعض الباحثين إلغاء طبيعة هذا التاريخ فأن سرعان ما تتبدد الأوهام لأي باحث بسيط ليجد أن البشر كلهم يعجزون عن تغير حقائق التاريخ مهما ملكوا من قوة ..!! وعليه فيجب أن تقرأ هذه الفترة بشكل متجرد وبعيد عن العاطفة، لنجد أن فيها زوايا ايجابية عدة يجب أن تظهر على السطح فنؤسس لمنظومة تواصل حضاري ينطلق من تاريخنا المشترك بما يحقق قياما ومصالح مستقبلية.

من الثابت تاريخيا... أن العراق رفض الوقوف ضد الخلافة العثمانية رغم مؤاخذاتهم على فساد حكومة الإتحاد والترقي.. وآثروا الوقف بوجه بريطانيا، فقد وقف علماء بغداد وعلماء النجف وعلماء الموصل بوجه الاحتلال ووجوب مقاتلة المحتل البريطاني، وإقرارهم أنهم جزء من الخلافة العثمانية التي يجب الدفاع عن أراضيها، يعطينا تصورا مهما عن وجهة نظر الطبقة المثقفة في العراق تجاه الخلافة العثمانية ومكانتها..!! وعليه يجب على الأجيال أن يظهر لهم مثل هذه القيم المهمة، والتي تعد محطات تواصل حضاري نحن بأمس الحاجة لها في أيامنا هذه..!!

هناك مساحة مشتركة ولا زالت مستمرة وهي تمثل مسار العلوم والمعرفة، وهي ميزة مهمة ينتبه لها، وهي مجال الإجازات العلمية والتي تمتد بصيغها من عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ... إلى يومنا هذا، مع وجود منهجية توثيق تعتبر علمية في أغلبها، وهي تعطينا صورة التبادل الثقافي بين أفراد العالم الإسلامي متجاوزة الحدود والثقافات والأعراق..

هناك مشكلة تواجه كل باحث عربي الثقافة يريد أن يبحث في تاريخ بلاده والبلدان الأخرى التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية .. انه حينما يقصد الأرشيف العثماني في تركيا لكونها وريثة الدولة العثمانية، يجد صعوبة في الوصول إلى المصادر والوثائق، ولذلك أصبح من الضروري تعريب ما هو موجود من فهارس تخص الوثائق والمكتبة في تركيا.

من المعلوم أن المدارس العلمية تنشر في مناطق الآن تعد من الأكثر عنفا، حيث تمتد بين العرب والأكراد والأتراك في العراق وتركيا وسوريا وإيران وأذربيجان وهي تمتد أيضا لتدخل في شبه القارة الهندية مرورا بمنطقة زاهدان في إيران، فلا بد من العمل على تطوير منظومتها المعرفية بما يحقق التبادل العلمي والتواصل الفكري.

ضعف التبادل الثقافي يضعف التصور السياسي والاجتماعي وغيره، مما يضعف صحة القرار الصادر من المؤسسات التي تملك القرار، فتقع في دائرة الأخطاء وتفوت الفرص على نفسها وشعوبها..!!

في مثل هذه المرحلة التي نمر بها هناك ثغرات خطيرة تحتاج إلى معالجة من قبل قوة تريد هيكلة المدارس من جديد وتحتاج إلى تكرر فعل الوزير نظام الملك وتعيد التاريخ، فيؤسس لتنظيم فكرة الكتلة التي ترسم مسار التجديد في الأمة، فنحن اليوم بحاجة إلى مدارس نظامية جديدة تخص الفكر والمعرفة، تزرع الكلمة لتثمر معرفة، أصيلة في جذورها غنية بثمارها عالية في أغصانها، تأتي أكلها كل حين بأمر ربها، تسقى من عين لا تنضب عين القرآن الكريم والسنة النبوية.

وختاما:

مما لا شك فيه أن للمدارس العليمة الشرعية أثرها في تشكيل الأطر الحاكمة لهوية الأمة عبر التاريخ، لكنها تعاني منذ أكثر من مائة سنة من إهمال مقصود وغير مقصود..!! مما جعل القسم منها ينزوي عن دوره، والقسم الأخر يعيش قي دائرة مغلق تجعل صاحبها يجنح بخياله فيعيش عالما غير العالم المحيط به، فيخرج عن المألوف في تصور؛ لذلك نحن بأمس الحاجة إلى دراسات ميدانية حقيقية تظهر لنا الصور الموجود والاحتياج الذي يدب أن يقدم لتطوير هذه المدارس وإعادة دمجها بشكل حقيقي في المجتمع، فأغلب الثورات التي وقعت ضد الاحتلال إنطلقت من تلك المدارس، لكنها عجزت عن قيادة الدولة وصياغة هويتها، لتقادم جعلها تتوقف عن دورها.

هوية المجتمع أو ثقافة المجتمع أو الرأي العام.. تحققه الحركة الفكرية التي تنطلق فيها بشكل منهجي وتراكمي وموضوعي مرتبط بحاجة الناس أولا والدولة أخيرا.. وكل من ينطلق من أسس ضعيفة في تصور فكر الهوية للمجتمع سيؤسس للنظرية مهزوزة ولدت مشوهة..!! لذلك نحن بحاجة إلى استقراء التجارب الناجحة والتي ظهرت في تاريخينا نستخرج قوانين الحياة الخاصة بنا، فقد فشلت كل الأفكار الوافدة في تحقيق ما نهدف إليه لأنها مناهج دخيلة وليست أصيلة، كما إن مورثنا الفكري الحضاري غني يحتاج إلى استنباط جوانب الحكمة فيه، وتحويلها إلى وقاع ملموس.

أكدت الحركة العلمية عبر التاريخ على هوية الأمة ضمن أطر تتمثل بالوحي من جهة، مع وجود دائرة الاجتهاد من جهة أخرى، بمعنى أن فهم الواقع أولا ثم النظر في أدوات الاجتهاد ثانيا لبناء تصور عملي تتحقق به المصلحة بما لا يخالف النص.

هوي الأمة تتضح من خلال فهم دائرة كبرى اسمها الإنسان، ثم فهم دائرة أخرى في داخلها نسميها دائرة الأيمان بمفهوم القران الكريم والسنة النبوية، فمن يخرج عن دائرة الإيمان والتي هي في الوسط، هو يبقى في الدائرة الكبرى وهي دائرة الإنسانية، ولذلك أهل السنة هم ليسوا طائفة بل هم الدين أي هم الإسلام ينظرون إلى كلا الدائرتين معا، فلا مجال لمن يتطرف بنظرته..!! ومن يفكر بدائرة الإيمان فقط هو يقع في التطرف، ولذلك لم نجد حادثة ظلم مقصود ومنظم وقع من قبل الدولة المسلمة المتمسكة بروح التشريع الإسلامي على الآخرين، على العكس من الآخرين فأنهم ألغو دائرة الإنسان بسبب تطرف في اعتقادهم، ويقف على الطرف الآخر من هذا الصنف مَن ألغا دائرة الأيمان وأتخذ نفي الإيمان مسلكا، ليفقد ذاته وصفاته فيتجرد عن كل ضابط يضبط سلوكه ومنهجه.

ودور من يمثل الحضارة الإسلامية وأهلها أن يندفع باتجاه أظهر جوانب الإسلام، وما قدمه من معرفة، ولا يتحقق ذلك إلا بتطوير منظومة المدارس أولا وإعادة دورها الريادي... والله أعلم.

هذا جهد مقلٍ والله ولي التوفيق..

والعلامة الشهير، عيسى صفاء الدين البندنيجي، وهو من علماء كثيرين أولهم[1]، وأشهدهم علماً وعملاً، وأطولهم باعاً، وأقصرهم أملاً، الشيخ المعمر حسين

العلامة البندنيجي ت ١٢٨٣ هـ
اخذ عن والده موسى ت ١٢٣٨ هـ، وعن أمين الفتوى ببغداد دويش بن عرب ، وعن حسين كمال الدين الكركوكي عن أسماعيل الطبقجلي رواية الجامع الصحيح للإمام البخاري، وعن المؤرخ عثمان بن سند البصري ت ١٢٤٣ هـ.. وغيرهم

١- والثاني: الشيخ يحيى المزوري، عن جرجيس الأربلي، عن صبغة الله الحيدري. والثالث: مولانا الشيخ خالد النقشبندي، عن عبد الرحيم الأربلي، عن جرجيس الأربلي المذكور، والرابع والخامس: عبد الرحمن الروزبهاني وداود باشا والي بغداد سابقاً، كلاهما عن صبغة الله الزياري، عن والده مصطفى الزياري عن صبغة الله الحيدري والسادس: علامة الشام عبد الرحمن الكزبري، عن عبد الرحمن المحض نقيب الأشراف، عن صبغة الله الحيدري. وأخذ الكزبري كذلك عن مصطفى الدمشقي المعروف بالرحمتي، ومحمد تقي الدين الحنبلي الشاذلي، كلاهما عن عبد الغني النابلسي، عن النجم الغزي، عن البدر الغزي، عن ابن حجر الهيتمي بسنده المشهور .

يحي بن خالد المزوري ت١٢٥٥ هـ

صبغة الله الحيدري ١٢٣٢ هـ
ضياء الدين خالد بن احمد النقشبندي العثماني ١٢٤٣ هـ

داود باشا ت ١٢٤٧ هـ أصبح شيخا للحرم النبوي الشريف ودفن في المدينة المنورة

الكزبري محدث الشام ت ١٢٦٢ هـ
كما يروي البندنيجي عن خالد النقشبندي عن مصطفى الكردي عن الكزبري بسنده الى الامام البخاري
مصطفى الرحمتي ت ١٢٠٥ هـ

عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣ هـ
نجم الدين الغزّي ١٠٦١ هـ
بدر الدين الغزّي ٩٨٤ هـ
ابن حجر الهيتمي ٩٨٤ هـ

وقفة: توفي السيد الشيخ عبد الرحمن النقيب الكيلاني نقيب أشارف بغداد ثالث يوم من عيد الأضحى سنة ١٣٤٥هـ، وهو قد اخذ العلم من الشيخ عيسى صفاء الدين البندنيجي، والشيخ عبد النافع دفتردار حفيد إسحاق أفندي مفتي ادنة سنة ١٢٨٤ هـ، كما اجازه محدث الشام الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني وغيرهم من اهل العلم... إ.هـ

* اخذ الشيخ محمد امين بن عابدين ت ١٢٥٢هـ الإجازة من الشيخ العلامة خالد النقشبندي بعد أن نزل النقشبندي أرض دمشق ودرس بها خلقا هناك ليتصل السند الشامي بالعراقي من هذا الطريق.. والله أعلم إ.هـ

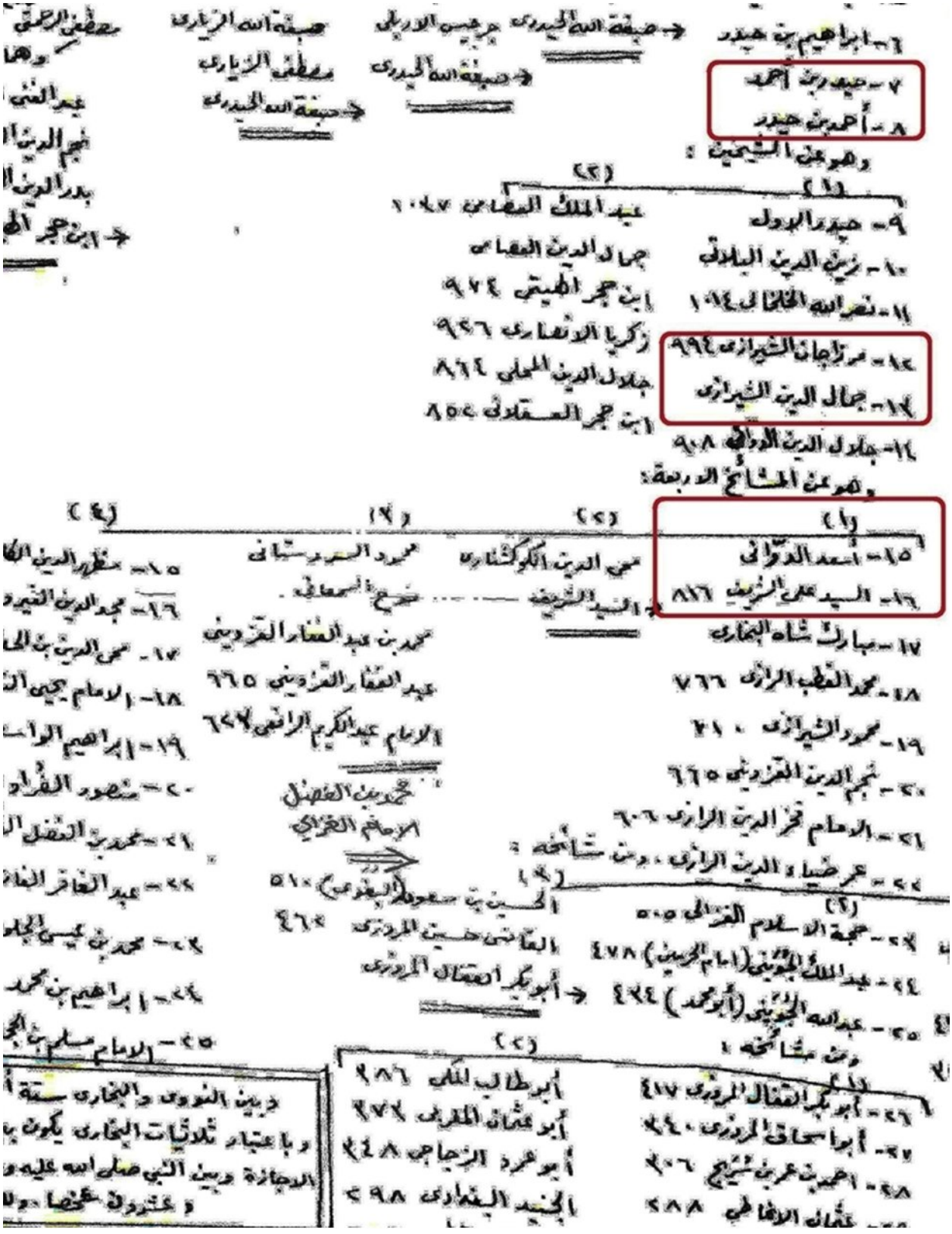

تجارب البلدان الاسلامية المعاصرة في تعامل الاسلاميين مع الاخرين.

المرجعية الإسلامية مرشّحًا لإدارة الحياة المعاصرة

د. محمود أبو الهدى الحسيني

تمهيد:

مع اختلاط الأصوات الكثيرة التي تنادي بالفئويات الضيقة، ومع ظهور الإكراه السلوكي في الأقاليم التي تدعي الحريات، وتنادي بالديمقراطيات، تبرز الحاجة إلى أسلوبٍ معاصر مرنٍ في إدارة الحياة يستوعب المتغيرات ويتبنى منهجا إنسانيا لا قهر فيه ولا إكراه .....

وقد رأينا على سبيل المثال لا الحصر جمهورية فرنسا التي ترفع شعار الحرية وهي في الوقت نفسه تُكره المحجبات المسلمات على خلع حجابهن، في سلوكٍ فجٍّ يتنافى مع الحريات... ورأينا سويسرا التي تدعي المثالية السلوكية وهي في نفس الوقت تصوّت في استفتاءاتها على منع بناء المآذن الإسلامية ... وينتشر هنا وهناك العدوان على رموز الأمة الإسلامية فيساء إلى نبي الإسلام ويؤذى المسلمون في مصحفهم المقدس ...

كما أننا ضمن تجارب عالمنا الإسلامي (غير المنضبطة بالمذاهب الأربعة) نرى أيضا تناقضاتٍ لا تعبر عن منهجنا الإسلامي المستوعب، فقد مُنع في بعض عواصمنا بناء المساجد التي يصلي فيها أتباع المذاهب الأربعة، ومورس قتلُ المسلم المسمى عمر وعثمان ...

وهي أيضا تجاربُ توهم الجاهل بأنّ الأسلوب الإسلاميّ ضيقٌ وصدامي ...

ومثلها تلك التجارب التي جعلت المنطلق النظري الإسلامي يعتمدُ الحظر أصلا، بدلا عن منطلقاتنا (في مذاهبنا الأربعة) التي تعتبر الإباحة أصلا ... حتى وصل الأمر بأصحاب تلك التجارب المنغلقة إلى تكفير المسلمين أو وصفهم بالشرك واستحقاق جهنم.

إننا نرى ضمن ثروتنا الإسلامية العلمية المستنبَطة من القرآن العظيم، وسنة الرسول الكريم أننا نملك منهجا إنسانيا واسعا في إدارة الحياة يستوعب المتغيرات ويتبنى أسلوبا لا قهر فيه ولا إكراه ضبط قواعدَه علماؤنا في مذاهبنا الأربعة، ونثروا فيها أمثلة تناسب عصورهم بفرعيات الأحكام، فكانت نموذجا عمليا يُستأنس به كلما أردنا تطبيق تلك القواعد.

ونحن نزعم اليوم أننا قادرون من خلال مذاهبنا الفقهية الأربعة، ومنهجنا العقَدي والخُلُقي، على تكوين مرجعيات اقتصادية واجتماعية وسياسية تنظم حياتنا المعاصرة وتستوعب حريات الآخرين المشتركين معنا في العيش ولوازمه. والذي يبرر زعمنا هو امتلاكنا لمنطلقاتٍ نظرية واسعة الرؤية، مرنة التكيّف مع المتغيرات، قابلة لتلبية التطلعات الإسلامية، والحاجات الإنسانية التي يرنو إليها غير

المسلمين. ولعلّي في هذا البحث أثير منطلقاتٍ بحثية، وأنبه إلى بعض مكامن القوة التي تساعد تحول النظرية إلى تطبيق معاصر.

البحث:

أولا- مكامن القوة في مرجعية إدارة الحياة الإسلامية:

أ- ربانية القواعد:

مع كون فقهنا الإسلامي (في مذاهبنا الأربعة) اجتهاديا ومستنبطا، لكنّ أصوله وقواعده ومنطلقاته ربانية نزلت بوحي (كتابا وسنةً) ولا يمكن للقواعد البشرية أن ترقى في اتساع رؤيتها إلى القواعد الربانية (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ {٢١٦} البقرة) ... (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {١٤} الملك)

ب- استيعاب المنطلقات للمكونات البشرية:

إن المنطلقات الإسلامية الكبرى تستوعب التعددية البشرية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والعقَدية، وتعتمد المساواة الإنسانية مبدأً في إدارة الحياة من غير تمييز.

فمن منطلقاتنا على سبيل المثال: (العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى){90} النحل

ومفهوم العدل مفسر بقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) {٢٥} الحديد

والآية صريحة في توجيه إدارة الحياة إلى العدل بين الناس كلهم، وعدم اقتصارها على المسلمين.

ومفهوم الإحسان لم يقتصر أيضا على المسلمين والمستحقّين بل عمّ كل شخص لا تمتد يده إلى الناس بالإيذاء، مهما كانت ملته، قال تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) {8} الممتحنة

فأمر ربنا في الآية بالإحسان إلى المخالفين عقيدة، وبإكرامهم رغم تباينهم العقدي والديني والفكري مع المسلمين، طالما أنهم يشتركون معهم في العيش وتبادل المنافع، ولا يُظهرون إيذاء أو عداوة.

وإيتاء ذي القربى لا يقتصرُ – بنظري- على مفهوم القرابة النسبية.

فقد أورد القرطبي من وجوه تفسير قوله تعالى: "والجار ذي القربى" أنه القريب المسكن.[٤٩] ونقل ابن جرير الطبري عن مجاهد تفسير قوله تعالى: {والجار ذي القربى} قال: جارك هو ذو قرابتك.[٥٠]

ونقل القرطبي تفسير نوفٍ الشامي للآية: {والجار ذي القربى} قال: المسلم {والجار الجنُب} قال: اليهودي والنصراني. [٥١]

وعم معنى القربى بالأولوية العشيرة، قال تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين) {٢١٤} الشعراء ، وهي تشمل المسلم وغيره.

---

[٤٩] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي- سورة النساء- آية ٣٦

[٥٠] جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري – سورة النساء- آية ٣٦.

[٥١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي- سورة النساء- آية ٣٦

والذي أراه هو إمكان التوسع في مفهوم (إيتاء ذي القربى) ليشمل رابطة العشيرة والقومية ومن اشترك مع المسلم في المجاورة الإقليمية، وقد قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ {٤٤} الزخرف.

وباجتماع الثلاثة: العدالة بين جميع الناس، والإحسان لكلّ مسالم، والعطية لكلّ قريب، تتكون منظومة خلقية صالحة لإدارة الحياة بجدارة، إذا أحسن متبنّوها توظيفها جيدًا.

ج- منع التدخل القسري في خصوصيات المخالفين:

علّمَنا منهجنا الإسلامي أن لا نلغي - قسرا - خصوصياتِ غير المسلمين، فلا نلزم النصارى بالامتناع عن شرب الخمر مثلاً لأنها حرام في الإسلام، ولا بالامتناع عن أكل الخنزير. وقد حرّم الإسلام اغتصاب المسلم الخمرَ من الذمي أو كسر وعائه، وذهب فقهاء الحنفية والمالكية إلى ضمان متلِفها لقيمتها ، لأنها مقوَّمة ومتموَّلة في اِعتقادهم ونصت وثيقة المدينة المنورة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم المجتمع المدني المختلط في أديانه على أنّ " يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينُهم وللمسلمين دينُهم مواليهم وأنفسُهم إلا من ظلم وأثم فانه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته ..."٥٢

فكانت الوثيقة التي تبناها الإسلام مؤسسة لعيش مشتركٍ بين المسلمين وغيرهم. واشترك في حكومات الخلافة العباسية وزراء من غير المسلمين، وكان لهم مع المسلمين دور مهم في بناء العصر الإسلامي الذهبي.

وما ذكر غيضٌ من فيض في منهجنا الإسلامي الذي يستوعب وجود المخالفين، ويأنفُ من التدخل في خصوصياتهم، ويتناغم معهم في بناء الدولة والمجتمع.

د- قابلية التكيف والمرونة في التطبيقات:

قَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقير٥٣ أكله لكفارته، حين وجده شديد الحاجة، ولم يقطع عمر رضي الله عنه في عام المجاعة يد سارق، وقبل من النصارى تغيير اسم الجزية إلى اسم الصدقة حين طلبوا المساواة بالمسلمين.

وقد أقروا في قواعد الفقه٥٤ أن الْأَحْكَام تتغير بِتَغَيُّر الْأَزْمَان، وأنّ الْمَشَقَّة تجلب التَّيْسِير، وأنّ الْأَمر إِذا ضَاقَ اتَّسَع، وأنّ الضرورات تبيح الْمَحْظُورَات، وأنه يُخْتَار عند هجوم المفاسد أَهْوَنُ الشرّين. وكل ما ذكر مندرجٌ في تكيّف الفقه الإسلامي في مذاهبنا الأربعة ومرونته، فالحرجُ مرفوع، والأَصْل في الأشياء عندنا إباحتها، وقد خلق الله تعالى الأرض لنا جميعا، ولا نطلق التحريم على شيء لم يرد في الشرع تحريمه، و لَا عِبْرَة للتوهم، ولَا حجَّة مَعَ الِاحْتِمَال.

---

٥٢ البداية والنهاية ، لابن كثير- الجزء الثالث – فصل في عقده عليه السلام الألفة بين المهاجرين والانصار.

٥٣صحيح البخاري- باب: التبسم والضحك – وباب: ما جاء في قول الرجل: ويلك.

٥٤شرح القواعد الفقهية **المؤلف** :أحمد بن الشيخ محمد الزرقا [١٢٨٥هـ – ١٣٥٧هـ [**صححه وعلق عليه** :مصطفى أحمد الزرقا **الناشر** :دار القلم – دمشق / سوريا.

وما ذكرناه مجرد أمثلة على المرونة والتكيف.

ثانيا- توظيف التحالف الإقليمي ليكون نواة ارتقاء:

إن المتأمل للتحالفات العالمية المعاصرة يجدها قائمة على مجرد المصالح رغم وجود التباينات العقدية والفكرية والعرقية، فقد اتحدت الولايات الأمريكية اتحادا فيدراليا، وكان الاتحاد الأوربي اتحادا اقتصاديا وعسكريا، لكنّ محور جاكرتا طنجة الإسلامي بعد زوال الخلافة العثمانية بقي ممزقا متناحرا مع امتلاكه عناصر الثروة الطبيعية ووفرة موارده البشرية، ويصعبُ جمعه الآن في ظروف الولاءات السياسية التي تجعل جميع القرارات صادرة من خارج عالمنا الإسلامي. ومن المؤسف أنّ دولا في منظمة التعاون الإسلامي تحولت من عنصر تقاربٍ إلى سبب شقاقٍ ونزاع. فكان لزاما في الأقاليم المتقاربة لا سيما التي ثارت فيها الشعوب الإسلامية على الحكومات المستأجرة العميلة أن تبدأ تقاربا يدعمه تناغم المبادئ، وتحركه دوائر الاقتصاد، وتجعله منظمات المجتمع المدني متداخلا، وتكون السياسة لاعبا شريفا فيه لمصلحة شعوبه. إن ثورة تركية على الانقلاب الغربي كانت ناعمة وطويلة وبطيئة، وما تزال تعرج درجة درجة في منازل الارتقاء، راغبة في تحقيق طموح الشعب المسلم الذي وصل الشرقَ الإسلامي بغربه يومًا من الأيام.

أما ثورة سورية فقد حاولت في بدايتها أن تكون ناعمة، لكنّ الدولة الإقليمية التي ترفع الشعار الإسلامي، وتخفي تحته اتجاها مذهبيا إقصائيا تدخلت (باسم دعم الحاكم العميل) فحولت مدن سورية إلى خراب، وجعلت الحدائق حرائق، فقرر الشعب السوري أن يمزق عنه ثوب الغرباء، وأن يعود بقوة السلاح إلى أمجاد أجداده المسلمين. وها هي ثورة العراق بدأت تظهرُ بقوة بعدما عانت من أعداء سورية المعاناة نفسها، وأدركت أن الطموح واحد، وأنّ الآمال متقاربة. وقد رأينا أنّ حكومة تركية التي تشقّ طريقها إلى التحرر الذاتي بشق الأنفس لم تكن لتضنّ على جيرانها بالمتاح، فاشتركت معهم بما قُدّر لها أن تشترك فيه، وبما تسمحه لها ظروفها وتجود به. وأصبح واضحا لكلّ مفكّرٍ أنّ التحالف الإقليمي مدفوعٌ بالمبادئ والمصالح معا، ولا شكّ أن التحالف الذي تشتَرك في دعمه المبادئ والمصالحُ سيكون أقوى وأدوم من أي تحالف لا تدعمه إلا المصالح فقط، لكن من أين يبدأ التحالف؟

ثالثا- أدوات التحالف الإقليمي المقترحة وآلياته:

الحديث عن وحدة الأمة الإسلامية أو اتحادها دفعة واحدة صعود إلى سطح الكعبة من غير سُلّم، والذي يستدعيه المنطق لملمة الشمل في الأقاليم المتقاربة تعاونا لوجستيا قبل الحديث عن وحدةٍ أو اتحاد، ونرى أن ذلك ممكن على أصعدة عدة، ونورد بعض المقترحات الخادمة لذلك على سبيل المثال لا الحصر:

١- التعاون الاقتصادي:

أ- التبادل التجاري والصناعي ومسهلاته كحذف الضرائب الجمركية وغيرها.

ب- فتح الاستثمارات المتبادل في البلدان المتقاربة، وتسهيل تملك الأرض واستئجارها الطويل.

ج- فتح البنوك الإسلامية المتبادل التي لا تعتمد مجرد أسلوب المرابحة، بل تنتقل إلى الشراكة والمضاربة وغيرهما من أنواع المعاملات الإسلامية التي أثبتت أنها الوسيلة الأقوى في التنمية الاقتصادية.

د- إدخال البطاقات البنكية التي تستند إلى النقد الذهبي في التعامل التجاري، ومعلوم أن الذهب يُخرج البلدان الإسلامية من التبعيات السياسية، والانتماءات الدولية، وقد سبقت ماليزيا غيرها في هذه التجربة.

هـ - تبادل الموارد البشرية في العمل والصناعة والمهن المتعددة، وهذا التبادل لا يوفر نماء اقتصاديا وحسب بل يمهد لامتزاج ثقافي وحضاري.

٢- التعاون الاجتماعي:

أ- توسيع نشاطات منظمات المجتمع المدني خارج البلدان التي نشأت فيها، إلى الأقاليم الإسلامية المتقاربة، وذلك في الصحة والبيئة والتعليم والثقافة والفنون والعمل الخيري إلى غير ذلك من تخصصات هيئات المجتمع المدني.

ب- توسيع الوقف الإسلامي ليمتد إلى مساحة الإقليم الجامع للبلدان.

ج- الحد من الأنظمة المانعة أو المعرقلة للزواج الذي يرتبط فيه الأزواج من البلدان المتقاربة.

د- تسهيل التنقلات المتبادلة بين البلدان المتقاربة، واعتماد وسائل النقل الشعبية السريعة كالقطارات بين البلدان.

٣- التعاون البرلماني:

أ- إيجاد برلمانات إقليمية.

ب- تشكيل لجان ضمن البرلمانات الإقليمية لمتابعة المعضلات المتنوعة في البلدان المتقاربة.

ج- محاولة التقارب التشريعي بين البرلمانات نظرا لانتماء البلدان الإسلامية إلى تشريع قانوني يعتمد الشريعة الإسلامية السمحة أصلا لها، والاستفادة من تعددية المذاهب الأربعة التي تعطي المجتهد المشرع سعة في الرؤية والتقنين.

٤- التعاون السياسي:

بمقدار نجاح المراحل السابقة في الاقتصاد والاجتماع والقانون، نستطيع الاقتراب من التعاون السياسي الذي قد يرتقي إلى الاتحاد أو الفيدرالية، ويبني لبنة في تحول منظمة التعاون الإسلامي من منظمة منظِّرة هامشية إلى نواة حقيقية فاعلة قادرة في المستقبل على تقريب الأمة الإسلامية من بعضها بَعد بُعدٍ وشتات.

الخلاصة:

نحن نملك اليوم مقوماتٍ إسلاميةً نظريةً قويةً للمجتمع الإسلامي، ونرصُد توقًا وشوقًا شعبيا في البلدان الإسلامية لتحويل النظرية إلى واقع تطبيقي مُعاش، ولا يقف مانعا ومعوقا أمام تحقق هذا المشروع إلا الأدوات السياسيةً الحاكمة والمتسلطة التي تعمل لحساب الغرباء الذين لا يريدون لأمتنا نهوضا ولا ارتقاء، فإذا اجتمعت الثلاثة المأمولة معا (المقومات النظرية والرغبة الشعبية والإرادة السياسية) نستطيع القيام بدور حضاري إسلامي من جديد، ونخيط للحسناء ثوب عرس معاصر ثمين.

الفصل الثالث

- دولة الإسلام الأولى: التأسيس العقدي والتطبيق التاريخي
  أ د. عماد الدين خليل

- علاقة الدولة بالأمة في ضوء الهوية الإسلامية
  د. محمد عياش الكبيسي

- الدولة الاسلامية بين الفقه وضغوط الواقع
  د. جاسم السلطان

- مبدأ التوازن في أركان الحكم القضائي
  د. عثمان سعيد العاني

- الهوية الإسلامية المنشودة في الدولة المعاصرة
  د. محمود أبو الهدى الحسيني

• المقدمة:

في تاريخ الشعوب والامم لحظات مفصلية تتحقق حينما يستطيع شعب او امة من رسم اماله ومستقبله سبيلا لتحقيق تلك اللحظات من حيث القدرة والحرية لرسم مستقبل منطقتنا بصورة ناجحة وصحيحة. وان تلمس الخروج من الازمات المتوالية التي يشهدها الشرق المسلم يفرض علينا تطور فكري متناسب يعتمد على سنن التاريخ وحركته. ان تأسيس نظرية للدولة المدنية الحديثة باعتباره تطور وتحول فكري معتبر وجديد يعتمد على تجارب الامم والتراث ومستخدما للفرضيات التاريخية كعلامة للاستدلال ولتأسيس قواعد النجاح والصواب والقوة والعدالة والاستمرارية التاريخية يستعيد فيه ابناء هذه المنطقة مجالهم الحيوي في الشرق الاسلامي. كذلك يكون الاعتماد من خلال الاعتراف الكامل والحقيقي لقوى مجتمعاتنا المحلية لمنطقتنا والتي تتمثل بالتنمية الرائعة التي تشهدها تركيا وبالمقاومة بكافة صورها في العراق .... وفلسطين وبثورات الربيع العربي في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا. والتي سترسم لشعوبها مسارا تاريخيا تترسخ فيه مبادئ الحريات العامة والحقوق والعدل والمساواة والتنمية والمواطنة والاستقلال.

ان عرض الرؤية المشتركة ستعطينا صورة مثالية وفريدة للمستقبل.... فقيم الحق ستظهر بشكلها الواضح من خلال التوازن في جميع جوانب الحياة وميادين تطورها ورقيها وضعفها سيشمل المخرج الحقيقي للجوانب التطبيقية للأسس النظرية.

ومن الصور التي رسمها الاسلام للدولة هو ان يكون النظام العام فيها منسجما مع عقيدة الامة وثقافتها تبعا لموازين القبول والقوى والاختلاف حيث ان الدين لله وفيه يتساوى الناس جميعا وتتفتح امامهم سبل الحياة الحرة العادلة والمتوحدة والكريمة.

فعلى مدار التاريخ كان الدين فاعلا ومعتمدا على كل الادوات التي تمكنه من اداء مهمته بما فيها السياسة والدولة. ثم بعد هذا ينظر الى المكونات الاخرى فيعترف بالخصوصيات ويمنحهم ما يحافظون به على هويتهم وكامل حقوقهم والانفتاح على مختلف توجهاتهم واخلاقياتهم وعقائدهم وان احترام قيم الاخرين ليس واجبا فقط وانما المشاركة في تلك العادات والقيم هي المفتاح لبناء دولة قابلة للحياة وناضجة وناجحة. ان معايير الصواب والحق للبناء لن يكون على اسس تاريخية وعقائدية فحسب وانما بمعايير الاستمرارية والنجاح والتنمية ايضا... وبتغيير الوعي الانساني بالذات المختلفة وبالعدل والمساواة وتسكين هذه المطالب بالتعاقد الاجتماعي الشامل.
ولابد لهذه الدولة المنشودة من هوية خاصة بها في الارض والشعب والسلطة ... جامعة بين التحالفات والصراعات ... السلطات فيها محكومة لا حاكمة ومراقبة ومحاسبة من الشعب كله وفق معايير العدالة.

ولذا فإننا نتطلع الى تجربة اسلامية جادة ومستقلة تظهر فيها هوية الدولة والامة الاسلامية ... تكون نموذجا في الانسانية والحضارية والرقي ... وتكون معايير الديمقراطية حاضرة في فلسفتها حيث الشورى والعدالة الاجتماعية والمجالس الاستشارية ... والقوى الناعمة في منابر المساجد ومجالس الوعظ .... كلها ممارسات تكون حافظة لبقاء قيم الحرية والعدالة الى حد كبير.

دولة الإسلام الأولى:
التأسيس العقدي والتطبيق التاريخي
بقلم: أ د. عماد الدين خليل

أولا: التأسيس العقدي

(١)

إن معنى أن يكون الله في السماء إله وفي الأرض إله هو أن يكون صاحب الكلمة الأولى هنا وهناك .. الحاكم والمشرع هنا وهناك .. المالك والمدبر هنا وهناك .. المقدر والمصرف هنا وهناك..

إن القرآن يقولها صراحة ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ .. والذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة .. أو إعادة الدين إلى سماواته العليا ورفض تدنيسه بأوحال السياسة ، كما يقولون ، أو تحييد الدين وعدم تسييسه أو زجه بالسياسة ، كما يشتهون ، الذين يعلنون بان ما لله لله وما لقيصر لقيصر .. إنما يقفون ، شاءوا أم أبوا ، بمواجهة هذه القاعدة القرآنية الصارمة .. الواضحة .. وكأنهم يطلبون من الله سبحانه أن يسحب يديه من العالم وأن يكتفي بحكم ما وراءه .. وحاشاه!!

ألا يدري هؤلاء بأن كلمة (ألوهية) لغة واصطلاحا تعني الربوبية والحاكمية ، وأن من يكون إلها في أي مكان من الكون والعالم ، يكون ربه وحاكمه بالضرورة؟

أفيكون الله إلها حاكما في الكون .. وإلها غير حاكم في العالم ، لا لشيء إلا ليفسح الطريق أمام الطواغيت والأرباب والفراعنة والكهنة لكي يستعبدوا الناس (لحسابهم) من دون الله ؟!

وما هي مصلحة جماهير الناس في أن يتنازلوا عن حريتهم وكرامتهم ومكانتهم في العالم لصالح حفنة من المتألهين في الأرض؟ ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٥٥] ..

(٢)

إن آيات الحكم بدين الله في الأرض .. أي بمنهجه وتشريعه وقوانينه ونظمه .. واضحة ، صريحة ، بيّنة : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٥٦] ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٥٧] ، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥٨] ، ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[٥٩] ، وإن ألف محاولة للتعتيم

---

(٥٥) محمد ٢٤ .
(٥٦) المائدة ٤٤ .
(٥٧) المائدة ٤٥ .
(٥٨) المائدة ٤٧ .
(٥٩) المائدة ٤٩ .

عليها لن تزيدها إلا وضوحا بحكم حقيقة الدين نفسه باعتباره طريقا للخلاص ، ورؤية شاملة للكون والحياة والإنسان ، وبرنامجا لصياغة الوجود البشري والتحقق بالوفاق مع المصير .. وإن أية شريعة أخرى يضعها هذا الطاغية أو ذاك ، ويصنعها هذا الفرعون أو ذاك ، ويخطط لها هذا الإله أو ذاك .. لن تزيد الإنسان إلا تفتتا وتمزقا .. ولن تزيد الجماعة إلا تعاسة وشقاء .. ولن تتمخض إلا عن ارتطام محزن بين الوجود والمصير..

ثم أن هؤلاء الطواغيت كثيرون جدا ، ومناهجهم وأديانهم كثيرة جدا ، وكل منهم يدعي ، لسفهه وغروره وتألهه ، إنه هو صاحب الكلمة النهائية في هذا العالم ، وإن طريقه هو الطريق .. فأي من هؤلاء تتبع حشود الناس ، وكيف سيكون الناس ـ وهذا ما كان فعلاـ لو أن كل جماعة منهم انتموا لهذا الطاغوت أو ذاك ، وقاتلوا عنه ، ورفضوا دعوة الفراعنة الآخرين ؟

إن معضلة التاريخ البشري هي هذه ، وإن الحل الأوحد هو هذا : الانتماء لدين الله الواحد .. لصراطه المستقيم الذي لا صراط غيره ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦٠] .

(٣)

فمن تريدون أن يشرع لكم : الله المنزه عن الميل والظن والهوى ، أم العباد المترعون ميلا وهوى ، الممتلئون ظنا والذين تبين لكم في رحلة التاريخ البشري كم هم حريصون على عدم تجاوز مصالحهم الخاصة إلى مصلحة الإنسان ، والتنازل عن مواقعهم المتفردة من أجل جماهير الناس؟

إن الدين يريدها أن تكون للناس جميعا ، لأن الله هو خالق الناس جميعا ، وربهم وإلههم .. والطواغيت يريدونها لهم أولا ، ولحفنة ممن يسبحون بحمدهم ويعززون سلطتهم في الأرض ثانيا .. ولا شيء وراء هذا وذاك ..

اما أن يكون الدين لله حيث يتساوى الناس جميعا وتفتح أمامهم سبل الحياة الحرة العادلة ، المتوحدة ، الكريمة .. واما أن يكون للطاغوت حيث الفتنة التي لن ينجو من ذيولها أحد .. الطاغوت ومن يسكت على حكم الطاغوت ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٦١] .

(٤)

إن المسألة في جوهرها صراع بين تحرير الإنسان من تأله الطواغيت وبين خضوعه لألوهيتهم وطغيانهم .. ليس ثمة تفسير آخر للدين .. وما كان الله سبحانه وتعالى ليدع عباده يضربون بغير هدى ، ويندفعون عبر رحلة التاريخ فوضى ذات اليمين وذات الشمال لكي ما يلبثوا أن يقعوا في مصيدة الاستعباد والإذلال ..

إن الفراعنة ينتظرون في كل زمان ومكان لكي يضربوا ضربتهم ، ولكي يبنوا على تيه الجماعات والأمم والشعوب مجدهم المدعى وتجبرهم المرتجى.. إن الدين هو التحذير الذي يضرب به الله سبحانه وجوه هؤلاء الطواغيت على أيدي رسله كي لا يسترسلوا في طغيانهم ويعمهوا في غيّهم .. وهو التحرير لجماهير الناس من كل ما

---

(٦٠) الأنعام ١٥٦ .
(٦١) الأنفال ٢٥ .

يمسّ كرامتها ومكانتها وتفردها على العالمين .. وهو منهج حياة وبرنامج عمل لن يضل من ينتمي إليه ويعمل من خلاله .. إنه يوصد الأبواب أمام لعبة الطغيان ومأساتها .. فإن لم يدخل الدين ساحة الفعل والتحقق والمجابهة والصراع .. فمن يوقف الفراعنة عند حدهم ؟ من يردهم على أعقابهم ؟ من يجردهم من سلاحهم ويكشف كيدهم ؟

إنه ليس ثمة حل وسط .. فاما أن يكون الدين فاعلا في التاريخ ، معتمدا كل الأدوات التي تمكنه من أداء مهمته بما فيها (السياسة) و (الدولة) ، واما أن لا يكون على الإطلاق .. فليس ثمة معنى لأن يعبد الله في هذا المبنى أو ذاك .. في هذا الجامع أو الكنيسة ، بينما عباد الله في الخارج يستعبدون ويستضعفون ويعبدون بالقسر والإكراه لمدعي الألوهية من الطواغيت والأرباب ..

لقد قالها الفاتحون الأجداد مرارا وسيقولها أحفادهم تكرارا (جئنا لكي نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..) إن الدين هو حركة خروج في قلب الواقع من حال إلى حال ، ولن يتحقق ذلك إلا بأن يمارس المنتمون للدين حقهم في تنفيذ هذا العمل التاريخي الدائم.. ما دام هنالك أبدا من تحدثه نفسه بأن يتسلط على رقاب الجماهير ويكون فرعونها المطاع..

هل يخلو التاريخ من هؤلاء ؟

(٥)

إننا إما أن نقبل الدين كاملا أو أن نرفضه مزقا وتفاريق .. وإلا أعدنا لعبة بني إسرائيل التي دمغها القرآن بالظلم والكفر والخزي ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٦٢] .

إن أي منهج أو قانون وضعي لا يمكن إلا أن يقبل كاملا ، وليس من المعقول أن يقول مواطن ما في أية دولة أنه ليعجبني هذا الجانب من القانون وسألتزم به ، وينفرني ذلك الجانب ولن أكون ملتزما به .. إنه حينذاك يعرض نفسه لعقاب السلطة التي تقوم مهمتها على حماية التنفيذ الكامل للقانون .. لماذا ؟ لأن الانتقاء الكيفي سوف يعرض سياسة الدولة وبرنامج عملها للتميع والتناقض ، وسوف يقودها إلى التفكك والدمار ..

أفيكون هذا شان القوانين والنظم الوضعية ، ولا يكون شان القوانين والنظم الصادرة من عند الله .. لماذا؟ وكيف يفسر هذا إن لم يكن في رغبة الطاغوت الحثيثة في تدمير الموقف الديني أساسا بكونه برنامج عمل شامل ، وتفتيته وتمزيقه لكي يخلو له الجو فيفرض قانونه الذي لا راد له والذي لن يسمح لأحد بأن ينتقي منه ويختار ؟

لقد حذر القرآن الكريم مرارا وتكرارا من أنه ليس ثمة أي مجال لممارسة لعبة الانتقاء هذه إزاء معطيات الدين ، ووصف من يحاول ذلك بالكفر والمروق .. فالإنسان إما أن يكون مؤمنا بحق ، منتميا لمنهج الله ، وإما ألا يكون على الإطلاق .. ذلك أن الانتماء لسلطتين في وقت واحد يعني بصراحة ووضوح : الشرك با لله

([٦٢]) البقرة ٨٥ .

واتخاذ أنداد من دونه .. وهو أمر مرفوض جملة وتفصيلا .. هذا إلى ما يحدثه الازدواج في الانتماء من تمزق خطير على مستوى الإنسان الفرد والجماعة البشرية على السواء..

إن التاريخ البشري كله هو مصداق لهذا التفتت والدمار الذي يتمخض أبدا عن الشرك با لله ، بهذا المعنى ، وإن دعاة خرافة الفصل يريدونها انتقاء كيفيا وازدواجا في الانتماء ، وشركا با لله في نهاية المطاف ..

إنه إما انتماء لمنهج الله ، وإما رفض له .. ويتهافت ـ من ثمّ ـ موقف أولئك الدعاة من أساسه ، فليس ثمة موقف وسط على الإطلاق ..

(٦)

إن (الإسلام) هو الالتزام الديني الأخير والنهائي ، وهو ـ لذلك ـ يتميز بالشمولية والامتداد ويتضمن جوهر الأديان السماوية التي سبقته على الطريق ومهدت له ، ومعطياتها الحيوية (الديناميكية) بعد إطراح سائر النسبيات التاريخية ، وبعد هضم هذه المعطيات وتمثلها وصبغها (بصبغة) الدين الأخير .. وأي تصور ، بعد هذا ، أو محاولة لتصور نوع من التوازي أو التساوي الرياضي المطلق بين الإسلام وبين الأديان التي سبقته ، إنما هو نكران صريح ، ومرفوض ، لتميّز هذا الدين (الإسلام) ، وخصوصيته ، وتفرده ، ولـ(إلزامه) .. وهو بالأحرى (لعبة) قد تكون دوافعها ساذجة بليدة أو ماكرة خبيثة لتجميد هذا الدين أو عزله أو شل فاعليته باسم موازاته مع الأديان السابقة وعدم التفريق بين ما أنزل الله .. وإنها للعبة يمارسها أدعياء خرافة فصل الدين عن الدولة لكي يوحوا للناس عامة وللمسلمين على وجه الخصوص بأن الأديان السابقة ما دامت ـ في تصورهم الخاطئ المستمد من انحرافات هذه الأديان وليس جوهرها الأصيل ـ قد فصلت بين الدين والحياة ، وأعطت ما لله وما لقيصر لقيصر ، فإن موازاة الإسلام بها ومساواته معها يمنح القناعة بأن شقيقها هذا يتوجب أن يترك ـ هو الآخر ـ ما لله وما لقيصر لقيصر ..

هكذا بهذا المنطق الساذج الماكر في الوقت نفسه .. على طريقة : إذا كانت الرياح الموسمية تسقط أمطارها في اليمن والصومال ، وإذا كانت الهند تتلقى رياحا موسمية .. فمعنى هذا أن اليمن والصومال تلتقيان مع الهند في مناخها جملة .. وربما في نظمها وعاداتها وتقاليدها !!

وإذا كان الله سبحانه ، صاحب الشأن الأول والأخير في الدين ، قد أصدر حكمه الحاسم الجازم بالتفريق المطلق الذي لا يقبل لحاجة ومناقشة وإنكارا .. بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية الأخرى التي سبقته ، رغم صدورها من منبع واحد ..

فما شأن الإنسان؟

أجل .. ما شأن الإنسان ؟!

(٧)

قد نفهم تشبث الطواغيت بخرافة الفصل بين الدين والدولة لأنها الباب الوحيد الذي يمكنهم من أن يظلوا هناك فوق الناس .. فوق الرقاب .. فوق القرناء والمنافسين .. آلهة متفردة تحكم بما تشتهي وما تريد ، وتعطي ما تشتهي وما تريد ، وتمنع ما تشتهي وما تريد.. ولكننا لا نفهم موقف هذا الحشد الكبير من الناس البسطاء المساكين

الذين يصرون على التشبث بالخرافة فلا يزيدهم الإصرار والحماس إلا خضوعا وعبودية واستسلاما ..
أهو الجهل والحماقة أن يختار الإنسان بمحض إرادته الدخول إلى حظائر الأغنام والنعاج ليكون واحدا من القطيع ؟ أم هو الإرهاب الذي يرغم المساكين ، بالتلويح بالذبح ، على التشبث بهذا التصور الخاطئ الذي لا يحقق لهم مصلحة ولا يضمن كرامة ؟
أم ماذا ؟
أما الكتاب والمثقفون الذي يسخرون أقلامهم لتأكيد الخرافة والدفاع عنها ، فهم ولا ريب بين ضال أو جاحد تدفعه نفسه المظلمة ، لا عقله المضيء ، إلى مواقع الباطل ، وهم قلة على كل حال ، وبين صنيعة أو مأجور تغريه (النقود) فيمارس بيع الأفكار بالمزاد ، ويمنحها لمن يدفع أكثر .. هنالك حيث يستوي ـ كما يقول أحد الشعراء المعاصرين ـ الفكر بالحذاء .. وما أكثرهم!!

(٨)

إذا استخدمنا التعابير المعاصرة فإن الدين (ستراتيجية) والسياسة (تكنيك) يخدم (الستراتيجية) ويذلل الصعاب أمام أهدافها الكبرى..
الدين حركة والسياسة أداة ..
الدين منهج عمل شامل والسياسة طرائق للتنفيذ ..
وفي كل الأحوال لا نجد ثمة ما يدعو للفصل بين القطبين ، بل على العكس ، تحتم ضرورات التنفيذ والفعل والتحقق ، التكامل بينهما ..
إن (الدولة) ضرورة محتومة للدين إذا ما أريد له أن يقول كلمته في العالم وينفذ برنامجه في الأرض..
وإن (الدين) ضرورة محتومة للدولة إذا ما أريد لها أن تكون في صالح الإنسان من أجل عالم أفضل وغد سعيد .. هنالك حيث يتحرر الإنسان ويتحقق الوفاق المرتجى بينه وبين سنن الحياة والعالم والكون ..
وإن الذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة لا يفهمون في الدين ولا في الدولة ﴿وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦٣] .

([٦٣]) المائدة ٤٩ـ٥٠ .

ثانيا: دولة الإسلام في المدينة

١- الدوائر الثلاث:

منذ لحظات اللقاء الأولى بين النبي عليه الصلاة والسلام ومبعوث الله الأمين جبريل، وحتى لحظات توديعه للحياة الدنيا، كان يخطط ويبرمج ويتحرك بأصحابه وفق تصور واضح مرسوم، وعبر طريق طويل بدأ ببناء الإنسان المسلم بالعقيدة خلال المرحلة المكية كلها، وانتهاء ببناء الدولة الإسلامية بالتشريع عبر المرحلة المدنية من أجل حماية التجربة الإسلامية من التفكك والضياع وتمكينها من مجابهة التحديات؛ بمنحها المقومات الضرورية للبقاء والاستمرار، وإلا فإنها بدون هذه المقومات سوف تنكمش وتعجز عن أداء مهمتها كاملة، وتكتفي بالجزئيات والتفاريق التي لا تؤثر البتة في مجرى الوقائع والأحداث، ولا تصنع تاريخاً ولا ترمي بثقلها في صيرورة الحياة، ولا يكون لها وجود يستحق التقدير والاحترام، أو الاستجابة والانتماء.

إن الإسلام جاء لكي يعبر عن وجوده في عالمنا من خلال دوائر ثلاث يتداخل بعضها في بعض، وتتسع صوب الخارج لكي تشمل مزيداً من المساحات: دائرة الإنسان، فالدولة، فالحضارة. ولقد اجتاز الإسلام في مكة دائرة الإنسان ثم ما لبثت العوائق السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية أن صدّته عن المضي في الطريق صوب الدائرة الثانية حيث الدولة؛ لأنه بلا دولة ستظل دائرة الإنسان -التي هي أشبه بنواة لا يحميها جدار- مفتوحة على الخارج المضاد بكل أثقاله وضغوطه وإمكانياته المادية والروحية. ولن يستطيع الإنسان الفرد أو الجماعة المؤمنة التي لا تحميها دولة أن يمارسا مهمتهما حتى النهاية، سيّما إذا كانت قيمهما وأخلاقياتهما تمثلان رفضاً حاسماً لقيم الواقع الخارجي والتجربة المعيشة، ولا بدّ إذاً من إيجاد الأرضية الصالحة التي يتحرك عليها المسلم قبل أن تسحقه الظروف الخارجية أو تنحرف به عن الطريق، وليست هذه الأرضية سوى الدائرة الثانية، وليست هذه الدائرة سوى الدولة التي كان على المسلمين أن يقيموها وإلا ضاعوا.

وهجرة الرسول ﷺ، أو محاولته للهجرة بشكل أدق، تبدأ منذ اللحظات التي أدرك فيها أن مكة لا تصلح لقيام الدولة، وأن واديها الذي تحاصره الجبال، وكعبتها التي تعجّ بالأوثان، لا يمكن أن تكون الوطن، ومن ثم راح الرسول ﷺ يجاهد من أجل الهجرة التي تمنح المسلمين دولة ووطناً، وتحيط كيانهم الغض بسياج من إمكانيات القوة والتنظيم.

والرسول ﷺ الذي علمتنا سيرته مدى الواقعية الإيجابية التي كان يتمتع بها، والحرص على الطاقة الإنسانية ألا تتبدد في غير مواضعها سرعان ما نجده يتحرك صوب الخروج إلى مكان جديد يصلح لصياغة الطاقات الإسلامية في إطار دولة تأخذ على عاتقها الاستمرار في المهمة بخطى أوسع، وإمكانيات أعظم بكثير من إمكانيات أفراد تتناهبهم شرور الوثنية من الداخل، وتضغط عليهم قيم الوثنية من الخارج، ويصرف طاقاتهم البناءة اضطهاد قريش، بدلاً من أن تمضي هذه الطاقات في طريقها المرسوم.

لقد تأكد للرسول ﷺ، بعد كفاح طويل استمر أكثر من عقد، أن القيادة الوثنية المكية لا يمكن بحال أن تهادن الدين الجديد، الذي جاء يمثل رفضاً حاسماً لكل قيم الوثنية وأهدافها وتقاليدها ومصالحها .. وإنها ستظل تدفع حتى النهاية الأخطار التي يمثلها الإسلام بوجه أهدافها وتقاليدها ومصالحها.

لن يتسع المجال هنا لاستعراض الجهود التي بذلها الرسول عليه السلام لتحقيق هدفه الذي كلّل أخيراً بالنجاح، عبر لقاءات العقبة الثلاثة، وقد تناولنا ذلك في غير هذا المكان فليس ثمة مبرر للتكرار.[٦٤]

وفي اليوم الثاني عشر من ربيع الأول (٢٤ أيلول ٦٢٢ م) من السنة الثالثة عشرة للبعثة وصل الرسول ﷺ وصاحبه رضي الله عنه يثرب حيث جرى لهما استقبال حافل من قبل أولئك الذين انتظروا رسولهم طويلاً. .. إنهم سيبدأون معه وبه عهداً جديداً كتب لهم شرف وضع أسسه التي سيقوم عليها البناء: الدائرة الثانية من دوائر الدعوة،؛ دائرة الدولة التي ستحمي المسلمين أفراداً وجماعات وستمنح الإسلام خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر. فلا عجب أن يخرج الأنصار بأسلحتهم يستقبلون الرسول ﷺ، فها هم أولاء الجنود الذين سينضمون إلى إخوانهم المهاجرين، وسيبنون معا بقوة العقيدة والسلاح، الدولة التي ستحمي مقدرات الدين الجديد وتمكنه من أداء مهمته العمرانية في العالم.

إن اليوم الثاني عشر من ربيع الأول هو نهاية حركة حاسمة من أجل إقامة الدولة التي ستتولى قيادة حركة الإسلام في العالم، لكنه في الوقت نفسه بدء حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز الدولة وإقامة الحضارة، تماما كما كانت بعثة الرسول ﷺ، في البدء حركة صوب تكوين الإنسان المؤمن صانع الدول والحضارات.

٢- دولة الإسلام الأولى:

بدأ الرسول ﷺ منذ دخوله المدينة يسعى إلى إنجاز المهام الملقاة على عاتقه في مطلع المرحلة الجديدة من الدعوة والتي تستهدف إنشاء الدولة الإسلامية على أسس راسخة، وتهيئة سائر الشروط والمتطلبات لتحقيق هذا الهدف.

ولقد كان بناء المسجد، مركز القيادة والعبادة، الخطوة الأولى على هذا الطريق، ثم أعقبه إصدار الوثيقة لتنظم العلاقات السياسية داخل المدينة، والتخطيط لمهام القيادة متمثلة برسول ﷺ. وجاءت واقعة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتنظيم العلاقات الاجتماعية وتحل المشاكل المترتبة على الهجرة من مكة، ثم كان تشكيل جيش إسلامي مقاتل ضرورة سياسية رابعة لكي يتولى حماية الدولة الناشئة وقيادتها الجديدة ويساعد على تحقيق أهدافها الحركية في الوقت نفسه.

ولقد وقفنا بعض الشيء عند تفاصيل وظروف هذه الإجراءات الأربعة التي مكّنت الدولة الجديدة من مواصلة طريقها المرسوم[٦٥]، ولنا هنا أن نتابع بإيجاز الملامح الأساسية لحركة بناء الدولة الإسلامية ونموها التدريجي.

([٦٤]) ينظر عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٤م، فصل (تحليل للهجرة)، ص١٢٧-١٤٤.

([٦٥]) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٤م، فصل (تحليل للهجرة)، ص١٤٧-١٦٣.

فلقد وضع القرآن الكريم ورسوله الأمين ﷺ، بتلك الإجراءات الأربعة وغيرها، القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة، ومن ثم أخذت التشريعات المنبثقة عن هذين المصدرين تنمو وتتسع يوما بعد يوم، لا بطرائق نظرية تجريدية منفصلة عن الحياة والواقع وإنما وفق الأسلوب نفسه الذي كانت الآيات المكية تتنزل فيه لكي تبني العقيدة في أذهان ونفوس الإنسان والجماعة المسلمة، وهو أسلوب يرتبط ارتباطاً عضوياً حيوياً بالواقع الحركي والتجربة الحية المعيشة، ومن ثم تجيء معطياته أشدّ التصاقاً بحركة المسلمين ونمو دولتهم وأكثر التحاماً بتجربتهم المحسوسة وواقعهم المعيش، وأعمق فهماً وإدراكاً لمتطلباتها وأبعادها القانونية والسلوكية، نظراً لمواكبتها لمشاكلهم وتجاربهم اليومية ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

لقد بدأت مرحلة بناء الدولة الإسلامية العقائدية في أعقاب الهجرة حيث كانت المرحلة السابقة، مرحلة بناء الإنسان المسلم والجماعة المسلمة، قد اكتسبت ملامحها الأساسية في العصر المكي، وغدا المسلمون أفراداً وجماعات على استعداد نفسي وذهني كاملين لتقبل ما سيجيء من تشريعات، وما سيفرض من تنظيمات، ويوضع من حدود، ويرسم من علاقات، بعد أن هيأهم النضج العقيدي لتقبل كل ما يصدر عن رسول الله والإسلام له والإيمان به والتقوى خلال ممارسته في السر والعلن، والإحسان في إنجازه على أحسن ما يكون الإنجاز، دون تردد أو سلبية أو خيانة أو غش أو تملص أو رفض أو تهرب، إنما هو الخضوع اليقيني المتبصر، بأن هذا الذي يتنزل في ميدان التشريع والتقنين، إنما هو الحق المطلق والخير الكامل والصواب الذي ليس بعده إلا الضلال المبين.

وقد أتاح هذا التطور المبرمج لسير الدعوة الإسلامية أن يشاد البناء الجديد على أسس متينة متوغلة في أعماق النفس المسلمة على المستوى الفردي والجماعي على السواء فجاء متماسكاً مترابطاً ثابت الأركان. فضلاً على أن الإحساس الجديد بالزمن والمسؤولية، ويقظة الضمير التي غرستها العقيدة الإسلامية في النفوس دفعت المسلم ليس إلى تقبل التشريعات والحدود والأوامر الجديدة وتنفيذها بدقة فحسب، بل إلى كسب الوقت والمسارعة في تحويلها إلى وقائع معيشة وتجارب وترجمات يومية وصيغ منقوشة على صفحة المكان والزمان، كما دفعته إلى السعي للإحسان في الأداء والإبداع في التنفيذ من أجل بلوغ المرحلة القصوى من رضا الله وطاعته. وقد أتاح هذا كله اطراداً عجيباً في نمو الأجهزة التشريعية للدولة الناشئة، وسرعة مدهشة في نزول متطلباتها إلى الشارع والبيت والسوق والمسجد والميدان، الأمر الذي يفسر لنا على المستوى الحضاري الاختزال الزمني الذي مارسه المسلمون وهم يبنون عالمهم الجديد.

لقد أسهم القرآن والرسول جنباً إلى جنب في رسم الخطط ووضع التشريعات وبناء المؤسسات وتغطية المتطلبات المتزايدة للدولة الجديدة. ولم يكن الدستور أو الوثيقة وحدها - رغم خطورتها في هذه المرحلة - هي كل شيء كما يحاول الكثير من

الباحثين أن يصوروا من خلال مبالغتهم[٦٦]، فالوثيقة ليست سوى لبنة واحدة في البناء التشريعي الكبير وقع عبء إقامته على عاتق القرآن الكريم قبل كل شيء، هذا إلى أن الكثير مما ورد في الوثيقة لا يعدو أن يكون برنامجاً مرحلياً بالنسبة للخارطة الثابتة الدائمة لدولة الإسلام واستراتيجتها التشريعية الشاملة. ومن ثم فإن التأكيد على أهمية الوثيقة، فضلاً على أنه يعدّ بحد ذاته خطأً تاريخياً وموضوعياً، فإنه يحجب في الوقت نفسه الحجم الحقيقي للتشريع القرآني الذي كان يتمخض باستمرار عن مزيد من القوانين والتشريعات، ويقود الباحث بالتالي إلى الرؤية الغربية الوضعية التي تجد في الوثيقة محاولة بشرية أولية من المحاولات التي قام بها المشرعون على مدار التاريخ لتنظيم شؤون دولهم الناشئة. وإنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن الرسول ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى وأنه كان يصدر في الخطوط العريضة للدعوة عن وحي الله، وأن هذا الوحي يبدو أكمل ما يبدو في القرآن الكريم نفسه. وكل الإنجازات والأعمال الأخرى إنما هي امتداد وتوسيع وتفسير فحسب لهذا الأصل الإلهي الكبير.

وثمة مسألة أخرى تجدر الإشارة إليها في هذا المجال تلك هي إطلاق اسم دولة المدينة أو الدولة اليثربية على دولة الإسلام الأولى بحكم قيامها بالمدينة المنورة، ذلك أن تعبير دولة المدينة قد يسوق ها هنا إلى لبس يوهم أن المقصود كونها دولة من النوع الذي يقوم فيه الكيان الإقليمي للدولة على مدينة من المدن (City-State) مثل أثينا أو أسبرطة في التاريخ القديم. والحق أن دولة الهجرة ارتبطت بيثرب ارتباطاً عارضاً. ولقد كانت دولة عقيدية عالمية من أول يوم، وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان يتبنى الفكرة ويدين للعقيدة. كذلك فإن الدولة الجديدة في المدينة هي دولة الهجرة لا دولة المهاجرين، فالمهاجرون هنا لا يعمدون إلى إفناء السكان الأصليين أو إجلائهم ولا يقيمون المستعمرات أو يصطنعون الحواجز بينهم وبين سكان المدينة التي انتقلوا إليها، وهكذا لا نجد تجارب توطين الأوروبيين في أمريكا أو استراليا أو جنوب إفريقية، على اختلاف درجات حرارتها. إنها دولة فكرية عقيدية سكانها المقيمون فيها من قبل، والمهاجرون الوافدون سواء في الاعتبار الإنساني والحقوق القانونية .. والعقيدة معروضة على كل إنسان بحكم إنسانيته أياً كان موطنه وأياً كانت عشيرته. إنها دولة مفتوحة لا تغلق نفسها على جماعة معينة شأن أي دولة دينية أخرى قامت من قبل في التاريخ ﴿للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ (الحشر: ٨)، ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر: ٩)، ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا

---

(٦٦) ينظر على سبيل المثال، يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١-١٥.

اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (الحشر: ١٠). [٦٧]

"إن هذه الدولة فذة في تاريخ البشرية لأنها أقرّت مبدأين لا وجود لهما إلا في دولة غير دينية. وأول هذين المبدأين هو حرية الأديان، وهي حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب، بل إنها تتعهد برعايتها. وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة في أوسع معانيها تسامحاً وإنسانية، وهو مبدأ يكفل المساواة في الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم." [٦٨]

لقد استكملت دولة الإسلام كل مستلزمات البناء القانوني للدولة والذي يقوم على أركان ثلاثة: الأمة، والسيادة الداخلية والخارجية، ثم الإقليم .. ولكنها ما أخذت مكانها ودورها في التاريخ لواحد من هذه الأركان، فلقد قامت دولة الهجرة على أمة ولكنها أمة تقوم على أساس الفكر والعقيدة، فهي أمة لا يمكن حصرها أو ضبطها لأنها لا تحدها لغة أو جنس أو وطن، فقد عرض رسول الله ﷺ عقيدته على كل فرد وقبيلة ومدينة استطاع أن يعرض هذه العقيدة عليها، وترك المجال أمام الإمكانيات الأيديولوجية لا الحتمية الجغرافية. وكان لدولة الهجرة سيادة داخلية وخارجية، ولكنها سيادة تحققت في واقع الأمر من أول يوم في الإطار المثالي الذي تطلعت إليه فلسفة القانون إلى وقتنا ولم تفلح في أن تجد له سبيلاً إلى التنفيذ، فهي سيادة قائمة على الاختيار الحر في اعتناق الفكرة من جانب الأفراد وفي الاجتماع لإقامة الدولة من جانب المجموع. ومن ثم تأسست سياسة الدولة الجديدة فعلاً وواقعاً على تقديس الحرية الإنسانية، بحيث تكون هذه الحرية هي أساس الدولة الفكري وقانونها الأعلى. وكان لدولة الهجرة إقليم اختارته الظروف لها وكان اختيارا موفقا، لكنها لم ترتبط به ولم تقتصر عليه، وكان من الممكن أن تقوم في أي مكان آخر يقبل الدعوة، مكة أو الطائف مثلاً، ذلك أن الدولة الجديدة دولة فكرة، والفكرة تجد وطنها في كل مكان يوجد فيه عقل إنسان. [٦٩]

٣ ـ الخلافة الراشدة:

إذا قدرنا على تجاوز التفاصيل والجزئيات، وفككنا أنفسنا من أسر مئات الأخبار الموضوعة بعد الواقعة التاريخية بقرن أو قرنين في زمن الهوى والميل والتحزب .. إذا تمكنا من الارتداد صوب البيئة التاريخية التي تخلقت فيها تجارب الانتخاب في

([٦٧]) عن محمد فتحي عثمان: دولة الفكرة، الدار الكويتية، الكويت، ١٩٦٨م، ص١٦، ١٧.

([٦٨]) د. أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٣٨٣، ٣٨٤.

([٦٩]) محمد فتحي عثمان، دولة الفكرة، ص١٨-٢٢.

العصر الراشدي زماناً ومكاناً وعقيدة وإنساناً، فإننا سنلتقي، ومن خلال موقف أكثر شمولية وعلمية في الوقت نفسه، مع تجربة سياسية تستحق التقدير.

بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، ورغم هول الواقعة التي هزّت كبار الصحابة أنفسهم، يجتمع المسلمون أنصاراً ثم مهاجرين في سقيفة بني ساعدة، ويمارسون لأول مرة في تاريخهم حواراً مفتوحاً يقوم على الكلمة والإقناع لاختيار مرشحهم الذي سيخلف رسول الله ﷺ في قيادة الأمة وسياسة دولتها الناشئة .. ما استل سيف ولا أريقت قطرة واحدة من دم.

يقدم الأنصار مرشحهم، معتقدين أنهم الأحق بأن يكون الخليفة منهم، وهم الذين آووا الرسول عليه السلام ونصروه وبإرادتهم أتيح للحركة الإسلامية أن تجتاز مرحلة الدعوة التي استهدفت تكوين الإنسان المسلم والجماعة المسلمة إلى مرحلة الدولة التي تملك برنامج عمل سياسي وتشريعي لتغيير العالم بدءاً من جزيرة العرب نفسها.

ويهرع المهاجرون لإقناع الأنصار بأنهم الأحق بذلك، فهم طليعة الإسلام الأولى، وعلى أكتافهم شقّت الدعوة طريقها في ظروف بلغت الغاية في عنفها وقسوتها. ويعود بعض الأنصار فيعرضون فكرة القيادة الثنائية المشتركة، فيصر المهاجرون على ضرورة وحدة القيادة وأن بمقدور إخوانهم الأنصار ان يعملوا من خلالها ويعبّروا عن طاقاتهم في إطارها: "منا الأمراء ومنكم الوزراء".[٧٠]

ومن أجل ألا يطول النقاش وتنفتح ثغرة قد تتسلل منها المشاكل وتنفذ منها الحساسيات في وقت كانت وحدة الجماعة فيه تمثل المهمة الأكثر إلحاحاً، تقدم عمر بن الخطاب ﷺ لكي يشير إلى المرشح الذي لا بدّ من تحديده في مناقشات كهذه، وكان أبا بكر ﷺ ولا ريب. فثمة ماضيه العريق في خدمة الدعوة، ومواقفه الحاسمة في تاريخ كفاحها، وثمة شهادات الرسول ﷺ وكلماته في رفيقه وصديقه وثمة تعاطف المسلمين أنفسهم مع أول رجل في الإسلام بعد رسول الله ﷺ.

تمت البيعة الأولى الخاصة في السقيفة نفسها لكي ما تلبث جموع المسلمين أن تنهال على مسجد الرسول ﷺ مبايعة خليفتها الأول البيعة العامة.

وفي الأوضاع والبيئات الحرة لا نلتقي بتجربة انتخابية أجمع فيها الناس كافة على مرشح واحد، لا نلتقي بحركة أرقام صماء تتجمع بإرادة مسلوبة أو بالقسر والإكراه؛ لكي ترسم نسبة المئة بالمئة أو التسع وتسعين وتسعمئة بالمئة. لا بدّ أن تكون هناك معارضة ولا بدّ أن تتضمن هذه المعارضة قدراً من الرفض لهذا السبب أو ذاك. ولكن الأكثرية الساحقة هي التي اختارت أبا بكر، فليتسلم الرجل إذن المهمة الصعبة وليتحمل المسؤولية بالأمانة التي عرفت عن أصحاب الرسول عليه السلام.

في مسجد الرسول ﷺ يعرض أبو بكر ﷺ برنامج عمله القيادي وتصوره العقيدي بكلمات قلائل .. قال:"أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

---

(٧٠) أبو الفدا إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م، ٥/٢٤٧.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.."

إن الخليفة الأول يؤكد هنا على الحقائق الأساسية التي يجب إعلانها والالتزام بها إذا ما أريد للقيادة الجديدة أن تواصل السير على الدرب الذي بدأه الرسول ﷺ فالخليفة رجل من الناس، واحد من جماهير الأمة، منحته باختيارها الولاية عليها، وهو بسبب من ماضيه ومن تقييم النبي عليه السلام له ومن كفاءاته الخاصة قد نال هذا الشرف لكن هذا لا يعني أنه رجل فوق سائر الناس، من طينة أخرى غير طينتها، كما تصوّر الناس أو صوّر لهم في عصور الوثنيات والصنميات وظلال الله المدعاة في الأرض.

إن النبي ﷺ نفسه كان يريد ان ينتزع أيما ظل لهذه الشبهة في نفوس أصحابه، كان يقول: أيها الناس إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد، وتمشي في الأسواق. وكانت كلمات الله تؤكد هذه الحقيقة المرة تلو المرة: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ (الكهف: ١١٠)، ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ (الأعراف: ١٨٨)، ﴿وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ (الأنبياء: ١٠٩). ومن يدري فلعل في الأمة التي اختارت أبا بكر ﷺ لقيادتها رجل هو خير من أبي بكر في أمور ولكنه أقل قدرة على تحمل المسؤولية" إني وليت عليكم ولست بخيركم" ومن ثم، ومن خلال أول تجربة انتخابية في تاريخنا السياسي يحفر الخليفة الأول في أذهان الأمة هذه الحقيقة الخطيرة التي تمتد انعكاساتها إلى سائر مساحات الحياة وفاعلياتها .. إن الرجل المنتخب هو واحد من الناس وليس واحداً فوق الناس، وأنه ليس ثمة ظل لله في العالم!!.

وهو يطلب من أمته أن تعينه إذا أحسن الاجتهاد والعمل وأن تقوّمه إذا أساء، وهي إشارة أخرى على الطريق نفسه الذي أكده في عبارته الأولى، فهو مجرد إنسان قد يخطئ وقد يصيب، وليست معطياته جميعاً قدراً منزهاً عن الانحراف، وهو يرى أن يكون الحكم معادلة متكافئة بين الحاكم والمحكوم، الطرفان يتحملان مسؤوليتهما ويشاركان فيها بالفعل والاجتهاد والنقد والرقابة الدائمة، وهو بالتالي يريد أن ينمي الحس النقدي ومسؤولية الرقابة في نفوس أبناء أمته، فليس إلا في فترات الاستلاب السياسي أمة لا تنقد حكامها أو تراقبهم، ولا تقول (لا) حيث يجب أن تقال. إن الخليفة ها هنا يستبق الأحداث ويطلب من أمته أن تمارس حقها من أجل أن تظل حيويتها الحركية التي علّمها إياها الرسول ﷺ وربّاها عليها، فأن أمة لا تنقد ولا تعارض لهي أمة تعاني من السكون، وتوشك أن تموت.

وهو ﷺ يؤكد مفهوم العدل الذي جاء به الإسلام ويعلن أنه سيحميه من الانتقاص والعدوان، العدل بمفهومه الشامل الواسع، ابتداء من مسألة الطعام والشراب وانتهاء بموقف الإنسان في العالم .. سيقف خليفة رسول الله ﷺ بكل ما يحمل من قوة لكي يحفظ التوازن المطلوب؛ فلا أقوياء يرفعون أيديهم بأكثر مما يجب ولا ضعفاء يرتجفون خوفاً وجوعاً، إنه سيجعل القوي يرتجف إذا ما حدّثته نفسه بظلم ويأمن عنده الجوعى والخائفون.

وفي عبارتين أخريتين يشير الخليفة إلى الأهمية القصوى للالتزامات الأخلاقية في المجتمع الجديد، الالتزامات التي تميّزه عن سائر المجتمعات الجاهلية وترفعه عليها وهو بدونها يفقد هويته ويتنازل باختياره عن الميزة التي منحه إياها انتماءه للدين الجديد "الصدق أمانة والكذب خيانة" و"إنه لا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء". إن العفن والفساد إذا تسربا إلى مجتمع من المجتمعات دون أن تكون هناك إرادة جادة لوقفهما واستئصالهما فسوف يتحولان إلى بلاء جارف يكنس في طريقه كل شيء، وهو لن يعرف حينذاك الصالح من الطالح؛ لأن البلاء ليس عقلاً يعمل في التاريخ وإنما عذاب ينصب على التاريخ.

ولم ينس أبو بكر ﷺ أن يشير إلى الجهاد كالتزام أساسي للأمة المسلمة ويحذر من تجميده لأن معنى هذا أن يضربهم الله بالذل.

إن الجهاد، كما ورد في عدد كبير من الآيات لا نجد ضرورة للإشارة إليها، هو حركة المسلمين الدائمة في العالم لإسقاط القيادات الجاهلية الضالة وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان هذا الإنسان، بغض النظر عن الزمن والمكان والجنس واللون واللغة والثقافة والانتماء. إنه -في الحقيقة- مبرر وجود الجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان، ومفتاح دورها في الأرض، وهدفها العقيدي، ومعامل توحدها، وضامن ديمومتها وتطورها، والمهمة المركزية لقيادتها، وبدون هذه الحركة الجهادية يسقط هذا المبرر ويضيع المفتاح، وتفقد الجماعة المسلمة قدرتها على الوحدة والتماسك والاستمرارية والبقاء، كما تفقد القيادة المسلمة شرطها الأساسي.

إن الجهاد كهدف إيماني حركي دائم، أشبه بمعامل عقدي - اجتماعي يشد أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض، ويوجههم صوب بؤرة واحدة، ويدفعهم إلى تجاوز السكون والتحرك الدائم إلى أهداف أبعد فأبعد، وهذا -بطبيعة الحال- يجيء بمثابة ضمان أكبر لوحدة الجماعة المسلمة وتماسكها واستمرارها وصيرورتها التحريرية المبدعة. وعلى العكس، ما أن تفتر روح الجهاد في نفوس المسلمين، أفراداً وجماعات، قيادات وقواعد، حتى تتفكك عرى وحدتهم وتتعدد أهدافهم، وتميل تجربتهم الحركية إلى التباطؤ فالسكون، وتتساقط مواقعهم الأمامية، وبدلاً من أن يسددوا ضرباتهم إلى القوى الجاهلية، ويمتلكوا زمام المبادرة الاستراتيجية في العالم، إذا بهم يتلقون الضربات من هذه القوى ويتراجعون صوب المواقع الدفاعية في الخطوط الخلفية.

فهي الهزيمة -إذن- على كل المستويات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعقائدية والحضارية في نهاية المطاف. وإننا لننظر إلى تاريخنا فنرى في هذا الالتزام معادلة واضحة، فحيثما سادت روح الجهاد مجتمعاً إسلامياً تمكّن من حماية وجوده، وتعزيز وحدته، وضمان ديمومته العقائدية وإبداعه الحضاري واتساع ميادين نشاطه في العالم، وحيثما افتقدت هذه الروح الجهادية وطمس عليها في مجتمع آخر فقد مبرر وجوده، وتمزقت وحدته، وتباطأت اندفاعيته العقائدية، واضمحلت منجزاته الحضارية، وتقلص دوره في العالم، وآل أمره إلى التدهور والسقوط، وإن تاريخنا المعاصر ليقدم لنا عشرات الأمثلة التطبيقية على صدق هذه المعادلة.

لقد كان أبو بكر واضح الرؤية عندما قال مخاطباً منتخبيه: "إنه ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم بالذل"، وواضح الرؤية أيضاً عندما جعل سني خلافته جهاداً دائماً في الداخل والخارج وعلى المستويات كافة.[٧١]

ويختتم ﷺ خطابه بتأكيده على أن الطاعة، التي يتحتم على الأمة أن تمارسها إزاءه، مستمدة من طاعته هو شخصياً لله ورسوله، وأنها تسقط بمجرد أن يخالف هو عن هذه الطاعة .. فالجميع، في نهاية الأمر، قيادات وقواعد، سواء أمام الله ورسوله، ولن يكسب فعلهم التاريخي قيمته إلا بمدى استمداده من شريعة الله ومعطيات رسوله الكريم.

لما ألحّ المرض على أبي بكر ﷺ في وقت كانت زهرة قوات المسلمين تشقّ طريقها في جبهتي العراق والشام، والدولتان الكبريتان: الساسانية والبيزنطية تحشدان جلّ طاقاتهما لسحق هذا التحرك الفتي، والمجتمع المسلم لم يتجاوز بالكلية مواقع عصبياته وضغوطها القاهرة، أدرك ﷺ أن مجمل الظروف التاريخية هذه تحتم عليه أن يحسم أمر الخلافة لصالح وحدة المسلمين وأهدافهم التاريخية، وكان بمقدوره، هو الذي منحته الأمة ثقتها المستمدة من صدقه العميق ومن شهادة الرسول ﷺ له، ومن دوره التاريخي قبل الخلافة وبعدها، أن يرشح الرجل الذي يطمئن إليه، لكنه لم يشأ أن يصل إلى هدفه من هذا الطريق القريب، وأن يوسّع -بدلاً من ذلك- نطاق مشاوراته إلى أقصى مدى مستطاع، فبيّن للصحابة الكبار أنه ميت ولا ريب فأحرى بهم أن يتشاوروا ويتخذوا قرارهم النهائي قبل وفاته ومن أجل حماية وحدتهم واستمرارهم في مهماتهم الأساسية، وبيّن لهم أنهم في مشاوراتهم هذه أحرار من أي التزام تجاه الخليفة السابق، حتى من بيعته، قال لهم: "إنه قد نزل بي ما ترون ولا أظنني إلا ميت لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي وحل عنكم عقدتي ورد عليكم أمركم." وكان رأي كبار الصحابة أن يتولى الصدّيق بنفسه مهمة الاختيار، فكأنهم خوّلوه حق الترشيح نيابة عن الأمة بما أنهم ممثلوها المعتمدون.

اعتمد الصدّيق وهو يتحرك لاختيار الرجل المناسب قواعد وميزات أساسية كان أبرزها، ولا ريب أن يكون المرشح رجلاً حازماً في غير عنف، ليّناً في غير ضعف، فكان يجد في عمر بن الخطاب، بعد لأي البحث والمشاورة، ذلك الرجل، إلا أنه، رغم ذلك كله، لم يشأ أن يعلن كلمته النهائية قبل أن يجري مزيداً من المشاورات، وقبل أن يطّلع على رأي المسلمين الموجودين في المدينة في الخليفة الجديد، ومن ثم خاطبهم قائلاً:"أترضون بمن استخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة، وإني قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا." وكان جواب الناس -بما فيهم كبار الصحابة- "سمعنا وأطعنا."[٧٢] وكان بمقدورهم أن يردّوه، فما أكثر ما قالها المسلمون: لا سمع ولا طاعة. وعمر نفسه، بعد أن تولى الخلافة، كان يدفعهم إلى قولها دفعاً كما هو معروف. ولو أنهم قالوها فإنه ليس ثمة ما يمنع أبا بكر

---

(٧١) ينظر الفصل الثاني من هذا الباب.

(٧٢) الطبري، تاريخ ٤٢٨/٣.

من أن يعود إلى المشاورة وتقليب الرأي من جديد للبحث عن رجل آخر يسمعون له ويطيعون.

رفع أبو بكر يديه إلى السماء وقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم، فولّيت عليهم خيرهم وأتقاهم وأحرصهم."

وفي كتاب عهده لعمر نقرأ هذه الكلمات التي تنبض تقوى وصدقاً وإحساساً بالمسؤولية: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأوّل عهده بالآخرة، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك علمي به، ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب، والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".[٧٣]

ولن يخطر على بال أحد أن الصدّيق الذي كان صادقاً مع ربه ونبيه ونفسه في أشد الظروف حلكة وعسراً وفي أكثرها سهولة ويسراً، يمكن أن يتنازل عن صدقه في أخطر مسألة في حياة المسلمين، وهو ذاهب بعد لحظات أو ساعات أو أيام للقاء الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، يتنازل عن صدقه عند آخر عهده بالدنيا وأوّل عهده بالآخرة، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر.

وإنا لنلمح الحس الشوري يغطي سائر الخطوات التي قطعها الرجل من أجل اختيار مرشحه للخلافة، وهو يطلب من كبار الصحابة أن يتشاوروا في الأمر مطلقاً إيمانهم من بيعته، راداً عليهم أمرهم، وهم يخوّلونه حق الاختيار، وهو يدرس وينقب واضعاً أشد المقاييس عدلاً وموضوعية في المرشح الذي سيتولى الخلافة، وهو اليعرض اختياره على جمهور الأمة وكبار صحابته ويتلقى منهم الموافقة، ثم وهو يؤكد حرصه وخشيته وإحساسه بالمسؤولية خلال اختياره عمر بن الخطاب عارضاً تحفّظه إزاء ما يمكن أن يحدث في المستقبل مما هو في طيّات الغيب التي لا يعلمها إلا الله، منددا بصراحة بالغة بهذا الذي يمكن أن يحدث .. وأخيراً فإن الرجل الذي رشحه لا يمتّ إليه بقرابة ولا عصبية من قريب أو بعيد وفضلاً على هذا وذاك فإن عمر لم يكن بالرجل العادي الذي يكون أمر اختياره مسألة غير متوقعة بالنسبة للمسلمين، على العكس، فإن اختياره جاء مصداقاً لمتطلبات اللحظات الراهنة، وكأنه والتاريخ كانا على ميعاد، الأمر الذي يفسر لنا ترحيب المسلمين بمجيئه الذي كان متوقعاً، بل محسوباً!!.

كانت هناك -أيضاً- بيعتان خاصة وعامة، وكانت هناك خطب وكلمات هي أشبه بمؤشرات عمل عبر سني المسؤولية أسوة بما فعله الصدّيق.

في انتخاب عثمان ﷺ واصلت التجربة الانتخابية التزامها بالبعد الشوري، وازدادت نضجاً ونمواً من خلال التحديات الصعبة التي طرحها الموقف التاريخي.

---

(٧٣) عن تفاصيل انتخاب عمر بن الخطاب ﷺ ينظر الطبري، تاريخ ٤٢٨/٣-٤٣٣ وعماد الدين خليل، في التاريخ الإسلامي، فصول في المنهج والتحليل، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، بحث (حول تداول السلطة في العصر الراشدي).

لمّا طعن عمر بن الخطاب ﷺ طعنات عديدة بخنجر أبي لؤلؤة الفارسي، وأدرك المسلمون انه ميت لا محالة، طلبوا إليه أن يعهد بالخلافة لأحد أسوة بما فعله الصدّيق من قبله، وتجاوزا لكل ما من شأنه أن يلحق بوحدة المسلمين وحركتهم الجهادية الواسعة، الأذى والتفكك، أو السكون والتوقف. لكنه تردد في الأمر، وظل فترة من الوقت يتأرجح بين إحدى اثنتين: أن يختار هو بموافقة الصحابة، أو أن يترك المسلمين يختارون. وقد عبر عن موقفه هذا بعبارته" إن أستخلف فقد أستخلف من هو خير مني -يعني أبا بكر ﷺ- وإن أترك فقد ترك من هو خير مني -يعني الرسول ﷺ- ولن يضيع الله دينه."[٧٤]

وعندما عرض عليه أحدهم أن يرشح ابنه عبدالله الذي اشتهر بعلمه وتقواه، رفض وقال بغضب: "قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا!! لا إرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهلي. إن كانت خيراً فقد أصبنا منه، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل -أمام الله- عن أمر أمة محمد ﷺ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً، لا وزر ولا أجر، إني لسعيد."[٧٥]

ازدادت خشية المسلمين من أن يتوفى الخليفة قبل أن يستقرّ الاختيار على أحد يليه في الخلافة، فازدادوا إلحاحاً عليه، وحينذاك، وهو يعاني آلام الجراح القاتلة لمعت في ذهنه (صيغة) جديدة للاختيار، وسط بين الموقفين السابقين، تقوم على حصر الخلافة في واحد من أولئك الرجال الذي يمثلون طليعة الصحابة ورجالات الدعوة الرواد ممن توفى الرسول ﷺ وهو عنهم راض، وممن بقوا على قيد الحياة وكان عددهم –يومذاك- ستة هم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن وسعد ﷺ.

أعلمهم عمر ﷺ أنه بعد دراسته للمسألة لم يجد أمر الخلافة يعدو أحدهم بما أنهم ممثلو الأمة وقادتها وروادها، وطلب منهم أن يجتمعوا ويتشاوروا لاختيار واحد منهم، وألا يسمحوا للنقاش أن يطول ويتشعب لئلا يقود إلى الخلاف والشحناء، في وقت كانت الدولة الراشدة في أمس الحاجة فيه إلى اليد القديرة التي تعرف كيف تحمل المسؤولية، وتمضي بالأمانة خطوات أخرى على الطريق الطويل.

وتجاوزاً لهذه الاحتمالات وضع ابن الخطاب ﷺ برنامجاً زمنياً محدداً أمده ثلاثة أيام يتحتم عليهم خلالها أن يتفقوا على المرشح الجديد "ولا يأتين اليوم الرابع -قال الخليفة- إلا وعليكم أمير منكم." وطلب من صهيب أن يصلّي بالناس خلال هذه الفترة؛ لأن اختيار أي من الستة الشورى إماماً يعني ترجيحه في العملية الانتخابية. "ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له في الأمر" قالها الخليفة مرتين كيلا يتجاوز دوره حدود المراقبة فحسب. كما طلب من المقداد بن الأسود أن يشرف على المشاورات ريثما يتم الانتخاب. ومن أجل مزيد من الحيطة على وحدة الجماعة التي هي أثمن شيء، الوحدة التي تتجاوز كل ما هو فردي في حياة الأمة، طلب من المقداد أن يستخدم السيف إذا طال النقاش وتجاوز أمده المحدد وأصرت الأقلية على عدم

---

(٧٤) الطبري، تاريخ ٤/٢٢٨.

(٧٥) المصدر نفسه، ٤/٢٢٨.

الأخذ برأي الأكثرية وهو موقف لا يعدو حدود الحيطة والحذر، ولا يمكن أن يتجاوز ذلك إلى التنفيذ الفعلي لاستحالة وقوع ذلك الاحتمال البعيد.[٧٦]

بعد مشاورات متشعبة بين الرجال الخمسة، إذ كان طلحة غائباً في تجارة له إلى بلاد الشام، مشاورات تسلل من خلالها إخباريو عصر التدوين العباسي فنفثوا فيها من رواياتهم الموضوعة ما نفثوا، وصوّروا لنا الموقف التاريخي ذاك، كما لو كان تهالكاً بين الصحابة الكرام على السلطة واستماتة في سبيل مغانمها الموهومة التي ما لمسها أحد في تجربة أي من الخليفتين السابقين .. بعد مشاورات متشعبة عرض عليهم عبدالرحمن بن عوف رأيه: أن يتنازل عن حقه في الترشيح لمنصب الخلافة، وأن يخوّلوه، مقابل هذا، الحق في انتخاب أحدهم خليفة للمسلمين.

لم يعترض أحد .. كلهم وافق على العرض، وكان بمقدور أي منهم أن يعترض فيجد ابن عوف نفسه مرغماً على سحب مشروعه .. لا ريب أنهم أدركوا إخلاص الرجل ورغبته في الوصول إلى المطلوب قبل انقضاء المدى الزمني الذي حدده ابن الخطاب ﷺ.

ولقد تبين هذا الإخلاص من خلال الساعات الطويلة التي قضاها ابن عوف يستطلع آراء المسلمين في المدينة، صحابة وأناساً عاديين، رجالاً ونساء، ينهالون عليه أفواجاً، مما يدل على مدى وعيهم السياسي، أو يطرق هو عليهم الأبواب حرصاً منه على أن يأخذ آراء أكبر جماعة منهم. وفي فجر اليوم الأخير المحدد لإعلان النتيجة اجتمع ابن عوف برجال الشورى، وأرسل إلى من كان بالمدينة من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد الذين كانوا قد قدموا إلى الحجاز لأداء الحج، وأعلمهم ان غالبية الآراء قد اتجهت إلى استخلاف واحد من اثنين: عثمان أو علي (رضي الله عنهما). وكان على عبدالرحمن بن عوف -بعد ذلك- أن يعتمد مقياساً اجتهادياً للترجيح كي لا يبقى الأمر معلّقاً .. فكان أن طرح فكرة الالتزام بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، فضلاً على العمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام. أما عثمان فقد أعلن قبوله لهذا الالتزام وهو يرى بأم عينيه سيرة الشيخين وقد حفظت وحدة المسلمين وأدالت من الفرس والروم ونجحت نجاحاً باهراً في تنفيذ برامج الإسلام على سائر الجبهات .. وأما علي فقد قاده اجتهاده إلى القول بالعمل وفق جهده وطاقته.[٧٧]

وهو ﷺ ينظر فيرى أنه يقف، في رفقته للرسول ﷺ وقدراته الفقهية، على قدم المساواة مع الشيخين (رضي الله عنهما)، وأن تطور الظروف التاريخية وتغاير التجربة البيئية قد تلجئه إلى تقديم حلول أخرى للمشاكل المستجدة.

اجتهد كل من الرجلين وقاده اجتهاده إلى موقف .. ووجد عبدالرحمن بن عوف بعد تلك الجهود المكثفة التي بذلها، وبعد ان آذنت شمس اليوم الرابع بالشروق، أن يحسم

---

(٧٦) المصدر نفسه، ٤/٢٣٨.

(٧٧) ينظر كتاب فضائل الصحابة من صحيح البخاري، المطبعة السلطانية، القسطنطينية، ١٣١٥هـ، ٤/٢٠٤-٢٠٧، وابن تيمية، منهاج السنة ٣/١٦٨-١٧٢، ٢٣٣-٢٣٤، وعماد الدين خليل، في التاريخ الإسلامي، بحث (تداول السلطة).

الأمر، فأشار بأن اختياره قد وقع على عثمان، وتقدم إليه قائلاً: أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده، ومن ثم تقدم المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد ليبايعوا خليفتهم الجديد البيعة الخاصة التي أعقبتها -كما هو متبع- بيعة عامة.(٧٨)

حتى إذا ما وصلنا خلافة علي ﷺ وجدنا أنفسنا أمام صيغة انتخابية (مفتوحة) تعود بنا ثانية إلى تلك التي تم بموجبها انتخاب الخليفة الأول ﷺ، مع ملاحظة التغير الواسع الذي طرأ على الظروف التاريخية، خاصة بعد مقتل عثمان ﷺ وفقدان النظام في المدينة طيلة الأيام الخمسة التي أعقبت ذلك .. وسيطرة الثائرين على مقدرات الأمور في المدينة، وتهرّب المرشحين وعلى رأسهم علي نفسه ﷺ من تدافع الناس نحوهم متوسلين إليهم قبول المهمة الصعبة .. حتى لقد كان علي ﷺ يلوذ ببساتين المدينة كما حاول إقناع طلحة بن عبيدالله بتولي الخلافة لكن طلحة ﷺ رفض معتقداً أن علياً ﷺ أجدر بها منه.

وأخيراً لم يجد علي ﷺ إزاء إلحاح المسلمين بدّاً من قبول المهمة كي لا تتسع دائرة الفتنة وتتعرض الأمة لمزيد من المخاطر والانشقاقات .. وعندما أقبل عليه الناس يبايعونه أعلمهم أن البيعة يجب أن تبدأ أولاً بطلائع المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار، ثم يليهم سائر الناس. وقد أعرب ﷺ عن رؤيته الشورية العميقة عندما خاطب منتخبيه قائلاً: "أيها الناس إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم، فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فلا أجد على أحد".(٧٩)

"إن شئتم" -وهكذا يتبدى لنا ونحن نتحرك باتجاه آخر رجل في عصر الراشدين احتفاظ التجربة الانتخابية بنفسها الشوري واستمدادها من مشيئة الجماهير.

بويع علي ﷺ البيعة الخاصة من قبل كبار الصحابة مهاجرين وأنصاراً، وما لبثت أن ثنيت بالبيعة العامة أسوة بما شهدته انتخابات الراشدين من قبله.

في آخر أيامه، عندما طعن تلك الطعنات الغادرة على يد عبدالرحمن بن ملجم المرادي الخارجي، وأشرف على الموت، توسل إليه حشد من أصحابه أن يعهد بالخلافة من بعده لأحد أبنائه الذين امتازوا -كأبيهم ﷺ- بالتزامهم الدقيق وفقههم العميق وشخصياتهم المحببة لدى المسلمين - فكان جوابه: "لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر"(٨٠). وفي رواية ثانية تأكيد آخر على عمق الحس الشوري لدى علي ﷺ قال: "بل أترككم كما تركككم رسول الله ﷺ، فلعل الله يجمعكم -بعدي- على خيركم، كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم يعني أبا بكر الصدّيق ﷺ.(٨١)

---

(٧٨) الطبري، تاريخ ٤/٤٣٥.

(٧٩) المصدر نفسه ٥/١٤٦، ١٤٧.

(٨٠) الطبري، تاريخ ٥/١٤٦، ١٤٧.

(٨١) ابن كثير، البداية والنهاية ٥/٢٥٠، ٢٥١، ٧/٣٢٣، أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية، الدار السعودية، جدة، ١٣٨٧هـ، هامش ١، ص١٩٨، ١٩٩.

ونحن نمضي إلى نهاية عرضنا السريع هذا لا بدّ أن نتذكر الدور الكبير الذي مارسه كتاب الله، وتعاليم رسوله ﷺ وممارساته، في تكوين هذا الوعي السياسي الذي أعان طلائع المسلمين: مهاجرين وأنصارا، على مجابهة تحديات السلطة وطرائق الحكم وفي غرس الحس الشوري في عقولهم ونفوسهم.

لقد أكد كتاب الله أكثر من مرة فكرة الشورى كأسلوب للتوصل إلى القرارات الخطيرة التي تهم الجماعة المسلمة، ومارسها الرسول عليه السلام خلال قيادته للدولة الإسلامية الناشئة أكثر من عشر سنين، في عديد من المواقف الحاسمة .. وها هم أصحابه وتلاميذه يواصلون الطريق .. لم يعهد أحد منهم بالمهمة لابن أو أخ أو قريب، ولم يخطر بباله قط أن يقف بمواجهة إجماع المسلمين ومشيئتهم.

كانت الأشكال والصيغ الإجرائية تتغير وتتطور وتأخذ أوضاعاً جديدة، وفقاً لمقتضيات الظروف التاريخية عامة، والبيئية خاصة، وأما الروح الشورية فقد بقيت محافظة على عمقها وأصالتها وديمومتها.

إن هذا التغير في الشكل والوحدة في الجوهر لهو سمة أساسية من سمات نظام الإسلام وشرائعه، بل هو ميزة عميقة من ميزات فلسفته تجاه الكون والحياة والإنسان، ومن خلال هذه الثنائية الديناميكية المرنة، كان بمقدور الإسلام دوماً أن يعالج شؤون الحياة المختلفة، وأن يغطي متطلباتها على سائر الجبهات.

لقد كان نظام الحكم في العصر الراشدي، بأطره العامة ومفرداته الإدارية، بروحه ونبضه وتوجهاته، حكماً إسلامياً استجاب بنجاح لمقاصد الشريعة، وتمكّن من تنزيلها على واقع الحياة، وعرف كيف يوظف الحلقات الإدارية للإعانة على هذا الهدف الأساس.

ولقد كان بمقدور المؤرخين والباحثين، في كل عصر، أن يجدوا هذا الملمح العميق في نسيج الحكم الراشدي، ليس فقط من خلال الإجراءات الإدارية (التنفيذية) وإنما أيضاً من خلال سلوكيات مسؤولي الدولة، بدءاً من الخلفاء أنفسهم وانتهاء بأصغر كاتب أو موظف، تلك السلوكيات التي أثارت الدهشة ولا تزال بتألقها وقدرتها الفريدة على تنفيذ مطالب العقيدة ومقاصد الشريعة، بما يؤكد قدرة هذا الدين على التحقق في واقع الحياة والتعبير عن نفسه على مستوى الفعل والممارسة.

علاقة الدولة بالأمة في ضوء الهوية الإسلامية

د. محمد عياش الكبيسي

أولا -الهوية:

الهوية في اللغة مصنوعة من الضمير (هُوَ) وهو ضمير الغائب، وقد اختير هذا الضمير باعتباره الضمير الذي يحتاج إلى تحديد، فضمير المتكلم (أنا) محدد بالذات، وضمير المخاطب (أنت) محدد بالخطاب والمشاهدة، أما(هو) فيحتاج إلى التعريف بالخبر أو الوصف، وقد شاع استعماله في التعريفات كأن تقول: المنطق هو كذا، والنحو هو كذا، والماء هو كذا، والمثلث هو كذا، والإنسان هو كذا ..الخ وعليه فإن الهوية في مفهومها اللغوي هي (التعريف) ، والتعريف يتطلب ذكر ميزات المعرَّف وخصائصه، والهوية كأنها واقعة في جواب :من هو؟ فالهوية تعريف للشخص أو الشيء ببيان خصائصه ومميزاته.

في الاصطلاح تعرف الهوية بتعريفات كثيرة أشهرها: "الوعي بالذات وخصائصها الثقافية والاجتماعية" وهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن المعنى اللغوي، لكن مباحث الهوية بشكل عام لا تتناول الخصائص بصفة مجردة وإنما تضيف إليها معنى الانتماء والولاء، فالخصائص الجسدية مثلا لا تشكل شيئا في مفهوم الهوية لبعدها عن معنى الانتماء والولاء، والخصائص الأخرى قد تشكل هوية لمجتمع ولا تشكل هوية لمجتمع آخر وذلك بحسب أولويات كل مجتمع وفق ثقافته ونظرته للكون والحياة.

ثانيا -الأمة:

وهي في اللغة الجماعة، فكل مجموعة من الناس مجتمعة على أمر ما أو في مكان ما فهي أمة (وجد عليه أمة من الناس يسقون)القصص٢٣، بل القران يصف الكائنات الحية الأخرى فيقول(أمم أمثالكم)الأنعام٣٨.

أما في الاصطلاح فالأمة هي: الجماعة من الناس المتشكلة على أساس الهوية الواحدة، فالأمة الإسلامية على هذا: هي المجموعة البشرية التي يجمعها الانتماء للإسلام والاعتزاز بهويته الجامعة.

ثالثا- الدولة:

وهي: إقليم سياسي تعيش فيه مجموعة بشرية تخضع لسلطة ونظام، وهنا تم إضافة عنصرين أساسين :الأرض والسلطة، وهما اللذان يميزان مفهوم الدولة عن مفهوم الأمة.

علاقة الدولة بالأمة

من حيث المبدأ يمكن توزيع هذه العلاقة وفق الاحتمالات المنطقية الآتية:

أولا: تطابق الأمة والدولة، وهي حالة مثالية يصعب تطبيقها على الأرض، إذ صورتها انحياز أمة من الأمم في إقليم خاص بهم بسلطة واحدة، ولا أعلم نموذجا واقعيا لهذه الصورة.
ثانيا: وجود الأمة بلا دولة: وهي حالة متكررة في كل أمة لا تملك القدرة على بناء الدولة، كحالة المسلمين قبل الهجرة المباركة وحالة اليهود قبل وعد بلفور وتأسيس الكيان الصهيوني.
ثالثا: وجود دولة بلا أمة، وهذه الحالة يصعب تحقيقها على الأرض، فكل مجتمع بشري قادر على تكوين الدولة لا بد أنه منتم لدين وثقافة ولغة، لكن قد تشعر الدولة أن هذا الانتماء يهدد وحدتها الوطنية فتبدأ بالتخفيف منه تربويا وإعلاميا واستبداله بمعالم جديدة ترسخ الانتماء الوطني، بحيث يكون الوطن هو الهوية وهو آصرة الولاء، وتبدأ الانتماءات الأخرى تضعف وتتخذ الطابع الشكلي أكثر منها عناصر ثابتة في هوية الأمة، ومن معالم هذا التوجه صناعة الهوية الوطنية برموز جامعة مثل :العلم والنشيد الوطني ومنتخب كرة القدم ..الخ والبحث عن الأبطال التاريخيين وتسويقهم بالعنوان الجديد، كما حصل في العراق حيث تم استدعاء الرموز الإسلامية كسعد والقعقاع كرموز قومية عربية أو وطنية عراقية.
رابعا: وجود تداخل بين المفهومين، فيلتقيان في مساحة ويختلفان في مساحات أخرى، وهو ما يسميه المناطقة بالعموم والخصوص الوجهي، فالأمة أعم من الدولة لأنها تضم الدولة وتضم مجتمعات أخرى خارج هذه الدولة، والدولة تكون أعم من الدولة لأنها تضم جزءا من الأمة وتضم آخرين لا ينتسبون لهوية هذه الأمة كأقليات أو مكونات، وهذه الحالة هي الأكثر شيوعا، فدولة الإسلام في المدينة كانت تضم المسلمين وتضم القبائل اليهودية وبعض مشركي العرب، كما كان هناك مسلمون يعيشون خارج سلطة هذه الدولة كالجالية المهاجرة إلى الحبشة، وأبي جندل وأبي بصير ونحوهما من المستضعفين في مكة.

صورة الدولة الإسلامية في ضوء هذه العلاقة

تأسست الدولة الإسلامية الأولى على يد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد هجرته المباركة إلى المدينة، ولم يشأ الرسول أن يغير من تركيبتها الاجتماعية، فأكد وحدة المسلمين كأمة متميزة في هذه الدولة، واعترف بالمكونات الأخرى من يهود وغيرهم وضمن لهم حقوقهم والحفاظ على هويتهم وخصوصيتهم في ظل الدولة الجديدة بسلطتها ونظامها، وهو ليس حلفا بين الرسول واليهود كما يتوهم البعض، بل هي دولة واحدة تضمن التعايش السلمي بين مكوناتها المختلفة، ولذلك يمكن القول إن دولة الإسلام الأولى كانت (دولة المكونات).

بعد توسيع الدولة لم تتغير الصورة من حيث المبدأ وإن تغيرت نسب هذه المكونات لصالح الأمة الإسلامية لأن عقد الذمة لا زال معمولا به إلى آخر يوم قبل سقوط الخلافة، وعقد الذمة هذا هو ترسيخ لنظام المكونات الذي أنشأه الرسول-عليه الصلاة والسلام –في المدينة.

عقد الذمة ودولة المكونات

إن عقد الذمة هو صورة من صور التوفيق بين الانتماء لهوية الأمة وبين الانتماء والخضوع لسلطان الدولة، ولولا هذا العقد لذابت المكونات الأصغر في ثقافة المكون الأكبر، وهو ما يشكل اليوم مبعث قلق لدى الكثير من الأقليات التي تتعرض للذوبان التدريجي في ظل الأنظمة الحديثة (دولة المواطنة) خاصة في حالة وجود قانون يعتمد صوت الأغلبية بشكل مطلق، حيث ستختفي المشاركة الفعلية للأقليات الدينية والعرقية في أي قرار ولو كان يمس خصوصيتهم الثقافية والمجتمعية.

لقد رضيت أغلب المجتمعات البشرية اليوم بالنهج العلماني ليس لأنه حق بحد ذاته، بل لأنه يضعف من الانتماءات (الفرعية) لصالح انتماء واحد وهو الانتماء الوطني، وهذه التجربة نجحت في هذا المجال لكنها أضرت بمجالات أخرى، وأهمها أنها جعلت المصلحة المادية هي محور الاهتمام البشري، فطغت النزعة المادية الجافة، وأصبح الناس كأنهم أدوات إنتاج في مصنع كبير تملكه الدولة أو أصحاب رؤوس الأموال، وفقدت الحيات الإنسانية رونقها وجمالها، وعمقها المعرفي والروحي الذي يميزها عن اهتمامات الحيوان.

إن الصورة التي رسمها الإسلام هي أن يكون النظام العام في الدولة منسجما مع عقيدة الأمة وثقافتها ثم بعد هذا ينظر إلى المكونات الأخرى فيعترف بخصوصيتهم ويمنحهم ما يحافظون به على هويتهم ووجودهم وكامل حقوقهم.

المشروع الإسلامي المعاصر والخيارات المتاحة

إن سقوط الخلافة لم يكن نهاية نظام سياسي فحسب بل كان نقطة تحول مفصلية شملت التصورات الكبرى للهوية والأمة والدولة، فنشأت الدولة الحديثة بتصورات مختلفة تماما عن كل ذلك التاريخ الذي كانت تقوده الخلافة، فلم يعد الإسلام هو مصدر التشريع، ولم يعد للأمة مفهوم عملي سوى بعض الشعائر والأدبيات المشتركة، وأصبح التمايز في الهوية نوعا من الطائفية أو العنصرية، ولم يعد العمل للإسلام مهمة المسلمين جميعا بل هناك فئة تصدت لهذا الأمر أطلق عليها اسم (الإسلاميين) تمييزا لهم عن المسلمين الآخرين! وأمام هذا الانقلاب تعددت سبل الإسلاميين في العمل للإسلام ومحاولات استعادة الهوية أو التخفيف من آثار هذا الانقلاب الكبير، ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات بالآتي:

١-محاولة التمايز الفكري والسياسي تحت مظلة (الإسلام) في مقابل مظلة (الجاهلية) ونشأت مجادلات عميقة في معنى هذا التمايز ومبرراته ونتائجه، خاصة أن مظلة الجاهلية لم تعد تضم الكافرين فقط بل حتى المسلمين الذين يخضعون بإرادتهم لأنظمة وقوانين غير إسلامية، ورغم قوة الاستدلالات والمحاججات لهذا التوجه إلا أنه من الناحية العملية أدى في الكثير من الأحيان إلى عزل الإسلاميين شعبيا ومجتمعيا ومحاربتهم رسميا وحكوميا.

٢-إعلان الجهاد الشامل واستخدام العنف المسلح لمحاربة كل الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله وكل من يدعمها داخليا وخارجيا، وقد كان من نتائج هذا التوجه دخول المنطقة فيما يمكن تسميته بفوضى الدم، حيث أن هذا التوجه لا يملك مشروعا

متكاملا وليس له القدرة على حسم الصراع لصالحه، وأصبح جزءا من المشكلة وليس جزءا من الحل، ولا زالت بعض البلاد الإسلامية تعاني من التخلف وعدم الاستقرار والانقسام بسبب هذه الفوضى.

٣-العمل للإسلام من خلال الدساتير والقوانين الحالية، والتنافس مع الفعاليات السياسية الأخرى على تقديم الحلول العملية لمشاكل المجتمع، ويمكن القول أن تركيا وماليزيا هما الدولتان الأقرب لهذا التوجه، ولكنها تجربة تحتاج قدرا كبيرا من الصبر والحلم على استفزازات الآخرين، وترك المجادلات الأيديولوجية والتركيز على تقديم الخدمات والحلول المناسبة مما يتطلب إعدادا خاصا للكوادر والعاملين.

إن التجربة الثالثة هي الأنجح من الناحية العملية، لكنها تفتقر إلى التأصيل الشرعي في مواجهة أصحاب التوجهات الأخرى وهم يستندون إلى محاججات دينية عميقة ومفصلة ومدعومة بالعشرات من النصوص والفتاوى، وفي تقديري أن هذه التجربة من الممكن أن تسد هذا النقص بسهولة فهناك العشرات من النصوص الدينية والاستنباطات التأصيلية تدعم هذا التوجه، إلا أن هذا النقص قد يكون له ما يبرره، فمن ناحية أن مجتمعاتهم لا تهتم كثيرا بمثل هذه الأمور فيكفي أنها ترى الحلول واقعا ملموسا أمامها وهي بفطرتها تدرك مدى التواشج بين النصوص الدينية وبين تحقيق المصالح العامة للناس، كما أن الدخول في مثل هذه المحاججات قد يعطي انطباعا مثيرا للشك والقلق في حقيقة النوايا ومدى التزامهم بقواعد العمل السياسي ومقتضيات العقد بينهم وبين شعوبهم.

الدولة الاسلامية بين الفقه وضغوط الواقع

د. جاسم السلطان

شغلت فكرة الدولة الاسلامية العقل المسلم منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى اليوم..

الدولة لا زالت هي عقدة الموقف بين الاسلاميين ومجتمعاتهم والعالم..

الدولة الدينية بالتعريف هي هوية وهيمنة..

تمركز الامامة في الفكر السني والشيعي.. وتكييف ابن تيمية لموقع الدولة في الفكرة السنية

احتياجات قيام الدول في هذا العصر:

حاجة وجود وقصد بها مقومات ايجاد كيان باسم دولة....وتحتاج لتوفر شرطان اولهما الوجود على الارض والثاني القبول الدولي

حاجة استقرار ويقصد بها انتفاء النزاع حول مشروعية الحكم ...وتحتاج لتوفر شرطان اولهما عقد تراضي اجتماعي وثانيهما توفير ضروريات العيش للمجتمع

حاجة نمو ويقصد بها تطور الاقتصاد بما يتناسب مع النمو السكاني ...وتحتاج لتوفر شرطان اولهما تصور وخطة شاملة للمجتمع وثانيهما توفر متطلبات الخطة المالية

فرضيات تحتاج لمراجعة:

تحت اصرار الاسلاميين على الاستحواذ على الدولة ثلاث فرضيات:

فهم الاسلاميين للدين مقبول او متفق عليه بين طوائف المسلمين في المجتمع

غير المسلمين في المجتمع سيقبلون بهذا التعاقد

بالامكان قسر الاخرين على القبول في حال الخلاف

توقف فكر الدولة في الفضاء الاسلامي:

الماوردي والجويني والقاضي ابو يوسف وابن تيمية ..اللخ

رحلة الفكر الغربي مع فكرة الدولة وتحوله لفضاء كوني:

ذكرى اليونان والرومان...سؤال العلم في القرن الثالث عشر الميلادي...من كوبرنكس الى نيوتن..حراك الفكر السياسي والاجتماعي فلسفيا من لوك لمونتيسكيو لسبينوزا لفولتير..

تحول ضخم من دولة المساكنة لدولة المواطنة:

تغير في الوعي الانساني بالذات المختلفة وبالعدل وبالمساواة غير مسبوق:

المائدة المستطيلة

المائدة المستديرة

ادوات الفقيه والعصر من الفأس إلى المنشار الكهربائي:

المهمة شبه المستحيلة

الخروج من النفق:

الايمان بان وظيفة الدولة حماية حق التدين للجميع

تحديد الحدود الدنيا لمطالب الدين من الدولة

تسكين هذه المطالب في التعاقد الاجتماعي الشامل الذي يراعي كل المكنات.

مبدأ التوازن في أركان الحكم القضائي

د. عثمان سعيد العاني

من خلال النظر إلى العنوان وما تضمنه من ألفاظ لها معانيها وهي : (مبدأ، التوازن، في ، الحكم، القضائي) لا بد من بيان جزئيات العنوان وما يشتمل عليه من ألفاظ:
مبدأ: (بدأ) الْبَاءُ وَالدَّالُ وَالْهَمْزَةُ بدأت بالشئ بدءا: ابتدأت به، وبدأت الشئ: فعلته ابتداء. وبدأ الله الخلق وأبدأهم، بمعنىً. وتقول: فعل ذلك عَوْداً وبَدْءاً، وفي عوده وبدئه، وفي عودته وبَدْأته. ويقال: رَجَعَ عَوْدُه على بَدْئه، إذا رجع في الطريق الذي جاء منه. وفلان ما يُبْدِئ وما يعيد، أي ما يتكلم ببادئة ولا عائدة [٨٢]، و(البدء) أول كل شَيْء يُقَال فعلته بدءا وبدء بَدْء (ج) أبداء وبدوء[٨٣].
و(بَدَأَ) مِن افْتِتَاحِ الشَّيْءِ، وبَدَأَ الشيءَ يبدَأُ أي يَفْعَلُهُ قبل غيره، واللهُ بَدَأَ الخَلْقَ وأَبدَأَ واحدٌ، يُقَالُ: بَدَأْتُ بِالْأَمْرِ وَابْتَدَأْتُ، مِنَ الِابْتِدَاءِ. وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُبْدِئُ وَالْبَادِئُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [البروج: ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى: {كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت: ٢٠] . وَيُقَالُ: لِلْأَمْرِ الْعَجَبِ بَدِيٌّ، كَأَنَّهُ مِنْ عَجَبِهِ يُبْدَأُ بِهِ[٨٤].
ولهذا وضعنا كلمة (مبدأ) في بداية العنوان لدلالتها على أن هناك قضايا تسبق حكم القضاء، يجب أن تتوفر في نظامه تسبق النطق بالحكم.
التوازن: من (وَزَنَ) الْوَاوُ وَالزَّاءُ وَالنُّونُ: بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى تَعْدِيلٍ وَاسْتِقَامَةٍ: وَوَزَنْتُ الشَّيْءَ وَزْنًا. وَالزِّنَةُ قَدْرُ وَزْنِ الشَّيْءِ؛ وَالْأَصْلُ وَزْنَةٌ. وَيُقَالُ: قَامَ مِيزَانُ النَّهَارِ، إِذَا انْتَصَفَ النَّهَارُ. وَهَذَا يُوَازِنُ ذَلِكَ، أَيْ هُوَ مُحَاذِيهِ. وَوَزِينُ الرَّأْيِ: مُعْتَدِلُهُ. وَهُوَ رَاجِحُ الْوَزْنِ، إِذَا نَسَبُوهُ إِلَى رَجَاحَةِ الرَّأْيِ وَشِدَّةِ الْعَقْلِ[٨٥].
والرجاحة تأتي بعد الوزن فتكون من بابا الحكم على الشيء، وقد جاء: أَن الرجاحة أَصْلهَا الْميل وَمِنْهَا رجحت كفة الْمِيزَان إِذا مَالَتْ لثقل مَا فِيهَا وَمِنْهَا زن وأرجح يُوصف الرجل بالرجاحة على وَجه التَّشْبِيه كَأَنَّهُ وزن مَعَ غَيره فَصَارَ أثقل مِنْهُ[٨٦].

---

(٨٢) الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، الجزء١، ص٣٥، ص٢٤ ج١.

(٨٣) مجموعة من المؤلفين: (إبراهيم مصطفى ، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ص٢٤.

(٨٤) الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، الجزء٨، ص٨٣؛ ابن فارس: : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)ا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر: عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، الجزء١، ص٢١٢.

(٨٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء٦، ص١٠٧.

(٨٦) ينظر: أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الفروق اللغوية ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ص٢٠٣.

ولذلك جاء قوله تعالى: (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام(٨٧).

في : حرف جر تفيد الظرفية(٨٨).

(رَكَنَ) الرَّاءُ وَالْكَافُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ. فَرُكْنُ الشَّيْءِ: جَانِبُهُ الْأَقْوَى. وَهُوَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، أَيْ عِزٍّ وَمَنْعَةٍ. وَمِنَ الْبَابِ رَكَنْتُ إِلَيْهِ أَرْكَنُ. وَهِيَ كَلِمَةٌ نَادِرَةٌ عَلَى فَعَلْتُ أَفْعَلُ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ حَلْقٍ. وَفُلَانٌ رَكِينٌ، أَيْ وَقُورٌ ثَابِتٌ(٨٩).

الحُكْمُ، بالضم: القَضاءُ، جمعه: أَحْكامٌ، وقد حَكَمَ عليه بالأمْرِ حُكْماً وحُكومَةً، وبَيْنَهُم كذلك. والحاكِمُ: مُنَفِّذُ الحُكْمِ، كالحَكَمِ محرَّكَةً، وجمعه : حُكَّامٌ. وحاكَمَهُ إلى الحاكِمِ: دعَاهُ وخاصمَهُ. وحَكَّمَهُ في الأمْرِ تَحْكيماً: أمَرَهُ أن يَحْكُمَ فاحْتَكَمَ. وتَحَكَّمَ: جازَ فيه حُكْمُه، والاسْمُ: الأُحْكُومَةُ والحُكومَةُ(٩٠).

الحكم: إسناد أمر إلى آخر إيجابًا أو سلبًا، فخرج بهذا ما ليس بحكم، كالنسبة التقييدية(٩١).

---

(٨٧) ينظر: الآلوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، وح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ، الجزء١٤، ص١٠١، عند تفسيره لسورة الرحمن .

(٨٨)لـ"في" سنة معان:

١- الظرفية؛ حقيقة مكانية أو زمانية؛ نحو: {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ} الروم، الآية: ٣، ونحو: {فِي بِضْعِ سِنِينَ} الروم، الآية: ٤.

٢- السببية؛ نحو: {لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} النور، الآية: ١٤.

٣- المصاحبة؛ نحو: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ}لأعراف، الآية: ٣٨.

٤- الاستعلاء؛ نحو: {لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}طه، الآية: ٧١.

٥- المقايسة؛ نحو: {فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} التوبة، الآية: ٣٨.

٦- وبمعنى الباء؛ قول الشاعر: بصيرون في طعن الأباهر والكلى ويركب يوم الروع منا فوارس (بحر الطويل)

ينظر: ابن هشام: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين(المتوفى: ٧٦١هـ)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ، الجزء٣، ص٣٤-٣٦.

وينظر: علاء الدين البخاري الحنفي: عبد العزيز بن أحمد بن محمد، (المتوفى: ٧٣٠هـ)، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي ، دار الكتاب الإسلامي ، بدون طبعة وبدون تاريخ ، الجزء٢، ص١٨١-١٨٣.

(٨٩) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، الجزء٢، ص٤٣٠ ؛ الفيروزآبادى: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ،الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ،الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص١٢٠١.

(٩٠) الفيروزآبادى: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص١٠٩٥.

(٩١) الجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف (المتوفى: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، ص٩٢.

القَضاءُ: ويُقْصَرُ: الحُكْمُ. قَضَى عليه يَقْضِي قَضْياً وقَضاءً وقَضِيَّةً، وهي الاسمُ أيضاً، والصُّنْع، والحَتْمُ، والبيانُ؛ ورجلٌ قَضِيٌّ: سَرِيعُ القضاءِ، يكونُ في الدينِ والحُكُومَةِ[٩٢].

والقضاء: لغةً الحكم، وفي الاصطلاح عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد، وفي اصطلاح الفقهاء: القضاء: تسليم، مثل الواجب بالسبب[٩٣].

وقد جاء عن قاضي البصرة إياس البصري[٩٤] حينما سأله رجل أن يعلمه القضاء فأجبه إياس (إن القضاء لا يتعلم، إنما القضاء فهم، إن القضاء فهم، ولكن لو قلت: علمني من العلم.)[٩٥]، والفقه: هو عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه [٩٦]، فعلم القضاء هو أخص من العلم بفقهه[٩٧].

ولهذا كان العنوان له دلالته والتي تحدد الجوانب المراد دراستها، من حيث كون فحواها هو حاصل التدرج في مفهومها اللفظي للوصول إلى المعنى الإجمالي المطلوب، أي بمعنى أن الترتيب في الكلمات هو مقصود لذاته، فلا بد لأي فقيه أن ينظر إلى ما يبدأ به فتواه أولا، ثم يزن مخرجاته المفهوم من منطوق المسائل حتى يصل إلى الترجيح ثانيا، ثم يقرر فتواه بصيغتها الحاكم على المسألة أخيرا، وفتواه هي غير ملزمة لمن يستفتيه.

وكذلك لا بد لأي قاضٍ أن ينظر إلى ما يبدأ به تحريه للدعوى، ثم يزن مخرجاته المفهوم من منطوق المسائل والدلائل حتى يصل إلى ترجيح الحكم، ثم يقرر حكمه على الدعوى، وحكمه قضاء ملزم يجب العمل به.

وربما لسائل أن يسال ويقول: أن الميزان يتطلب الرجحان لأحد كفتيه، والتوازن هو المساواة لطرفيه، فيكيف الجمع بين المعنيين؟

---

(٩٢) الفيروزآبادى، القاموس المحيط، ص ١٣٢٥.

(٩٣) الجرجاني، كتاب التعريفات، ت ص ١٧٧.

(٩٤) إياس بن معاوية هو إياس بن معاوية بن قرة المزني أبو وائلة البصري القاضي. رْوِي عَنْ: أَبِيْهِ، وَأَنَسٍ، وَابْنِ المُسَيِّبِ، وَسَعِيْدِ بنِ جُبَيْرٍ. وَعَنْهُ: خَالِدٌ الحَذَّاءُ، وَشُعْبَةُ، وَحَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ، وَمُعَاوِيَةُ بنُ عَبْدِ الكَرِيْمِ الضَّائِعُ ، وَغَيْرُهُم. وَكَانَ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الذَّكَاءِ، وَالدَّهَاءِ، وَالسُّؤْدُدِ، وَالعَقْلِ. قَلَّمَا رُوِيَ عَنْهُ. وَقَدْ وَثَّقَهُ: ابْنُ مَعِيْنٍ، لَهُ شَيْءٌ فِي مُقَدِّمَةِ (صَحِيْحِ مُسْلِمٍ) ، مات سنة ١٢١هـ. ينظر: الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (المتوفى : ٧٤٨هـ) ، سير أعلام النبلاء، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، الجزء٥، ص١٥٥.

(٩٥) أبو الحجاج المزي: جمال الدين ابن الزكي أبي محمد يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ، القضاعي الكلبي (المتوفى: ٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠ ، الجزء ٣، ص ٤٣٥.

(٩٦) الجرجاني، التعريفات، ص١٦٨.

(٩٧) وهو قول ابن عرفة، ينظر: ابن الأزرق: أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود الأصبحي الغرناطي المالقي الوادي آش (٨٩٦هـ) ، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق: علي سامي النشار، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، دار السلام، القاهرة – مصر،الجزء١، ص٢٢٥.

والجواب: أن الحكم الصادر في مسألة قضائية، هو فيه خير لكلا الطرفين من جهة أن إرجاع الحق لصاحبه فيه مصلحة لصاحب الحق من جهة، وكذلك إبراء ذمة من كان في ذمته هذا الحق فيه مصلحة له أيضا من جهة أخرى، لما يترب عليه من خير الدنيا والآخرة.

وقد ورد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، بِقَوْلِهِ: فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا " [٩٨]، وهو في حق طرفي الخصومة لقوله عليه الصلاة والسلام "فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا" وفي ذلك دلالة أن القضاء فيه مصلحة دنيوية وأخروية.

أهمية الموضوع:

أهمية الموضوع تكمن في إدراك أن الحكم القضائي القائم على نظرية الحق ومحاولة الوصول إليه وخدمته هو غاية ما يهدف إليه أي نظام قامت عليه الدول، لذا إذا أردنا أن نفهم شكل الدولة ونظامها وطبيعتها واركنها يجب النظر إلى مخرجات هذه النظام من حيث تحديد مصادر التشريع لتحدد آليات الحكم في الدولة وطرق تنفيذ هذا الحكم فيها، ومن خلال رصدنا لشكل الحكم يمكن أن نحدد نقط الفرق الرئيسة بين الأنظمة القضائية، فإذا فرقنا بين نظام قضائي وأخر سنصل إلى تعين شكل الحكم في هذه الدولة ومدى قدرتها على تطبيق نظرية تحقيق الحق فيها.

وقبل الخوض في هذا الموضوع وتعقيداته، يجب تقعيد مفهوم الدولة ونظام الحكم في الإسلام، عن طريق الجواب على بعض المفاهيم المترتبة، والتي تسبق تقنين فقه الدولة ونظمها الحكمية، وكما يأتي:

الذين يكتبون ويقننون للنظم السياسية يتحدثون عن شكلين فقط من أشكال الدولة هما: الدولة الدينية (الثيوقراطية)[٩٩] والدولة (بمفهومها الديمقراطية)[١٠٠] ، فهل نظام الحكم في الإسلام هو ديمقراطي أم ديني أم هو نظام مستقل بذاته؟ والجواب عن ذلك: يكمن في الخروج من هذين النظريتين الخاصتين والتي تحدد لنا ثنائية تصور شكل

---

(٩٨) البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري ،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ مع الكتاب: شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق ، الجزء٣، ص١٨٠. ورواه أيضا: الإمام مالك (المتوفى: ١٧٩هـ) في الموطأ، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي ،مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م ، الجزء ٤، ص١٠٤٠. و الإمام أحمد (المتوفى: ٢٤١هـ) في مسنده، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م ، الجزء ١٤، ص١٢٣. والحديث مشهور رواه جمعا من أهل السنن والمسانيد والمعاجم.

(٩٩) ينظر: لوبون: غستاف، روح السياسة، ترجمة عادل زعيتر، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، وقد نقد الدولة الدينية ص ٢٢٧ تحت عنوان الاضطهاد الديني.

(١٠٠) ينظر: منتسكيو، روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية، وقد انتقدها وجعلها تحت عنوان : فساد مبدأ الديمقراطية، ص٢٦٩.

الحكم في الدولة إلى نظرية ثالثة، هي نظرية الدولة الإسلامية بمفهومها الشوري، وعليه فلا نجعل من الأنموذجين السابقين حكما على الأنموذج الإسلامية في الحكم، بل كل النماذج الثالثة تحتكم إلى قيمة العدل وقيمة الحرية والحفاظ عليها..!!

نظرية الحكم في الإسلام هي تقوم على أساس الحاكم والمحكوم والحكم، فأينما وجد الحق كان الحكم لصاحبه، والحاكم هو يتمثل بمؤسسات الدولة وليس بشخص الخليفة أو رئيسها، فرئيسها هو الجهة المنفذة للحكم وليست هي الجهة الناطقة بالحكم فيما يخص حقوق الناس من أميره إلى مأمورهم... ومصدر النطق بالحكم هو السلطة القضائية.. وأما السلطة السياسية (تنفيذية في اغلب أدوارها) فهي تخص حفظ الأمن العام للدولة والأمن الخارجي لها، وهي مكلفة بتقدير مصلحتها بالإجمال توجب تحديد سلطة القاضي في بعض الأمور لوجود (مُلَاحَظَةٍ عَادِلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ)، وهو ما يسمى اليوم بمفهوم الأمن القومي أو الأمن الوطني[١٠١]، والأخطاء وقعت في مفهوم سياسة الدولة وإدارتها، وليس في منطوق الحكم ونظامه في الدولة، بدليل أن تغير السلطة التنفيذية لا يلغي طريقة الحكم في السلطة القضائي، وهذا ما نجده في تاريخنا، فمثلا: حُكم ملوك الطوائف في الأندلس والصراع على السلطة، وحكم المماليك في بلاد مصر والشام وحربهم فيما بينهم، والصراع على الحكم في الدولة العثمانية، فحينما يستقر الحكم لأحدهم فهو لا يغير شكل القضاء وعرف خصمه في قضاء الدولة إلا بما يرتب المنظومة الإدارية للدولة وبشكل محدود لأن مفهم القضاء والتعليم في النظام الإسلامي هو يتجاوز الحاكم ودائرة الحكم الضيقة إلى المجتمع المدني ودوره، ولهذا عرف الدولة في المنظومة السياسية هو عرف مدني من حيث التطبيق ولهذا كان (العرف) مصدرا من مصادر الفتوى في السلطة القضائية[١٠٢]، فمنظومة القضاء والتعليم تكاد تخضع للمؤسسات المدنية أكثر من خضوعه للسلطان إلا بقدر إقرار شكل القضاء دون التدخل في مادته، فلَيْسَ لِلْقَاضِيَ الْحُكْمُ بِالسِّيَاسَةِ وَلَا الْعَمَلُ بِهَا[١٠٣]، وهذا يفسر لنا مفهوم الدولة المدنية وقوتها الذاتية

---

(١٠١) ينظر: جاء في شرح الْمَادَّةُ (١٨٠١) ما يلي: (تَقْيِيدُ الْقَضَاءِ بِاسْتِثْنَاءِ بَعْضِ الْخُصُوصَاتِ: لَوْ صَدَرَ أَمْرٌ سُلْطَانِيٌّ بِأَنْ لَا تُسْمَعَ الدَّعْوَى الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْخُصُوصِ الْفُلَانِيِّ لِمُلَاحَظَةٍ عَادِلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ فَلَيْسَ لِلْقَاضِي أَنْ يَسْتَمِعَ تِلْكَ الدَّعْوَى وَيَحْكُمَ بِهَا فَإِذَا حَكَمَ فَلَا يَنْفُذُ حُكْمُهُ لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَاضِيَ لَمْ يَكُنْ قَاضِيًا فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ) ينظر: علي حيدر: درر الحكم شرح مجلة الأحكام، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الجزء٤، ص ٦٠٠ .

(١٠٢) ينظر: الْمَادَّةُ ((الْمَادَّةُ ٣٦) (الْعَادَةُ مُحَكَّمَةٌ) ، و (الْمَادَّةُ ٣٧) (اسْتِعْمَالُ النَّاسِ حُجَّةٌ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهَا) ، و(الْمَادَّةُ ٣٨) (الْمُمْتَنِعُ عَادَةً كَالْمُمْتَنِعِ حَقِيقَةً) ، و(الْمَادَّةُ ٣٩) (لَا يُنْكَرُ تَغَيُّرُ الْأَحْكَامِ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمَانِ)، و(الْمَادَّةُ ٤٠) (الْحَقِيقَةُ تُتْرَكُ بِدَلَالَةِ الْعَادَةِ) (الْمَادَّةُ ٤١) (إنَّمَا تُعْتَبَرُ الْعَادَةُ إذَا اطَّرَدَتْ أَوْ غَلَبَتْ) و (الْمَادَّةُ ٤٢) (الْعِبْرَةُ لِلْغَالِبِ الشَّائِعِ لَا لِلنَّادِرِ) ، و (الْمَادَّةُ ٤٥) (التَّعْيِينُ بِالْعُرْفِ كَالتَّعْيِينِ بِالنَّصِّ) ينظر: علي حيدر: درر الحكم ، الجزء١، ص ٤٤–٥١ .

(١٠٣) ينظر: الحموي الحنفي: أحمد بن محمد مكي، أبو العباس، شهاب الدين الحسيني (المتوفى: ١٠٩٨هـ)، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر،الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ١٩٨٥، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ، الجزء١ ، ص٤٥٥. ، الجزء٣، ص٤٣١ ؛ ذكر داماد أفندي: (وَفِي الْبَحْرِ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ فِي حُكْمِ السِّيَاسَةِ أَنَّ الْإِمَامَ يَفْعَلُهَا لَمْ يَقُولُوا الْقَاضِي فَظَاهِرُهُ أَنَّ الْقَاضِيَ لَيْسَ لَهُ الْحُكْمُ بِالسِّيَاسَةِ وَلَا الْعَمَلُ بِهَا.) عبد الرحمن بن محمد بن سليمان المدعو بشيخي زاده، يعرف بداماد

حيث استطاعت هذه المؤسسات أن تستكمل حركتها القضائية والمعرفية وتنقل من الدولة الأموية إلى الدولة العباسية ثم العثمانية دون أن تفقد بريقها حتى وان تباطأت حركتها او تعثرت، فهي تستطيع إعادة نفسها وذاتها بشكل يحقق لها الحركة والبناء، وإعادة تشكيل المجتمع من جديد.

قيمة العدل التي تتمتع بها منظومة الحضارة الإسلامية، جعلت منها أنموذجا آمنا لكل صاحب فكر وعقيدة حتى لو خالفت عقيدته العقيدة الإسلامية، شرط أن لا تحاول تعطيل أو أرباك منظومة الدولة بمؤسساتها، فقيمة حرية المعتقد أمر واضح في تلك الحضارة وهذا ما أكده الوقع المعاصر ويشهد له كل من كتب في التاريخ، حيث نجد العديد من الطوائف النصرانية في بلادنا بينما لا نجدها في بلاد تدين بالنصرانية.

منظومة القضاء في الحضارة الإسلامية هي منظومة متكاملة الأركان قوية الأسس، قابلة للانسياب والتحرك بحسب حركة التاريخ، وهي تراكمية نصية ومعرفية، تجمع مع التنظير الفكري والمعرفي القدرة على التطبيق الواقعي، وكل حلقة فيها هي تمثل استكمالا للحركة سابقة، اقتضتها المصلحة وحركتها الحاجة، ومثال على ذلك الفقه الجنائي الإسلامي حيث يقول المحامي عبد القادر عودة: " قد أدهشني أني لم أجد قضاء أو حكماً أو تشريعاً إسلامياً إلا روعيت فيه المبادئ والنظريات الجنائية الحديثة التي قيل لنا في المدارس أنها من ابتداع القوانين الوضعية، وإن العالم لم يعرفها إلا في القرن التاسع عشر على إثر الثورة الفرنسية، فحملني هذا التناقض الظاهر بين ما سمعت وبين ما لمست على أن أدرس القسم الجنائي في الشريعة دراسة منظمة، وقد خرجت من دراستي بأن العيب الوحيد في هذا القسم هو أن الناس يجهلونه كل الجهل، وأنه فيما عدا ذلك خير من أي قانون وضعي على وجه الأرض، بل هو المثل الأعلى الذي يجب أن يأخذ به ويحتذيه كل مشرع وضعي في أي بلد غير إسلامي"[١٠٤] وهذا الكلام مهم يعطينا عمق الفقه القضائي التطبيقي في الحضارة الإسلامية.

وكذلك استمرار مجلة الأحكام العدلية كمادة قضائية في العديد من البلدان الإسلامية رغم ذهاب الدولة العثمانية وزوالها[١٠٥]، فالجانب التطبيقي لها كان له حيزها في العراق حتى احتلاله عام ٢٠٠٣م، مما دفع الدكتور عبد الرزاق السنهوري إلى وصف القانون العراقي: بأنه (أول قانون مدني يتلاقى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الغربية الحديثة جنبا إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف) وهو يرى أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث) ثم قال: (مكن لعوامل

أفندي، (المتوفى: ١٠٧٨هـ)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، الجزء ١ ، ص٩٩٦.

(١٠٤) ينظر: عودة : عبد القادر ، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي ، دار الكاتب العربي، بيروت ، الجزء١، ص٥٥ ؛ وينظر: الحفناوي: منصور محمد منصور، الشبهات وأثرها في العقوبة الجنائية في الفقه الإسلامي مقارنا بالقانون، مطبعة الأمانة ، الطبعة: الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، الجزء١، ص١٠ .

(١٠٥) ينظر: شاهين: الدكتور شامل، دراسة موجزة عن مجلة الأحكام العدلية (مقدمة مشروع، و بيليوغرافية شاملة)، دمشق- سوريا، دار غار حراء، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م، ص٢٦- ٣٢.

المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدرا لأحكام حديثة تُجاري مدنية العصر وتُساير أحدث القوانين وأكثرها تقدما ورقيا..)[١٠٦]، ليستمر هذا التطور والاستيعاب فيكتب كتب وتوضع دراسات في مجال القضاء والمجتمع والدعوة .. تأخذ بشكل واسع طريقة تقنين القواعد وتأصيلها، بشكل منهجي تطبيقي غاية في الإبداع والتأليف[١٠٧].

وعليه فمنظومة القضاء هي خاضعة لذاته، تستمد قوتها من قدرتها على استيعاب حركة الحياة وما تتطلبه تلك الحركة من فتاوى فقهية بكم واسع، ينتقى من هذا الكم أحكاما قضائية، تخضع لضوابط تحكمها من جهة صدور الحكم وتكيفه واستئنافه ونقضه فغاية القضاء هو تحقيق العدل.

وهذه القوانين هي أدوات بيد القاضي يستخدمها كوحدات قياس للحكم، بتجرد يصحبه الحرص على المعرفة وتحقيق الحق والعدل، ولهذا

المبحث الأول: أركان الحكم القضائي وضوابط الدعوى فيه.

أولا: أركان القضاء:

القضاء يستعمل لغة في عدة معان ترجع كلها إلى معنى القطع والفصل . وهو قانوناً يستعمل في معنيين: الحكم، والحاكمية [١٠٨].

وأركان القضاء ستة: الْحُكْمُ، الْمَحْكُومُ بِهِ، الْمَحْكُومُ لَهُ، الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ، الْقَاضِي أو الحَاكِم، طَّرِيقَةُ الحكم، وَقَدْ عُرِفَ الْأَوَّلُ فِي الْمَادَّةِ (١٧٨٦) وَالثَّانِي فِي الْمَادَّةِ (١٧٨٧) وَالثَّالِثُ فِي الْمَادَّة (١٧٨٩) وَالرَّابِعُ فِي الْمَادَّةِ (١٧٨٨) وَالْخَامِسُ فِي الْمَادَّةِ (١٩٨٥) ، وَأَمَّا السَّادِسُ وَهُوَ الطَّرِيقُ ، وَأَسْبَابُ الْقَضَاءِ فَنَأْتِي بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْآتِي : طَرِيقُ الْقَضَاءِ، وَأَسْبَابُ الْحُكْمِ إنَّ طَرِيقَ الْقَضَاءِ أَيْ طَرِيقَ الْقَاضِي لِلْحُكْمِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَحْكُومِ بِهِ ، وَهُوَ أَنَّ طَرِيقَ الْقَضَاءِ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ عِبَارَةٌ عَنْ الدَّعْوَى

---

(١٠٦) ينظر: بحث السنهوري عن (القانون المدني العربي) نقله: حسين: الدكتور: محمد محمد، حصوننا مهددة من داخلها،ط٦، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الرسالة، بيروت / لبنان، ص ١١٢ .

(١٠٧) ومما انتجته المدرسة البغدادية الحديثة من كتب.. على سبيل المثال لا الحصر: في مجال الأسرة: المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية، للدكتور عبد الكريم زيدان، وهو في احد عشر مجلدا، طبعته دار الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ – ١٩٩٣ م ؛ وفي مجال القضاء: ما كتبه القاضي عبد الغفور محمد البياتي، القواعد الفقهية في القضاء، وهو في مجلدين؛ وفي مجال الفكر والدعوة: ما كتبه الأستاذ محمد احمد الراشد، أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، في أربع مجلدات، وقد سلك في تأليف منهج الشمول الفقهي والمعرفي التأصيلي.

(١٠٨) ينظر: المادة (١٧٨٤) ((الْقَضَاءُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْحُكْمِ وَالْحَاكِمِيَّةِ) الْقَضَاءُ بِوَزْنِ السَّخَاءِ وَهُوَ لُغَةً بِمَعْنَى الْحُكْمِ وَالْحَاكِمِيَّةِ وَجَمْعُهُ أَقْضِيَةٌ وَمَعْنَى أَصْلِ الْقَضَاءِ الْقَطْعُ وَالْفَصْلُ . (١) وَقَدْ تَفَرَّعَتْ الْمَعَانِي السَّائِرَةُ مِنْ ذَلِكَ، وَالْحَكَمُ وَالْقَاضِي يُعَرَّفُ فِي الْمَوَادِّ الْآتِيَةِ : الْمَادَّةُ (١٧٨٥) (الْقَاضِي هُوَ الذَّاتُ الَّذِي نُصِّبَ وَعُيِّنَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ لِأَجْلِ فَصْلِ وَحَسْمِ الدَّعْوَى وَالْمُخَاصَمَةِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ النَّاسِ تَوْفِيقًا لِأَحْكَامِهَا الْمَشْرُوعَةِ)) ، علي حيدر: درر الحكم شرح مجلة الأحكام، الجزء٤، ص٥١٩ ؛ وينظر: القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، ١٩٤٩م مطبعة العاني، وزارة المعارف العراقية، بغداد – العراق، الجزء٤، ١٦٥.

وَالْحُجَّةِ ، وَالْحُجَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ الْبَيِّنَةِ وَالْإِقْرَارِ وَالْيَمِينِ وَالنُّكُولِ عَنْ الْيَمِينِ وَعِلْمِ الْقَاضِي عَلَى قَوْلٍ ، وَالْقَسَامَةُ ، وَالْقَرِينَةُ الْقَاطِعَةُ انْظُرْ شَرْحَ الْمَادَّةِ (١٧٤٠)[١٠٩].

أطراف كل قضية حكمية ست يلوح بعدها التحقيق
حُكْمٌ ومَحكُومٌ بـه ولـه ومَحكُومٌ عليه وحاكِمٌ وطَرِيق

الحاكِمُ: هو من نصبه الملك لحسم الدعاوي الواقعة بين الناس وفقاً للأحكام المشروعة[١١٠]. أي وفقاً للاحاكم المفهومة من نصوص القانون صراحة أو دلالة.
فإذا أنحرف الحاكم في حكمه عن مفهوم القانون خطأ فحكم بغير الحق، فأن كان في الوسع تدارك الرجوع إلى الصواب يرجع أليه، وأن لم يمكن تدارك الرجوع إلى الحق- كما لو كان الحكم بالقصاص - فبعد تنفيذه لا يمكن الرجوع إلى الحق، فأن المقضى له يتحمل الدية، رجوعاً إلى رد الحق إلى نصابه قدر الإمكان .
وإذا انحرف الحاكم في حكمه عن مقتضى القانون عمداً، وثبت ذلك بإقراره، ونفذ هذا الحكم فأنه يضمن للمحكوم عليه ما خسره بذلك الحكم هذا في الحقوق الخاصة، أما في الحقوق العامة (حقوق الله) فأن حكم خلافاً للقانون خطأ ونفذ الحكم، فأن بيت المال يضمن للمحكوم عليه، وأن كان عمداً وثبت هذا بإقرار الحاكم وقد نفذ الحكم، فأن الحاكم هو الذي يضمن للمحكوم عليه[١١١].
الْحُكْمُ: هو حسم الحاكم المخاصمة بإتباعه الطريق القانونية الخاصة بذلك. والحكم نوعان: الأول أن يتضمن إلزام الحاكم المحكوم عليه بالمحكوم به ويسمى هذا النوع من الحكم (قضاء إلزام) و(قضاء استحقاق) و(قضاء ملك).
والثاني: أن يتضمن منع الحاكم المدعي عن منازعة المدعى عليه في المدعى به، كقوله (لا حق لك) وقوله (أنت ممنوع عن منازعة المدعى عليه) ويسمى هذا النوع من الحكم (قضاء ترك) .
ووجه الحصر في النوعين، هو أن المدعي لا يخلو من أن يظهر محقاً، أو يظهر غير محق. فأن ظهر محقاً كان القضاء قضاء استحقاق، وأن ظهر غير محق كان القضاء قضاء ترك[١١٢] .

---

(١٠٩) ينظر: علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ٥١٩؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤، ص١٦٥ وما بعدها.

(١١٠) ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٨٥) – (الْقَاضِي هُوَ الذَّاتُ الَّذِي نُصِّبَ وَعُيِّنَ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ لِأَجْلِ فَصْلِ وَحَسْمِ الدَّعْوَى وَالْمُخَاصَمَةِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ النَّاسِ تَوْفِيقًا لِأَحْكَامِهَا الْمَشْرُوعَةِ). علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ٥١٩؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٥ وما بعدها.

(١١١) سيأتي بيان القواعد الفقهية الضابطة للقاضي والحاكم، فلم نذكرها هنا مخافة الإطالة.

(١١٢) ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٨٦) (الْحُكْمُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ قَطْعِ الْقَاضِي الْمُخَاصِمَةَ وَحَسْمِهِ إيَّاهَا وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ . الْقِسْمُ الْأَوَّلُ : هُوَ إلْزَامُ الْقَاضِي الْمَحْكُومَ بِهِ عَلَى الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ بِكَلَامٍ كَقَوْلِهِ حَكَمْت أَوْ أَعْطِ الشَّيْءَ الَّذِي ادَّعَى بِهِ عَلَيْك وَيُقَالُ لَهُ قَضَاءُ الْإِلْزَامِ وَقَضَاءُ الِاسْتِحْقَاقِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : هُوَ مَنْعُ الْقَاضِي الْمُدَّعِي عَنْ الْمُنَازَعَةِ بِكَلَامٍ كَقَوْلِهِ لَيْسَ لَك حَقٌّ أَوْ أَنْتَ مَمْنُوعٌ عَنْ الْمُنَازَعَةِ وَيُقَالُ لِهَذَا قَضَاءُ التَّرْكِ) وَالْحُكْمُ بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الْكَافِ لُغَةً بِمَعْنَى الْمَنْعِ وَتَسْمِيَةُ الْقَاضِي بِالْحَاكِمِ لِمَنْعِهِ الْمُبْطِلَ مِنْ الْأَبْطَالِ .) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ٥٢٠؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٥ وما بعدها.

الْمَحْكُومُ بِهِ: هو ما الزم الحاكم المحكوم عليه به، في قضاء الاستحقاق - وهو إيفاؤه حق المدعي - وترك المدعي المنازعة، في قضاء الترك [١١٣].
الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ : هو من مصدر الحكم لجانبه . وهو إما أن يكون معيناً واحداً أو أكثر، كما هو في أغلب القضايا. وأما أن يكون غير معين كما هو الحال في الحكم بالحرية الأصلية. والحكم بالنسب بالبينة. فأن المحكوم عليه فيهما جميع الناس [١١٤].
الْمَحْكُومُ لَهُ: هو من مصدر الحكم لجانبه [١١٥].
طريق المحاكمة: وهي الإجراءات الواجب على الحاكم اتخاذها عند مباشرته الدعوى إلى أن يصدر الحكم وهي المقررة في قانون المرافعات الحقوقية، وفي بعض المواد الآتية:
والحكم كما يصدر من الحاكم المعرف في المادة (١٧٨٥) فإنه يصدر من الحكم - بفتح الحاء والكاف - بناء على التحكيم.
والتحكيم : لغة تفويض الحكم لشخص، وقانوناً، هو اتخاذ الخصمين برضاهما شخصاً أهلاً للحكم، ليقضي بينهما في الدعوى القائمة بينهما. ويسمى هذا الشخص (حكماً) كما يسمى (محكماً)، ومن لم يكن أهلاً للحكم كالصبي والرقيق، لا يصلح حكماً [١١٦].
ومن خلال النظر في أركان الحكم القضائي وما يتضمنه كل ركن من تلك الأركان من شروط وأوصاف وقواعد حاكمة على كل ركن منها، مع إدراك لطرق فهم المنطوق وبيان مدلوله، يخرج الحكم القضائي متوازنا مع نظرية الحق المرجوة منه، وشكل هذا التوازن يظهر من خلال ما يأتي:
القضاء يقوم على ستة أركان، فهناك ركن يتعلق بصاحب الدعوى وهناك أخر يتعلق بالمدعى عليه، وكليهما له شروط وأوصاف تسبق الدعوى ينظر القاضي إليها، قبل أن يقرَّ صحة الدعوى من عدمها، هذا الأوصاف تخص حال المدعي والمدعى عليه وتخص منطوق الدعوى، فإذا أصبحت تلك الشروط واضحة مستكملة منطبقة على

---

(١١٣) ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٨٧) (الْمَحْكُومُ بِهِ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَلْزَمَهُ الْقَاضِي الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ وَهُوَ إيفَاءُ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ حَقَّ الْمُدَّعِي فِي قَضَاءِ الْإِلْزَامِ وَتَرْكُ الْمُدَّعِي الْمُنَازَعَةَ فِي قَضَاءِ التَّرْكِ) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ٥٢٣؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٨.

(١١٤) ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٨٨) ((الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي حُكِمَ عَلَيْهِ) . الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي حُكِمَ عَلَيْهِ مِنْ طَرَفِ الْقَاضِي أَوْ مِنْ طَرَفِ الْمُحَكَّمِ وَالْمَحْكُومُ عَلَيْهِ يَكُونُ دَائِمًا إنْسَانًا .) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص٥٢٣؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٨.

(١١٥) ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٨٩) ((الْمَحْكُومُ لَهُ هُوَ الَّذِي حُكِمَ لَهُ) . أَيْ الَّذِي حُكِمَ لَهُ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ .) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ٥٢٤؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٨.

(١١٦) ينظر: (١٧٩٠) ((التَّحْكِيمُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ اتِّخَاذِ الْخَصْمَيْنِ آخَرَ حَاكِمًا بِرِضَاهُمَا ؛ لِفَصْلِ خُصُومَتِهِمَا وَدَعْوَاهُمَا وَيُقَالُ لِذَلِكَ حَكَمٌ بِفَتْحَتَيْنِ وَمُحَكَّمٌ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْحَاءِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ الْمَفْتُوحَةِ) التَّحْكِيمُ لُغَةً : تَفْوِيضُ الْحُكْمِ لِشَخْصٍ . وَشَرْعًا : هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ اتِّخَاذِ الْخَصْمَيْنِ أَيْ الْمُدَّعِي وَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ وَاحِدًا أَهْلًا لِلْحُكْمِ حَاكِمًا بِرِضَاهُمَا لِفَصْلِ خُصُومَتِهِمَا وَدَعْوَاهُمَا .) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص٥٢٤؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٦٨.

أفرادها جاز إمضاء الدعوى والنظر في مفهومها، وإلا فلا، فأقرر صحة الدعوى يسبق النظر في فحواها.

الحُكم هو من أركان الدعوى، والحُكم هنا يمرّ بقسمين، الأول: حُكم على صحة الدعوى من حيثُ القبول، فإذا تحقق قبول الدعوى، جاز النظر فيها، والنظر فيها لا يعني أقرار الحق للمدعي، كما أن ردّها لا يعني عدم تكرار تقديم الدعوى من قبل المدعي، فإذا تم النظر في الدعوى وحكم للمدعي جاز للمدعى عليه أن يستأنف الحكم الصادر [١١٧].

ولذلك يجب مراعاة شروط صحة الدعوى، فأي خلل يصيب أي شرط يخص ركنا من تلك الأركان هو يصيب منظومة الحكم، فيكون الحكم قابلا لاستئنافه أو الطن فيه ثم بعدها نقضه.

ثانيا: ما يجب أن يتوفر في الدعوى المقدمة .

تعريف الدعوى: هي طلب أحد حقه من آخر ، جازماً ، في مجلس القضاء . أي بحضور الحاكم في محل الحكم أو بحضور الحكم في مجلس التحكيم ، فأن الحكم قائم مقام القاضي . ويقال لطالب الحق من آخر في مجلس القضاء ((المدعي)). ويقال للمطلوب منه الحق في مجلس القضاء ((المدعي عليه)). ويقال للحق المطلوب ((المدعى به)) [١١٨].

وشروط الدعوى حتى تصح أن يطلق عليها دعوى، يجب النظر ابتدأ إلى ما يأتي:

أن يكون المدعي و المدعي عليه عاقلين فلا تصح دعوى المجنون والصبي غير المميز، وإنما وليائهما وأوصيائهما أن يقوموا عنهما مدعين أو مدعى عليهم. وأما البلوغ فليس بشرط لصحة الدعوى ، إذ لا ضرر محضاً في الدعوى ، لأنها تتضمن طلب حق أو مدافعة عن ترتب حق، وليس في هذا ضرر محض. فالصبي المأذون له أن يقيم الدعوى في الخصوصيات المأذون بها وأن يكون عليه كذلك، فيترتب عليه ما يترتب على المدعي والمدعى عليه، حتى أن توجه أليه اليمين على القول الراجح وقال البعض إن اليمين تؤجل إلى ما بعد بلوغه، لان غير البالغ لا يحنث باليمين ، فلا يبالي الصبي من اليمين[١١٩] .

---

(١١٧) ينظر: ((١٨٣٨) – (إِذَا ادَّعَى الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْحُكْمَ الَّذِي صَدَرَ فِي حَقِّ الدَّعْوَى لَيْسَ مُوَافِقًا لِأُصُولِهِ الْمَشْرُوعَةِ وَبَيَّنَ جِهَةَ عَدَمِ مُوَافَقَتِهِ وَطَلَبَ اسْتِئْنَافَ الدَّعْوَى يُحَقِّقُ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ فَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِأُصُولِهِ الْمَشْرُوعَةِ يُصَدَّقُ وَإِلَّا يُسْتَأْنَفُ) علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص٦٢٣ .

(١١٨) ينظر: القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤،ص ٣. وينظر: الْمَادَّةُ (١٦١٣) (الدَّعْوَى هِيَ طَلَبُ أَحَدٍ حَقَّهُ مِنْ آخَرَ فِي حُضُورِ الْقَاضِي ، وَيُقَالُ لَهُ الْمُدَّعِي ، وَلِلْآخَرِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ) . الدَّعْوَى لُغَةً هِيَ قَوْلٌ يَقْصِدُ بِهِ الْإِنْسَانُ إيجَابَ الْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ . وَشَرْعًا هِيَ طَلَبُ أَحَدٍ حَقَّهُ مِنْ آخَرَ قَوْلًا أَوْ كِتَابَةً فِي حُضُورِ الْقَاضِي حَالَ الْمُنَازَعَةِ بِلَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى الْجَزْمِ بِإِضَافَةِ الْحَقِّ إلَى نَفْسِهِ ، أَوْ إلَى الشَّخْصِ الَّذِي يَنُوبُ عَنْهُ . والمادة: (١٦١٤) (الْمُدَّعَى هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي ادَّعَاهُ الْمُدَّعِي وَيُقَالُ لَهُ الْمُدَّعَى بِهِ أَيْضًا) علي حيدر، درر الحكام، الجزء ٤، ص ١٥٧.

(١١٩) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦١٦) (يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْمُدَّعِي وَالْمُدَّعَى عَلَيْهِ عَاقِلَيْنِ وَدَعْوَى الْمَجْنُونِ وَالصَّبِيِّ غَيْرِ الْمُمَيِّزِ لَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ إلَّا أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَصِيَّاهُمَا، أَوْ وَلِيَّاهُمَا مُدَّعِيَيْنِ ، أَوْ مُدَّعًى عَلَيْهِمَا). علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص٥.

أن يكون المدعى عليه معلوماً. فلا تصح دعوى شخص على أحد من أهل حيّ كذا، أو قرية كذا من غير تعيين شخصه[١٢٠].

حضور الخصم، حقيقة أو حكماً. فحضوره حقيقة ظاهرة، وحضوره حكماً، كما إذا بلغ المدعى عليه بالحضور فلم يحضر فحكم غائباً، فأنه يعتبر بحكم الحاضر من جهة فينظر الحاكم في الدعوى، ولكنه يعطي مدة يسوغ فيها له أن يعترض على الحكم ويقدم دفاعه ، لأنه لم يكن حاضراً حقيقة. فإذا بُلِغ بالحُكم ولم يعترض عليه في المدة فأن الحكم يصبح سالماً من الاعتراض، وقد كان حاضراً حكماً، فيعتبر الحكم وجاهياً[١٢١].

أن يكون المدعى به معلوماً، لأنه لا يمكن اخذ المجهول تحت الحكم، ولا فائدة من الحكم بالمجهول[١٢٢].

أن لا يسند سبب الملك، فإذا اسند المدعى به إلى الإقرار يكون معترفاً في دعواه بأنه غير مالك للمدعي به، فلا يسمع له طلبه[١٢٣].

أن يكون المدعى به محتمل الثبوت عقلاً وعادة وقانوناً أو شرعاً لأن الاستحالة عقلاً وعادة تقتضي تيقن الكذب الظاهر في الدعوى ، والمستحيل شرعاً أو قانوناً كالمستحيل عادة [١٢٤].

---

(١٢٠) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦١٧) (يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مَعْلُومًا بِنَاءً عَلَيْهِ إذَا قَالَ الْمُدَّعِي : لِي عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الْفُلَانِيَّةِ . أَوْ عَلَى أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِهَا مِقْدَارَ كَذَا بِدُونِ تَعْيِينٍ لَا تَصِحُّ دَعْوَاهُ وَيَلْزَمُ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْمُدَّعَى بِهِ). علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص١٦١ ؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ٦.

(١٢١) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦١٨) (يُشْتَرَطُ حُضُورُ الْخَصْمِ حِينَ الدَّعْوَى . وَإِذَا امْتَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنْ الْحُضُورِ إلَى الْمَحْكَمَةِ أَوْ إرْسَالِ وَكِيلٍ عَنْهُ فَالْمُعَامَلَةُ الَّتِي تَجْرِي فِي حَقِّهِ سَتُذْكَرُ فِي كِتَابِ الْقَضَاءِ) . علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ١٦١؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص٧ .

(١٢٢) ينظر: الْمَادَّةُ الْمَادَّةُ (١٦١٩) (يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْمُدَّعَى بِهِ مَعْلُومًا ، وَلَا تَصِحُّ الدَّعْوَى إذَا كَانَ مَجْهُولًا). علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص١٦٣ ؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ٨. ويستثنى من ذلك: ويستثنى من هذا الشرط خمس مسائل وهي: أ- دعوى الغصب. ب- دعوى الرهن. أنظر المادة (١٦٢١) ، ج- دعوى الوصية بمجهول. د- دعوى الإقرار بمجهول. أنظر المادة (١٥٧٩) ، هـ - دعوى الإبراء بمجهول . ينظر: علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ١٧١ و ٨٦ ؛ القاضي : ج٤، ص٨.

(١٢٣) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦٢٠) (مَعْلُومِيَّةُ الْمُدَّعَى بِهِ تَكُونُ بِالْإِشَارَةِ ، أَوْ الْوَصْفِ وَالتَّعْرِيفِ ، وَهُوَ إذَا كَانَ عَيْنًا مَنْقُولًا ، وَكَانَ حَاضِرًا فِي مَجْلِسِ الْمُحَاكَمَةِ فَالْإِشَارَةُ إلَيْهِ كَافِيَةٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا يَكُونُ مَعْلُومًا بِوَصْفِهِ وَتَعْرِيفِهِ وَبَيَانِ قِيمَتِهِ ، وَإِذَا كَانَ عَقَارًا يُعَيَّنُ بِبَيَانِ حُدُودِهِ ، وَإِذَا كَانَ دَيْنًا يَلْزَمُ بَيَانُ جِنْسِهِ وَنَوْعِهِ وَوَصْفِهِ وَمِقْدَارِهِ). علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص١٦٤ ؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص٩.

(١٢٤) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦٢٨) (حُكْمُ الْإِقْرَارِ هُوَ ظُهُورُ الْمُقَرِّ بِهِ لَا حُدُوثُهُ بَدَاءَةً وَلِهَذَا لَا يَكُونُ الْإِقْرَارُ سَبَبًا لِلْمِلْكِ ، بِنَاءً عَلَيْهِ لَوْ ادَّعَى الْمُدَّعِي عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ شَيْئًا وَجَعَلَ سَبَبَهُ إقْرَارَهُ فَقَطْ لَا تُسْمَعُ دَعْوَاهُ ، مَثَلًا لَوْ ادَّعَى الْمُدَّعِي بِقَوْلِهِ : إنَّ هَذَا الْمَالَ لِي وَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي هُوَ ذُو الْيَدِ كَانَ قَدْ أَقَرَّ بِأَنَّهُ مَالِي تُسْمَعُ دَعْوَاهُ وَأَمَّا إذَا ادَّعَى بِقَوْلِهِ : إنَّ هَذَا الْمَالَ لِي لِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي هُوَ ذُو الْيَدِ كَانَ قَدْ أَقَرَّ بِأَنَّهُ مَالِي ، فَلَا تُسْمَعُ دَعْوَاهُ وَكَذَلِكَ لَوْ ادَّعَى بِقَوْلِهِ : إنَّ لِي فِي ذِمَّةِ هَذَا الرَّجُلِ كَذَا دِرْهَمًا مِنْ جِهَةِ الْقَرْضِ حَتَّى إنَّهُ كَانَ قَدْ أَقَرَّ بِأَنَّهُ مَدِينٌ لِي بِهَذَا الْمَبْلَغِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ تُسْمَعُ دَعْوَاهُ أَمَّا لَوْ ادَّعَى قَائِلًا : بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَقَرَّ بِأَنَّهُ مَدِينٌ لِي بِكَذَا دِرْهَمًا مِنْ جِهَةِ الْقَرْضِ فَلِذَلِكَ أَنَّ لِي فِي ذِمَّتِهِ كَذَا دِرْهَمًا وَاطْلُبْهَا مِنْهُ لَا تُسْمَعُ دَعْوَاهُ) والمادة : (

أن لا يكون في الدعوى تناقض [١٢٥].
أن تكون الدعوى في مجلس القضاء . فطلب أحد حقه من آخر لا في مجلس القضاء لا يعتبر دعوى ولو كان أمام الحاكم[١٢٦].
ويتضح مما سبق أن ما عدا الشرط الثاني والثالث والرابع ، يؤثر في جوهر الدعوى وذاتها ، فإذا أختل واحد منها كانت الدعوى باطلة ، وأن الشروط : الثاني والثالث والرابع تؤثر في صفة الدعوى فإذا أختل منها واحد كانت فاسدة يمكن تصحيحها[١٢٧].
أما معلومية المدعى به: فهي شرط من شروط صحة الدعوى، فهذه المعلومية يتم تَحقِقها بالوجوه الآتية[١٢٨]:
إذا كان المدعى به حاضراً في مجلس القضاء فالإشارة إليه في الدعوى والشهادة واليمين ، كافية لمعلوميته .
إذا لم يكن المدعى به حاضراً في مجلس القضاء، فأن كان إحضاره لا يكلف مؤنة ويسهل إحضاره وكان المدعى عليه معترفاً بوجوده عنده، فأنه يلزم عليه أن يحضره إلى مجلس القضاء للإشارة إليه عند الدعوى والشهادة واليمين، وذلك كما إذا كان المدعى به حلية أو كتاباً أو نحوهما، إلا أذا كان المدعى به وديعة لا يجبر على إحضارهما.

١٦٣٠) (يُشْتَرَطُ أَنْ يَحْكُمَ وَيُلْزِمُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ بِشَيْءٍ فِي حَالَةِ ثُبُوتِ الدَّعْوَى مَثَلًا لَوْ أَعَارَ أَحَدٌ آخَرَ شَيْئًا وَظَهَرَ شَخْصٌ آخَرُ وَادَّعَى قَائِلًا : أَنَا مِنْ ذَوِيهِ فَلْيُعِرْنِي إيَّاهُ لَا تَصِحُّ دَعْوَاهُ . كَذَلِكَ لَوْ وَكَّلَ أَحَدٌ آخَرَ بِخُصُوصٍ مَا فَظَهَرَ شَخْصٌ آخَرُ وَادَّعَى بِقَوْلِهِ : أَنَا جَارُهُ وَبِوَكَالَتِهِ أَنْسَبُ فَلَا تَصِحُّ دَعْوَاهُ ؛ لِأَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يُعِيرَ مَالَهُ مَنْ شَاءَ وَأَنْ يُوَكِّلَ بِأُمُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَعَلَيْهِ فَبِتَقْدِيرِ ثُبُوتِ هَذِهِ الدَّعَاوَى وَأَمْثَالِهَا لَا يَتَرَتَّبُ فِي حَقِّ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ حُكْمٌ مَا) . علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ١٨٥ و ١٨٨؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص١٠ .

(١٢٥) ينظر: الْمَادَّةُ (١٦٤٧) (التَّنَاقُضُ يَكُونُ مَانِعًا لِدَعْوَى الْمِلْكِ مَثَلًا إذَا اسْتَشْرَى أَحَدٌ مَالًا أَيْ أَرَادَ شِرَاءَهُ ثُمَّ ادَّعَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَالَ كَانَ مِلْكَهُ قَبْلَ الِاسْتِشْرَاءِ لَا تُسْمَعُ دَعْوَاهُ ، وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ لَيْسَ لِي حَقٌّ عِنْدَ فُلَانٍ مُطْلَقًا ثُمَّ ادَّعَى عَلَيْهِ شَيْئًا لَا تُسْمَعُ دَعْوَاهُ ، وَكَذَلِكَ لَوْ ادَّعَى أَحَدٌ عَلَى آخَرَ بِقَوْلِهِ كُنْت أَعْطَيْتُك كَذَا مِقْدَارًا مِنْ الدَّرَاهِمِ عَلَى أَنْ تُعْطِيَهَا إلَى فُلَانٍ فَلَمْ تُعْطِهَا لَهُ وَبَقِيَتْ فِي يَدِك فَأَحْضِرْهَا لِي وَأَنْكَرَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ ذَلِكَ وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ الْمُدَّعِي الْبَيِّنَةَ رَجَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ وَأَرَادَ دَفْعَ الدَّعْوَى بِقَوْلِهِ نَعَمْ كُنْتَ أَعْطَيْتنِي تِلْكَ الدَّرَاهِمَ إلَّا أَنَّنِي أَدَّيْتُهَا لَهُ فَلَا يُسْمَعُ دَفْعُهُ ، وَكَذَلِكَ لَوْ ادَّعَى أَحَدٌ الْحَانُوتَ الَّذِي هُوَ فِي يَدِ غَيْرِهِ بِأَنَّهُ مِلْكُهُ وَأَجَابَ ذُو الْيَدِ بِقَوْلِهِ : نَعَمْ كَانَ مِلْكَك وَلَكِنْ بِعْتنِي إيَّاهُ فِي التَّارِيخِ الْفُلَانِيِّ وَأَنْكَرَ الْمُدَّعِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ لَمْ يَجْرِ بَيْنَنَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ قَطُّ وَبَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ ذُو الْيَدِ دَعْوَاهُ رَجَعَ الْمُدَّعِي فَادَّعَى قَائِلًا . نَعَمْ كُنْتُ بِعْت لَك ذَلِكَ الْحَانُوتَ فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ لَكِنَّ هَذَا الْبَيْعَ كَانَ وَفَاءً أَوْ بِشَرْطٍ مُفْسِدٍ هُوَ كَذَا فَلَا يُسْمَعُ) . علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص٢٣٨ ؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٠.

(١٢٦) ينظر: علي حيدر: درر الحكم ، الجزء ٤، ص ١٩٥؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤،ص ١٢.

(١٢٧) ينظر: القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤،ص ١٢.

(١٢٨) ينظر : الْمَادَّةُ (١٦٢٠) (مَعْلُومِيَّةُ الْمُدَّعَى بِهِ تَكُونُ بِالْإِشَارَةِ ، أَوْ الْوَصْفِ وَالتَّعْرِيفِ ، وَهُوَ إذَا كَانَ عَيْنًا مَنْقُولًا ، وَكَانَ حَاضِرًا فِي مَجْلِسِ الْمُحَاكَمَةِ فَالْإِشَارَةُ إلَيْهِ كَافِيَةٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا يَكُونُ مَعْلُومًا بِوَصْفِهِ وَتَعْرِيفِهِ وَبَيَانِ قِيمَتِهِ ، وَإِذَا كَانَ عَقَارًا يُعَيَّنُ بِبَيَانِ حُدُودِهِ ، وَإِذَا كَانَ دَيْنًا يَلْزَمُ بَيَانُ جِنْسِهِ وَنَوْعِهِ وَوَصْفِهِ وَمِقْدَارِهِ). علي حيدر، درر الحكم ، الجزء ٤، ص١٦٥؛ القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤،ص ١٢-١٥ .

وأن كان في إحضاره المجلس مؤنة تكلف المدعى عليه مصرفاً، فأنه لا يلزم بإحضاره بل أما أن يذهب الحاكم إلى المحل الذي فيه المدعى به ويستمع هناك الدعوى والشهود أو يحلف المدعى عليه هناك إذا عجز المدعي عن الإثبات وقد طلب اليمين، وأما أن يكتفي الحاكم بتوصيف المدعى به وتعريفه وبيان قيمته، إلا في دعوى الغصب أو الرهن فلا يلزم فيها بيان قيمة المغصوب أو المرهون، لأن المغصوب منه قد يجهل قيمة ما غصب منه، وكذلك الراهن قد يجهل قيمة ما رهنه فيكفي فيها التوصيف والتعريف.

وإذا كان المدعى به أعياناً مختلفة الجنس والنوع والوصف فلا يلزم ذكر قيمة كل واحد منها على حدة بل يكتفي بذكر قيمة المجموع كما إذا قال المدعي. خمسة أبل وثلاث سيارات وأربع أفراس قيمتها ألف دينار، فأنه يكفي ولو لم يبين قيمة كل واحد منها.

وإذا كان المدعى به ديناً، فيلزم بيان جنسه ونوعه وقدره، كما أن للأوراق النقدية والعملة أسماء خاصة تميزها عن غيرها، لذلك يكفي للمدعي إذا قال إذا قال خمسين ديناراً أو خمسين جنيهاً أو خمسين ليرة أو خمسين روبية أو خمسين درهماً.

إذا كان المدعى به عقاراً فيلزم ذكر بلده وقريته أو محلته وحدوده وأسماء أصحاب حدوده وأسماء آبائهم وأجدادهم، إلا إذا كان العقار مشهوراً فيكفي ذكر أسمائهم فقط[١٢٩].

ثالثا: أنواع الدعوى :

قسم العلماء أنواع الدعوى من حيث صحتها إلى أقسام وقد بيناها الأمام الماوردي بشكل موجز أعقبها بشرح مفصل ونقل هذا لنا الاختصار جلال الدين السيوطي (قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي الْحَاوِي: الدَّعْوَى عَلَى سِتَّةِ أَضْرُبٍ: صَحِيحَةٌ، وَفَاسِدَةٌ، وَمُجْمَلَةٌ وَنَاقِصَةٌ، وَزَائِدَةٌ، وَكَاذِبَةٌ) [١٣٠].

---

(١٢٩) ينظر بتصرف يسير : القاضي : منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤، ص١٤؛ المادة (١٦٢٣) (إذَا كَانَ الْمُدَّعَى بِهِ عَقَارًا يَلْزَمُ فِي الدَّعْوَى ذِكْرُ بَلَدِهِ وَقَرْيَتِهِ ، أَوْ مَحَلَّتِهِ وَزُقَاقِهِ وَحُدُودِهِ الْأَرْبَعَةِ، أَوْ الثَّلَاثَةِ وَأَسْمَاءِ أَصْحَابِ حُدُودِهِ إنْ كَانَ لَهَا أَصْحَابٌ مَعَ أَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ لَكِنْ يَكْفِي ذِكْرُ اسْمِ وَشُهْرَةِ الرَّجُلِ الْمَعْرُوفِ وَالْمَشْهُورِ ، وَلَا حَاجَةَ إلَى ذِكْرِ اسْمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ كَذَلِكَ لَا يُشْتَرَطُ بَيَانُ حُدُودِ الْعَقَارِ إذَا كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْ التَّحْدِيدِ لِشُهْرَتِهِ وَأَيْضًا إذَا ادَّعَى الْمُدَّعِي بِقَوْلِهِ : إنَّ الْعَقَارَ الْمُحَرَّرَةَ حُدُودُهُ فِي هَذَا السَّنَدِ هُوَ مِلْكِي تَصِحُّ دَعْوَاهُ) و علي حيدر: درر الحكام ، الجزء ٤ ، ص١٧٦ .

(١٣٠) والشرح المختصر هو ما ذكره السيوطي : (قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي الْحَاوِي: الدَّعْوَى عَلَى سِتَّةِ أَضْرُبٍ: صَحِيحَةٌ، وَفَاسِدَةٌ، وَمُجْمَلَةٌ وَنَاقِصَةٌ، وَزَائِدَةٌ، وَكَاذِبَةٌ، فَالصَّحِيحَةُ: مَا اسْتَجْمَعَتْ فِيهَا شُرُوطُ الدَّعْوَى. وَالْفَاسِدَةُ: مَا اخْتَلَّ مِنْهَا شَرْطٌ فِي الدَّعْوَى كَمَا إذَا ادَّعَى الْمُسْلِمُ نِكَاحَ الْمَجُوسِيَّةِ، أَوْ الْحُرُّ الْمُوسِرُ نِكَاحَ أَمَةٍ، أَوْ فِي الْمُدَّعَى بِهِ، كَدَعْوَى الْمَيْتَةِ، وَالْخَمْرِ، أَوْ سَبَبُ الدَّعْوَى كَدَعْوَى الْكَافِرِ شِرَاءَ الْمُصْحَفِ، وَالْمُسْلِمِ، وَطَلَبَ تَسْلِيمَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ ذَكَرَ سَبَبًا بَاطِلًا لِاسْتِحْقَاقِهِ، وَالْمُجْمَلَةُ: كَقَوْلِهِ: لِي عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهِيَ الدَّعْوَى بِالْمَجْهُولِ، فَلَا تُسْمَعُ إلَّا فِي صُوَرٍ سَتَأْتِي.

وَالنَّاقِصَةُ: إمَّا لِنَقْصِ صِفَةٍ كَقَوْلِهِ: لِي عَلَيْهِ أَلْفٌ، وَلَا يُبَيِّنُ صِفَتَهَا، أَوْ شَرْطٍ كَدَعْوَى النِّكَاحِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ وَلِيٍّ وَشُهُودٍ وَكِلَاهُمَا لَا تُسْمَعُ إلَّا دَعْوَى الْمَمَرِّ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ، أَوْ حَقِّ إجْرَاءِ الْمَاءِ، فَلَا يُشْتَرَطُ تَعْيِينُ ذَلِكَ بِحَدٍّ، أَوْ ذَرْعٍ. بَلْ يَكْفِي تَحْدِيدُ الْأَرْضِ، وَالدَّارِ.

وأما التقسيم الذي سنذكره هو ما ذهب إليه شراح مجلة الاحاكم حيث قسموها على ثلاثة أنواع :

الدعوى الصحيحة : وهي التي توفرت فيها الشروط السالفة الذكر ويترتب عليها إحضار الخصم ومطالبته بالجواب ، واستماع البينة عند إنكاره، وتحلفه اليمين عند عجز المدعي عن الإثبات، وإحضار المدعى به إلى مجلس القضاء أذا لم يكن في إحضاره مؤنة وكان المدعى عليه معترفاً بوجوده لديه، ونحو هؤلاء من الأمور التي يقتضيها سير المحاكمة.

الدعوى الفاسدة: وهي الدعوى الصحيحة في ذاتها وجوهرها غير أنها لبعض العوارض الخارجية أصبحت غير مشروعة. وهي التي لم يتوفر فيها الشرط الثاني والثالث والرابع من الشروط السالفة الذكر، وقد توفرت فيها بقية الشروط، وذكر فيها سبب الدين إذا كانت الدعوى دعوى دين.

وحكم هذا النوع من الدعوى، هو أنها قابلة للتصحيح فإذا صححها المدعي بإكمال ما نقص تصبح صحيحة وتدخل في عدادها فتأخذ أحكامها الآنفة الذكر . وذلك كما لو أدعى بمجهول فأن للمدعي أن يصححها برفع الجهالة.

الدعوى الباطلة : وهي غير صحيحة في ذاتها، وهي التي نقص فيها أحد الشروط السالفة الذكر ما عدا الشرط الثاني والثالث والرابع. فأن نقصان أحد هذه الثلاثة يوجب الفساد لا البطلان.

ولا يترتب على الدعوى الباطلة شيء من الأحكام المارة الذكر في الدعوى الصحيحة، لان الباطل لا يترتب عليه شيء. مثال ذلك لو أدعى احد على آخر بأنه فقير وأن المدعى عليه غني فليعطني من ماله صدقة، فأن هذه الدعوى باطلة فلا يطلب حضور المدعى عليه ولا يطلب منه الجواب[١٣١].

وَالزَّائِدَةُ: تَارَةً لَا تَفْسُدُ، نَحْوُ ابْتَعْتُهُ فِي سُوقِ كَذَا، أَوْ عَلَى أَنْ أَرُدَّهُ بِعَيْبٍ إذَا وَجَدَهُ. وَتَارَةً تَفْسُدُ نَحْو: ابْتَعْته عَلَى أَنْ يُقِيلَنِي إذَا اسْتَقَلْتُهُ. وَالْكَاذِبَةُ: هِيَ الْمُسْتَحِيلَةُ: كَمَنْ ادَّعَى بِمَكَّةَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ أَمْسِ بِالْبَصْرَةِ.) ينظر: السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: ٩١١هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ص٤٩٩؛ وينظر أيضا القول بتمامه : الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (المتوفى: ٤٥٠هـ)، لحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٩م، الجزء ١٧، ص ٢٩٢–٣٠٠.

(١٣١) ينظر حول أنواع الدعوى: القاضي: منير، شرح مجلة الأحكام، الجزء٤، ص١٧ وما بعدها. وقد اختصر السيوطي قول الماوردي قال السيوطي : (قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ فِي الْحَاوِي: الدَّعْوَى عَلَى سِتَّةِ أَضْرُبٍ: صَحِيحَةٌ، وَفَاسِدَةٌ، وَمُجْمَلَةٌ وَنَاقِصَةٌ، وَزَائِدَةٌ، وَكَاذِبَةٌ، فَالصَّحِيحَةُ: مَا اسْتَجْمَعَتْ فِيهَا شُرُوطُ الدَّعْوَى. وَالْفَاسِدَةُ: مَا اخْتَلَّ مِنْهَا شَرْطٌ فِي الدَّعْوَى كَمَا إذَا ادَّعَى الْمُسْلِمُ نِكَاحَ الْمَجُوسِيَّةِ، أَوْ الْحُرُّ الْمُوسِرُ نِكَاحَ أَمَةٍ، أَوْ فِي الْمُدَّعَى بِهِ، كَدَعْوَى الْمَيْتَةِ، وَالْخَمْرِ، أَوْ سَبَبُ الدَّعْوَى كَدَعْوَى الْكَافِرِ شِرَاءَ الْمُصْحَفِ، وَالْمُسْلِمِ، وَطَلَبَ تَسْلِيمَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ ذَكَرَ سَبَبًا بَاطِلًا لِاسْتِحْقَاقِهِ، وَالْمُجْمَلَةُ: كَقَوْلِهِ: لِي عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهِيَ الدَّعْوَى بِالْمَجْهُولِ، فَلَا تُسْمَعُ إلَّا فِي صُوَرٍ سَتَأْتِي.

وَالنَّاقِصَةُ: إمَّا لِنَقْصِ صِفَةٍ كَقَوْلِهِ: لِي عَلَيْهِ أَلْفٌ، وَلَا يُبَيِّنُ صِفَتَهَا، أَوْ شَرْطٍ كَدَعْوَى النِّكَاحِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ وَلِيٍّ وَشُهُودٍ وَكِلَاهُمَا لَا تُسْمَعُ إلَّا دَعْوَى الْمَمَرِّ فِي مِلْكِ الْغَيْرِ، أَوْ حَقِّ إجْرَاءِ الْمَاءِ، فَلَا يُشْتَرَطُ تَعْيِينُ ذَلِكَ بِحَدٍّ، أَوْ ذَرْعٍ. بَلْ يَكْفِي تَحْدِيدُ الْأَرْضِ، وَالدَّارِ.

رابعا : دفع [١٣٢]الدعوى وأنواعه:

لتحقيق التوازن في الحكم القضائي يجب النظر في حق أثبات الدعوى من جهة، ودفعها من جهة أخرى، وبهذا يتحقق للقاضي النظر بشكل متزن يحقق له النطق بالحكم الصحيح الموجب للحق.

ودفع الدعوى نوعان:

الدفع الصحيح، وهو الذي تندفع به الدعوى عند ثبوته، وهو المقصود بالكلام في هذا الفصل.

وحكمه أن يتوجه الحاكم إلى النظر في أمر إثباته أولاً ويوقف النظر في دعوى المدعي، فأن ثبت الدعوى يحكم بما يقتضيه القانون، أي يقضي قضاء إلزام ، وأن لم نثبت الدعوى يقضي بردها ومنع المدعي من معارضة المدعى عليه .

الدفع غير الصحيح، وهو الذي لا تندفع به الدعوى على تقدير ثبوته .

وحكم هذا الدفع الإهمال، فلا يلتفت إليه الحاكم بل يستمر بالنظر في أمر إثبات الدعوى على ما تقتضيه أصول الرافعات[١٣٣].

المبحث الثاني: قواعد ضبط نظرية التوازن في النظام القضائي.

أولا: القواعد الفقهية الضابطة والمتعلقة بذات القضاء:

وهي القواعد التي تحدد مساحة عمل السلطة القضائية، ودور القاضي وسلطته، وكل ما صح وصفه على القاضي وكان أصيلا فيها جاز وصفه على غيره ممن اتصف بصفة الحكم في الأقضية، مثل: أهل الخبرة في مجالهم، و شيخ العشيرة ، أو أهل الصنعة، أو من يمثل الأقضية داخل الأحزاب، ينطبق عليه ما ينطبق على غيره.

فمن خلال النظر في هذه القواعد نستطيع أن نحدد المساحة التي تخص سلطة القضاء في الدولة، فتحديد سلطة القضاء ابتداء يحدد مدى نفاد الحكم، فليس للقاضي أن يخرج عن سلطته القضائية المحددة، وليس لطرفي الدعوى رفض حكم القضاء، فالابتداء بتعين سلطة القضاء هو يحقق التوازن في منطوق الحُكم انتهاءاً، وهذا هو مفهوم التوازن بين سلطة القضاء المحددة وإنفاذ حكم القضاء، وقد أوجز الإمام الماوردي ملامح تلك السلطة، حيثُ قال: (وَلَا تَخْلُو وِلَايَةُ الْقَاضِي مِنْ عُمُومٍ أَوْ خُصُوصٍ، فَإِنْ كَانَتْ وِلَايَتُهُ عَامَّةً مُطْلَقَةَ التَّصَرُّفِ فِي جَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْهُ فَنَظَرُهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى عَشَرَةِ أَحْكَامٍ:

وَالزَّائِدَةُ: تَارَةً لَا تَفْسُدُ، نَحْوُ ابْتَعْتُهُ فِي سُوقِ كَذَا، أَوْ عَلَى أَنْ أَرُدَّهُ بِعَيْبٍ إذَا وَجَدَهُ. وَتَارَةً تَفْسُدُ نَحْو: ابْتَعْته عَلَى أَنْ يُقِيلَنِي إذَا اسْتَقَلْتُهُ. وَالْكَاذِبَةُ: هِيَ الْمُسْتَحِيلَةُ: كَمَنْ ادَّعَى بِمَكَّةَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ فُلَانَةَ أَمْسِ بِالْبَصْرَةِ.) ينظر: السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (المتوفى: ٩١١هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، ص٤٩٩؛ وينظر أيضا القول بتمامه : الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (المتوفى: ٤٥٠هـ)، لحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض – الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٩م، الجزء ١٧، ص ٢٩٢.

(١٣٢) جاء في الْمَادَّةُ (١٦٣١) (الدَّفْعُ هُوَ الْإِتْيَانُ بِدَعْوَى مِنْ قِبَلِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ تَدْفَعُ دَعْوَى الْمُدَّعِي). ينظر: علي حيدر، درر الحكم ، الجزء٤، ص ١٩٠؛ منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤،ص٢٠.

(١٣٣) منير، شرح مجلة الأحكام ، الجزء٤،ص١٩.

أَحَدُهَا: فَصْلٌ فِي الْمُنَازَعَاتِ، وَقَطْعُ التَّشَاجُرِ وَالْخُصُومَاتِ، إمَّا صُلْحًا عَنْ تَرَاضٍ، وَيُرَاعَى فِيهِ الْجَوَازُ، أَوْ إجْبَارًا بِحُكْمٍ بَاتٍّ يُعْتَبَرُ فِيهِ الْوُجُوبُ.
وَالثَّانِي: اسْتِيفَاءُ الْحُقُوقِ مِمَّنْ مَطَلَ بِهَا، وَإِيصَالُهَا إلَى مُسْتَحَقِّيهَا بَعْدَ ثُبُوتِ اسْتِحْقَاقِهَا مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إقْرَارٌ، أَوْ بَيِّنَةٌ، وَاخْتُلِفَ فِي جَوَازِ حُكْمِهِ فِيهَا بِعِلْمِهِ؛ فَجَوَّزَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَصَحُّ قَوْلَيْهِ، وَمَنَعَ مِنْهُ فِي الْقَوْلِ الْآخَرِ.
وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ: يَجُوزُ أَنْ يُحْكَمَ بِعِلْمِهِ فِيمَا عَلِمَهُ فِي وِلَايَتِهِ، وَلَا يَحْكُمُ بِمَا عَلِمَهُ قَبْلَهَا)[١٣٤].

ولهذا وجدنا بعض القواعد تساهم في تبين تلك السلطة إجمالا، يضاف إليها ما يحددها من حيث التفصيل اللازم في القضاء، ومن هذه القواعد المجملة:

كل ما يمنع في القضاء ابتداء يمنع دواما، وكل ما يمنع الابتداء يمنع البقاء[١٣٥].

انْعِدَامُ الشَّرْطِ قَبْلَ الْقَضَاءِ يَمْنَعُ الْقَاضِيَ مِنْ الْقَضَاءِ بِالْقَطْعِ [١٣٦].

كُلُّ مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلشَّهَادَةِ يَكُونُ أَهْلًا لِلْقَضَاءِ وَمَا يُشْتَرَطُ لِأَهْلِيَّةِ الشَّهَادَةِ يُشْتَرَطُ لِأَهْلِيَّةِ الْقَضَاءِ[١٣٧].

قواعد تتعلق ببيان دور القاضي:

القاضي نصب ناظرا للمسلمين لا مبطلا لحقوقهم[١٣٨].

إن القاضي نصب لدفع الظلم وإيصال الحقوق إلى أصحابها فيحتاط لإيفائها عن تعطيلها[١٣٩].

الْقَاضِيَ نَصَّبَ نَاظِرًا لِحُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ إذَا عَجَزُوا عَنْ النَّظَرِ لِأَنْفُسِهِمْ[١٤٠].

قواعد تتعلق ببيان قوة قرار القاضي:

ولاية الإمام عامة وولاية القاضي قاصرة فيما ولاه الإمام إياه [١٤١].

---

(١٣٤) ينظر: أبو الحسن الماوردي: الأحكام السلطانية ، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير (المتوفى: ٤٥٠هـ) ، دار الحديث – القاهرة ، ص١١٩.

(١٣٥) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص ١٧٧.

(١٣٦) شمس الأئمة السرخسي: محمد بن أحمد بن أبي سهل (المتوفى: ٤٨٣هـ)، المبسوط، دار المعرفة – بيروت، بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، المبسوط ، الجزء٩ ، ص ١٧٦.

(١٣٧)كمال الدين ابن الهمام: محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف (المتوفى: ٨٦١هـ)، فتح القدير، دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ، الجزء٧ ، ص٢٥٣.

(١٣٨) ابن البابرتي : محمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي (المتوفى: ٧٨٦هـ) ، العناية شرح الهداية، الناشر: دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ ، الجزء ٩، ص٣٩٢.

(١٣٩) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء١، ص ١٩٥؛ وينظر: ابن نجيم المصري: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف (المتوفى: ٩٧٠هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد ١١٣٨ هـ)، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتاب الإسلامي ، الطبعة: الثانية – بدون تاريخ ، الجزء ٤، ص ١٢٧.

(١٤٠) ابن الهمام، فتح القدير، الجزء ١٠، ص١٩٥؛ شمس الأئمة السرخسي، المبسوط، الجزء١٢، ص٤٤.

الْوِلَايَةُ الْخَاصَّةُ أَقْوَى مِنْ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ[١٤٢].
الشهادة على إبطال قضاء القاضي لا تقبل[١٤٣].
إنما تكون قوة القاضي بحسب ما يسند إليه[١٤٤].

ثانيا: القواعد الفقهية المتعلقة بقضاء القاضي.
فقضاء القاضي له حده وصوره التنفيذية ومدى تطبيق إجراءاته، وهو فوق ذلك خاص وليس بعام على العكس من حكم الحاكم ففيه صفة العموم هي الغالبة والخصوص هو الاستثناء، إلا ما يخص التشريعات الدستورية.
وعلى القاضي أن لا يخرج عن المتفق عليه في القضاء، يُنْقَضُ قَضَاءُ الْقَاضِي إذَا خَالَفَ نَصًّا، أَوْ إجْمَاعًا، أَوْ قِيَاسًا جَلِيًّا. قَالَ الْقَرَافِيُّ: أَوْ خَالَفَ الْقَوَاعِدَ الْكُلِّيَّةَ. قَالَ الْحَنَفِيَّةُ: أَوْ كَانَ حُكْمًا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، نَقَلَهُ السُّبْكِيُّ فِي فَتَاوِيهِ.قَالَ: وَمَا خَالَفَ شَرْطَ الْوَاقِفِ فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلنَّصِّ. وَهُوَ حُكْمٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ نَصُّهُ فِي الْوَقْفِ نَصًّا، أَوْ ظَاهِرًا[١٤٥].

أين يظهر قضاء القاضي:

فليس للقاضي أن يقضي لنفسه، وعليه أن يتحرى الحق والعدل في قضائه، مقدما المصلحة العامة على الخاصة، والخاصة التي فيها عدل على الخاصة التي ليس فيها عدل لكونها مصلحة فاسدة، وله الاجتهاد في الأمور، مراعيا شروط المدعي والمدعى عليه والمدعى به، وقد جاء القواعد الفقهية مبينة لذلك منها:
القاضي لا يملك أن يقضي لنفسه، ولا لمن لا تقبل شهادته له[١٤٦].
القاضي مأمور بالقضاء بالحق، القاضي مأمور بالعدل[١٤٧].

---

(١٤١) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص ١٩٥ وما بعدها؛ زين الدين السَلامي: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، القواعد لابن رجب، دار الكتب العلمية ، ص١١٥؛ ابن الهمام، فتح القدير، الجزء ٧، ص ٣١٧؛ الحريري: الدكتور إبراهيم محمد، القواعد والضوابط الفقهية لنظام القضاء في الإسلام، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ، دار عمار، عمان – الأردن، ص٢٦ .

(١٤٢)ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، ، الجزء١ ، ص٤٥٥.

(١٤٣) شمس الأئمة السرخسي، المبسوط، الجزء٢٦، ص١٨٣ ؛ الكاساني: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م ، الجزء ٢، ص ٣٢٦.

(١٤٤) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص١٧٤؛ الحريري، القواعد والضوابط الفقهية لنظام القضاء في الإسلام ، ص٢٦ .

(١٤٥) السيوطي، الأشباه والنظائر،ص١٠٥.

(١٤٦) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص ؛ و ينظر: أبو الحسين البَصْري المعتزلي: محمد بن علي الطيب (المتوفى: ٤٣٦هـ)، المعتمد في أصول الفقه ، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣، الجزء ٢، ص٣٧٧ ؛ الْعرف يسْقط اعْتِبَاره عِنْد وجود التَّسْمِيَة بِخِلَافِهِ) ينظر: المجددي البركتي: محمد عميم الإحسان، قواعد الفقه، الصدف ببلشرز –كراتشي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ – ١٩٨٦، ص٩٧.

كل شيء فيه مصلحة الناس فهو السلطان، لأن الشرع وضع لمصلحة الناس.
الْقَاضِي إِذَا قَضَى فِي مُجْتَهَدٍ فِيهِ نَفَذَ قَضَاؤُهُ(١٤٨).
الْقَاضِي إِذَا قَضَى بِقَوْلٍ مَرْجُوعٍ عَنْهُ جَازَ، وَكَذَا لَوْ قَضَى فِي فَصْلٍ مُجْتَهَدٍ فِيهِ(١٤٩).
الْقَضَاءُ يَقْتَصِرُ عَلَى الْمَقْضِيِّ عَلَيْهِ وَلَا يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ(١٥٠).
أَنَّ الْقَاضِيَ إِذَا قَضَى بِاسْتِصْحَابِ الْحَالِ لَا يَكُونُ تَكْذِيبًا لَهُ(١٥١).
قَاعِدَة الْقَضَاء بِالنّكُولِ كالقضاء بِشَهَادَة الزُّور (١٥٢).

ضوابط قضاء القاضي:

هذه جملة من القواعد الفقهية الضابطة لقضاء القاضي، فهي قواعد من جهة ضوابط من جهة أخرى بينهما عموم وخصوص وجهي، وهي تراعي مسار قضاء القاضي فلا يخرج عن جادة الصواب لو استحضرها، وقد اخترنا منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

تصرف القاضي مقيد بالعدل، فإذا ظهر الغبن الفاحش ظهر أن القضاء كان بغير عدل (١٥٣).

---

(١٤٧) ينظر: أبو المعالي البخاري الحنفي : برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ (المتوفى: ٦١٦هـ) ، المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، الجزء٨، ص٢١؛ وينظر: حيدر: مجلة الأحكام العدلية المادة (١٧٩٩).

(١٤٨) ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء٢ ، ص٣٨٠؛ ويسند هذه القاعدة قاعدة أخرى: (أَنَّ الْقَاضِيَ إِذَا قَضَى بِالِاجْتِهَادِ فِي حَادِثَةٍ لَا نَصَّ فِيهَا ثُمَّ تَحَوَّلَ عَنْ رَأْيِهِ فَإِنَّهُ يَقْضِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ عِنْدَهُ، وَلَا يُنْقَضُ مَا مَضَى مِنْ قَضَائِهِ) ينظر: فخر الدين الزيلعي: عثمان بن علي بن محجن البارعي، الحنفي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ، وعليه حاشية: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشِّلْبِيُّ (المتوفى: ١٠٢١ هـ) ،الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية – بولاق، القاهرة ، الطبعة: الأولى، ١٣١٣ هـ ، (ثم صورتها دار الكتاب الإسلامي : الطبعة٢) الجزء٦ ، ص٢٢٢.

(١٤٩) ينظر: ابن نجيم المصري: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف (المتوفى: ٩٧٠هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد ١١٣٨ هـ)، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، الطبعة: الثانية – بدون تاريخ، الجزء٧ ، ص٩.

(١٥٠) ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء٢ ، ص ٣١٨؛ ابن نجيم المصري، المعروف (المتوفى: ٩٧٠هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، الجزء ٥، ص٢٠٧.

(١٥١) ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء٣ ، ص٤٩.

(١٥٢) ينظر: ابن نجيم المصري، المعروف (المتوفى: ٩٧٠هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، الجزء ٧، ص ١٥ ؛ ابن عابدين: محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، رد المحتار على الدر المختار ، الناشر: دار الفكر–بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، الجزء ٥، ص ٤٠٥.

تصرف القاضي فيما له فعله من أمور الناس والأوقاف مقيد بالمصلحة ، فَمَا خَرَجَ عَنْهَا مِنْهُ بَاطِلٌ [١٥٤].
تَصَرُّفُ الْقَاضِي فِي الْأَوْقَافِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَصْلَحَةِ؛ فَمَا خَرَجَ عَنْهَا مِنْهُ بَاطِلٌ [١٥٥].
القاضي مأمور بإتباع الظاهر، فِي الْقَضَاء فَلهُ أَن يعْتَمد السّجل فِي ذَلِك[١٥٦].
القضاء أمر يحتاج إلى الرأي والتدبير[١٥٧].
لا معتبر بالقضاء عن جهل.
لا يعمل القاضي في سجل من قبله برأيه[١٥٨].
خطأ القاضي في بيت المال (أي غير مضمون عليه) [١٥٩] و(ما تصرف فيه القاضي من طريق الحكم لا يلحقه ضمان) [١٦٠].
الأنفاق بأمر القاضي كالإنفاق بأمر المالك.

ثالثا: قواعد لها دورها في ترجيح الحكم.

القواعد الفقهية العاملة في المرجحات الأولية.

لا بد للقاضي قبل البدء بالنظر في الدعوى، النظر في المرجحات الأولية التي تؤسس لصحة النظر في الدعوى، وهي تخص أركان الدعوى، فإذا استكملت الدعوى أركانها هنا نظر القاضي في الدعوى المقدمة للحكم فيها، فمنها ما يخص الذمة والأصول الثابتة، ومنها ما يخص ظاهر الحكم في الدعوى.

المطلب الأول: القواعد المتعلقة بالذمة.

---

(١٥٣) ينظر: بدر الدين العينى : أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، البناية شرح الهداية، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ، الجزء١١ ، ص ٤٥١ .

(١٥٤) ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء١ ، ص ٣٧٤، و الجزء٢ ، ص٤١٠.

(١٥٥) ينظر: الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء٢ ، ص٤١٠.

(١٥٦) شمس الأئمة السرخسي: محمد بن أحمد بن أبي سهل (المتوفى: ٤٨٣هـ)، أصول السرخسي، دار المعرفة – بيروت ، الجزء ١، ص٣٥٨ ؛ علاء الدين البخاري الحنفي، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي ، الجزء ٣ ، ص ٥٢ .

(١٥٧) الطرابلسي الحنفي: أبو الحسن علاء الدين، علي بن خليل (المتوفى: ٨٤٤هـ)، معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام ، دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ ، ص٢٦.

(١٥٨) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٢٠٢؛ السُّغْدي: أبو الحسن علي بن الحسين بن محمد ، حنفي (المتوفى: ٤٦١هـ) ، النتف في الفتاوى، تحقيق: المحامي الدكتور صلاح الدين الناهي، دار الفرقان / مؤسسة الرسالة – عمان الأردن / بيروت لبنان ، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٤، تحت باب: سجل الْحَاكِم السَّابِق ، الجزء ٢، ص٧٨٢.

(١٥٩) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٢٠٤؛ عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، دار الكاتب العربي، بيروت، الجزء٢، ص٤٢٠؛ الندوي: علي أحمد، موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية في الفقه الإسلامي، دار المعرفة، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، الجزء ٣، ص٢٠٢.

(١٦٠) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٢٠٤؛ ابن الهمام، فتح القدير، الجزء٧ ، ص٣٥٧.

الْأَصْلُ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ[١٦١].
المتهم بريء حتى تثبت إدانته[١٦٢]
الأصل إبقاء ما كان على ما كان[١٦٣].
الْقَدِيمَ يَتْرُكُ عَلَى قَدَمِهِ [١٦٤].
ما ثبت ببقائه ما لم يقم الدليل على خلافه[١٦٥].
لا يزال حكم البراءة بالشك[١٦٦].
الْأَمِينُ يُصَدَّقُ بِيَمِينِهِ فِي بَرَاءَةِ ذِمَّتِهِ [١٦٧].

القواعد المتعلقة بظاهر الحكم في الدعوى.

(١٦١)الْمَادَّةُ (٨) (الذِّمَّةُ تَعْرِيفُهَا : لُغَةً الْعَهْدُ وَالْأَمَانُ إذْ أَنَّ نَقْضَ الْعَهْدِ وَالْأَمَانِ مُوجِبٌ لِلذَّمِّ وَفِي الِاصْطِلَاحِ بِمَعْنَى النَّفْسِ وَالذَّاتِ وَلِهَذَا فَسَّرَتْ الْمَادَّةُ (٦١٢) الذِّمَّةَ بِالذَّاتِ . وَالذِّمَّةُ فِي اصْطِلَاحِ عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ وَصْفٌ يَصِيرُ بِهِ الْإِنْسَانُ أَهْلًا لِمَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ). ينظر: علي حيدر، درر الحكام، الجزء١، ص١٩؛ الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء ١، ص٢٠٣؛ السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين (المتوفى: ٧٧١هـ)، الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م، الجزء١، ص٣٥٧.

(١٦٢) النملة: عبد الكريم بن علي بن محمد ، الْمُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ الْمُقَارَنِ، (تحريرٌ لمسائِلِه ودراستها دراسةً نظريَّةً تطبيقيَّةً)، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، الجزء١، ص ١٤ ؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٢٧٥.

(١٦٣)الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء١، ص ١٩٨؛ شمس الأئمة السرخسي، أصول السرخسي، الجزء٢، ص٢٠.

(١٦٤) المادة السابقة (١٢٢٤) ؛ ابن الهمام، فتح القدير، الجزء١٠ ، ص ٨٦.

(١٦٥)الْمَادَّةُ (١٢٢٤) (يُعْتَبَرُ الْقِدَمُ فِي حَقِّ الْمُرُورِ وَحَقِّ الْمَجْرَى وَحَقِّ الْمَسِيلِ. يَعْنِي تُتْرَكُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ وَتَبْقَى عَلَى وَجْهِهَا الْقَدِيمِ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ حَيْثُ إنَّهُ بِحُكْمِ الْمَادَّةِ السَّادِسَةِ يَبْقَى الشَّيْءُ الْقَدِيمُ عَلَى حَالِهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ. أَمَّا الْقَدِيمُ الْمُخَالِفُ لِلشَّرْعِ الشَّرِيفِ. فَلَا اعْتِبَارَ لَهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّيْءَ الْمَعْمُولَ بِغَيْرِ صُورَةٍ مَشْرُوعَةٍ فِي الْأَصْلِ لَا اعْتِبَارَ لَهُ وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا وَلَا يُزَالُ إذَا كَانَ فِيهِ ضَرَرٌ فَاحِشٌ. أُنْظُرْ الْمَادَّةَ (٢٧) مَثَلًا إذَا كَانَ بَالُوعُ دَارٍ جَارِيًا مِنْ الْقَدِيمِ عَلَى الطَّرِيقِ الْعَامِّ وَكَانَ فِي ذَلِكَ ضَرَرٌ لِلْمَارَّةِ فَلَا يُعْتَبَرُ قِدَمُهُ وَيُدْفَعُ ضَرَرُهُ) علي حيدر، درر الحكام، الجزء٣، ص٢٢٦؛ وينظر أيضا: ما نلقه الزركشي (قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ وَالرُّويَانِيُّ: إنَّمَا يَكُونُ الشَّرْطُ لِلتَّخْصِيصِ إذَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (المتوفى: ٧٩٤هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، ، دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، الجزء ٤، ص ٤٤٦.

(١٦٦)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٢٧٦؛ أبو اسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف (المتوفى: ٤٧٦هـ)، المهذب في فقة الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، الجزء١، ص٥٣؛ النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، دار الفكر، الجزء٢، ص ٦٣.

(١٦٧) الْمَادَّةُ (١٧٧٤) علي حيدر، درر الحكام، الجزء ٤، ص٥٠١؛ البُجَيْرَمِيّ: سليمان بن محمد بن عمر المصري الشافعي (المتوفى: ١٢٢١هـ)، تحفة الحبيب على شرح الخطيب = حاشية البجيرمي على الخطيب، دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م،الجزء٣، ص١٣١.

الدَّلِيلَ إِذَا تَطَرَّقَ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ سَقَطَ بِهِ الِاسْتِدْلَال،[١٦٨] الْمُحْتَمل لَا يكون حجَّة للقضاء[١٦٩].
تَعْلِيقُ الْبَرَاءَاتِ بِالشُّرُوطِ بَاطِلٌ لِمَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى التَّمْلِيكِ[١٧٠].
الحقوق الثابتة في الذمم لا تسقط إلا بالأداء أو الإبراء[١٧١].
بَرَاءَةَ الْأَصِيلِ تُوجِبُ بَرَاءَةَ الْكَفِيلِ [١٧٢].
لا تلزم براءة الأصيل ببراءة الكفيل[١٧٣].

رابعا: القواعد الفقهية المتعلقة بوسائل إثبات الحكم.

القواعد الفقهية المبينة لوسائل الإثبات.

وهي القواعد التي تعين القاضي في محاولة الوصول إلى الحكم، وينطبق عليها ما ينطبق على الوسائل، ولهذا كان على القاضي لتحقيق استكمال تصوره للدعوى أن يبتدئ بالوسائل التي تساعده على استكمل صورة القضية في ذهنه، لأن الحكم على الشيء فرع تصوره[١٧٤]، علما أن الوسائل هي ليست مقدمة على الغايات والمقاصد، فالمقاصد هي أعلى رتبة، وقد انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْوَسَائِلَ أَخْفَضُ رُتْبَةً مِنْ الْمَقَاصِدِ[١٧٥]، وَلِلْوَسَائِلِ أَحْكَامُ الْمَقَاصِدِ، فَالْوَسِيلَةُ إلَى أَفْضَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَفْضَلُ الْوَسَائِلِ، وَالْوَسِيلَةُ إلَى أَرْذَلِ الْمَقَاصِدِ هِيَ أَرْذَلُ الْوَسَائِلِ، ثُمَّ تَتَرَتَّبُ الْوَسَائِلُ بِتَرَتُّبِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ [١٧٦]، لِأَنَّ الْوَسَائِلَ تَسْقُطُ بِسُقُوطِ الْمَقَاصِدِ[١٧٧]؛ وعند المالكية قد يعبر عن الوسائل بالذرائع[١٧٨].

---

(١٦٨) النملة، المهذب، الجزء٤، ص١٥٤٢؛ الجمل: سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف (المتوفى: ١٢٠٤هـ)، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب)، دار الفكر، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ الجزء١، ص١٧١.

(١٦٩) السرخسي، المبسوط، الجزء١٣، ص٣٩ ؛ بدر الدين العيني، البناية شرح الهداية، الجزء٣، ص٢٥٠، والجزء ١١، ص٣١٠.

(١٧٠) ابن الهمام، فتح القدير، الجزء ٨، ص٤٣١.

(١٧١) ابن الهمام، فتح القدير، الجزء ٨ ،ص٤٣١.

(١٧٢) البزدوي، كشف الأسرار، الجزء٤، ص٣١٥؛ ابن الهمام، فتح القدير، الجزء٧ ، ص١٩٢.

(١٧٣) الماوردي، الحاوي الكبير، الجزء٩، ص٧٨، وهذه القاعدة هي مكملة للقاعدة السابقة .

(١٧٤)تقي الدين السبكي و تاج الدين السبكي: الإبهاج في شرح المنهاج ((منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي المتوفي سنه ٧٨٥هـ))، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيي السبكي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥ م، الجزء١، ص١٧٢.

(١٧٥) القرافي: شهاب الدين بن أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصَنْهَاجِي، أنوار البروق في أنواء الفروق، دراسة وتحقيق: أ.د محمد أحمد سراج، و أ.د علي جمعة محمد، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م ، القاهرة/ مصر، الجزء١ ، ص١١١ و١٢٢، و الجزء٢، ص٣٣، و٤٤.

(١٧٦) سلطان العلماء: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي(المتوفى: ٦٦٠هـ)، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة،

القواعد الفقهية الظاهرة في وسائل أثبات الحكم.

الثَّابِتَ بِالْبُرْهَانِ كَالثَّابِتِ بِالْعِيَانِ، و الثابت بالبينة كالثابت عينانا ، الثابت بالبينة بمنزلة المعلوم عند القاضي (١٧٩).

الثَّابِتُ بِالْبَيِّنَةِ بِمَنْزِلَةِ الثَّابِتِ بِالْمُعَايَنَةِ ، والبينة حجة شرعية (١٨٠).

الثابت بالبينة كالثابت باتفاق الخصم أو الخصمين، و الثابت بالتصديق كالثابت بالبينة (١٨١).

مَا ثَبَتَ بِالشَّرْعِ مُقَدَّمٌ عَلَى مَا ثَبَتَ بِالشَّرْطِ (١٨٢)، وذلك لأن الشرع مقدم على الشرط.

إثبات الشيء ابتداء يستدعي دليلا مثبتا، والحكم يدار على الدليل(١٨٣).

الشرع قصر الحاجة على البينة أو الإقرار أو النكول(١٨٤).

القواعد الفقهية المحققة للوسائل أثبات الحكم.

البينة حجة في حق الكل(١٨٥) والبينة على من المدعي واليمين على من أنكر(١٨٦).

البينة حقوق العباد إنما تسمع عند الدعوى والإنكار من الخصم(١٨٧).

١٤١٤ هـ١٩٩١ م، الجزء١، ص٥٣ وما بعدها، وحول فضل الوسائل وعلاقتها بالمقاصد ينظر: ص١٢٣ وما بعدها، وص١٢٦؛ وينظر: القرافي، الفروق، الجزء١، ص١٦٦.

(١٧٧) سلطان العلماء، قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، الجزء١، ص١٢١ و١٢٥ و١٢٨ .

(١٧٨) القرافي، الفروق، الجزء٢، ص٣٢.

(١٧٩)الْمَادَّةُ (٧٥)، علي حيدر، درر الحكام، الجزء ١، ص٦٨؛ السرخسي، المبسوط، الجزء١٦، ص٩٩؛ الزحيلي : د. محمد مصطفى، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م، الجزء، ١، ص٥٨٠.

(١٨٠) داماد أفندي، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، الجزء٢، ٧٠٨؛ والمعانية قد تقدم على الإقرار، قال السرخسي: (لِأَنَّ الثَّابِتَ بِالْإِقْرَارِ مِنْ الْقَتْلِ لَا يَكُونُ أَقْوَى مِنْ الثَّابِتِ بِالْمُعَايَنَة) المبسوط، الجزء ٢٧، ١٣١؛ وينظر حول البينة وكونها حجة شرعية : البخاري الحنفي: أبو المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، الجزء٩، ص٢١٤ .

(١٨١) السرخسي، المبسوط، الجزء ٣٠، ص١٤٦؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣١١.

(١٨٢) السبكي، الأشباه والنظائر، الجزء ١، ص١٤٩؛ السيوطي، الأشباه والنظائر، ص١٤٩ .

(١٨٣) ابن الهمام، فتح القدير، الجزء٦، ص١٠٢؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣١٢.

(١٨٤) البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣١٢.

(١٨٥)السرخسي، المبسوط، الجزء٧، ص٨٣ و الجزء١١، ص١٦؛ وقد جاء أيضا (الْبَيِّنَة حجَّة فِي جَانب الْمُدَّعِي وَالْيَمِين حجَّة فِي جَانب الْمُنكر) سبط أبي الفرج ابن الجوزي: يوسف بن قزأوغلي – أو قزغلي – ابن عبد الله، أبو المظفر، شمس الدين، (المتوفى: ٦٥٤هـ)، إيثار الإنصاف في آثار الخلاف، تحقيق: ناصر العلي الناصر الخليفي، دار السلام – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، ص ٣٤٩.

(١٨٦)سبط أبي الفرج ابن الجوزي، إيثار الإنصاف في آثار الخلاف، ص ٣٤٩.

البينة حجة متعدية، والإقرار حجة قاصرة، و البينة أقوى من الإقرار، لأنها حجة في حق الكل والإقرار ليس بحجة في حق الغير(١٨٨).
الأصل أن البينة تقبل، والدماء والأموال لا تستحق بالدعاوى دون البينات(١٨٩).
البينات حجج فيجب العمل بها بحسب الإمكان(١٩٠).
البينة أقوى من استصحاب الحال(١٩١).
الْبَيِّنَة لإِثْبَات خلاف الظَّاهِر، وَالْيَمِين لإبقاء الأَصْل (١٩٢).
البينة لمن يثبت الزيادة، واليمين على من ينفيها(١٩٣).
كل ما يثبت برجل وامرأتين لا يثبت برجل ويمين(١٩٤).
الْبَيِّنَة حجَّة متعدية وَالْإِقْرَار حجَّة قَاصِرَة(١٩٥).

القواعد الفقهية في البينات.

شَهَادَةَ الْمُسْلِمِينَ حُجَّةٌ مُطْلَقَةٌ تامة على جماعة المسلمين(١٩٦).

---

(١٨٧) ابن البابرتي، العناية شرح الهداية، الجزء٧ ، ص٣٠٩ ؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣١٨.

(١٨٨) الحموي، غمز عيون البصائر، الجزء٢، ٣٦٧ و الجزء٣، ص٥٠؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣١٩.

(١٨٩)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢٠.

(١٩٠)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢٠؛ المجددي البركتي ، قواعد الفقه، ص٦٦.

(١٩١)السرخسي، أصول السرخسي، الجزء ٢، ص١٤١؛ السيوطي، الأشباه والنظائر، ص٧٦؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢١.

(١٩٢)الزرقا: أحمد بن الشيخ محمد (١٢٨٥هـ – ١٣٥٧هـ) ، شرح القواعد الفقهية، صححه وعلق عليه: مصطفى أحمد الزرقا، دار القلم – دمشق / سوريا، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، ص٣٩١ ؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢٢؛ وقد ورد حَدِيثُ: «الْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» . الْبَيْهَقِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: «لَوْ أُعْطِيَ النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» . وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِلَفْظِ: «وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ» ينظر:ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفى: ٨٥٢هـ)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، تحقيق: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، الجزء٤، ص٣٠٧.

(١٩٣)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢٢؛ المجددي البركتي ، قواعد الفقه، ص٦٦.

(١٩٤)النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ)، منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه ،تحقيق: عوض قاسم أحمد عوض، دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص ٣٤٧؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ١، ص٣٢٤.

(١٩٥) المجددي البركتي ، قواعد الفقه، ص٦٦.

(١٩٦) الكاساني الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الجزء٦، ص٢٥٥ ؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ٢، ص٣٤٢.

شهادة الفرد لا تثبت الحكم[١٩٧].
شهادة الرجل حجة تامة على الإطلاق وشهادة المرأة ضرورة[١٩٨].
شهادة المرأة مِمَّا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا الرَّجُلُ وَشَهَادَةُ الْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ فِيمَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ حُجَّةٌ تَامَّةٌ[١٩٩].
الشهادة على الشهادة تجوز في كل شيء إلا في الحدود والقصاص[٢٠٠].
الشهادة على الشهادة محلها حقوق الناس كافة ولا يتبت ذلك في حقوق الله تعالى[٢٠١].
فهذا القواعد تساعد القاضي في قضاءه من خلال ترجيح واختيار النظر في تلك القواعد، وقد تمنع القاضي من قبول الدعوى أصلا، أو تنقل القضية من صورة إلى صورة أخرى، مثاله: رُجُوعَ الشُّهُودِ هُنَاكَ قَبْلَ الْقَضَاءِ يَمْنَعُ الْقَاضِيَ مِنْ الْقَضَاءِ بِالْمَالِ لِعَدَمِ تَمَامِ الْحُجَّةِ فِي الِابْتِدَاءِ؛ أما في حد الزنا لَوْ امْتَنَعَ الرَّابِعُ مِنْ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ فِي الِابْتِدَاءِ يُقَامُ حَدُّ الْقَذْفِ عَلَى الثَّلَاثَةِ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ لِسُكُوتِ الرَّابِعِ بَلْ بِنِسْبَتِهِمْ إيَّاهُ إلَى الزِّنَا[٢٠٢].
وللقاضي أن يدقق في حال الشهود، قال ابْن فَرِحُونَ[٢٠٣] : (وَقد استحبوا لْلْقَاضِي أَن يتَّخذ كاشفا قد ارْتَضَاهُ يكْشف عَن أَحْوَال الشُّهُود فِي السِّرّ وَيقبل مِنْهُ مَا نقل إِلَيْهِ

---

(١٩٧)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ٢، ص٣٤٩؛ قال بو الحسين أحمد بن محمد، القدوري، البغدادي، الحنفي. المولود في عام ٣٦٢، والمتوفى في عام ٤٢٨ من الهجرة : (ولا تقبل شهادة واحد على شهادة واحد) وقال الميداني الحنفي– عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي (المتوفى: ١٢٩٨هـ) – مبينا (لأن شهادة الفرد لا تثبت الحق) ينظر : اللباب في شرح الكتاب، حققه، وفصله، وضبطه، وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، الجزء٤، ص٦٨.

(١٩٨)البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ٢، ص٣٥٠ ؛ وحول شهادة المرأة ينظر: برهان الدين اليعمري: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، (المتوفى: ٧٩٩هـ)، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، الجزء ١، ص ٣٥٩؛ و الْمَادَّةُ (١٦٨٥) – (نِصَابُ الشَّهَادَةِ فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ رَجُلَانِ أَوْ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ لَكِنْ تُقْبَلُ شَهَادَةُ النِّسَاءِ وَحْدَهُنَّ فِي حَقِّ الْمَالِ فَقَطْ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ اطِّلَاعُ الرِّجَالِ عَلَيْهَا)، علي حيدر، درر الحكام، الجزء٤، ص٣١٦ – ٣٢١.

(١٩٩)السرخسي، المبسوط، الجزء٦،ص٤٨؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ٢، ص٣٥١.

(٢٠٠) السرخسي، المبسوط، الجزء١٦، ص١١٥؛ ابن الهمام، فتح القدير، الجزء٨، ص٨؛ البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ٢، ص٣٥٢.

(٢٠١)مجد الدين أبو الفضل الموصلي: : عبد الله بن محمود بن مودود ، البلدحي الحنفي (المتوفى: ٦٨٣هـ) ، الاختيار لتعليل المختار، عليها تعليقات: الشيخ محمود أبو دقيقة، مطبعة الحلبي – القاهرة ، وصورتها دار الكتب العلمية – بيروت، وغيرها، تاريخ النشر: ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧م، الجزء٢، ص١٥١البياتي: القاضي عبد الغفور محمد، القواعد الفقهية في القضاء، الجزء ، ص٣٥٢.

(٢٠٢) السرخسي، المبسوط، الجزء٩، ص٤٧.

(٢٠٣) ابن فرحون: هو الإمام إبراهيم بن عَليّ بن مُحَمَّد بن فَرِحُونَ نور الدّين أَبُو الْحسن اليَعمري الجياني الأصل ، المدني المولد، وهو من كبار رجال المالكية في المشرق والمغرب، وله (الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب) وكتابه (تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام) توفي (٧٩٩ هـ) . ينظر: الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله

وَقَالُوا يَنْبَغِي أَن يستبطن أهل الدّين وَالْأَمَانَة وَالْعَدَالَة ليستعين بهم على مَا هُوَ بسبيله ويقوى بهم على التَّوَصُّل إِلَى مَا ينوبه وأجازوا التجريح فِي السِّرّ بِالْوَاحِدِ الْعدْل وَهُوَ نَحْو مَا ذكره من أعوان الْإِمَارَة) [٢٠٤].

وقد اختصر علي حيدر أفندي بشكل موجز طرق ترشيح البينات على ضوء تقسيمها، حيث قال: (يُوجَدُ فِي الْبَيِّنَاتِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ:
الْحَالُ الْأَوَّلُ: أَنْ تَتَهَاتَرَ الْبَيِّنَتَانِ فَتَكُونَ بِلَا حُكْمٍ.
الْحَالُ الثَّانِي: أَنْ يُعْمَلَ بِالْبَيِّنَتَيْنِ، إِذَا تَنَازَعَ اثْنَانِ فِي الْمَالِ الَّذِي تَحْتَ يَدِهِمَا أَوْ فِي يَدِ الْخَارِجِ، وَأَقَامَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْبَيِّنَةَ عَلَى مِلْكِهِ فَيُحْكَمُ لَهَا مُنَاصَفَةً فِي الصُّورَتَيْنِ.
الْحَالُ الثَّالِثُ: أَنْ يُعْمَلَ بِإِحْدَى الْبَيِّنَتَيْنِ تَرْجِيحًا، وَأَنْ تُرَدَّ الْأُخْرَى.)[٢٠٥].

المبحث الثالث: النظر في النصوص والمعاني، وضبط طرق االاستنباط منها.

أولا: التوازن بين النص والمعنى:

ينقسم علم أصول الفقه إلى قسمين: الأول: مصادر التشريع وهي: أربعة متفق عليها ، اثنان منها أصلية هما القرآن الكريم والسنة النبوية، واثنان منها فرعية وهما: الإجماع والقياس، والباقي مختلف فيه وهم : الاستحسان والاستصحاب والمصلحة المرسلة وسد الذرائع والعرف وقول الصحابي وشرع من قبلنا... والخلاف في اغلبها شكلي.

والقسم الثاني وهو: طرق الاستنباط، وهو ما يخص النص والمعاني المترتبة على النص، ومنها : ما هو خاص في وضع اللفظ للمعنى، وما هو يختص باللفظ باعتبار

(المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، الجزء ٢٢، ص ٧٢–٧٤؛ الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م، الجزء ١، ص ٥٢؛ ابن الأزرق، وبدائع السلك، الجزء ٢، ص٨٦٩ قسم الدارسة النقدية لمصادر الكتاب.

(٢٠٤)ابن الأزرق، وبدائع السلك، الجزء ٢، ص٥٨٩.

(٢٠٥) علي حيدر، درر الحكام، الجزء ٤، ص٥١٥ وما بعدها، والترجيح عنده يكون كما يلي : (١ – بَيِّنَةُ ظَاهِرِ الْحَالِ عَلَى خِلَافِهِ. ٢ – بَيِّنَةُ الْخَارِجِ فِي دَعْوَى الْمِلْكِ الْمُطْلَقِ. ٣ – فِي الدَّعْوَى الْمُقَدَّمِ تَارِيخُهَا. ٤ – الدَّعْوَى الْمُؤَرَّخَةُ عَلَى الدَّعْوَى بِلَا تَارِيخٍ. ٥ – بَيِّنَةُ ذِي الْيَدِ فِي دَعْوَى الْمَالِ الْمُقَيَّدِ كَالنِّتَاجِ وَلَا يُعْتَبَرُ فِي ذَلِكَ التَّارِيخُ. ٦ – مَنْ يُثْبِتُ الزِّيَادَةَ. ٧ – مَنْ يُثْبِتُ الْأَصْلَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ الزِّيَادَةِ. تَفْرِيعَاتٌ ١ – تُرَجَّحُ بَيِّنَةُ الْبَيْعِ عَلَى بَيِّنَةِ الْهِبَةِ. ٢ – بَيِّنَةُ الْبَيْعِ عَلَى بَيِّنَةِ الصَّدَقَةِ. ٣ – بَيِّنَةُ الْبَيْعِ عَلَى بَيِّنَةِ الْإِجَارَةِ. ٤ – بَيِّنَةُ الْبَيْعِ عَلَى بَيِّنَةِ الرَّهْنِ. ٥ – بَيِّنَةُ الْمُوَاضَعَةِ فِي الْمَبِيعِ عَلَى بَيِّنَةِ الْبَيْعِ الْقَطْعِيِّ. ٦ – بَيِّنَةُ بَيْعِ الْوَفَاءِ عَلَى بَيِّنَةِ الْبَيْعِ الْقَطْعِيِّ. ٧ – بَيِّنَةُ الْإِقَالَةِ عَلَى بَيِّنَةِ الْبَيْعِ. ٨ – بَيِّنَةُ الْإِجَارَةِ عَلَى بَيِّنَةِ الرَّدِّ. ٩ – بَيِّنَةُ الْإِجَارَةِ عَلَى بَيِّنَةِ الرَّهْنِ. ١٠ – بَيِّنَةُ الْهِبَةِ عَلَى بَيِّنَةِ الْغَصْبِ. ١١ – بَيِّنَةُ الْيَسَارِ عَلَى بَيِّنَةِ الْإِعْسَارِ. ١٢ – بَيِّنَةُ الْمُؤَجِّرِ عَلَى مِقْدَارِ الْإِجَارَةِ عَلَى بَيِّنَةِ الْمُسْتَأْجِرِ. ١٣ – بَيِّنَةُ التَّمْلِيكِ عَلَى بَيِّنَةِ الْعَارِيَّةِ. ١٤ – بَيِّنَةُ الْبُلُوغِ عَلَى بَيِّنَةِ الصِّغَرِ. ١٥ – بَيِّنَةُ الْحُدُوثِ عَلَى بَيِّنَةِ الْقِدَمِ. ١٦ – بَيِّنَةُ التَّفْوِيضِ بِالْوَفَاءِ عَلَى بَيِّنَةِ التَّفْوِيضِ الْقَطْعِيِّ. ١٧ – بَيِّنَةُ الرَّهْنِ عَلَى بَيِّنَةِ الصَّدَقَةِ. ١٨ – بَيِّنَةُ الرَّهْنِ عَلَى بَيِّنَةِ الْعَارِيَّةِ. ١٩ – بَيِّنَةُ الرَّهْنِ عَلَى بَيِّنَةِ الْإِيدَاعِ. ٢٠ – بَيِّنَةُ الرَّهْنِ عَلَى بَيِّنَةِ الْغَاصِبِ. ٢١ – بَيِّنَةُ الصِّحَّةِ عَلَى بَيِّنَةِ مَرَضِ الْمَوْتِ. ٢٢ – بَيِّنَةُ الْغَبْنِ مَعَ التَّغْرِيرِ عَلَى بَيِّنَةِ ثَمَنِ الْمِثْلِ. ٢٣ – بَيِّنَةُ الْفَسَادِ عَلَى بَيِّنَةِ الصِّحَّةِ (يستثنى بينة صحة البيع على بينة فساده). ٢٤ – بَيِّنَةُ الْمُسْتَأْجِرِ عَلَى مِقْدَارِ الْمُدَّةِ عَلَى بَيِّنَةِ الْمُؤَجِّرِ).

استعماله في المعنى، وما يختص بدلالة اللفظ على المعنى، وأخير النظر في كيفية دلالة اللفظ على المعنى.

ولذا كان علينا أعمال ما وجدنا من طرق استنباط الأحكام والقواعد الأصولية والفقهية في الحكم القضائي، والتي جاءت للضبط النص الذي ورد إلينا وفهمه، وضبط آلة الاجتهاد بحيث يبقى المجتهد والفقهية والقاضي ومن تصدر للحكم أن يسعوا لتحري الحكم من مصادره وتكيف النطق به بعد النظر في مفهومه وإعمال قواعد الاجتهاد فيه.

وتطبيق طرق الاستنباط والقواعد على الدعوى القضائية يحتاج إلى ملكة أصوليه تحقق الحكم على الوقائع من خلال مخرجات أصول الفتوى.. وقد كتب العديد من أهل العلم كتبا أصولية كتبت خاصة لكليات القانون تجمع بطريق تصنيفها بين كلية الشريعة من جهة وكلية القانون من جهة اخرى[٢٠٦].

ولذلك سنتدرج في بيان هذا الأمر بشكله العام ليتحقق مقصود البحث المقدم، وسيكون هذا البيان مستندا إلى بيان ضوابط المنطوق من جهة السياق، وبيان ضوابط المفهوم من جهة المعنى.

أولا: القواعد الفقهية المرجحة للنص، وهي القواعد التي تقدم منطوق النص على مفهومه، وتبين مظان الاجتهاد أين يكون، فلا يكون في واضح الدلالة، وما يدخل تحت مظنته.

وجوب ترجيح الحكم بالنص (المنطوق):

لا اجتهاد مع النص، فَلَا خِلَافَ فِي سُقُوطِ الِاجْتِهَادِ مَعَ النَّصِّ [٢٠٧].

لا قياس مع النص، إذ لا قياس مع النص[٢٠٨].

التعامل بخلاف النص لا يعتبر[٢٠٩].

ما ثبت بنص أو إجماع لا يطلب له نظير يقاس به[٢١٠].

كل عرف ورد النص بخلافه فهو غير معتبر[٢١١].

---

[٢٠٦] حول ربط أصول الفقه بأصول القضاء واعتبار مادة أصول الفقه هي الأساس في علم القضاء العديد من الكتاب كان من أبرزهم أستاذنا الأستاذ الدكتور حمد عبيد الكبيسي، الذي وضع كتاب تحت عنوان: أصول الأحكام وطرق الاستنباط في التشريع الإسلامي، سوريا / دمشق، دار السلام،ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، ليكون دلالة الكتاب مطابقة لمضمونه ، ينظر المقدمة: ص١٠؛ كما نجد أن الدكتور عبد الكريم زيدن ، غالبا ما يذكر في كتابه الوجيز أمثلة قانونية بعد ذكره الأمثلة الفقهية ينظر: الوجيز في أصول الفقه، لبنان/ بيروت ، مؤسسة الرسالة، ط١٥، سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

[٢٠٧] الجصاص الحنفي: أحمد بن علي أبو بكر الرازي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الفصول في الأصول، وزارة الأوقاف الكويتية ، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م، الجزء٤ ، ص ٣٨.

[٢٠٨] تاج الدين السبكي، الأشباه والنظائر، الجزء١، ص ٤٠٩ ؛ الجصاص الحنفي، الفصول في الأصول، الجزء٤ ، ص ٦٤ .

[٢٠٩] الحموي الحنفي: أحمد بن محمد مكي، أبو العباس، شهاب الدين الحسيني (المتوفى: ١٠٩٨هـ)، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، الجزء ١، ص٢٩٨ .

(٢١٠) الندوي، موسوعة القواعد والضوابط الفقهية، الجزء٢، ص٣٩٥ .

وجوب اعمل الحكم بالنص:
الأصل بقاء حكم النص حتى يرد ناسخ[٢١٢].
اعتبار الحرج فيما لا نص فيه بخلافه[٢١٣].
إنما تعتبر البلوى فيما ليس فيه نص بخلافه فأما مع وجود النص لا معتبر بها[٢١٤].
التنصيص على الشيء يوجب ثبوت الحكم في مثله[٢١٥].
لا يحرم من العقود إلا ما حرمه نص أو إجماع أو قياس في معنى ما دل عليه النص أو الإجماع[٢١٦].

الثاني: القواعد الفقهية المبينة للحكم، وهي القواعد التي يظهر منها الحكم،

أعمال المفهوم من النص:
الثابت دلالة كالثابت نصا[٢١٧].
ما كان في معنى المنصوص عليه، ثبت الحكم فيه[٢١٨].

---

[٢١١] الحموي الحنفي، غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، الجزء ١، ص٢٩٧. ومما يسند هذه القاعدة : قاعدة (الْعرف غير مُعْتَبر فِي الْمَنْصُوص عَلَيْهِ) و (الْعرف يسْقط اعْتِبَاره عِنْد وجود التَّسْمِيَة بِخِلَافِهِ) ينظر: المجددي البركتي، قواعد الفقه، الصدف ، ص٩٢.

[٢١٢] ابن النجار الحنبلي: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف (المتوفى: ٩٧٢هـ)، شرح الكوكب المنير، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، الجزء ٤، ص٤٤٢.

[٢١٣] السرخسي، المبسوط، الجزء٣، ص ١٩٤؛ يقول الأمام شمس الأئمة السرخسي محمد بن أحمد بن أبي سهل (المتوفى: ٤٨٣هـ): (إِعْمَال الرَّأْي فِي الْحَوَادِث الَّتِي لَا نَص فِيهَا من الْحَرج مَا لَا يخفى)، ينظر: أصول السرخسي، دار المعرفة – بيروت ، الجزء ٢، ص١٤١.

[٢١٤] السرخسي، المبسوط ، الجزء ٤ ، ص١٠٥.

[٢١٥] ذهب الْحَنَفِيَّةُ إلى تقرير هذا الأمر حَيْثُ قَالُوا: (التَّنْصِيصُ عَلَى الشَّيْءِ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الْحُكْمِ عَمَّا عَدَاهُ) ابن الموقت الحنفي: أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج (المتوفى: ٨٧٩هـ)، التقرير والتحبير، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الجزء ٤، ص٤٤٢؛ وينظر: أمير بادشاه الحنفي: محمد أمين بن محمود البخاري المعروف (المتوفى: ٩٧٢هـ)، تيسير التحرير، دار الفكر – بيروت، الجزء ١ ، ص١٣١.

[٢١٦] الزحيلي : د. محمد مصطفى، القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، جامعة الشارقة دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، الجزء ٢ ، ص٨١٣.

[٢١٧] قال ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي: (الثَّابِتِ دَلَالَةً ثَابِتًا بِالنَّصِّ)، ينظر: ابن الهمام ،فتح القدير، الجزء٣ ، ص٨٦ .

[٢١٨] إمام الحرمين الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد ، أبو المعالي، ركن الدين، (المتوفى: ٤٧٨هـ)، لبرهان في أصول الفقه، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، الجزء٢ ، ص١٨ ؛ وينظر ايضا : آل تيمية (بدأ بتصنيفها الجدّ: مجد الدين عبد السلام بن تيمية (ت:

كل تعليل يتضمن إبطال النص فهو باطل[٢١٩].

أعمال الراجح من المفهوم:

الْيَقِين لَا يزَال بِالشَّكِّ[٢٢٠].

أحكام الشرع مستقرة على تغليب اليقين على الشك[٢٢١].

ما كان في معنى المنصوص عليه، ثبت الحكم فيه[٢٢٢].

أعمال الحكم من المفهوم وما يتعلق به:

حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْسَعُ حُكْمًا مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ [٢٢٣].

حكم التصرف يثبت من غير تنصيص المتصرف على ذلك الحكم.

الحوادث ترد على أشبه المنصوص عليها[٢٢٤].

ثالثا: طرق استنباط الحكم والنظر في دلالته ومعانيه.

في وضع اللفظ للمعنى، فهل المعنى خاص باللفظ المراد أو هو عام له أو هو يشترك مع معاني أخرى، وإذا كان اللفظ خاصا هل هو مطلق أو مقيد أم هو أمر أم نهي..[٢٢٥] وأضاف بعض المحققين المؤول قسما رابعا، وذلك إذا لم يكن اللفظ ينطبق عليه الأقسام الثلاثة السابقة[٢٢٦].

٦٥٢هـ) ، وأضاف إليها الأب، : عبد الحليم بن تيمية (ت: ٦٨٢هـ) ، ثم أكملها الابن الحفيد: أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)) المسودة في أصول الفقه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي، ص٣٧٨.

[٢١٩] ينظر: الندوي: علي أحمد، موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية في الفقه الإسلامي، دار المعرفة، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، الجزء ٣، ص٥٥.

[٢٢٠] ينظر: شمس الأئمة السرخسي، أصول السرخسي، الجزء ٢، ص١١٦. وقد جاء عن الإمام الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، حيث قال : (الْيَقِينَ لَا يَنْدَفِعُ بِالشَّكِّ الطَّارِئِ، أَمَّا إِذَا تَعَارَضَ يَقِينَانِ، وَهُوَ يَقِينُ التَّحْرِيمِ، وَالتَّحْلِيلِ فَلَيْسَ ذَلِكَ فِي مَعْنَى الْيَقِينِ الصَّافِي عَنْ الْمُعَارَضَةِ، وَلَا فِي مَعْنَى الْيَقِينِ الَّذِي لَمْ يُعَارِضْهُ إلَّا الشَّكُّ الْمُجَرَّدُ، فَلَمْ يُلْحَقْ بِهِ اتِّبَاعًا لِمُوجِبِ الدَّلِيلِ، وَلَوْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِالرُّخْصَةِ فِيهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُمْتَنِعًا.)، المستصفى ، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، ص٢٨٥.

[٢٢١] ينظر: الماوردي، الحاوي ، الجزء ١٠، ص ٢٧٢.

[٢٢٢] ينظر: الندوي: علي أحمد، موسوعة القواعد والضوابط الفقهية الحاكمة للمعاملات المالية في الفقه الإسلامي، دار المعرفة، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م، الجزء ٣، ص٦٦٨ وص٥٩٩.

[٢٢٣] ينظر: الماوردي، الحاوي ، الجزء ١٦، ص٢٠٩.

[٢٢٤] ينظر: ابن قدامة : أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المغني، ، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م،الجزء ٣، ص٤٦٧.

(٢٢٥) ينظر: السرخسي:المصدر السابق، حول الخاص والعام ج١ ص ١٢٥؛ وأما المشترك ج ١ ص ١٢٦ وينظر: البزدوي: كنز الوصول الى معرفة الأصول، ص٧؛ وحول التقسيم عموما ينظر: زيدان: الوجيز في أصول الفقه، ص٢٢٢و ٢٢٥ و٢٣٠ و٢٣٨ و ٢٤١ و ٢٥٧ وما بعدها ؛ وينظر: حمد عبيد الكبيسي، أصول الأحكام وطرق الاستنباط، مثال على صيغ العموم في القانون المدني المادة (١١١٥) ص٣٣٢، وحول المقيد، المادة (٢١٨) الفقرة الأولى ، والمادة (١٠٢) ص٣٦١؛ وحول حمل المطلق على المقيد ينظر كيف حملت المادة (١٣٤) على المادة (١٢١) من القانون المدني العراقي، فقد قيد بيع الغرر بقيد

اللفظ باعتبار استعماله في المعنى؛ وهنا ننظر وندقق في كون اللفظ المنطوق هو حقيقة واضع للدلالة على المعنى المراد أم هو مجاز، وهل هو صريح في التعبير عن المعنى أم فيه كناية ؟ وإذا كان اللفظ المحمول للمعنى الموضوع له دلالة تطابق، فهنا ننظر إلى جهة الحمل هل هي لغوية (وهي الأصل في الألفاظ) أم هي شرعية فيكون المعنى اصطلاحيا خاصة بهذه الفن دون غيره.. أم هي عرفية سرت عليها العادة وحولتها من معناها اللغوي إلى معناها العرفي[٢٢٧].

ولذلك فان الأصل في اللفظ هو المعنى اللغوي، يقول الشاشي (كل لفظ وضعه واضع اللغة بإزاء شيء فهو حقيقة له ولو استعمل في غيره يكون مجازا لا حقيقة) فلا بد من وجود قرينة واضحة تصرف اللفظ من معناه اللغوي إلى معنى أخر فيكون معنا اصطلاحيا أو عرفيا.. أو يعدل به إلى المعنى المجازي، وهذه من القواعد المهمة[٢٢٨]، والحقيقة والمجاز لا يجتمعان في إرادة لفظ واحد لأمر معين[٢٢٩].

دلالة اللفظ على المعنى:

اللفظ باعتبار وضوح دلالته على معناه، أو خفاء هذه الدلالة ينقسم إلى قسمين واضح الدلالة وغير واضح الدلالة.. فأما واضح الدلالة فيشمل الظاهر والنص والمفسر والمحكم.

فأما الظاهر فهو ما يعرف المراد منه بنفس السماع من غير تأمل، وهو الذي يسبق إلى العقول والأوهام لظهوره موضوعا فيما هو المراد.. وأما النص فما يزداد وضوحا بقرينة تقترن باللفظ من المتكلم ليس في اللفظ ما يوجب ذلك ظاهرا بدون تلك القرينة؛ أما المفسر فهو اسم للمكشوف الذي يعرف المراد به مكشوفا على وجه لا يبقى معه احتمال التأويل فيكون فوق الظاهر والنص، لأن احتمال التأويل قائم

(الغبن الفاحش) .ينظر: مصطفى الزلمي، أصول الفقه الإسلامي في نسيجه الجديد، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م، المكتبة القانونية ، بغداد – العراق ، ص٣٢٣، ومثال التخصيص: المادة (١/٥٤٧) من القانون المدني العراقي، ص٣٥٤.

[٢٢٦] ينظر: ابن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، ص ١٧ وما بعدها، حيث ذكر صاحب المنار المؤول، وشرح ذلك ابن نجيم، وبين أن المحققين اسقطوا المؤول من الاعتبار.إ.هـ؛ وينظر اثر هذا في (الْمَادَّةُ ٥٧١) ، علي حيدر، درر الحكام، الجزء ١، ٦٥٧.

(٢٢٧) السرخسي: أصول السرخسي، ينظر: حول تعريف الحقيقة والمجاز، ص١٧٠ وما بعدها؛ والصريح والكناية ص ١٨٧ وما بعدها؛ وينظر ايضا: الشاشي: أصول الشاشي، الحقيقة والمجاز ص٤٢ ؛ كما ذكر الشاشي تقسيم الحقيقة إلى (أنواع ثلاثة متعذرة ومهجورة ومستعملة وفي القسمين الأولين يصار إلى المجاز بالاتفاق) ص ٤٩، وحول الصريح والكناية ص٦٤. وينظر: البزدوي: كنز الوصول الى معرفة الأصول، ص٨٥؛ وينظر: حمد عبيد الكبيسي، أصول الأحكام وطرق الاستنباط، مثال على استعمال المجاز في القانون المدني العراقي المادة (٤٥٠) ص٣٦٥.

(٢٢٨) الشاشي: أصول الشاشي، الحقيقة والمجاز ص٤٢ ؛ ابن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، ص١٨؛ جاء في فواعد مجلة الاحاكام العدلية :القاعدة الحادية عشرة؛ الأصل في الكلام الحقيقة، وجاء القاعدة التاسعة والثلاثون؛ الحقيقة ترك بلالة العادة.. أي ان العادة قد تكون هي القرينة المانعة عن إرادة المعنى الحقيقة فيذهب إلى المعنى المجازي ويترك المعنى الحقيقي. ينظر: القاضي، شرح المجلة،الجزء١، ص٦٩ وص١٠١.

(٢٢٩) ابن الملك: المولى عبد اللطيف، شرح منار الأنوار في أصول الفقه، وبهامشه شرح الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بابن العيني، طبعة مصورة عن المطبعة النفيسة العثمانية، دار الكتب العلمية، بيروت/ لينان، ص١١٠ ما بعدها.

فيهما منقطع في المفسر، وأما المحكم فهو زائد على ما قلنا باعتبار أنه ليس فيه احتمال النسخ والتبديل، وهو مأخوذ من قولك: بناء محكم: أي مأمون الانتقاض.
وأما القسم الثاني فهو غير واضح الدلالة.. وهو يشمل الخفي والمشكل والمجمل والمتشابه.
فأما الخفي فهو: اسم لما اشتبه معناه وخفي المراد منه بعارض في الصيغة يمنع نيل المراد بها إلا بالطلب، المشكل هو: اسم لما يشتبه المراد منه بدخوله في أشكاله على وجه لا يعرف المراد إلا بدليل يتميز به من بين سائر الإشكال، والمشكل قريب من المجمل ولهذا خفي على بعضهم، أما المجمل فهو ضد المفسر، مأخوذ من الجملة، وهو لفظ لا يفهم المراد منه إلا باستفسار من المجمل وبيان من جهته يعرف به المراد، وأما المتشابه فهو اسم لما انقطع رجاء معرفة المراد منه لمن اشتبه فيه عليه[٢٣٠].
كيفية دلالة اللفظ على المعنى: [٢٣١]
يقول البزدوي: (أن الاستدلال بعبارة النص هو العمل بظاهر ما سيق الكلام له، والاستدلال بإشارته هو العمل بما ثبت بنظمه لغة لكنه غير مقصود ولا سيق له النص، وليس بظاهر من كل وجه فسميناه إشارة كرجل ينظر ببصره إلى شيء ويدرك مع ذلك غيره بإشارة لحظاته ...وهذا القسم هو الثابت بعينه وأما الثابت بدلالة النص فما ثبت بمعنى النص لغة لا اجتهادا ولا استنباطا مثل قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) الإسراء: ٢٣ هذا قول معلوم بظاهره معلوم بمعناه وهو الأذى وهذا معنى يفهم منه لغة حتى شارك فيه غير فقهاء أهل الرأي، والاجتهاد كمعنى الإيلام من الضرب ثم يتعدى حكمه إلى الضرب والشتم بذلك المعنى، فمن حيث أنه كان معنى لا عبارة لم نسمعه نصا ومن حيث أنه ثبت به لغة لا استنباطا يسمى دلالة وأنه يعمل عمل النص وأما الثابت باقتضاء النص فما لم يعمل إلا بشرط تقدم عليه فإن ذلك أمر اقتضاه النص لصحة ما تناوله فصار هذا مضافا إلى النص بواسطة المقتضى وكان كالثابت بالنص وعلامته أن يصح به المذكور ولا يلغى عند ظهوره ويصلح لما أريد به فأما قوله تعالى: (واسأل القرية) يوسف : ٨٢، فإن الأهل غير مقتضى لأنه إذا

---

[٢٣٠] ينظر: السرخسي: أصول السرخسي، ص١٦٣ إلى ١٦٩؛ البزدوي: كنز الوصول الى معرفة الأصول، ص٧٣ إلى ٧٥؛ الشاشي: اصول الشاشي،ص٨٠؛ ابن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، ص ١٨ وما بعدها؛ السيواسي: زبدة الاسرار في شرح مختصر المنار، ص١٠٤ إلى١١٤؛ زيدان: الوجيز، ص٢٦٨ و٢٧٥ ؛ عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، الجزء١، ص ١٨٩-١٩٥؛ وينظر: حمد عبيد الكبيسي، أصول الأحكام وطرق الاستنباط، فقد أورد الأستاذ الكبيسي أمثلة على على الخفي من قانون العقوبات المصري المادة (٣١١) وقانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة (١٩٦٩م) المادة (٤٣٩) ، ومثالا على المشكل من قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة (١٩٦٩م) المادة (٤٤٠) ، ومثالا على المجمل من قانون المحاكمات الجزئية العراقي رقم (٢٣) لسنة (١٩٧١م) ينظر الصفحات : ٢٩٨ و ٣٠٠ و٣٢٠.

[٢٣١] ينظر: السرخسي: أصول السرخسي، ص ٢٤١؛ الشاشي: أصول الشاشي،ص٩٩ و١٠٤ و ١٠٥ و١٠٨؛ ابن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، ص ١٩.

ثبت لم يتحقق في القرية ما أضيف إليه بل هذا من باب الإضمار لأن صحة المقتضى إنما يكون لصحة المقتضى) [٢٣٢].

ثالثا: ادارك الفرق بين المقاصد والقواعد المحقق للحكم.

القواعد الفقهي هي المرجحات التي يستعملاه القاضي، والمقاصد هي الغاية التي يسعى إليها القضاء، فالقواعد هي أداة القاضي، ولهذا جاز للقاضي انتقاء القواعد الخادمة للوصل إلى الحكم ، والمقاصد هي غايات السلطة القضائي فلا يجوز إهمالها أو تركها.

بعض القواعد هي أدوات تخص المدعي، وبعض القواعد هي أدوات تخص المدعى عليه، فتبدو في ظاهرها التعارض، ولهذا كان على القاضي السعي في ألاجتهاد في بيان المرجحات والترجيح في الدعوى، لكن المقاصد هي شاملة لكل العملية القضائية بغض النظر عن أركانها ، فليس فيها ما هو خاص بركن دون الأخر بل هي شاملة للقضاء كله.

القاعدة المقاصدية هي بيان حكم الشريعة وأسرارها التي أرادها الشارع من التشريع فمنها نفهم مثلاً الغاية من تشريع القصاص، أو قطع اليد؛ لأنّ مقصود الشارع من القصاص ردع الجاني عن جريمته وزجر غيره عن اقتراف جناية مثل جنايته. أما القاعدة الفقهية فتشمل الحكم الشرعي الكلي التي تقع تحته جزئيات متعددة[٢٣٣]، ولِأَن الْقَوَاعِد بنيت على الْمَقَاصِد الْكُلية[٢٣٤].

القاعدة المقاصدية لها الحجية والقوة التي يمكن الاستناد إليها في الاستدلال. أما القاعدة الفقهية فلا يصح الاعتماد عليها وحدها في الاستدلال إلا إذا كانت تستند إلى نص شرعي[٢٣٥].

القواعد المقاصدية هي الغاية من التشريع وهي مقدمة على القواعد الفقهية التي تعدّ من وسائل تلك الغايات والغاية مقدمة: (مراعاة المقاصد مقدمة على رعاية الوسائل أبداً) [٢٣٦].

---

[٢٣٢] ينظر: البزدوي: كنز الوصول الى معرفة الأصول، ص١١ وما بعدها؛ السرخسي: أصول السرخسي، ص١٦٣ إلى ١٦٩، الشاشي: أصول الشاشي،ص٨٠؛ ابن نجيم: فتح الغفار بشرح المنار، ص ١٨ وما بعدها؛ السيواسي: زبدة الأسرار في شرح مختصر المنار، ص١٠٤ إلى١١٤ ؛ينظر: الْمَادَّةُ (١٧٢) (الْبَيْعُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ) علي حيدر: درر الحكام، الجزء١ ، ص١٤٠؛ وينظر: وينظر: حمد عبيد الكبيسي، أصول الأحكام وطرق الاستنباط، فقد مثل على إشارة النص من قانون العقوبات العراقي رقم (١١١) لسنة (١٩٦٩م) المادة (٣٧٨) ومن القانون المدني العراقي المادة (١٠٧٠) و(١٠٧١) و(١٠٧٢) ص٣١١، وعلى دلالة النص من قانون العقوبات العراقي، المادة (٤٠٩) ص٣١٣، وعلى دلالة الاقتضاء من قانون الأحوال الشخصية العراقي رقم (١٨٨) لسنة (١٩٥٩م) المادة(٣٥) ص ٣١٦ وما بعدها .

[٢٣٣] الشاطبي، الموافقات: ٣٤١/١.

[٢٣٤] ابن الدَّهَّان: محمد بن علي بن شعيب، أبو شجاع، فخر الدين، (المتوفى: ٥٩٢هـ)، تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، ونبذ مذهبية نافعة، تحقيق: د. صالح بن ناصر بن صالح الخزيم، مكتبة الرشد، السعودية / الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، الجزء٤، ص٢٥٧.

[٢٣٥] شبير، القواعد الكلية والضوابط الفقهية: ٣٢٠.

وختاما:
يتضح مما سبق من بيان للقضاء، وأركانه، وقواعده، وطرق النظر والاستنباط في منطوق الدعوى، وبيان البينات وثبوتها.. ما يأتي:
القضاء في النظام الإسلامي يقوم على التوازن في أركانه وقواعده، وهذا التوازن يحقق الحكم الصحيح، وصور التوازن تظهر لنا من خلال ثنائيات تبدو في ظاهرها متضادة، لكننا من خلال ضبط شروط وأركان القضاء الستة: (الْحُكْمُ، الْمَحْكُومُ بِهِ، الْمَحْكُومُ لَهُ، الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ، الْقَاضِي أو الحَاكِم، طَّرِيقَةُ الحكم) فضبط أركان القضاء الستة يحقق العدل المطلوب الذي يسعى إليه نظام أي دولة.
امتاز القضاء في الشريعة الإسلامية، بكونه يقوم على النظر في النصوص، وضبط منطوقها لاستنباط المفهوم منها، وهذا الأداء أعطى مساحة للقاضي مقيدة بمنطوق قضية الدعوى، ابتدأ مع ضبط المفهوم من المنطوق عن طريق قواعد حاكمة على المنطوق من جهة، والمفهوم من جهة أخرى للوصول إلى الحكم، فلاجتهاد مع النص ولا قياس، فإذا تعذر إعمال ظاهر النص، فللقاضي أن يقضي باجتهاده فإذَا قَضَى فِي مُجْتَهَدٍ فِيهِ نَفَذَ قَضَاؤُهُ.
في الشريعة ما كان قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ومثاله ما ثبت من آيات القرآن الكريم (المفسر والمحكم) والسنة المتواترة؛ وما كان قطعي الثبوت أو ظني الثبوت ودلالة راجحة وهو (الظاهر والنص) فكليهما يحتملان التخصص والتأويل والنسخ، إلا أن النص سيق لذاته اللفظ والظاهر سيق تبعا؛ وما كان قطعي الثبوت ظني الدلالة، بسبب أجمال فيه أو خفاء أو إشكال في ذات صيغته، وغالبا يكون في (الخفي و المجمل و المشكل)؛ وما كان قطعي الثبوت يتوقف في دلالة لفظه بسب صرفه عن ظاهره لوجود عارض أقوى منه ويكون العارض قطعي الثبوت قطعي الدلالة وهو (المتشابه).
كذلك في القضاء نجد مثل هذا الأثر، من حيث أخذ القاضي بالبينات الخطية واللفظية، ففيها ما هو قطعي وفيها ما هو ظني الدلالة، أما من حيث الورود إلينا فيتحرى ما هو قطعي، فإذا أنعدم (القطي/ اليقيني) ووجد ما هو (الظني/ المشكوك فيه)[٢٣٧] فليس للقاضي رده أو الأخذ به ، فيتحرى أولا في صحة وروده، وله الاجتهاد بعد التحري والنظر لان فيها ما هو يحتمل الصواب، فالأصل براءة الذمة

([٢٣٦]) المقري، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٧٥٧هـ): القواعد، تحقيق أحمد بن عبد الله بن حميد (ط جامعة أم القرى مكة المكرمة): ٣٣٠/١.

([٢٣٧]) علي حيدر، درر الحكام، الجزء١، ص١٦ وما بعدها، الْمَادَّةُ (٤) (الْيَقِينُ لَا يَزُولُ بِالشَّكِّ) و (الشَّكُّ: لُغَةً مَعْنَاهُ التَّرَدُّدُ، وَاصْطِلَاحًا تَرَدُّدُ الْفِعْلِ بَيْنَ الْوُقُوعِ وَعَدَمِهِ أَيْ لَا يُوجَدُ مُرَجِّحٌ لِأَحَدٍ عَلَى الْآخَرِ وَلَا يُمْكِنُ تَرْجِيحُ أَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ، أَمَّا إذَا كَانَ التَّرْجِيحُ مُمْكِنًا لِأَحَدِ الِاحْتِمَالَيْنِ، وَالْقَلْبُ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ لِلْجِهَةِ الرَّاجِحَةِ أَيْضًا فَتَكُونُ الْجِهَةُ الرَّاجِحَةُ فِي دَرَجَةِ (الظَّنِّ) وَالْجِهَةُ الْمَرْجُوحَةُ فِي دَرَجَةِ الْوَهْمِ، وَأَمَّا إذَا كَانَ الْقَلْبُ يُطَمْئِنُ لِلْجِهَةِ الرَّاجِحَةِ فَتَكُونُ ؛ظَنًّا غَالِبًا) وَالظَّنُّ الْغَالِبُ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْيَقِينِ.
(الْيَقِينُ) : لُغَةً قَرَارُ الشَّيْءِ يُقَالُ (يَقِنَ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ) بِمَعْنَى اسْتَقَرَّ، وَاصْطِلَاحًا (هُوَ حُصُولُ الْجَزْمِ أَوْ الظَّنِّ الْغَالِبِ بِوُقُوعِ الشَّيْءِ أَوْ عَدَمِ وُقُوعِهِ) وَقَدْ عَرَّفَهُ الْبَعْضُ (هُوَ عِلْمُ الشَّيْءِ الْمُسْتَبِرِ عَنْ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ) وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْإِيضَاحَاتِ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ الشَّكُّ فِي شَيْءٍ عِنْدَ وُجُودِ الْيَقِينِ وَلَا الْيَقِينُ حَيْثُ يُوجَدُ الشَّكُّ.إذْ أَنَّهُمَا نَقِيضَانِ وَلَا يَجُوزُ اجْتِمَاعُ النَّقِيضَيْنِ، فَعَلَى هَذَا قَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى وَضْعِ هَذِهِ الْمَادَّةِ إذْ لَا مُوجِبَ لِوَضْعِهَا).

واليقين لا يزول بالشك، ومن براءة الذمة أن المدعي لا يكذب وأن المدعى عليه بريء حتى تثبت أدانته.

جاءت قواعد القضاء محررة للدعوى القضائية، من حيث صحتها وجودها، ثم صحة فحواها، ثم النظر في نقضها أو إعمالها من خلال جمع البينات والقرائن، فإذا أوسع القاضي جهده كان عليه النطق بالحكم.

مبدأ التوازن يظهر وزن الحقوق بين أطراف الدعوى، فلا يعتبر حق الدعوى حقا حتى تستكمل شروط صحة الدعوى، والمتهم بريء فالْأَصْلُ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ، لان القاضي نصب لدفع الظلم وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

ما نملكه من ارث فقهي قضائي يعد من حيث القيمة والكم متميز بذاته، يحتاج في عصرنا الحالي إلى إعادة تفكيك لبعض مواده وصياغتها صياغة قانونية معاصرة تخدم الواقع وتساهم في تحقيق حاجة الأمة فمقاصد الشريعة هي تحقيق المصالح العامة، ولهذا كان مراعاة المقاصد مقدمة على رعاية الوسائل أبداً.

الهوية الإسلامية المنشودة في الدولة المعاصرة

د. محمود أبو الهدى الحسيني

١: تمهيد:

ما أن تتلفظ بـ (دولة إسلامية) حتى ترى حلبات المصارعة الكلامية منصوبة أمامك ...

فهذا ينفي أصلا وجود (دولة إسلامية) في الماضي أو الحاضر، ويزعم أن النبي الكريم أسس في عاصمته دولةً فصل فيها بين الدين والسياسة وأنها لم تكن دولة إسلامية...

وذاك يدعي أنّ مفهوم (الدولة الإسلامية) موروث تاريخي لم يعد قابلا للتحقق وقد تجاوزه الزمان ..

وآخرُ يهرفُ بما لا يعرف ويتوهمُ أن (الدولة الإسلامية) هي إعادة للاستبداد، وحكمٌ ثيوقراطي للشعب باسم خالقه، وتوقيعٌ (اختلاسي) في العالَمِين عن رب العالَمين...

وتراه يستجلب كل تجربةٍ خاطئة في تاريخنا ويسأل بعدها: إن كانت هذه هي (الدولة الإسلامية) فهل تريدونها اليوم؟

ورابع لا يرى أي فرقٍ بين (الدولة الإسلامية) والدولة المدنية الديمقراطية، ويدعي أنّ الطريق المعاصر إلى (الدولة الإسلامية) ما هو إلا تحوّل جميع الشعبِ إلى رجالٍ أتقياءَ صالحين، يقررون وجود (الدولة الإسلامية) .

وهناك خامسٌ وسادسٌ وسابع ...

لهذا أغتنم فرصة انعقاد مؤتمرٍ في آخر عاصمةٍ كانت تفخر بالإسلام، لأبحث مع الأساتذة الاختصاصيين هوية (الدولة ذات الوصف الإسلامي) التي أتصورها، زاعما أنني أنطلق في رسم هذه الهوية من قواعد الإسلام، وكلام علمائه.

وأؤكد في المقدمة على خطأ الخلط بين التجارب التاريخية أو الفهوم الوقتية بصواباتها أو بأخطائها من جهة، والقيم والثوابت الإسلامية التي نزل بها الوحي من جهة أخرى.

إن الدولة الإسلامية ليس لها صورة واحدة جامدة.. فهي تقبل عدة صور وتدور مع القيم العليا أينما تحققت وليس مفهوم الخلافة (على سبيل المثال) أو الإمارة أو السلطنة إلا نوعا من أنواع التنظيم لمؤسسة الرئاسة.

٢: ماهية الدولة وحقيقة هويتها:

من المعلوم أن الدولة: أرض – ومجموعة بشرية عليها – وسلطة.

والكلام على هوية الدولة يقتضي الكلام على هوية الأرض، وهوية البشر عليها، وهوية السلطة.

ومن هنا ظهرت مع الدولة الإسلامية اصطلاحاتٌ تمنح العناصر الثلاثة هويةً كمصطلح دار الإسلام (أو العدل) ودار الكفر (أو البغي) للأرض، ومصطلح المؤمن والكافر للبشر، ومصطلحات الحكم بالعدل أو البغي، والانقياد في الحكم للشورى أو الاستبداد بالرأي للسلطة.

ولعلنا في البحث نحاول بيان الهوية للعناصر الثلاثة.
١:٢: هوية الأرض: إن الباحث في أحكام الفقه الدولي الإسلامي، يجد كثيرا من المباحث في تعيين دار الإسلام ودار الكفر، ومسائل في أحكام المسلمين بدار الكفر، ومسائل في أحكام المستأمنين بدار الإسلام.
وهذا البحث لا يتسع لإيراد الأقوال، لكنني ألخص وأوجز ما يتعلق بهوية دار الإسلام، لأن مقصود البحث هو في هوية عناصر الدولة الإسلامية الثلاثة:
ملخص أقوال العلماء في دار الإسلام:
اتفقوا على أنه لا عبرة لعقيدة من يسكن الدار إسلاميةً كانت أو غير إسلامية لأن العبرةَ هي للسلوك العام بحسب الغالب.
وتعددت أقوالهم في تعريف دار الإسلام:
فقال بعضهم: الدار التي تكون فيها الغلبة للأحكام الإسلامية هي دار إسلام.
وقال آخرون: بل هي الدار التي يأمن فيها المسلمون وتكون فيها الغلبة للأحكام الإسلامية.
وقال غيرهم: هي الأرض التي تكون غالبية أهلها من المسلمين وإن لم تكن الشريعة حاكمة فيها (وهو قول أبي حنيفة).
وذهب الجمهور إلى أن دار الإسلام لا تتحول إلى دار كفر ولو اغتصبها الكفار، وأنه يجب على المسلمين السعي لإعادة أحكام الإسلام فيها. i
وأجمعوا على أن تحول دار الكفر إلى دار إسلام لا تشترط من أجله الحروب لأن الانتشار العفوي لأحكام الإسلام يحولها قطعا إلى أرض إسلامية. ii
وسمّى بعضهم الدارين المتقابلتين: (دار العدل ودار البغي)iii بدل دار الإسلام ودار الكفر.
وأجمعوا على أن دار الكفر نوعان دار حربٍ ودار عَهد وهي الدار المرتبطة مع دار الإسلام بعهد.
والذي نراه أنّ مساحة عالمنا الإسلامي الجغرافية تعتبر دار إسلام لاعتبارين:
لأنّها كانت في الماضي محكومة بالإسلام.
لأنها تستوعب على أرضها اليوم غالبيةً مسلمة.
فالعنصر الأول من عناصر الهوية محقق وجوده في مساحة عالمنا الإسلامي الجغرافية ، وهو عنصرُ الدار.
والبلادُ على بقية الأرض كافّةً إما دار كفر معاهدة والمسلمون فيها آمنون، كالسويد وألمانيا، وإما دارُ كفر محاربةٌ كأنغولا وميانمار.
٢:٢: هوية المجموعة البشرية على تلك الأرض: العوامل الذاتية في المنظور الإسلامي (كالقومية واللغة والجنس واللون والروابط الجغرافية أو الدموية النسبية...) : ما هي إلا عناصر للتكامل والتعارف. أما تكوين الأمة فيعود لعنصرين: (الإنسان، والرسالة الحضارية) مهما تباينت عوامل الإنسان الذاتية.
قال تعالى (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات ، آية ١٣.

وبانتفاء الإيذاء من قِبَلِ المخالفِ في العقيدة، يكونُ التعاملُ الإسلامي معه على أساس البر والعدل، قال تعالى:(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) الممتحنة: ٨

وقد ساوى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في السلوك مع الكتابيّين والمشركين في فتوحاتهم خارج جزيرة العرب، وإلى هذا استند فقهاء الحنفية في التسويةiv.بين الكتابيين والمشركين في الأحكام.

وعليه:

فإذا تحقق البرُّ والعدل مع المخالف المحايد في مساحة أرضٍ جغرافية ...

وانتفى التفريق السلوكي مع هذا المخالف المحايد...

عندها تكون المجموعة البشرية المكونة من المسلمين وغيرهم على تلك الأرض متعايشة متكاملة متعارفة، وتنعم بالسلم والأمن " وقد وردت الأدلة الكثيرة على صلح الصحابة لأقوام من أهل الكتاب دون جزية... والشأن فى النص الذي يذكر الجزية كالشأن فى النص الذي يعدد مصارف الزكاة.. فقد أجمع الصحابة على موافقة الفاروق رضي الله عنه فى عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم.. إذ أوقف سهمهم لانتفاء العلة.. وعلة الجزية عدم المشاركة فى الدفاع وقد زالت.."v.

نعم لن يكون سلمٌ ولا أمانٌ حين يكون المخالف محاربا للإسلام، أو مؤذيا للمسلمين.

وهكذا تكون هوية المجموعة البشرية على الأرض الإسلامية هوية سِلْمية، طالما أن غيرهم لا يعتدي عليهم، وقد سمى الله تعالى الإسلام (سِلْما).

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (سورة البقرة) (٢٠٨)

وأكثر المفسرين ذهبوا إلى تفسير السلم بالإسلام.

وفي هذا الترادف المعنوي ملحَظٌ لطيفٌ لمن تأمل.

ثم إن القتال في آية القتال كان ردًّا على الظلم والعدوان، قال تعالى:

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) الحج: ٣٩

وقوله تعالى:

(واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم) البقرة: ١٩١ خاصٌ بالجزيرة العربية، في ظرف مخصص ووقت مخصص، على ما قرره العلماء.

وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (سورة البقرة) (٢٠٨)

يقول د. بكار: (إن (كافّة) حال من (السّلم) على ما نرجحه، ويكون المراد آنذاك : الأمر بالأخذ بتكاليف الإسلام جميعها : ما تميل إليه النفس منها ، وما يخالف هواها) . اهـvi.

على الناس أن يقرؤوا الإسلام جسدا تشريعيا متكاملا، لا يمكن اقتصاص جزء منه وإهمال غيره، ولا يجوز الحديث عن الحدود قبل الكلام على التكافل الاجتماعي والاقتصادي وتحقيق الكفاية والعدالة.

إن ربنا لم يُكْرِهْ أحدا على عقيدة الإسلام، لكنه لن يقبل في الآخرة غير الإسلام، ومن أنكر الآخرة فعلى الله تعالى حسابه هناك.

لكنْ إن كان للإنسان كامل حريته واختياره في خصوصية نفسه وسلوكياته التي لا تتعدى آثارها للغير ... فإنه في الوقت نفسه لا يجوز العدوان على الغير (باسم الحرية) في المِساحات العامة التي تنتفي فيها الخصوصية الفردية، لأن استبداد الحرية الخاصة ينتهي عند حدود الحرية العامة التي يشترك فيها الجميع.

إن المشكلة لا تكمن في الهوية النظرية المستمدة من الإسلام للمجموعة البشرية المنتسبة إليه، ولكنها تكمن في التطبيقات الخاطئة التي تنبع من الإفراط أو التفريط فيه.

٣:٢: هوية السلطة: إن الكلام على العنصر الثالث في الدولة هو المقصود في البحث، لكن كان لا بد من المرور العاجل بالعنصرين السابقين.

يُعَرّف السياسي الأمريكي بيردوvii السلطة : بأنها :"القوة المنظمة لحياة المجتمع" viii.

فالقوة المنظمة للمجتمع في الدول الاستبدادية فرد أو مجموعة أفراد يمارسون السلطة وفق أمزجتهم وأهوائهم ومصالحهم الخاصة.

والقوة المنظمة للمجتمع في الأنظمة الديمقراطية حكومات تنبثق عن صناديق الاقتراع، والاستقراء يدل على أنّ تلك الحكومات وإن كانت قد خدمت شعوبها حينا؛ ولكنها تسببت في كثير من الأحيان على الأرض بكوارث إنسانية وكونية.

والقوة المنظمة للمجتمع في الدولة الثيوقراطية الكنسية تشبه سلطات الدولة الاستبدادية، لكن الدولة الثيوقراطية تزعم أنها تملك تفويضا إلهيا وتحكم الناس بحق إلهي مقدس مزعوم.

أما القوة المنظمة للمجتمع في نموذج الدولة الإسلامية فإنها تختلف عن النماذج الثلاثة المتقدمة.

فالسلطات كلها في نموذج الدولة الإسلامية محكومة وليست بحاكمة، ومراقَبَةٌ ومحاسَبَةٌ من الشعب كله وفق معايير العدالة.

٣: أنواع السلطات في نموذج الدولة الإسلامية:

السلطة التشريعية في الدولة الإسلامية ربانية، وكونها ربانية لا يعني أنّ كل ما يحتاجُ إليه الإنسانُ منزّلٌ في نصّ جامد أو قالب ثابت، وهو ما توهّمه بعضُ الجهلة من المسلمين أو غير المسلمين.

فا لله تعالى المشرّع حكيمٌ لا يطلب المثاليّات التي لا تقبل التحقيق، ولا يُفرّطُ بالحقوق، بل يُوجّه توجيها يتناغم مع الواقع، ويتفاعل مع الممكن، ويعدلُ بين الجميع، ويعذُرُ عند الاستحالة.

لا تعسّفَ في نصوصه القطعية ولا ظلم، فرحمته تعالى تتسع للموافق والمخالف، وتطبيقاتُ أمره لا يُنازِعها أحدٌ في اليُسر والمرونة.

إنَّ التشريع أنواع:

فمنه نصٌّ واضح قطعيٌّ لا توجد احتمالات متعددة لتفسيره، يؤكد على بعض الثوابتِ الفاضلة القطعية التي تحقق للإنسانية توازنها.

ومنه نصٌّ محتملٌ في دلالاته، كثيرةٌ معانيه، عديدةٌ هي الاستنباطاتُ العملية منه، ومطلوبٌ من أهل الاختصاصاتِ المتعددة في الفقه والصناعة والتجارة والاقتصاد

والزراعة والسياسة والاجتماع والطب والهندسة وشؤون الحياة العديدة ... مطلوبٌ منهم جميعا اختيارُ الوجه العملي الأنسبِ للظرفِ الزماني والمكاني، والحالِ قوةً وضعفا...

فدلالات هذا النصّ كثيرة، وتطبيقاته متنوعةٌ ومرنة وقابلة للتجدد والتطور.

ومنه قياساتٌ عقلية على نصوصٍ محتملة، في مسائلَ لم يتعرض إليها نصٌّ أصلا.

ومنه استحساناتٌ عقلية لأمور مستحدثة لم يرد بها نصٌّ ولا تتعارض مع المقاصد الفاضلة العامة.

ومنه تنظيمُ مصالح الناس المرسلة، التي لم يأمر المشرّع بشيء منها ولم ينه منها عن شيء.

فالقيام في الدولة الإسلامية على تنظيم ما تقدم ذكره وتنفيذه بحرفية ومهنية يقع على عاتق السلطات الآتية:

١:٣: السلطة التنظيمية: وتتكون من برلمانٍ أو مجلس نوابٍ وشيوخٍ أو مجلس شورى... سمه ما شئت

المهم هو مضمونه.

٣: ١: ١: كيفية اختيارها: يختارها الشعب، بعد تحقق شرطين اثنين فيها:

الاختصاص.

الصلاح والنزاهة، وقد يسهل تحديد المعايير في الشرط الأول لوجود المؤسسات العلمية والأكاديمية وشهادات الخبرة، لكنّ معايير الشرط الثاني ستكون راجعة إلى تزكية المجتمع الصالح، وقد قالوا: ألسنة الخلق هواتف الحق.

وبوجود الشرطين المذكورين يمتنع دخولُ الدخلاءِ الذين يشترون المناصب والمكاسب.

وتنوعُ الاختصاصات في هذه السلطة يكون بتنوع حاجات الناس.

٣: ١: ٢: آلية عملها: تقوم هذه السلطة بكتابة دستورٍ للبلاد يكون كالشرح لما تقدم في شرح أنواع التشريع ، ويصادقُ على القوانين التي تقترحها الوزارات، والمؤسسات، بما لا يتنافى مع ثوابت السلطة التشريعية.

تراقبُ السلوك التنفيذي في الممارسات الرئاسية والوزارية، وترفعُ إلى القضاء المخالفات.

٣: ٢: السلطة التنفيذية: وتتكون من مؤسستين:

٣: ٢: ١: المؤسسة الرئاسية: وفيها رئيسٌ منتخبٌ، يستعين بالخبراء والمستشارين، يتصف بالصلاح والنزاهة والحكمة والقدرة على الإدارة والقيادة.

يتحرك وفق الدستور والقوانين (من غير استثناءات).

ليس له أن يسنّ قانونا أو يصدر مرسوما من غير الرجوع إلى السلطة التنظيمية.

يطالب المؤسسة الوزارية بتحقيق مصالح الشعب، ويراقب أداءها.

يسهر على تطوير الدولة والارتقاء بها حضاريا وحمايتها في كل الأصعدة.

يسعى لإقامة العلاقات الدولية معها مستعينا بالمؤسسة الوزارية، وذلك تحقيقا لمصالح الشعب، من غير أن يحول دولته إلى دولة تابعةٍ، فالدولة التابعة دولةٌ لا

تملك استقلالها ولا إرادتها، كما أنه لا يجوز له بحالٍ إقامةُ العلاقاتِ مع دول العدوانِ والمحاربة للإسلام.
يمكن اختيار الرئيس من قِبَل السلطة التنظيمية، كما يمكن اختياره من قِبَلِ الشعب، بشرط وجود المعايير الثابتة للخبرة والنزاهة والقدرة على الإدارة.
٣: ٢: ١: المؤسسة الوزارية: وفيها جميع التخصصات العلمية والعملية التي يحتاج إليها الشعب.
تنفذ الأعمال التي يحتاج إليها الشعب، أو تختار من ينفذها، وتقيم المشروعات مستعينة بأهل الخبرة والاحتراف، أو تختار من ينفذها.
لا تخرج عن بنود الدستور، ولا تخالف القوانين.
لا تختار إلا أهل الكفاية لإدارة المشروعات، بعيدا عن المحسوبيات والعلاقات المشبوهة.
يتم اختيارها من قِبَلِ السلطة التنظيمية، وتشترط فيها المهنية والاختصاص والاحتراف مع النزاهة.
ومن الضروري أن يُعلم أنه لا فرق في المؤسسات التنفيذية ضمن الدولة الإسلامية بين مسلم أو كتابيّ.
٣: ٢: السلطة القضائية:
تحكم في الخلاف بين السلطة والشعب.
وتحكم في الخلاف بين أفراد السلطة.
وتحكم في الخلاف بين أفراد الشعب.
تستند في أحكامها إلى بنود الدستور، وما اعتمد من القوانين.
يتم اختيارها من قِبَلِ السلطة التنظيمية، بعد تحقق الأهلية ووفق معايير ثابتة في العلم والحكمة والنزاهة والفطنة.
لا يُنتقصُ فيها من حقِّ غير المسلم على حساب المسلم، ولا من حق مسلم على حساب غيره، فالعدل والحرية والمساواة هي من أصول الإسلام.
٤: الأساسيات الدستورية الإسلامية:
(الشورى مهما تعددت أشكالها وأساليبها.
العدل، بين الناس مسلمهم وكافرهم .
الحرية، وآكدها الحرية في النقد السياسي.
المساواة البشرية.
حق مساءلة الحكام مع وجوب طاعتهم في غير معصية.) ix
ومفهوم طاعتهم مندرج في احترام الدستور والانضباط بالقوانين.
إلزامية التكافل.
إلزامية التعليم.
٥: الدولة الإسلامية والعلاقات الدولية:
تقدم الكلام على هوية الأرض، وأنها:
دار إسلام (أو عدل)
ودار كفرٍ (أو بغي)

وأن دار الكفر نوعان:
دار عهد ومسالمة.
ودار عدوانٍ ومحاربة.
فالعلاقاتُ الدولية التي تسعى السلطة في الدولة الإسلامية إلى إقامتها تكون مع دار إسلامٍ أو دار عهدٍ ومسالمة، ولا تجوز مع دولة عدوانٍ ومحاربة.
(واحترام العهود والمواثيق مبدأ صريح شدّد عليه الإسلام. وإذا ساءت العلاقات بين المسلمين وغيرهم فالطريق المتعين هو المسالمة .. والمعاهدة والتسوية السلمية.
واسترداد حقوق المسلمين يتطلب المقاومة، واستردادها بالقوة إن أمكن، ويتطلب إلى جانب ذلك:

- الاعتراف المتبادل المتكافئ بين الدول.
- والاعتماد على الثوابت والوضوح في إغناء الحوار، وتفعيله.
- والموضوعية والحياد في الوسطاء.

والإسلام في تشديده على حفظ العهود والمواثيق ألزم بالوفاء حتى بأحلاف الجاهلية ذات الطابع الخيّر الإنساني الرفيع.)x
ولا تشترط في العهود الهوية الإسلامية، بل يكتفى فيها بالهوية الإنسانية، وقد أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف الفضول، ولم يكن لذلك الحلف هوية إسلامية.
فأي اتفاق دولي يخدم العدل وينصر المظلوم ويحارب الظالم معتبر ومحترم.
٦: الخلاصة والنتيجة:
مما تقدم نخلص إلى أن الدولة الموصوفة بالإسلامية المستمدة سلوكها العملي من الإسلام تمتلك هوية خاصة بها، في الأرض والشعب والسلطة، ولئن تنقلت الشعوب بين تجارب الانتماءات والهويات، فإننا اليوم في زمن الصحوة الإسلامية نتطلع إلى تجربة إسلامية مستقلة جادة تظهر فيها هوية الدولة الإسلامية، وهي وإن خاف من ظهورها الآخرون ستكون نموذجا في الإنسانية والحضارية والرقي.

---

[i] انظر: دار الإسلام ودار الحرب وأصل العلاقة بينهما – عابد بن محمد السفياني – جامعة أم القرى – ١٤٠٠ هـ .
[ii] انظر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب- أون لاين - د. وهبة الزحيلي :
h p://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewAr cle&Ar cleID=641
[iii] موسوعة بيان الإسلام المصرية (أون لاين).
[iv] راجع مبحث الجزية في حاشية ابن عابدين على الدر المختار.
[v] النظام السياسي للدولة الإسلامية - سليم العوا – دراسة ا/ أحمد السعيد إبراهيم- من موقع الجماعة الإسلامية بمصر:
h p://www.egyp anislamicgroup.com/Public/ar cles/books_studies/11/93579524.shtml
[vi] أ.د. عبدالكريم بكار- من صيد الفوائد h p://www.saaid.net/Doat/bakkar/016.htm
[vii] **سوني بيردو** (Sonny Perdue) هو سياسي أمريكي وحاكم ولاية جورجيا الأمريكية منذ عام ٢٠٠٣ ..
[viii] بحسب الأستاذ.رداوي مراد أستاذ القانون الدستوري كلية الحقـــوق
بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة - الجزائر
h p://www.droit.sbilya.com/home/itemlist/user/62%D8%A3%D8%B1%D8%AF%D8%A7%D9%88%D9%8A%D9%85%D8%B1%D8%A7%D8%AF.html
[ix] من النظام السياسي للدولة الإسلامية - سليم العوا – دراسة ا/ أحمد السعيد إبراهيم- من موقع الجماعة الإسلامية بمصر:
http://www.egyptianislamicgroup.com/Public/ar cles/books_studies/11/93579524.shtml
[x] د. وهبة الزحيلي – المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب- أون لاين:
http://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewArticle&Ar cleID=641

الفصل الرابع

- **العراق ومسيرة عشر سنوات ـ مراجعات نقدية**

اياد السامرائي

- **العراق بعد عشر سنوات على احتلاله في ظل الحراك الشعبي .. رؤية نقدية**

خالد العلواني

- **العراق من احتلال 2003 الى الحراك 2013**

د. مهند العزاوي

المقدمة:

من خلال تقييم السنوات من (٢٠٠٣-٢٠١٣) والاحداث التي شهدتها الساحة العراقية، ورصد الواقع الأليم الذي يعيش فيه المنتفضون في ظل الاستبداد والجور الواقع على سنة العراق من العرب، وصياغة رؤية للمستقبل ووضع استراتيجية تنفيذ هذه الرؤية في ظل الحراك المتنامي في العراق.

الإجابة عن التساؤل (بعد مرور ١٠ سنوات وفي ظل الانتفاضة العراقية المباركة يكون السؤال الآتي :-(هل تكمن استراتيجية الحل لجمهور الانتفاضة في:-

ا- الاستمرار بالعملية السياسية واصلاحها من الداخل وتحقيق المطالب المشروعة للمتظاهرين من قبل الحكومة.

ب- رفض العملية السياسية واعطاء بديل للحل مع تحديد البديل وكيفية تحقيقه.

ج- او في خيار ثالث يكفل للعراقيين جميعا مقومات العيش الرغيد مع اعتبار أيضا تحديد هذا الخيار بدقة وتحديد كيفية تحقيقه.) مع اعتبار أن تقييم مرحلة ١٠ سنوات الماضية (٢٠٠٣-٢٠١٣) التي مرت على العراقيين وتشخيص الحاضر يعتمد على وجود الحراك والاعتصامات في المحافظات السنية لصياغة رؤية واضحة محددة ووضع استراتيجيات لتنفيذ هذه الرؤية .

ان تعديل بوصلة النظر للأحداث التي جرت وستجري في العراق. حيث نواجه حربا لأول مرة في تاريخ الحروب الامريكية المعاصرة لم تنتهي بعد. فبخلاف جميع تلك الحروب التي انتهت بوثائق استسلام او وقف لإطلاق النار لم توقع في هذه الحرب اية وثيقة رسمية لانتهاء هذه الحرب.

فلا المنتصرون ارادوا نهاية لهذه الحرب ولا المنهزمون كانت لديهم الجراءة للتوقيع عليها او على الاقل لاتفاقية لوقف اطلاق النار. ونكون كالأمم العالمية الاخرى التي خاضت الحرب كاليابانيين والالمان والكوريين والفيتناميين. ولكن الذي حدث هو الاسواء حينما طبق النموذج السلفادوري من تحول العمليات العسكرية الى عمليات امنية في ما يسمى مكافحة الارهاب.

وبالتالي فانه يمكن الاعتبار ان العراق لايزال يعيش في حالة الحرب حتى يومنا هذا وان ما اعلنه بوش او اوباما لا يمثل الا انسحاب تكتيكي من ارض المعركة وبدليل قصف القاذفات الاستراتيجية لجنوب بغداد ٢٠٠٨ وان العراق لا يزال تحت البند السابع حتى هذا اليوم.

الذي نعنيه بهذا اننا خضنا معارك خلال السنوات العشر الماضية لحرب لم تنتهي بعد ومستمرة بوجوه عدة انتصرنا في بعض منها بشكل محدود وخسرنا اغلب معاركها بتضحيات هائلة.

ولذا توجب ان تتغير بوصلة النظر في ايجاد الحلول القادمة ونتائج المعارك القادمة خاصة اذا اعتبرنا ان قسما اصيلا من الجماعات المقاتلة في العراق لا زالت تحمل السلاح على اعتبار ان معركتها لم تنتهي بعد بالرغم من اختلاف وجوه العدو تارة

في الامريكان كجيش ومرتزقة وتارة بوجوه المليشيات وتارة بوجوه ممن تعاونوا مع الاحتلال او بحكومة فاشلة ادرايا وسياسيا.
وعلى ضوء تلك الصورة يمكن ان تثار التساؤلات التالية بعد قراءة الواقع السياسي العراقي وخلفية وشكل الحراك الشعبي والسيناريوهات المحتملة :
هل من الممكن ان تستمر العملية السياسية الحالية بوضعها المحاصصة الطائفية لعشر سنوات مقبلة في ضوء المعارك القادمة ذات الوجوه المختلفة لها وبالتالي ستستمر التقسيمات الطائفية والعرقية للبلد واستمرارية الدولة الهشة المصدرة للنفط.
ما هي فرص نجاح التغيير وجعل استمرارية العراق كدولة ناجحة ومستقرة وغير فاشلة للعشر سنوات المقبلة في ضوء التغييرات في المنطقة. الثورة في سوريا وتغيير الانظمة الجمهورية العربية.
هل الالتزام بالقيم الديمقراطية كفيل باستمرارية العراق كدولة واحدة
والتساؤل الابرز كيف يمكننا من صنع نهاية لحرب العراق من خلال الوصول الى حل مع الادارة الامريكية الحالية:.

العراق ومسيرة عشر سنوات ـ مراجعات نقدية

اياد السامرائي

العراق قبل الاحتلال
بدأ مشروع الاحتلال يتبلور لدى المحافظين الجدد في الولايات المتحدة كجزء من مشروع " اصلاح الشرق الأوسط" ، واختاروا بوش الأبن رئيساً.
ويقوم المشروع في ظاهره على تغيرات ديمقراطية تفرض بواسطة الولايات المتحدة على منطقة يحكمها مستبدون، ثم صلح مع إسرائيل وعلاقات متينة مع الولايات المتحدة، والقضاء على الإرهاب فكراً ومنابع..
كان احتلال العراق هدفاً أولاً في المشروع، فكيف تعاملت القوى الأقليمية مع الأمر؟
النظام العراقي:
أستمر في رفض الأصلاح الداخلي مستبعداً أحتمال الحرب معولاً على المناورات السياسية والتنازلات ومساندة دول أعضاء في مجلس الأمن له.
وداخلياً تحقيق القبضة الأمنية وحشد الشعب عاطفياً ضد الأحتلال، ونشر ثقافة المقاومة بين العراقيين، وكانت هذه أحد أسباب أطلاق الحملة الأيمانية.
وسبب آخر لها توجيه رسالة للغرب أن البديل للنظام لن يكون إلا إسلامياً، وهو بديل ترفضه الولايات المتحدة.
الدول الخليجية:

كان موقفها متردداً، تحاول أقناع العراق بتنحي صدام عن السلطة، منعاً للحرب وللتغيرات القادمة.

سوريا:

أنفتحت على العراق وعارضت التغيير، ولكن حلفها الإستراتيجي مع إيران، يمهد لمرحلة قادمة وانفتحت على المعارضة العراقية بكامل فصائلها دون أستثناء.

فإن تأخرت الحرب فهي مستفيدة وأن حصلت فهي مستفيدة.

إيران:

وهي اللاعب الأهم، كان موقفها متعدد الأوجه..

معارضة الحرب من منطلقات مبدئية وعبر عن ذلك مرشد الثورة.

حث المعارضة العراقية الشيعية على التعاون مع الولايات المتحدة وتشجيعها على غزو العراق.

التهيء لمرحلة مابعد سقوط النظام لأخراج الولايات المتحدة من العراق.

الكل يعلم أن لإيران إستراتيجية بعيدة المدى، تقوم على أساس التوسع الفكري والمذهبي والسياسي عبر محيطها الجغرافي وفي كافة الأتجاهات.

تركيا:

تكرار للمواقف السياسية في عدم التدخل ومعارضة الحرب دون خطة محددة.

العراق بعد الاحتلال

حصل الأحتلال وسيطرت القوات الأمريكية على كافة العراق، عاونها في ذلك مخابرات دول خليجية وإقليمية وقوى وأحزاب عراقية كردية وشيعية وبعض الشخصيات السنّية.

بناءً على الوعود الأمريكية طالبت القوى السياسية المتحالفة مع الأمريكان بتشكيل حكومة مؤقتة. ماطلت الولايات المتحدة في ذلك ثم تغيرت السياسة وتم أستبدال غارنز، ببيريمر، وتحول الأمر من إسقاط نظام الى إحتلال.

وتحول ملف العراق الى وزارة الدفاع وألغيت كل مشاريع وزارة الخارجية في إقامة حكومة مؤقتة ونظام ديمقراطي الى مشروع تدمير بنية الدولة العراقية، لكي يعاد بناؤها على أسس جديدة. وهو موقف عارضه كثيرون وأنسجم معه آخرون.

هنا بدأت تظهر المشاريع المتقاطعة ومن يقف وراء كل مشروع.

الولايات المتحدة:

انشاء أدارات تمثل (ولو بشكل غير دقيق) مكونات الشعب العراقي، تمهيداً لأستلام اصدقاء الولايات المتحدة السلطة، ثم تعزيزها عبر أنتخابات ودستور وهياكل ديمقراطية!!!

فكان مجلس الحكم ثم حكومة أياد علاوي ثم الدستور ثم الأنتخابات، وهنا بدأت الولايات المتحدة تفقد السيطرة تدريجياً لصالح إيران، ولكن غرور القوة جعلها لا تنتبه أولا تريد الأعتراف بذلك. (اللقاء مع نغروبونتي مثال على ذلك). والاستمرار في دعم التيارات الديمقراطية الليبرالية الموالية للغرب وتوسيع دائرة نفوذها. رغم ضعف نفوذها.

إيران:
كانت لها أستراتيجة واضحة..
١- إسقاط صدام.
٢- إبعاد أهل السنّة عن مواقع السلطة والنفوذ.
٣- إحلال الشيعة بديلاً للسنّة، وتعاون الشيعة مع الولايات المتحدة.
٤- دعم المقاومة ضد الأحتلال عبر الحليف السوري.
٥- إيجاد مقاومة شيعية لكي لا ينفرد السنّة بذلك، على أن تكون منضبطة.
٦- العمل على احتواء من تستطيع احتوائه من فصائل المقاومة السنّية، فنجحت مع القاعدة، وأنصار الأسلام وغيرهم.
٧- إيجاد توتر طائفي لجمع المجتمع الشيعي ومنع تفككه، وقد ساهمت بوعي أو دون وعي عدد من التنظيمات السياسية والدينية والمسلحة في ذلك.
٨- الحرص على أنقسام المجتمع السنّي وعدم توحده في مسار واحد. فكان الحرص على التحالف الشيعي- الكردي، وزرع الشك بين السنّة العرب والكرد.
٩- الأنفتاح على القوى السياسية السنّية، ولكن دون الإخلال بقاعدة القيادة الشيعية للعراق.
أصبح امامنا مشروعان يملكان عناصر القوة..
المشروع العلماني المتجاوز للدين والطائفة والمذهب، تدعمه الولايات المتحدة، ثم أنحازت الدول العربية وتركيا إليه.
المشروع الشيعي بمحاوره المتعددة مدعوماً من إيران.
فأين أهل السنّة من ذلك؟ وهل كان لهم مشروع؟؟؟
كان المجتمع السني هو الأكثر أضطراباً وأبتعادا عن تنظيم نفسه والتهيوء لمرحلة مابعد سقوط النظام، ولذلك أسباب عدة على رأسها :-
خلو ساحة أهل السنّة من قوى حزبية أو دينية معارضة قوية يستطيع ابناء السنّة الألتفاف حولها.
المعارضون للنظام من السنّة على الأغلب أنضموا الى التيار العلماني الذي رعته الولايات المتحدة والدول العربية، ولكنهم كانوا أفراد لم ينجحوا في تكوين تيار حزبي قوي خاص بهم.
التيار الأسلامي تجنب المعارضة، وعمل دعوياً وأغاثياً، دون أية رؤية مستقبلية للتغيير، لذلك لم يُثقف فكرياً للتغيير القادم مكتفياً بالتعايش مع الوضع القائم وأنتظار الأصلاح المتدرج الذي يمكن أن يأتي لاحقاً.
البعثيون نجحوا في نشر ثقافة قومية علمانية معادية للغرب ولإيران وتأثر مجتمع أهل السنة بهذه الثقافة حتى المتدينون نجد غالبيتهم غير منسجمين مع مشروع الإسلام السياسي.
الحزب الأسلامي الذي أعاد تشكيل نفسه خارج العراق كان معارضاً للنظام ومعارضاً للمعارضة ايضاً. بسبب ولائها المتوزع بين أمريكا وإيران، لذلك كان

مضطرباً في طروحاته وغير قادر على تبني مشروع تغيير. وكان معزولاً عن المعارضة ومن يساندها، وعن الأنظمة العربية لأنها معادية للتيار الأسلامي.
بعد الأحتلال نجح الحزب في أستقطاب قطاع كبير من أهل السنّة، لأنه كان بالنسبة لهم المظلة الوحيدة الموجودة. أنحازت إليه الجماهير، ولكنها لم تنحز الى فكره أو رؤيته. سرعان ما أنقسم المجتمع السنّي الى تيارات..
تيار المشاركة في العملية السياسية، وعلى رأسهم الحزب الأسلامي، وساسة سنّة مستقلون، منطلقين من التعامل مع الامر الواقع والتصدي للمشاريع التي تستهدف أقصاء السنّة عن الحياة السياسية ودورهم في بناء الدولة، وفلسفتهم كانت بسيطة وواضحة. الأحتلال سوف يخرج وسيكون هناك بديل محلي يشغل مواقعه، وعلى السنّة أن يكونوا جزءاً من هذا البديل، ورغم أن هذا التيار كان يخشى من المشروع الشيعي للهيمنة على العراق، إلا أنه أعتقد أيضاً أن السياسة الواقعية التي قادته للتعامل مع أمريكا تقوده الى التعامل مع إيران بحكم الأمر الواقع ، وأن لا يعاديها فالمعركة معها ليست متكافئة.
تيار رفض العملية السياسية وعلى رأسهم البعثيون، الذين وجدوا أن تعميق سياسة الرفض في المجتمع، قد تلجأ الأمريكان الى العودة للتعاون معهم بعد تغيرات داخلية في الحزب . هذا التيار لم يقدم مشروعاً مكتفياً بالرفض. نجح هذا التيار في كسب قطاع مهم من المجتمع العراقي الى منطقه وطروحاته، سيما وقد أنحاز إليه عدد لابأس به من علماء الدين بإعتبار إن التصدي للأحتلال واجب شرعي.
تيار المقاومة المسلحة، الذي أنطلق من نظرية إن الأحتلال لا يخرج إلا بالمقاومة المسلحة، ودون مقاومة مسلحة سيبقى المحتل، ثم أنقسم هذا التيار الى القاعدة..ومن يدور في فلكها ، التي تبنت نظرياً التصدي للأحتلال ولإيران والتشيع، وأعتبرت أن أثارة الحرب الطائفية بين العراقيين كفيل بتحقيق النصر وفق نظرياتهم، وان الحرب في العراق على امريكا جزء من حرب أسلامية على أمريكا وحلفائها.
فصائل المقاومة الأخرى.. ربطت جهدها بالتصدي للأحتلال الامريكي وقواته حصراً، دون التعرض للعراقيين، ولكنها أستدرجت بعد ذلك لمواقف ضد الشيعة وضد إيران، بأعتبار أن الاحتلال الإيراني أصبح بديلاً للأمريكي.
الأنقسام بين هذه التيارات كان قوياً ووصل الى التخوين والقتال، وبغض النظر من كان الأقرب الى الصواب، فإن أنقسام المجتمع السنّي في وجه توحد المجتمع الشيعي والمجتمع الكردي، جعله المجتمع الأضعف والأكثر تعرضاً للمزايدات داخله.. هذه التيارات هي التي نحتاج اليوم لتقييم الخطأ والصواب في إستراتيجياتها العملية.
تيار المشاركة في العملية السياسية..
كان على رأس هذا التيار الحزب الأسلامي العراقي، والذي بفعل وجود العديد من قياداته خارج العراق، متوزعين على أقطار عدة.. أفغانستان، اليمن، أمريكا، بريطانيا، وخلطتهم مع القوى السياسية العراقية المتعددة، فإن الصورة التي تشكلت أمامه.. إن الصراع القادم ليس صراعاً بين أمريكا والعراقيين، ولكنه صراع بين العراقيين على السلطة، وإن موقف أمريكا سيكون له أثر حاسم في الترجيح. لذلك

وعلى الرغم من معارضتهم الشديدة للحرب وتصريحهم أن نتائجها ستكون أشد على العراق من بقاء النظام البعثي، فإنهم وجدوا أن المصلحة كانت في السياسة التالية..

١- أعتماد الطريق السلمي لأخراج الأمريكان من العراق، عبر النضال السلمي وتعاون مع الأطراف الأخرى.

٢- المشاركة مع القوى الأخرى الشيعية والكردية في عملية بناء الدولة العراقية بشكل متوازن، بإتجاه موقف موحد.

٣- تجنب أنحياز الأمريكان لطرف على حساب الآخر.

عدم التعرض لإيران أعلامياً، والعمل على منع تغلغل النفوذ الإيراني في الدولة الجديدة، مستفيدين من الصراع بين أمريكا وإيران.

السعي للحصول على دعم تركيا والدول العربية لهذه السياسة.

توحيد الموقف السنّي حول هذه السياسات. لذلك أنفتح الحزب على القوى السنّية دون أستثناء مع ما كان لهذا الانفتاح من آثار سلبية بعد ذلك. وشمل الأنفتاح، البعث، الفصائل المسلحة، (رغم النظرة السلبية عند بعضها لمواقف الحزب) ،علماء الدين...الخ.

وسعى من أجل توحيد الموقف السنّي الى تشكيل هيئة علماء المسلمين، مجلس شورى أهل السنة والجماعة ثم جبهة التوافق العراقية.

إلا أن كثيراً من هذه السياسات لم تأتي بالنجاح المطلوب، بسبب التيارات الاخرى المعارضة لهذا التوجه وتحديداً البعث والفصائل المسلحة. وكان للموقف السلبي لتيار داخل حركة الأخوان المسلمين يعارض هذه التوجهات أثره كذلك في ضعف قدرة الحزب الأسلامي على توليد القناعة بهذه السياسة بالشكل المطلوب.

حاول الحزب الأسلامي التوفيق بين الأتجاهات المتقاطعة داخل المجتمع السنّي، فانعكس ذلك أضطراباً في سياسات الحزب، فأتهم الحزب بتقلب المواقف والأنتهازية السياسية.

وفي زحمة الصراع السياسي عجز الحزب عن بناء موقف فكري شرعي يعزز توجهاته. ثم أزداد الأمر سوءاً، دخول بعض التيارات الاسلامية المحسوبة على خط الأخوان المسلمين داخل وخارج العراق في الأعتراض على سياسات الحزب. ورغم أن الأجتماعات القيادية بين قيادات الحزب والقيادات الأسلامية خارج العراق وداخله أعطت تأييداً لمواقف الحزب إلا أن ذلك لم يجر ترويجه أعلامياً ولا التثقيف به بشكل صحيح.

بناءاً على هذه السياسات قرر الحزب المشاركة في الأنتخابات والمشاركة في الحكومات وفي تشكيل جهة التوافق التي جمعت ثلاثة تيارات علنية وتيار رابع لم يعلن عن نفسه، يمثل جانباً من الفصائل المسلحة التي بدأت بالتشكل تباعاً.

أضطر الحزب للانسحاب من أول أنتخابات أجريت بسبب معركة الفلوجة، ونقدر أن ذلك كان خطأً سياسياً، وأستجابة لردود أفعال المجتمع السنّي المتعاطف مع المقاومة المسلحة. وحصل خلاف قبل ذلك في أستمرار المشاركة في حكومة علاوي أم لا، مما ترتب عليه إنشقاق عضو في قيادة الحزب، ثم كان الرفض للمشاركة في حكومة

الجعفري، بينما شاركت شخصيات سنّية فيها، نجح بعضها بعد ذلك في الوصول الى مواقع متقدمة في قيادة السنّة (أسامة النجيفي).
خاضت جبهة التوافق الأنتخابات وحصلت على نتائج جيدة بلغت ٤٤ مقعداً وحرمها قانون الانتخابات الذي جرى نقضه من المحكمة الأتحادية من ١١ مقعداً آخر، وحصل الحوار الوطني على ١٢ مقعداً، وحصلت العراقية على ٢٥ مقعداً (١١منها للسنّة)، والتحالف الكردستاني على مايقارب ٦٠ مقعداً.
أمتازت الدورة الأولى لمجلس النواب بتماسك الموقف الشيعي عبر الأئتلاف الوطني وأنقسام الموقف السنّي بين التوافق والقوائم الاخرى، الحوار، العراقية، ثم تطور الى أنقسام داخل التوافق، فكان لذلك أثر كبير في عدم القدرة على تحقيق النتائج المرجوة لأهل السنّة في العراق، الذين توزعت أصواتهم على هذه القوائم ولم ينقسم الموقف الشيعي إلا بعد أن أصبحت القطيعة بين التيارات السنّية في مجلس النواب مما لا يمكن معالجته.

تيار حزب البعث:

أعتمد البعث السياسة التالية..
رفض العملية السياسية جملة وتفصيلاً وتوظيف عناصره ومثقفيه إعلامياً وفي كافة المنابر والصحف وتشويه صورة كل من يشارك فيها، وقد نجح الحزب في ذلك إلى حد بعيد. إلا أنه مقابل هذا الرفض الشامل لم يقدم رؤية للحل وكيف يكون.
تبنى موقف المقاومة واعتبر نفسه قائدا لها وتأكيده إعلاميا على قيادته للمقاومة رغم رفض المقاومة ذلك. إلا أن موقفه المنحاز بشكل قاطع إلى المقاومة جعله في موقع التغلغل والتأثير في قياداتها وتوجهاتها السياسية. فصارت المقاومة أقرب إلى رفض العملية السياسية برمتها، سيما وأن المقاومة لم تفرز منظريها السياسيين والإستراتيجيين. أنشأ البعث منظمات مقاومة صغيرة متعددة لتتوحد بعد ذلك مع فصائل أكبر منها، فضمن لنفسه إختراق فصائل المقاومة العراقية أو التأثير فيها على الأقل (هذا ما سمعناه من قيادات بعثية قريبة الصلة بالمقاومة).
حاول التغلغل إلى القوى السياسية المشاركة في العملية السياسية، لاكتساب المزيد من التأثير في الساحة.

في تقديري

إن حزب البعث سعى للعودة إلى السلطة بشكل متدرج، ورفض الاعتراف بأخطاء الماضي أو أخطاء قياداته (بل جرائمهم) التي أوصلت العراق إلى ما آل إليه الأمر، ودفعه لاضطراب الوضع ليفوت فرصة النجاح على الآخرين. مما يعطيه فرصة أن يكون البديل، ورغم إنقسامه إلى تيارات عدة إلا أن هذه التيارات منسجمة كان انقسامها انما هو تقاسم أدوار بينها، بحيث يصعب الحكم اليوم مَن مِن البعثيين إنسلخ وتاب ومن يمارس دور الاختراق، ونعتقد أن تجربة البعث الطويلة في السلطة وإمكاناته المادية وعناصر مخابراته المتمرسة كلها أعطته هذه القدرة الكبيرة على المناورة.

حزب البعث الذي أعلن موقفه القوي مع المقاومة وإدعاء قيادته لها ضمن لعناصره أن تشارك بقوة فيها تنفيذا ومواجهة مكتفيا بدوره السياسي والمخابراتي.

تيار المقاومة المسلحة في العراق

مما لا شك فيه أن هذا التيار حظي بتعاطف أهل السنة جميعا معه، وتأييد قواهم السياسية له بأشكال متباينة، وكان ينظر له في البداية بإعتباره تيارا واحدا وأن تعددت فصائله، إلا أنه سرعان ما بدأ يظهر التمايز في الطرح والسياسات والمواقف بين هذه الفصائل إلى ثلاث تيارات:

القاعدة الرافضة للعملية السياسية، والساعية إلى حرب طائفية في العراق، ثم تركيز عداوتها لرموز أهل السنة مع إتهام قوي لها بأنها أصبحت أداة بيد إيران والتيارات الطائفية.

فصائل مسلحة أخرى إعتبرت حربها ضد الأمريكان حصرا دون غيرهم، وهدفها إخراج الأمريكان، وانقسم هذا التيار إلى مجاميع توافق على المصالحة مع الأمريكان لإضعاف نفوذ الشيعة ، ومجاميع قبلت بالمصالحة الوطنية التي أعلنتها الحكومة العراقية ومضت فيها، مقابل مكاسب مادية ومعنوية. والتيار الأغلب إستمر في رفضه الوجود الأمريكي أو التحاور معه.

ثم وبعد الانسحاب الأمريكي حصل الانتباه إلى أن هناك نفوذ أو إحتلال إيراني للعراق ينبغي التصدي له، كما عبر بعض قيادي هذا التيار عبر وسائل الإعلان.

ليس من الإنصاف أن نتعامل مع تيار المقاومة المسلحة باعتباره شيء واحد، لما حصل من تباين في توجهات تيارات المقاومة، ولكن لابد من الإشارة إلى الإيجابيات ثم الأخطاء الاستراتيجية التي أجهضت الإيجابيات، والإشارة إلى مواقف الكتل السياسية من تيار المقاومة.

الإيجابيات

إن المنتمي إلى تيار المقاومة المسلحة هو الأقدر على ذكر الإيجابيات التي تحققت، ولكني أركز على شيء واحد وهو أن تيار المقاومة المسلحة ولد ضغطا حقيقيا على الولايات المتحدة، مما دفعها إلى سرعة الرحيل عن العراق وتأجيل مشاريعها في الدول الأخرة إلى أمد. ولاشك أنه أوقع أذى كبير بالمحتل الأمريكي. كما أنه من ناحية أخرى أوجد حالة نفسية (تحاول السلطة في العراق كسرها) بالشعور بقوة أهل السنة وقدرتهم على التصدي المسلح وتحقيق مطالبهم من خلالها، وهي حالة لا يستهان بها.

فهناك خوف شديد من إنتفاضة مسلحة يقوم بها السنة عند القيادات الشيعية تحدثوا عنها بأشكال مختلفة، ولذلك فاستعداداتهم الخفية لمثل هذا الاحتمال شيء كبير. كما أن هناك شعور لدى أهل السنة بقدرتهم على العودة إلى المقاومة مرة أخرى لاستخلاص الحقوق.

الأخطاء الاستراتيجية للمقاومة

نحن سنتكلم عن واقع حال سواء سعت المقاومة لتحقيق هدف ثم لم تستطع أو أنها لم تنتبه لذلك الهدف.

وحدة الموقف لأهل السنة :

إن الصراع في العراق صراع مكونات على تقاسم السلطة، وخلف تلك المكونات دول، فكان لابد من تحقيق وحدة موقف أهل السنة. فإذا طالبنا تيار المشاركة في العملية السياسية بهذا الهدف، فإن المعارضين للعملية السياسية كانوا أيضا مطالبين بذلك.

وعندما نتحدث عن وحدة الموقف ليس في جزئيات، كما قد يشار إلى أن بعض فصائل المقاومة حمت عسكريا مساهمة السنة في الانتخابات البرلمانية للدورة الأولى، بل إلى وحدة الأهداف الاستراتيجية ووحدة السياسات العامة.

كان ينبغي جعل ذلك الهدف الاستراتيجي الأول على حساب أي هدف آخر.

إن العمل العسكري لابد له من واجهة سياسية، لتفاوض وتطالب، وافتقد العمل المسلح تلك الواجهة السياسية أو الفريق السياسي المفاوض، وبقيت قيادات المقاومة مجهولة الحال إلا بتعامل بسيط مع بعض أجهزة المخابرات التي سعت لكشف أسرار المقاومة عبر الانفتاح عليها.

الاجابة على سؤال مهم ما هو الهدف، أهو:

تحرير العراق من خلال المقاومة، لكي تحكم المقاومة العراق.

أم توليد ضغط على المحتل ليخرج دون الاهتمام بما يلي ذلك.

إن هذه الإجابة مفصلية في تحديد خط السير.

إن كان هدف المقاومة تحرير العراق واستلام السلطة بعد المحتل، كما فعلته الثورة الجزائرية والفيتنامية والصينية فعندها لابد من أن تكون قادرة على تجنيد كل مكونات الشعب العراقي القومية والمذهبية معها؛ لأن المقاومة إن اقتصرت على مكون دون آخر سرعان ما تتحول إلى حرب مكونات (كما حصل فعلا) وإلى استغلال المحتل لهذا الخلل فينحاز إلى مكون دون آخر (وهذا ما حصل فعلا).

لقد دفع المحتل الأمريكي في وقت مبكر إلى الحرب الطائفية، ردا على المقاومة وعمليات القتل الطائفي، الأولى كانت من فعل المخابرات الأمريكية، كما يؤكد الكثير من المطلعين على بواطن الأمور أو الذين صاحبوا أحداثا بعينها.

وإن كان الهدف هو الضغط لسرعة إخراج المحتل والاعتراف بعدم القدرة على أن تكون المقاومة هي البديل، فكان لابد من تنسيق مع التيار المشارك في العملية السياسية تنسيقا واسعا، لتحديد كيف يمكن توظيف الفعل المسلح لخدمة العمل السياسي وأن يكون هذا الانفتاح عاماً لعموم الطيف العراقي.

لقد كان في المجتمع الشيعي والكردي بوادر مقاومة مسلحة، تمثلت في كل من التيار الصدري وأنصار الإسلام والجماعة الإسلامية. وكان لابد من الانفتاح على القوى الشيعية والكردية كسبا لتأييدها ومناصرتها، والوصول إلى مشروع واحد سياسي ومقاوم في آن واحد.

قد يبدو هذا الطرح بعيدا عن الواقع وخيالي وأقر بذلك بناء على الواقع السياسي الحالي، ولكن كان ذلك ممكن تحقيقه في عام ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤.

إيجاد القيادة الفكرية والإستراتيجية للمقاومة كان شرطا للنجاح، وعندما ننظر إلى واقع حركة المقاومة لا نجد أثرا لهذه القيادة الفكرية والإستراتيجية.
وهنا لابد من الإشارة إلى الفارق الكبير بين مقاومة العراق والمقاومة في فلسطين، وكيف أن الفلسطينيين وظفوا عشرات الخبراء والأكاديميين والمنظرين لقضيتهم، وأنشأوا وحدات فكرية تخطيطية ومراكز أبحاث تخدم قضيتهم، ولا نجد مثل ذلك في المقاومة العراقية.
نعم هناك محاولات تنظيرية قام بها البعض ولكنها كانت أقرب للطابع الدعائي بهدف الترويج لفكر المقاومة.
٤- أفتقاد القيادة الواحدة للمقاومة، وهذا أعطى مجالاً واسعاً للمزايدات والأختراقات، وعدم القدرة على بناء موقف موحد وعدم القدرة على ردع المتاجرين بالمقاومة، وبالتالي تخريبها، وبسبب ذلك حصلت السلبية التالية.
٥- تدريجياً تم تشويه صورة المقاومة وأعتبرت أرهاباً، لأنها أو بعض فصائلها قامت بالأعتداء على المشاركين في العملية السياسية، وعلى الشيعة، وتحول الى أعتداءات إرهابية على عموم الشيعة، وإستهداف نوعي لقيادات السنّة، فبدأت تفقد الدعم الشعبي في المجتمع السنّي (نسبياً) وألبت المجتمع الشيعي عليها، وتحول الامر الى صدام طائفي.
بأستثناء القاعدة التي نظرت فكرياً للحرب الطائفية، فإن عموم الفصائل المسلحة لم ترد أن تحول الصراع الى صراع طائفي، ولكنها أنساقت إليه وصنفت كذلك، وأعطى ذلك المبرر لتكوين فصائل شيعية طائفية مسلحة، ولكن أعمالها تحولت بعد عام ٢٠٠٩ الى حالةٍ سرية مطلقة ونفي وجودها، ومارست أعمالاً دون أعلان بل حملت القاعدة كثيراً من عملياتها.
الفصائل الشيعية المسلحة نسقت الى حدٍ كبير مع الفصائل السياسية كلها أو بعضها. بينما دخلت الفصائل السنّية في صراع مع الفصائل السياسية السنّية، وكان لذلك أثاره السلبية بالغة الأثر.
٦- تأخر المقاومة في أدراك جدية الأنسحاب الامريكي وأستغلاله للنفوذ السياسي الى الساحة، إذ أستمرت في رفض الحوار مع الولايات المتحدة، أو السعي للوصول معها الى صفقة تمكنها في حماية نفسها وتثبيت وضعها على الساحة السياسية. لقد كان هناك أكثر من فرصة.. نجملها..
خلال مرحلة أنشاء الصحوات ضد القاعدة.
بعد الإعلان عن رغبة الولايات المتحدة في الانسحاب.
وبداية الحديث عن الأتفاقية الأمنية.
خلال مرحلة التفاوض حول الأتفاقية الأمنية أو بعدها مباشرة.
الخلاصة.. لا أجد أن المقاومة وضعت لنفسها هدفاً سياسياً لصالح مشروعها، ثم حددت كيفية الوصول الى الهدف سياسياً وعبر الحوار.

٧- لم تستطع المقاومة كسب حلفاء حقيقيين من داخل المشاركين في العملية السياسية، وأعتبار العمل العسكري مكملاً للعمل السياسي، بل تعاملت بإعتبار العسكري نقيضاً للسياسي مستعلية عليه.

موقف الحزب الإسلامي من المقاومة

في اجتماع قيادي مهم عام ٢٠٠٣، أيد الحزب الإسلامي المقاومة العراقية تحت عنوان إحتواء المقاومة أو ترشيد المقاومة، كما عبر عن ذلك بعض ممن حضروا ذلك الاجتماع، ولكنه كحزب أكد على خطه السلمي، وأنه شخصيا لا ينخرط بعناصره فيها.

ولكن واقع الحال يشير أن بعض عناصر الحزب مدفوعين بمؤثرات عدة، إنخرطوا دون علم القيادة، واستفادت بعض فصائل المقاومة من هذا الاندفاع عند بعض عناصر الحزب، وخاصة حديثة الإنتماء لجعل الحزب غطاء لأنشطتها.

هذه السياسة لم تكن متفق عليها، وترتب عليها ردود أفعال سيئة وأثرت سلبا على العلاقة بين الجانبين.

لقد كان موقف الحزب الإسلامي السياسي الإيجابي من المقاومة سببا لكثير من الأذى الذي وقع على قياداته، شمل أمينه العام ورئيس مجلس الحكم في فترة ما، كما شمل نائب رئيس الجمعية الوطنية وعضو المكتب السياسي للحزب باعتقالهما من قبل الأمريكان، إضافة إلى العديد من الآخرين من عناصر الحزب.

ولكن من ناحية أخرى لم يسلم الحزب من عمليات الأغتيال التي مارستها فصائل من المقاومة ضده. الموقف كله كان غريباً. قد يدافع اليوم البعض عن هذه السياسة أو تلك وعن هذا التوجه أو ذاك، ولكن المجتمع السنّي كان في فوضى الموقف السياسي، والانقسام الذي فوت عليه تحقيق مكاسب حقيقية.

التيار الصدري

تبنى التيار الصدري المقاومة وشكّل جيشاً أو مليشيات لذلك، وأعترض على مسار القوى السياسية الأخرى، وتقارب في مرحلة ما مع فصائل المقاومة الاخرى، ولكن هذا لم يتجاوز عاماً واحداً إذ أنه سرعان ما أنسجم مع موقف المرجعية القائل بعدم مقاتلة الامريكان والقبول بالمسار السلمي في تحصيل الحقوق وتحقيق السيادة.

ولكن التيار الصدري ومليشياته أنخرطت في الحرب الطائفية وبشكل قوي منه أواخر عام ٢٠٠٥ والى أن تم إخضاعه كلية من قبل القوات الامريكية والحكومية بعد سنوات. فعاد وتنصل من العمل المسلح وأصدرت قياداته بيانات في ذلك.

التيارات الشيعية الأسلامية

المجلس الأعلى، وبدر، والدعوة وغيرهم...

أستنكر هؤلاء العمل المسلح برمته شيعياً كان أو سنّيا وأعتبروه أرهاب، ولكن هناك شكوك عديدة أن لهذه المنظمات السياسية مجاميع مسلحة غير معلن عنها، تمارس انماطاً من العمل المسلح المحدود والموجه لأغراض سياسية.

كان هذا العمل كثيفاً في سنوات ٢٠٠٤ فما بعدها، ثم تراجع بعد عام ٢٠٠٨ ولازال هناك ظن أن هذه المجاميع عادت فنشطت بعد الثورة السورية، كأجراء أحتياط، ولكنه نشاط ذو طابع مخابراتي يصعب التعرف على تفاصيله إذا وجد.

دافعت القوى الشيعية على ما كانت تقوم به العصابات المسلحة والمجاميع الخاصة التي تشكلت بذريعة توازن الرعب، وهو يقوم على النظرية التالية إذا كان السنّة يهددون الشيعة ويستهدفونهم ولا نستطيع أن نردعهم لضعف وضعنا الأمني، فالحل هو ان تقوم العصابات الشيعية بعمليات مضادة تستهدف السنّة بعمومهم ونخبهم وقيادتهم، لكي يتحقق توازن للرعب بين السنّة والشيعة، عندها لكي نجبر المجتمع السنّي على أتخاذ موقف ضد المجاميع السنّية، وأن لا يكون حاضناً لها.

ولقد نجحت هذه السياسة الى حدٍ ما، وخاصة عندما تحولت القاعدة الى أستهداف السنّة والشيعة سواء، فتكونت على أثر ذلك الصحوات التي حاربت وبدعم امريكي وحكومي العصابات الشيعية وتنظيمات القاعدة.

القوى السياسية الكردية

كان موقف هذه القوى حاسماً ضد كل أشكال العمل المسلح حتى لو كان كردياً. ولم تفرق في تعاملها الحاسم مع الموضوع بين أي من الفصائل، لأنها أنطلقت من فرضية أن الامريكان أتوا محررين وبطلب عراقي، فعلى العراقيين حمايتهم والتفاهم معهم لا قتالهم.

لذلك لم ينجو من هذا الموقف حتى بعض الفصائل المقاتلة الكردية كأنصار الاسلام أو جناح في الجماعة الأسلامية.

محطات ينبغي الوقوف عندها

الحرب الطائفية

يذهب غالب الظن أن بداية أفتعالها كان من القوات الأمريكية، لإيجاد عداوة بين الشيعة والسنّة، فيصبح الجميع بحاجة الى الوسيط الأمريكي، وينشغل الشيعة والسنّة ببعضهم عن التصدي للأمريكان. وتشير معلومات أولية جهود لعناصر مختارة من الجيش الأمريكي بهذا الأمر وتجنيدهم لمرتزقة عراقيين، كما تشير الى تورط سياسيين عراقيين مقربين من الولايات المتحدة بتنظيم عصابات لهذا الغرض.

لكن سرعان ماتوسعت هذه العمليات على يد التيار الصدري وجيش المهدي. ثم دخول الصحوات ومجاميع سنّية ضد المجاميع الشيعية وشهدت العديد من مناطق العراق مواجهات ليلية متواصلة بين مجاميع وعصابات من كلا الطرفين وكان أشد ذلك في بغداد وديالى.

الصحوات

بعد تزايد الاعتداءات التي تقوم بها القاعدة ومجاميع شيعية على السنّة وضمن خطة أمريكية تم تجنيد عشرات الآلاف من ابناء العشائر السنّية للتصدي لتلك العصابات وبأشراف وتمويل أمريكي.

إلا أن السنّة أرتكبوا خطأ إستراتيجياً، أنهم لم يطالبوا بشكل حاسم أن تكون هذه الصحوات جزءً من الشرطة أو الجيش العراقي ابتداء لتوفير الحماية لهم.

لذلك وما أن أتموا دورهم إلا وتنكرت لهم الدولة ورفضت أن تسبغ عليهم صفة رسمية، وأستمرت تعاملهم كحالة مؤقتة.
لقد كان ذلك أحد الأخطاء الإستراتيجية التي حرم السنّة بسببها من التواجد في القوات المسلحة.
لقد كنت شخصياً منتبهاً لذلك منذ البداية، ولكن صوتي وصوت طارق الهاشمي ذهبا سُدى أمام موافقة العشائر على ان تقوم بهذا الدور دون ضمانات مستقبلية.

الدستور

ثار جدال كبير حول الدستور ولازال البعض الى اليوم يهاجمه ويعتبره سبب كل بلاء أصاب العراقيين بعد ذلك، ولابد من تثبيت أمور لنا وعلينا...
الدستور كان ضرورة لابد منها سواء أرادها الأمريكان أم لم يريدوا أو تدخلوا فيه أم لا.
نحن الذين شاركنا في كتابة الدستور نشعر أن الدور الامريكي ودور الأمم المتحدة كان إيجابياً ولكنه لم يكن حاسماً، وننفي مقولة ان الدستور كتبه الأمريكان، بل نشهد أنه كُتب بأيدٍ عراقية مادة مادة.
كان للأمريكان متابعة دقيقة لمراحل تقدم العمل بمشروع الدستور، وكانت لهم تحفظاتهم على بعض مواده وخاصة تلك المتعلقة بالأسلام، وتحكيم الشريعة، والديمقراطية، وحقوق المرأة، وساهموا في إثارة ضجة حول ذلك، ولكن الموقف النهائي كان عراقياً، وإن كان هناك تأثير امريكي نسبي.
٢-عدم الأتفاق على فلسفة واحدة، جعلت عبارات كثير من النصوص غامضة بقصد أو دون قصد، كما رحلت قضايا أخرى لقوانين تصدر لاحقاً ولم يصدر منها إلا قليل.
كانت هناك تناقضات أثرت على منهجية إعداد الدستور، ولكن لابد أن أثبت وجهة نظري.. أن أيجابياته أكثر من سلبياته بكثير، وأتى متوافقاً مع مجتمع عراقي منقسم على نفسه غير قادر على تجاوز الأنقسام.
غياب الدور المهني القانوني، وأصبح الدور السياسي في كتابة الدستور هو الأظهر، مما أضعف كثير من النصوص.
الغريب كان في فريق إعداد الدستور الكثير من المختصين ولا ندري لِمَ كان أثرهم ضعيفاً.
إن إقرار الدستور كان بداية لعملية نقل السيادة، وإن رفضه كان يعني تمديد وضع الأحتلال، وبقاء قانون إدارة الدولة،
وكنا مخيرين بين أمرين بين أحتلال وقانون إدارة دولة قاصر عن أداء المهمة وبين دستور يؤدي الى سيادة وإن كانت منقوصة ولكنها تؤذن بأن تتحول الى سيادة كاملة.
رغم مايقال من عيب أو عيوب في الدستور إلا أن الخلل الأكبر بعد ذلك هو في التجاوز على نصوصه، وتحريفها بشكل ملتو لا تحتمله اللغة ولا الفهم العام للنصوص. ونحن نتمنى لو نستطيع تنفيذ الدستور الحالي بكامله، فإنه يضمن كثير من الحقوق المسلوبة.

الأتفاقية الأمنية

تعرضت الأتفاقية الأمنية الى أنتقاد شديد، ولكنه أنتقاد أجده لا يصمد للنقاش الموضوعي لأسباب..

لابد لجلاء القوات من أتفاقية تنظم ذلك الجلاء.

عدم توقيع الأتفاقية يجعل وجود أو عدم وجود القوات الأمريكية قضية أمريكية صرفة، فإن شاؤوا بقوا وأن شاؤوا أنسحبوا.

إن وجود الأتفاقية يعطي ضمانات للجانب العراقي لو أحسن أستغلالها.

ولكن لابد من تثبيت أن الطرف السنّي الذي ساهم في مفاوضات إعداد الأتفاقية كان أشد في موقفه على الامريكان من الطرف الشيعي، وكنت شاهداً على جانب من تلك الحوارات، ولكن هذا الموقف في الأخير لم يستفد منه الطرف السنّي شيئاً، وأتت الأتفاقية لصالح الطرف الشيعي ولصالح رئيس وزراء العراق تحديداً.

ربما كانت هناك مصلحة لأهل السنّة في ان يكون هناك قدر من الوجود العسكري الأمريكي في العراق الى حين أكمال بناء الدولة على الأسس الدستورية التي تم الأتفاق عليها، ونحن نلمس أنه وبعد أنسحاب آخر جندي أمريكي حصل تغير كبير في سلوك رئيس الوزراء المدفوع بالرغبة لتأمين التفوق الشيعي في العراق في زمن قصير وبشكل حاسم.

فوز القائمة العراقية وفشلها سياسياً

كان مشروع القائمة العراقية التي أريد لها أن تحقق أنتصاراً كاسحاً يؤهلها لقيادة الدولة، بدأ يتبلور في أذهان العديدين، سيما وأن الأتهام وجه لجبهة التوافق في الفشل على أكثر من صعيد سواءً كان ذلك الأتهام صادقاً أم زائفاً. وشجع على تكوين العراقية بشكلها الجديد أنحياز معظم الرموز الجماهيرية التي أكتسبت سمعة في التوافق الى هذا المشروع الجديد، ومضى المشروع بدعم عربي كبير وربما أمريكي.

وكان تصور قادة العراقية أنهم سوف يحصدون عدد من المقاعد يجعلهم يحققون فوزاً كاسحاً، وتراوحت التوقعات برقم يقارب ١٤٠ مقعداً في مجلس النواب.

رغم فوز القائمة وأنها أتت بالمرتبة الأولى، ولكنه فوز غير حاسم، فالفرق بينها وبين كتلة رئيس الوزراء كان مقعدين. اذاً لم يعد أمامها إلا التحالف..

لماذا لم تحقق العراقية نتائج أفضل؟

هذا يعود في تقديري الى أخطاء أساسية مهمة..

رفضها التحالف من أجل الأنتخابات مع كتلتين مهمتين، الحزب الأسلامي ممثلاً بالتوافق، ووحدة العراق. وكلا الكتلتين أنضمتا الى العراقية بعد ذلك، لكن العراقية حرمت نفسها من الرصيد الذي كان لهاتين الكتلتين والذي قارب ٨٠٠ ألف صوت، أما الدوافع فكانت شخصية على الأغلب ولأعتبارات المنافسة وتسقيط الآخر.

ونجد أن المكون الشيعي نجح في ان يتقدم بقائمتين حصدت كل مقاعد المكون تقريباً، فإن المكون السنّي الأقل عدداً منه توزع على ثلاثة كتل رئيسة.

أن قبول العراقية العرض الذي تقدم به الحزب الأسلامي ووحدة العراق ليخوضوا الأنتخابات سوياً كان من الممكن أن يجلب كتل صغيرة أخرى خاضت الأنتخابات منفردة، لأنها رفضت أن تكون ضمن القائمتين الشيعيتين الكبيرتين.
أستبعدت أمكانية تحالف القائمتين الشيعيتين وأصرت على أن يأتي رئيس القائمة أياد علاوي رئيساً للوزراء، ورغم كثرة المفاوضات فإنها لم تحسن التفاهم مع الكرد أو الشيعة، فضاعت الفرصة في أن يأتي رئيس الوزراء بشروطهم.

واقع الدولة العراقية اليوم

ربما لم يشهد تاريخ العراق مطلقاً دولة غنية وفاشلة كما هي عليه الدولة العراقية اليوم، بحيث لا نستطيع أن نمنحها أي أنجاز إلا زيادة أنتاج النفط، والذي يتحقق بفعل جهود شركات أجنبية. أما الفساد وسرقة المال العام، فبلغ مرحلة لا توصف، بحيث يصفها كثير من المراقبين الأجانب أنها "دولة الحرامية"، والأحتجاج الشعبي يتصاعد ضدها بشكل كبير.
كما بلغ التدخل الخارجي والتغلغل في أجهزتها حداً خطيراً جداً.
هذا الواقع السيء يعطي فرصة جيدة للتغيير إذا نجح الراغبون في التغيير في تقديم مشروع وخطاب مناسبان، وجرى التعامل بواقعية مع عناصر القوة والتأثير في المجتمع، وهذا تحدي حقيقي يواجه الشعب العراقي والقوة السياسية العراقية، ولكن لا يبدو لي أن أحداً في صورة المشهد العراقي مهيئ لأداء هذا الدور.
القوى السياسية وضعت خططها لتحقيق نتائج أنتخابية أفضل، كل حسب فهمها للواقع، والعوامل المؤثرة فيه، وليس لنا إلا الأنتظار لنرى النتائج، ولكن لا ينبغي التفائل، فإن الأمل ضعيف والمفاجأت كثيرة.

الحراك الشعبي في ستة محافظات

ربما أبرز ما يمكن رصده من نجاح هو الحراك الشعبي الذي أبتدء في عام ٢٠١٢، ولازال الى يومنا هذا بعد أربعة أشهر تقريباً. وهذا الحراك ممكن أن يمثل نقلة نوعية في الأداء السياسي للمجتمع العراقي، ولكنه لازال يعاني من نواقص كثيرة تمنعه من تحقيق النجاح، ولكن هذا خارج أطار البحث.

الصراعات المتعددة والمستقبل المجهول..!!

أن النظر الى تعدد أشكال الصراع وضعف القدرة على أدارته بشكل جيد، بحيث نرى أنحداراً في العلاقات بين المكونات والقوى السياسية، يقودنا الى خوف شديد من المستقبل الذي اليوم في نظر غالبية العراقيين مستقبل مجهول.
أما الدوائر الغربية فهي على عادتها شديدة التشاؤم، ومعظم الكتابات تتحدث عن نهاية العراق كدولة. ولا ندري أسيكون ذلك بفعل تآمر خارجي عليه أم بفعل قصور أبنائه عن المسار الصحيح في العمل.
العراقيون بحاجة الى خارطة طريق جديدة..
يمكن لنا أنت نتحدث كثيراً في وصف الواقع، ونتحدث أكثر في تحديد كيفية معالجة المشكلات، ولكن أذا لم تكن هناك إرادة تغيير ورجال تغيير، فماذا تنفع المدونات..؟؟

ماذا بعد عشرة سنوات

إن كثرة الحديث في السنوات الماضية وما حصل فيها من خطأ وصواب لايجدي إلا بقدر الأستفادة من الدرس ونعتقد إن الدروس التي يجب أن نخرج بها هي ثلاثة :

أن يبقى المجتمع العربي السني موحداً في مواقفه.

أن ينجح المجتمع في تنظيم نفسه ليكون قادراً على مواجهة التحديات.

أن تكون للمجتمع إستراتيجية يصنع من خلالها إنتصاره أو نجاحه.

وكل ما هو زائد أو خلاف ذلك إنما هو فرع أو نتيجة لواحدة من الدروس أعلاه.

وأجد إن أي جهد قادم ينبغي أن يصب في هذا الأتجاه لا في أتجاه التنافس أو الصراع داخل المجتمع أو ترجيح هذا الأتجاه أو ذاك الرأي . فهل يستطيع المجتمع تحقيق ذلك ؟ في تقديري يمكن ذلك باتباع إستراتيجية مرنة تقوم على تحقيق الأهداف وأنسجام الوسائل ولكن لابد من الأجابة على جملة من تساؤلات لكي يمكن بناء هذه الإستراتيجية :

كيف يمكن تنظيم المجتمع لكل يتحول الى قوة ويستطيع أن يثقف نفسه من خلال هذا التنظيم؟ إن تعدد التنظيمات ليس عيباً ولكن العيب في تنافرها وصراعها فيفشل الجميع.

هل سياسة التصدي للأعداء أجدى أم تحييدهم ومخادعتهم؟.

هل الأنسياق مع خطط ومساعي دول جوار العراق أو بعضهم تنفع أم لا؟ وهل نعمل وفق خططهم ام نلزمهم بدعم خططنا ؟.

هل نربط سياستنا وبرامجنا بدعم الآخريين أم نجعل ذلك الدعم عنصراً مساعداً والأعتماد على الذات هو الأصل؟.

من هم حلفائنا في الداخل وكيف نتعامل معهم لنجعلهم يقفون مع أهدافنا؟ وهل نستطع توسيع دائرة التحالف بشكل أوسع ؟ ما هو الثمن الذي يطلبه هؤلاء الحلفاء وكيف نتعامل مع الطلبات المبالغ فيها؟.

ما هو المشترك الوطني وكيف نوسعه لنوسع دائرة التحالف؟.

تقديري الشخصي أننا نستطيع رسم سياسة مستقبلية لأهل السنة ويجب أن تكون هذه السياسة واقعية قابلة للتحقيق، ولكن ذلك يحتاج الى مبادرات ودخول عناصر محايدة لإعادة اللحمة بين المختلفين في هذا المجتمع بدل الأستمرار في الخلاف عناداً ومكابرةً فذلك لا ينفع إلا خصوم مجتمعنا بغض النظر مع من الحق.

إن مجتمع أهل السنة في العراق قد تعرض الى نكسة كبيرة وأتى الحراك لكي يعطي الفرصة للمراجعة وليكون باباً لتصحيح المسار وإن كنا نجد أن الحراك لازال في حيرة تحديد الأهداف وطريقة معالجة التحديات وظهور بدايات التعب والملل عليه. ووصوله الى مرحلة عدم القدرة على زيادة الزخم والفاعلية وهذا الموضوع وحده بحاجة الى ندوة يشارك فيها نخبة من أهل الرأي لكي ينجح الحوار في ضبط مسيرته نحو تحقيق النجاح.

إن وصول مجتمع أهل السنة في قوته الى القدرة على أن يكون متكافئاً مع المجتمع الشيعي ضروري لتحقيق التوازن الذي يسمح ببناء الدولة على أسس صحيحة.

العراق بعد عشر سنوات على احتلاله في ظل الحراك الشعبي

رؤية نقدية

خالد العلواني

ربما كان قدر بعض الشعوب والبلدان ما أن تخرج من أزمة حتى تدخل في أخرى، وما أن تهدأ لتضمد جراحها ومآسيها، حتى تجد نفسها تواجه مأساة جديدة، ولم يعد خافياً أن العراق هو المثال الأبرز شعباً وأرضاً، لهذه المعادلة التي مالت فيها كفة العدالة كثيراً..

إن التغيير الكبير الذي حصل في نظام الحكم في العراق بعد ٢٠٠٣/٤/٩ لم يغير الأوضاع الداخلية في العراق فحسب، ولم يكتف بقلب المعادلة السياسية في الداخل وإنما تعدى ذلك ليغير الكثير من ملامح السياسة في المنطقة ويغير التوازن الإقليمي بشكل غير طبيعي، كما أن التغييرات امتدت لتشمل العلاقات الدولية في المنطقة عموماً وعلاقات العراق الدولية على وجه التحديد ونخص بالذكر علاقات العراق مع دول الجوار ولاسيما الدول العربية.

يعد العراق من بين أكثر الدول العربية التي شهدت تحولات وأحداث سياسية عنيفة منذ نشوء الدولة العراقية الحديثة في العشرينيات من القرن الماضي وحتى وقتنا الحاضر وقد كان لهذه التحولات والإحداث بقدر ارتباطها باعتبارات المصالح والسياسات والتحالفات الدولية والإقليمية من جهة وتضارب أو تلاقي أفكار وأهداف الأطراف والقوى السياسية العراقية المختلفة من جهة أخرى في كيفية إدارة شؤون الدولة أثاراً شملت مجمل نواحي الحياة في العراق ومن بينها النواحي السياسية التي يمكن أن تعبر عنها بدلالة الفاعلية السياسية والاستقرار السياسي.

المحدد الدولي والاقليمي والعربي وأثره على الشأن العراقي.

تعرضت الدولة العراقية الى منعطف تاريخي كبير وخطير بعد عام ٢٠٠٣، أثر قيام الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها باحتلال العراق وإسقاط نظامه السياسي تحت ذريعة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل وتهديده للسلم والأمن الدوليين متجاهلة الامم المتحدة وقراراتها، أعقب ذلك قيام نظام سياسي قائم على أهداف ومبادئ جديدة رافقه تغيير في أهداف ومبادئ السياسة العراقية، جعلت علاقات العراق الخارجية تدخل مرحلة جديدة وخطيرة تختلف عن كل ما سبقها من مراحل.

فقد مهد الاحتلال لبروز عدد جديد من اللاعبين على الساحة العراقية في ظل انكفاء الدور العربي، إذ كان العام الأول من الاحتلال عاماً أمريكياً بامتياز، إذ استطاعت احتلال البلاد وفرض سيطرتها وجعل العراق طوع سياستها، لكن ما أفقدها هذا الامتياز بروز طرف جديد يزاحم اللاعب الأساسي (الولايات المتحدة) مستفيداً من الأخطاء التي وقعت فيها الإدارة الأمريكية، إلا وهو إيران، إذ استطاعت إيران بناء منظومة مصالح أو نفوذ في العراق سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ويكفي أن

نشير هنا إلى أن إيران هي أول دولة تعترف بقيام الحكومة العراقية بعد إعلانها، بينما نجد أن النظام العربي آخر المعترفين وبشكل متردد، وهذه إشارة سياسية سلبية بعثها ذلك النظام للداخل العراقي الذي سيضغط بشكل ملموس لإعادة

فإيران تعتبر دولة محورية بمعطيات الجغرافية السياسية، وهو ما يتطلب منها القيام بدور نشط وفعال من أجل المحافظة على مصالحها وضمان أمن حدودها ثم أن أيران هي الدولة القطب الثاني في العالم الاسلامي(السعودية هي القطب الاول متصدرة قيادة المسلمين السنة) منحت نفسها حق قيادة المسلمين الشيعة، وهي تتبوأ أيضا مركزاً قيادياً بين الدول المصدرة للنفط الاوبك(ثاني أكبر مصدر للنفط بعد السعودية) وهي تتمتع بثروة بشرية غنية وديناميكية إضافة الى قدرات سياسية ودبلوماسية شديدة المهارة والدهاء وهي على أعتاب أمتلاك عصب تكنلوجيا نووية جديدة، تؤهلها لان تصبح قوة نووية عسكرية، لذلك تسعى أيران بوضوح الى أقامة مناطق نفوذ لها تتمتع فيها بدور محوري مقبول أو معترف به أقليمياً ودولياً(x).

هذا الدور موجود بحكم الجغرافية بين أيران والعراق اللذين تربطهما حدود بطول ١٣٥٠كم تقريباً، فأيران لها مصلحة حدودية ومذهبية في العراق تسعى الى تحقيقها(x).

إذاً أحدث الاحتلال تغييراً جوهرياً في النظام السياسي العراقي، فقد انهار النظام السياسي الذي كان قائماً لأكثر من ثلاثين عاماً ليحل محله نظام سياسي جديد مختلف تماماً من حيث الأهداف والفلسفة السياسية والنظرة إلى طبيعة بناء الدولة وعلاقاتها الخارجية، وهكذا تحول العراق من الدولة المركزية الى مركزية الطائفة.

وعلى إثر هذا التغيير كان من المتوقع أن يشهد العراق عملية تحول وإنفتاح سياسي واقتصادي واجتماعي إلا أن ما حدث على أرض الواقع كان مغايراً تماماً، فقد زادت عزلة العراق عربياً أكثر، إذ بدا العراق وكأنه كيان غريب في المنطقة العربية، وقد عانى العراق خلال السنوات التي أعقبت الاحتلال عن عزلة عربية أثرت بشكل سلبي ليس على العراق فحسب بل كان تأثيرها على الطرف العربي أيضاً كون أبعاد العراق عنه أتاح المجال لقوى دولية وإقليمية أخرى للدخول إلى العراق واستغلال الوضع الجديد في العراق لصالحهم، ولم تنتبه الدول العربية إلى هذا الأمر إلا حينما بدأت المتغيرات الإقليمية والدولية تؤثر سلباً في مصالحهم، وأدركوا أن غياب العراق عن الساحة العربية سيكون عامل قلق وعدم واستقرار للمنطقة بشكل عام.

الولايات المتحدة التي كرست شكل النظام القائم في العراق، بعد عام ٢٠٠٣ لم تعد تعطي بالا لحقوق الإنسان ونقل الديمقراطية التي وضعتها على جدول الأسباب التي دفعتها لغزو العراق.

والأمر ينطبق على المجتمع الدولي وكذلك الحال بالنسبة للأمم المتحدة، فالعراق في ذهن هذه الأطراف رقم خارج كل المعادلات الدولية والإقليمية، طالما أن السيطرة تم إحكامها على ثروته النفطية، وطالما تمت مصادرة قراره السياسي وطالما تم اجهاض قدرته على اتخاذ القرار الذي يتناسب مع مصلحته الوطنية.

ولكن ما يعنينا في كل المشهد الراهن هو الموقف العربي أولا، ، فهل هناك مبررات أخلاقية أو قانونية أو سياسية أو دبلوماسية لهذا الموقف العربي المثير للدهشة والاستغراب تجاه التظاهرات الشعبية الكبرى التي يشهدها العراق والتي تجاوزت المئة يوم ، ولمصلحة من لا يصدر بيان رسمي عربي واحد يتضامن مع الحراك الشعبي العراقي الذي يجسد واحدة من أكثر الصور إشراقا في تاريخ الأمة.

إن ما يجري حاليا في العراق هو امتداد لما شهدته ساحات عربية أخرى التي كسرت أعتى دكتاتوريات العالم ، ولكن التفاعل العربي رسميا وشعبيا كان متباينا تباينا حادا مع المشهدين ؟واقرب شيء ما قاله وزير خارجية احدى الدول الخليجية، عندما سئل في مؤتمر صحفي حول ما تنظرون اليه للانتفاضة في العراق فقال بالحرف الواحد "نحن لا نسميها اي شيء" وسكت.

إن العراقيين الذين تفاعلوا مع قضايا الأمة يشعرون بخيبة أمل كبرى من المواقف العربية على المستوى الجماعي أو على المستوى الفردي ولا يمنون على أحد بتلك المواقف لأنها تجسد انتماء حقيقيا للأمة، ولكن ذلك لن يدفعهم للكفر بالقيم التي تربوا عليها وهي قيم الانتماء للأمة العربية

إن المنظمات الحقوقية العربية وأجهزة الأعلام على امتداد الوطن العربي، مطالبة بأن تجعل من حراك الشعب العراقي على رأس جدول اهتماماتها. والمطلوب اليوم وبشكل عاجل من كل دول الخليج العربية ومن كل شرفاء الأمة العربية ومنهم أهل القلم مناصرة ثورة الأنبار وشقيقاتها في نينوى وكل أرض العراق.

اسباب الحراك الشعبي في العراق.

ان ما تشهده الساحة العراقية اليوم هو نتاج للكبت والظلم والتعسف وانتهاك صارخ لحقوق الانسان العراقي نساءا ورجالا وشيوخا واطفالا وتمزيق للهوية الوطنية الجامعة وسيادة منطق الثأر والكراهية على القانون الذي يتابع مجريات الاحداث واتجاهاتها لا تصعب عليه معرفة الاسباب الحقيقية للحراك الشعبى الذي بدأ في الانبار وامتد إلي سامراء والموصل وكركوك وقد يمتد إلي محافظات اخرى فاسباب هذا الحراك الذي يوصف بالانتفاضة الشعبية اصبحت ناضجة، فالعراق بعد مرور نحو عقد من الزمن مازال يراوح مكانه كدولة فاشلة غير قادرة على النهوض بمسؤوليتها تجاه شعبها اولا وتجاه العالم الخارجي ثانيا وغير قادر على منع امتداد يد اللصوص اليها واستنزاف مواردها، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لا تزال ملفات حقوق الانسان والاقصاء والتهميش ومعالجة تركة الاحتلال الجائرة وقوانينه واطلاق المعتقلين والارتهان لنفوذ قوى تسعى الى ان يبقى العراق ضعيفا وبعيدا عن عمقه العربي غير قابلة للحل من وجهة نظر الاطراف الحاكمة.

فالاصرار علي اقصاء قوى فاعلة وتهميشها اضافة إلي رفض اي حلول لمعالجة مشاكل الدستور وحل الجيش وقوانين الاجتثاث جعلها تلقي بظلالها على الوضع المتازم.

فالعراقيون العرب لم يطالبوا بإلغاء قانون الإرهاب إلا بعد أن وجدوا أن السيد المالكي قد جعل هذا القانون سيفاً مسلطاً عليهم ولا يعمل إلا في صفوفهم في عملية تطهير علنية لا يقرها دين ولا أخلاق ولا مسؤولية وطنية .
ولم يطالب العراقيون العرب بإلغاء قانون اجتثاث البعث إلا بعد أن جعله المالكي سلاحاً لوصم أي عراقي يرفض العمالة أو الولاء لإيران بأنه بعثي وتلاحقه قوات المالكي وميلشيات إيران في كل مكان من العراق.
فبدلا من الاستجابة لهذا المطالب كحق مشروع للذين وقع عليهم الظلم والحيف تعاملت السلطات معهم بتوجيه الاتهام للمتظاهرين بانهم يسعون الى اثارة الفتنة الطائفية والخروج عن القانون برفعهم شعارات تتقاطع مع سقف الحرية التي يتمتع به العراق وما زاد الطين بلة كما يقولون فان السلطات اعترفت بمشروعية بعض المطالب التي رفعها المحتجون بينما وجدت في الشعارات الاخرى مخالفة للقانون في محاولة لتخفيف حالة الاحتقان الذي اصاب الحياة السياسية بعد حركة الاحتجاجات.
ما يسجل للتظاهرات الشعبية السلمية في ساحات الاعتصام في الرمادي والفلوجة والموصل وسامراء وغيرها من مدن العراق الاخرى ، هو أنها تخطت عتبة رد الفعل الآني ونقصد به دهم مكتب ومنزل وزير المالية رافع العيساوي واختطاف أفراد حمايته، تمهيدا للخطوة التالية وهي التفرغ للعيساوي نفسه عن طريق تلفيق التهم له وعزله عن قاعدته وتركه من دون ظهر، وبالتالي اعتقاله بتهمة الإرهاب بموجب المادة الرابعة، وانتقلت إلى مرحلة الفعل المدروس على أسس وطنية شاملة، وخاصة في مجال طرح الملفات الوطنية التي ظلت سببا في إبقاء العراق يعيش في حالة انعدام وزن منذ الاحتلال الأمريكي حتى اليوم.
ظن نوري المالكي وظن معه كثيرون ان هذه المظاهرات والاعتصامات ما هي الا ردة فعل آنية على ما حصل لأفراد حماية العيساوي، مستندا بذلك على مواقف سابقة اتخذت ضد شركائه في القائمة العراقية. فقد سلب السيد المالكي بالأمس القريب حق القائمة العراقية التي جاءت باعلى نسب الاصوات وشكل على حسابهم حكومته ، ولم يحتج هؤلاء ولم تخرج الاحتجاجات بهذه الطريقة ! . ثم أطاح المالكي بنائب رئيس الجمهورية بطريقة بدت للكثيرين بأنها مفبركة وظالمة ، ولم تخرج مثل هذه التظاهرات ، مع العلم أن الهاشمي حاز عدد أصوات أعلى بكثير من العيساوي مفجر التمرد الأخير على المالكي . ناهيك عن أمور أخرى لكن هذه المرة انتفظت الجماهير وقالت بصوت واحد للسيد نوري المالكي كفى و (لا) . وحينما تمكنت الجماهير العريضة بثقلها، والعميقة بوعيها من إحباط ذلك المخطط، انتقلت الأوساط الحكومية في خطابها السياسي والإعلامي إلى المرحلة الأكثر خطورة في وسائل التعبئة الشعبية وما يقابلها من تعبئة مضادة، فقد انطلقت حملة محمومة من أصوات نيابية لشن الهجوم المقابل بتصوير تظاهرات الانبار وصلاح الدين ونينوى، على أنها تحركات ذات هدف طائفي وتستند على نوايا مذهبية، ومن أجل تكريس هذا الفهم فقد دعا ائتلاف دولة القانون عناصر حزب الدعوة في بعض المحافظات الجنوبية للخروج بتظاهرات، حتى تكون بمثابة المضاد الطائفي الذي يخرج تظاهرات الانبار

عن مداليلها الوطنية وإقحامها في نفق الطائفية الضيق، ولكن وعي الجماهير الفطري ووعي اللجان التنسيقية التي تشرف على تلك التظاهرات فوتا الفرصة على التحالف الحاكم من التسلل عبر هذه الثغرة الضيقة بهدف إحداث شرخ في المعادلة الوطنية وإعادة المجتمع العراقي إلى أجواء عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، حيث أوشكت الفتنة الطائفية أن تجر العراق إلى حافة الحرب الأهلية، لولا استعصاء العراقيين على هذا الفرز المستورد من خارج الحدود واليوم وبعد أن أكدت التظاهرات إصرارها على خيار التظاهر السلمي، فإن ذلك بقدر ما يسحب البساط من تحت أقدام المالكي باللجوء لخيار القوة لفظ الاعتصامات، فإنه يزيد من حرصه شخصيا على البحث عن أي مبرر للتعامل أمنيا مع تلك التظاهرات، وأنهائها مهما كان الثمن لأن الخشية من أن تكون مقدمة لربيع عراقي يشمل مدنا كان رهان المالكي على أنها ستكون الطرف المضاد للتظاهرات.

أهم السيناريوهات للحالة القائمة

١_إجراء أنتخابات مبكرة

أذا أخذتم المسار الأول بأجراء أنتخابات مبكرة، فهذا قد لا يحل المشاكل والعقد لأن ما قد تأت به الأنتخابات على الغالب سوف يكون مشابه لما هو عليه الوضع الحالي والمشكلة الأساسية هي ليست في اجراء انتخابات مبكرة بل هي مشكل في التأسيس،(مشكلة النظام السياسي ككل) معظم الأحزاب في العراق أحزاب فئوية : طائفية او قومية و ليست وطنية ولذا عندما تتكلمون عن حكم الأغلبية يعني هذه الأغلبية الطائفية او القومية . لقد فشلت حكومات التوافق لأنها بنيت على أساس المحاصصة و هذه بعيدة كل البعد عن أسس المواطنة، والسؤال ما الحل؟ يجب إعادة النظر في ألأسس التي قامت عليها الأحزاب و جمودها على حالها و فشلها في التطور والاستجابة لمتطلبات وأحتياجات البلد، قد يقول البعض أن هذه أضغاث أحلام، ولكن واقع الحياة في دول عدة تم تجاوز الفئوية التي قامت عليها الأحزاب للتحول الى أحزاب لكل المواطنين، عندما شعرت تلك الأحزاب و قياداتها ضرورة الخروج من ضيق الأفق الفئوي لتنفتح على كل المواطنين، في البعض من هذه الدول لم يعد الدين او القومية، أو العمل يذكر في جوازات سفرها المواطنة فقط و هذه راوندا مع كل المذابح الفئوية التي عاشتها أستطاعت التخلص من الماضي السيء وتبني وطنها. وجنوب افريقيا كذلك استطاعت التحلص من نظامها العنصري الذي ميز ما بين ابناء الوطن الواحد.

٢_التهدئة عن طريق جلوس الفرقاء السياسيين العراقيين الى طاولة حوار ومناقشة الوضع المتازم بعقلانية ووفق اليات الدستور والعملية السياسية.

أذا اردنا مناقشة مسار الثاني وهو الجلوس ألى طاولة الحوار، فهذا ليس بالأمر الجديد وقد جلس الفرقاء السياسيين العراقيين ساعات وأيام الى طاولة الحوار ولم ينتج من ذلك سوى التكرار للمشاكل والخلافات والسبب في اعتقادي يعود لعدم وضوح الأسس التي يجري الحوار حولها وأمل أن لا أكون مخطئا أن ما كان يجري من حوار كان على أسس ثانوي وليست جوهرية و بقيتم تبتعدون عن الحوار

الأساسي خوفا من ألأنفطار والتمزق هناك أجراءات تمهيدية يمكن القيام بها للتهدئة أولا ولكن من الضروري جدا وضع حد لأستمرار الأزمات من خلال المواقف الجريئة والشجاعة

٣ _ قد تدفع قوى اقليمية ونقصد بها ايران بتغيير شخص المالكي بشخص اخر يكون توافقي ومقبول من قبل جميع الاطراف السياسية العراقية.

في ظل التفاهم الصدري -الكردي ، ومعهم القائمة العراقية حول خطورة ما يفعله المالكي في العراق، قد تجد إيران نفسها مجبرة على اتخاذ خطوة، استباقية ومن باب «بيدي لا بيد عمر»، لاستبدال المالكي بشخصية أخرى تستطيع تحقيق الحد الأدنى من التوافق العراقي، خصوصا أن المالكي قد أحرق كل الجسور مع خصومه السياسيون فإيران التي تفعل المستحيل اليوم لحماية الأسد الساقط لا محالة، لا يمكن أن تتحمل سقوط حليف استراتيجي آخر لها في العراق، فمن شأن ذلك أن يشكل ضربة غير سهلة لنظام الملالي في إيران، والذي ينتظره استحقاقات مهمة وحاسمة، خارجيا وداخليا.

سقوط المالكي، وكما هدد الصدر من خلال «ربيع عراقي آت» يعني أن أيدي إيران في المنطقة ستقطع، وأن السحر سينقلب على الساحر، بمعنى أنه مثلما أن إيران تفكر بأنه لا سوريا من دون الأسد، فإن إيران ستجد نفسها بلا حلفاء في المنطقة، على مستوى دول منها العراق وسوريا .وبعد ان فقدت ايران الامل في بقاء النظام السوري، تعتقد ان معركتها الحاسمة في العراق، وهو ما تردد مقابل حكومة سورية غير معادية لايران ومواصلة عملية اطلاق يدها في العراق التي بدأت مع الاحتلال ومرت بعملية تسليمه رسميا لايران بعد سحب القوات الامريكية في نهاية عام ٢٠١١ .

والحقيقة فان السبب في تخلي ايران عن نظام الاسد ليس فقط استحالة بقاءه بل ايضا ادراكها العميق ان الشعب السوري بكامله يكره ايران والايرانيين لانه يعتقد بصواب انه لولا ايران لما نجح نظام الاسد في تدمير سوريا والتسبب في الكوارث لشعبها خصوصا وان الشعب السوري رأى ويرى بام عينيه العسكريين الايرانيين وضباط حزب الله اللبناني تقاتل ضد الشعب السوري وتقتل المئات اسبوعيا دفاعا عن نظام الاسد .

وهذه الحقيقة تفسر سر الصمت الامريكي والغربي سياسيا واعلاميا الذي اصاب منظمات حقوق الانسان الغربية على ما يجري في العراق منذ شهرين والتعتيم الاعلامي عليه رغم انه يشكل انتفاضة لا تقل عن نظيراتها في الدول العربية.

٤ _ تفجر الوضع الطائفي والوصول الى مرحلة الاقتتال الداخلي مما يؤدي الى تقسيم العراق.

هذا الخيار هو أسوء الخيارات لانه يا سامح الله لو قدر لهذا السيناريو ان يحدث فان اثاره الخطيرة لن تكون على العراق فحسب بل سيشمل المنطقة باكملها ، وهو ما يتطلب بالنتيجة العقل والحوار من جميع الاطراف السياسية العراقية لكي تدرك خطورة هكذا خيار

أهم التوصيات لهذا الحراك.
الحفاظ على سلمية التظاهر والابتعاد عن الألفاظ والشعارات الطائفية والفئوية، والحفاظ على وحدة الصف، وعدم الانفراد بأي قرار، ومواصلة الصبر والثبات لنيل الحقوق العادلة، وتوحيد الجهود والاهداف والشعارات، وعدم ترك المجال للمزايدين والمتاجرين فيها.
ومن خلال الحفاظ على سلمية التظاهر وعدم المبادرة باي اعمال استفزازية للجيش، فأن ذلك من شأنه أن يفوت الفرصة ولا يعطى ذريعة للتدخل وفض تلك الاعتصامات، وهذا كفيل بتحقيق مطالب المتظاهرين.
كلما اتسعت سلمية التظاهر وانتشرت دون المبادرة باي استفزاز للجيش والاجهزة الامنية، سوف يزرع ذلك عوامل تفكك وخوف داخل الاجهزة العسكرية من جهة ، كما انه سوف يشجع من لم يدعم الانتفاضة من العشائر وشيوخها ورجال الدين في الجنوب لتغيير مواقفهم الحالية والانضمام للانتفاضة لانها ناجحة والحكومة فشلت في قمعها.
على المعتصمين ان يدركوا جيدا ان ايران المتورطة في اكثر من ازمة اقليمية والتي تتعرض لاستنزاف كبير وتقلص لمواردها لا تستطيع خوض حرب داخل العراق لفترة طويلة ، قد تستطيع البدء بشن هجمات على المدن العراقية الثائرة ولكنها ستصل الى نقطة لا تستطيع بها المواصلة. وهذه الاحتمالات تعرفها ايران وتؤرقها الان ، وتضعها امام خيارات تعرف انها صعبة.

العراق من احتلال 3002 الى الحراك 2013

الدكتور مهند العزاوي

المقدمة

يدخل العراق مرحلة معقدة بعد عقد من الحرب والفوضى وتفكيك الدولة العراقية وإعادة بنائها على اسس مذهبية اثنية أسست لنظام سياسي طائفي يعتمد الهوية الفرعية منهجا في الحكم والإدارة وتغييب الهوية الوطنية الجامعة و الابتعاد عن العمق العربي الاستراتيجي والدخول في مراحل تهديم المقومات والعناصر الاساسية لقدرة العراق الفاعلة.

شكل العراق على الدوام البعد الرابع في معادلة التوازن العربي الاقليمي وكان صمام الامان ضد انفلات المنطقة الى النزاعات والعسكرة المجتمعية والزحف الايديولوجي الوافد , وكان البعد الصلب في استقرار الامن والسلم , وتفرز الحقائق الاستراتيجية عدد من المحظورات التي تضع خطوط حمراء على رقع التفاعل الاستراتيجي العالمي والإقليمي شهد العراق طروحات مختلفة ابرزها طرح الاقليم الشيعي والسني او الاقاليم المنفردة , ولم تلقى اي منها نجاح على مستوى التطبيق او الوصول الى الفكرة , نظرا للاختلاف الجوهري لفلسفة الفدرالية كنظام سياسي والفدرالية المشرعة كقانون وتنظير خارجي.

يزدحم الواقع السياسي العراقي بالمفاعيل المؤثرة ولعل ابرزها تاثيرا الفاعل الاقليمي ثم الفاعل الداخلي وتاتي المفاعيل الاخرى الدولية والعربية بنسب متفاوتة مما يجعل الواقع السياسي العراق قطبي بنتائجه التي تتشح بالتشيع المذهبي السياسي والذي اضحى يمس لايدولوجيا حكومة المذهب و جيش الطائفة ومحاكم التمييز الطائفي والتي تستهدف حصرا الطائفة السنية العربية وتتجه الى بعد انجاز الفناء الطائفي الى الكرد والذين باتوا يتجهون نحو التصدي الحذر للمشروع الايراني العابر للقيم السياسية والنسق الاقليمي شكل الحراك المتصاعد في المناطق السنية قفزة نوعية في عبور حواجز الترويع والخوف والقمع والتمييز الطائفي وأصبحت ست محافظات عراقية من بينها بغداد تتظاهر وتعتصم وتطالب بحقوق مسلوبة خلفت ملايين الضحايا من مهجرين ومعتقلين ومفقودين ومغيبين,

وبالرغم من مراوحة الحراك الا انه يشكل عامل قوة وتأثير يمكن تعزيزه للوصول الى حلول منطقية للمشكلة السياسية موضوع البحث.

تنتج المشكلة المنتخبة عن كيفية تغير الواقع السياسي عدد من السيناريوهات ولعلنا انتخبنا ثلاث فرضيات الاكثر جدلا ونوقشت وفق فلسفة سوات وعبر تحليل البيئة الخارجية والداخلية وبعناصرها نقاط الضعف والقوة والفرص والتهديد ليتم اغنائها بالنقاش والتفاعل للخروج بتوصيات قابلة للتطبيق

لم يشهد العالم تقسيم وطن لولايات مستقلة ولتوجد اي تجربة في هذا المضمون لان جوهر فكرة الفيدرالية تجميع المقسم والمجزئ , بينما الفدرالية المنصوص عليها في

الدستور هو تجزئة الموحد , وبكل الاحوال تتعدد الاراء والأفكار وتزدحم عند منصة العصف الفكري ليجري اغنائها بالرؤى بغية الوصول الى خطة جامعة تحقق السلامة الاجتماعية والوحدة الوطنية والتغيير نحو الافضل بتضافر الجهود وتكامل الموارد والله الموفق

المحور الاول

الواقع السياسي العراقي

تؤكد الواقعية السياسية في العراق ان خارطة التفاعل السياسي متشعبة ومعقدة بين فاعلين دوليين ينحسر نفوذهم نسبيا وفاعلين اقليمين يتمدد نفوذهم ليملئ الفراغ الوطني العراق والعربي والإقليمي , ويلاحظ ظهور ادوات مسلحة تحمل عقائد طائفية واثنيه تؤسس لمشاريع مناطقية وبعقيدة اممية عابرة للوطن والمنطقة العربية

النظام السياسي

يعرف النظام السياسي بأنه نظام اجتماعي يقوم بعدة أدوار أو وظائف متعددة استنادا إلى سلطة مخولة له أو قوة يستند إليها - منها إدارة موارد المجتمع وتحقيق الامن الداخلي والخارجي وتحقيق أكبر قدر من المصالح العامة والعمل على الحد من التناقضات الاجتماعية1 .

والنظام السياسي في صورته السلوكية هو تلك المجموعة المترابطة من السلوك المقنن الذي ينظم عمل كل القوى والمؤسسات والوحدات الجزئية التي يتألف منها أي كل سياسي داخل أي بناء اجتماعي.

والنظام السياسي في صورته الهيكلية أو المؤسسية أو التنظيمية فهو عبارة عن مجموعة المؤسسات التي تتوزع بينها عملية صنع القرار السياسي وهي المؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية شكل النظام السياسي وفقا لفلسفة القوالب الجاهزة الاميركية و باستخدام الاحزاب الوافدة وبتقسيمه اعتمدها على معلومات من الاحزاب والتشكيلات التي صنعت في اروقة المخابرات الاقليمية والدولية , وكانت التقسيمات المذهبية والقومية هي الركائز الاساسية للنظام والذي اعتمد مبدأ الاكثرية للشيعة وبنسبة % 61 وتقسيم السنة الى عرب بنسبة % 11 والكرد بنسبة % 21 وكان لإيران دور محوري وأساسي في دعم وإرساء تركيبة هذه العملية والتي تسهم في سيادة التشيع السياسي الايراني في العراق وكان هذا المجلس متخم بالشخصيات الوافدة من خارج العراق باستثناء بضع افراد من الداخل , وبما ان تلك التركيبة خاطئة وغير واقعية نتج عنها ترسيخ سياسي باستخدام المليشيات الايرانية وحرسها العامل بالعراق وكان للتهجير المنظم دور اساسي في رسم تلك السياسة وأعقبتها بعمليات الابادة والتمييز المذهبي المنظم , ليترك اثر واضحا يقود لتقسيم المجتمع العراقي مذهبيا , وجرى التركيز على مقولة التحالف الكردي الشيعي الاستراتيجي وبما يتنافى مع الاعراف والقيم الدولية والقوانين المحلية وأفرزت مايلي-:

. .انظر جمال سلامة علي" , النظام السياسي والحكومات الديمقراطية , دار النهضة العربية7002 ,

1.استئثار شيعي مذهبي سياسي بالسلطة

2.انطواء كردي سياسي والتركيز على الانفصال استراتيجيا
3.اندثار وتهديم للديموغرافيا السنية وإبادة منظمة وسلب للحقوق
4.تفريس لمؤسسات الدولة العراقية وإلحاق سياسي اقليمي
5.اصطفاف مذهبي معلن بقيادة الحرس الايراني لتصدير الثورة الايرانية
6.غزو ايديولوجي ايراني وتعثر قيمي عراقي

مفاعيل الواقع السياسي

تزدحم التاثيرات السياسية الدولية والإقليمية في تطبيق منهجيتها داخل العراق وتزدحم كذلك صراعات المفاعيل الداخلية وأضحت تنتج ظواهر سياسية حديثة العهد خصوصا وصول المذهبية المسلحة الى السلطة والبرلمان والذي يعطي حوافز غير تقليدية لصراع مزمن ونازف يلقي بظلاله على ملامح العراق وشكله ومستقبل اجياله في ظل اصطفاف مذهبي اقليمي يحفز الاطراف المجتمعية الاخرى الى الاصطفاف مما يخلق الفوضى المسلحة والاستنزاف المنهجي وكما يحصل اليوم , ويمكننا تصنيف مفاعيل الواقع السياسي كما يلي

1.الفاعل الدولي
- الامم المتحدة حضور غير مؤثر يقتصر على ممثلها حضور غير فاعل
- الولايات المتحدة الاميركية – الفاعل الدولي الذي انحسر نفوذه بعد عام 2111 فاعل نسبي
- الاتحاد الاوربي الفاعل الدولي الذي ليشكل تأثيرا فاعلا في الواقع السياسي ومجرد حضور ممثل لها حضور غير فاعل
- بريطانيا حضور غير فاعل ويقتصر على الاستشارة حضور غير فاعل
- حلف الناتو - يقتصر على الحضور كمقر ممثل في بغداد حضور غير فاعل
- روسيا الفاعل الدولي - ازدادت فاعليته ضمن سياسة الوصول للمنطقة فاعل نسبي
- الصين - ازدادت فاعليته التجارية ضمن سياسة الوصول للمنطقة فاعل نسبي

2.الفاعل الاقليمي
- جمهورية ايران الاسلامية هي الاكثر فاعلية وتأثير في النواحي السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية – حضور فاعل
- جمهورية تركيا بعد عام 2111 اصبح حضورها ضعيفا وتقتصر فاعليته على احتواء اقليم كردستان من الناحية التجارية - فاعل نسبي
- منظمة المؤتمر الاسلامي حضور غير فاعل

3.الفاعل العربي
- جامعة الدول العربية ممثلة بطابعها البروتوكولي حضور غير فاعل
- الدول العربية كافة حضور نسبي غير فاعل ويقتصر احيانا على الجانب الاقتصادي والبروتوكولي

4.الفاعل الداخلي

أ - العملية السياسية

- احزب سياسية طائفية وافدة فاعلة مشاركة وحاكمة حاليا
- احزاب كردية فاعلة وحاكمة حاليا
- احزاب ليبرالية وافدة غير فاعلة وغير مشاركة
- احزاب تاريخية غير فاعلة وغير مشاركة
- كتل برلمانية - تحالف برلماني متباين
- برلمان ضعيف ومنقسم
- رئاسة مترهلة وممزقة
- رئاسة وزراء منفردة بالسلطة وفق نظرية الحزب الاوحد
- قضاء هزيل مسييس وفاعل لصالح السلطة
- عناصر ضغط رسمية لقوى اقليمية

ب - منظمات المجتمع المدني

- منظمات دولية مشاركة في المشهد بلا تأثير فعلي
- تنتشر بسيولة منظمات المجتمع المدني في العراق وغالبيتها بلا فاعلية والبعض منها واجهات لأحزاب سياسية حاكمة
- منظمات حقوق الانسان غير مؤثرة وفاعلة بشكل نسبي ليحقق الغاية من تشكيلها
- الاعلام الحر الاعلام في العراق مبعثر وفوضوي ويستهلك اموال كثيرة بلا غاية اعلامية وسياسية وغالبيتها يرتبط بالحزب الحاكم او اشخاص او شركات وتيارات دينية

ت - خارج العملية السياسية

- تيارات شعبية عفوية غير منظمة قابلة للتطور الى تأثير سياسي ضاغط
- تشكيلات سياسية متنوعة البعض منها تعتمد مبدأ الفرد والشخصية ولتستند الى مشاريع جامعة والبعض منها مؤثر نسبيا
- احزاب تاريخية تعرضت للاستنزاف تحتفظ بعقائد سابقة لمجال للتطبيق لها في ظل المتغيرات السياسية الحالية
- مليشيات مسلحة من مختلف الطوائف والأعراق ويقدر عددها 35 مليشيا
- تنظيمات ارهابية مسلحة وافدة من الخارج
- منظمات تبشيرية مذهبية متعددة

المحور الثاني

قراءة في الحراك الشعبي

خرجت الجماهير العراقية في 21 ابريل 2112 بتظاهرات مليونية في محافظة الانبار 2 مطالبة بإسقاط الحكومة وتصاعدت وتيرة التظاهرات لتشمل محافظات نينوى وديالى وكركوك وصلاح الدين وبغداد ذات الغالبية السنية وارتفعت الشعارات بعد اشهر الى اسقاط النظام نظرا لتجاهل السلطة مطالب المتظاهرين واللجوء للحل الشبحي في اجهاض الحراك الشعبي المتصاعد.

اصبح قراءة وتحليل الملف العراقي من الامور المعقدة للغاية ولابد من الولوج بشكل واقعي ومنطقي يعتمد القيم الاساسية للتحليل بغية الوقوف على شكل وطبيعة الحراك

الشعبي العراقي الذي تخطى مراحل التظاهر والاعتصام ودخل مرحلة التاثير بالرغم من الاجراءات السلطوية القسرية والتمييع في تنفيذ مطالب الحراك الذي اتسع ليشمل ستة محافظات الانبار والموصل وديالى وكركوك وصلاح الدين وبغداد عقد من التجريف

اصدرت منظمات متعددة منها " منظمة العفو الدولية - هيومن رايتس ووتش – السفارة الاميركية بالعراق– مركز جنيف الدولي للعدالة " 3 تقارير تندد بسياسات الحكومة المذهبية والتعسف المرافق لها والفرز الطائفي في التطبيقات وقد افرزت السلوكيات والممارسات التطبيقية لحكومة العراق 4 حزمة من التداعيات السياسية والأمنية والاجتماعية والقانونية خصوصا في ظل استهداف مكون بذاته (العرب السنة)نظرا لعقيدة الاحزاب الحاكمة المنضوية تحت مسمى الائتلاف الشيعي والذي كان تحت اسم البيت الشيعي الذي تأسس عام 5 2113 وخرج المتظاهرين وفقا للدستور العراقي والقوانين الدولية ينددون بتغييبهم عن مؤسسات الدولة الفاعلة وصنع واتخاذ القرار , وتعدى ذلك اصبح هذا المكون المحرك الاساسي لاستمرار صناعة الارهاب وتجارة الامن القومي والسجون , وأضحت العقول مهيكلة من خلال وسائل الاتصال الممنهجة بان الارهابيين هم العرب السنة وباستخدام مختلف التوصيفات الارهابيين – القاعدة - الوهابية – النواصب – البعثيين – الصداميين ... الخ

. 7هي محافظة عراقية تقع في غرب العراق وتعد أكبر محافظات العراق مساحة حيث تبلغ مساحتها 00,000 كم ويبلغ إجمالي عدد سكانها , 007,000 نسمة 111 (م)تاريخيا كانت تعرف المحافظة باسم لواء الدليم قبل عام. 0 19 تقارير إشترك في تقديم التقارير بالإضافة الى مركز جنيف الدولي للعدالة ما يقرب من 311 منظمة غير حكومية وضع حقوق الأنسان في العراق وفقا لتقرير بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق , الاعتقالات التعسفية و سيادة القانون ,أطفال العراق والصراعات المسلحة , تدمير نظام التعليم في العراق ,أنتهاكات حقوق النساء في العراق ,الاختفاء القسري ,محنة الأكاديميين العراقيين ,وضع أطفال العراق – تقارير السفارة الاميركية بالعراق ttp://arabic.iraq.usembassy.gov/ar/index.html تقارير منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش.

. 0اكملت الحكومة في نسختها الثانية ما بدات به من سلوكيات القتل خارج القانون والجثث المجهولة والتفجيرات وسط الشعب واستخدام العنف وسيلة لحشد الاصطفاف الطائفي وباستخدام السنة فوبيا لتبرر استخدام البطش المطلق الذي يصل الى ازهاق الارواح في التعذيب والاعتقال والتنفيذ وقد استخدم قانوني الاجتثاث والارهاب بشكل طائفي اذا ما قورن بعدد المعتقلين والمقصين عن الحياة السياسية والمؤسساتية وقد بلغ نسبة المعتقلين ما يقارب % 17 من العرب السنة وباستخدام اساليب الفصل الطائفي في بغداد ومناطق اخرى من العراق واصبحت المداهمات المزاجية والعشوائية منهجا للقوات الامنية . . مكونات سياسية من لون واحد وان تعددت مسمياتها تنتهج التشيع السياسي والتمذهب منهجا لها وابرزها حزب الدعوة

وانشطاره الى اربع اقسام بلونه المذهبي والمجلس الاعلى للثورة الاسلامية تجمع للقوى الشيعية وشكل ابان الحرب الايرانية العراقية ثم التيار الصدري والفضيلة الذي تأسس عام 7000 والمؤتمر الوطني 112 والذي اسس البيت الشيعي 7000 ونزعوا عنهم صفة الشريك الاجتماعي الاساسي والسياسي والديني وحسب ما ذكره الدستور وهم الاكثر نسبة في الشعب العراق وبامتداد ديموغرافي يتعدى مليار ونصف مسلم , واثبت المسح التحليلي الذي اجراه مركز صقر للدراسات ان معدل العمليات العسكرية والأمنية والشبحية 6 قد ارتفعت وتيرته وقد وصل بنسبة % 11 منه في المدن والمحافظات ذات الاغلبية السنية العربية وحصرا في محافظات بغداد والانبار وديالى ونينوى وصلاح الدين وكركوك وبابل , وقد اوغلت حكومة حزب الدعوة وبرئاسة نوري المالكي في السلوكيات الطائفية والتغول في انتهاك حقوق الانسان وقد اشار تقرير السفارة الاميركية لعام 2112 2111 وبشكل واضح الى تورط الحكومة العراقية بأعمال قتل خارج القانون وغياب الشفافية وانتهاك حقوق الانسان وخرق حرمة المساكن وإهانة المعتقلين وتعذيبهم من قبل قوات وزارة الداخلية والدفاع والوحدات المستقلة.

حقوق ومطالب

خرجت المحافظات ذات الغالبية السنية في نهاية كانون الاول / ديسمبر 2112 في تظاهرات مليونية مطالبة باسترداد الحقوق الانسانية والوطنية والقانونية التي سلبت منها عبر التمثيل السياسي الهش والغير فاعل ضمن العملية السياسية والذي افضى الى فلسفة حكومة المذهب تحالف الاحزاب الشيعية و انتج حكومة حزب الدعوة ورئيسها المالكي وطالبت بحزمة اجراءات ابرزها

1.اطلاق سرح المعتقلات العراقيات والبالغ عددهم 5111 معتقلة بدواعي الارهاب وبجريرة تهمة المخبر السري

2.الغاء قانون اجتثاث البعث والذي طبق بشكل مذهبي وشمل اجتثاث وإقصاء وحرمان العرب السنة حصرا من الوظائف والمناصب ومؤسسات الدولة

3.الغاء قانون الارهاب الذي يطبق حصرا على السنة العرب

4.اطلاق سرح المعتقلين الابرياء وهناك اعداد كبيرة يقبعون في السجون منذ سنين بلا محاكمة وبدون دلائل جرمية او جنائية واعتقلوا ضمن حملات الاعتقال العشوائية وبطابعها الطائفي المحدد

5.ايقاف المداهمات التي تستهدف حصرا المناطق العربية السنية والتي تنشط منذ عام 2113 وحتى الان

6.ايقاف التعذيب في السجون وتقديم مرتكبيها للمحاكمات

7.اخراج قوات الجيش والأمن الاتحادي من المحافظات لارتكابهم جرائم القتل خارج القانون والتعذيب المذهبي

8.ايقاف العمل بالدستور الذي صمم على اساس الاستئثار المذهبي

1.اقالة حكومة المالكي المسؤولة عن الانهيار القيمي والأخلاقي والاقتصادي والأمني . يقصد بها العمليات الخاصة خارج القانون والتي تستهدف تهديم البنى

التحتية الاجتماعية والطبقة الوسطى والنخب والكفاءات العراقية والتي نفذت من قبل دوائر المخابرات الاسرائيلية والايرانية والمليشيات المرتبطة بها وباستخدام الخطف والتغييب القسري
والاغتيالات الصاخبة والصامتة والاعتقالات الطائفية والتعذيب المفضي الى الموت والتفجيرات المنظمة وسط الشعب.
11.محاكمة الفاسدين من اعضاء حزب الدعوة والاحزاب الباقية ممن استخدموا المنصب وبلغوا الثراء الفاحش من العقود الوهمية والفاسدة
11.تغيير النظام السياسي الحالي المبني على المذهبية والفئوية واستبداله بنظام سياسي متحضر يتوافق مع تطلعات الشعب العراقي
12.اسقاط الحكومة العراقية بقيادة حزب الدعوة
13.اسقاط النظام
شرعية الحراك
يكتسب الحراك الشعبي الحالي شرعيته من عنصريين قانونيين الاول دولي يستند على الصكوك الدولية المتعلقة بحقوق الانسان والثاني قانوني محلي مدرج في الدستور العراقي -2-3-5-1-11-12-17-11-21-25- 1. الاعلان العالمي لحقوق الانسان بمواده ( )8( )12( )13( )14( )15( )21(2. 28-131 الدستور العراقي المواد :)2 (اولاً – ثانيا)31( )41( )42( )46( )65( )84( )85( )87( )88(7 ( )21( )31( )37( )38(
)15( )121( )127( )142(
شرائح الحراك
جمهور شعبي واسع يمثل المحافظات المنتفضة ويقدر سبعة ملايين اذا ما قورن بالمدن والقصبات والقرى المنتفضة
11 من المضطهدين والذين تعرضوا للتهديم الاسري - جيل شاب جديد بأعمار 15ومورس بحقهم التعسف البدني والنفسي والإقصاء عن الحياة السياسية والاجتماعية والمؤسساتية المنصوص بها في الدستور
شخصيات عشائرية من شيوخ ووجهاء وابناء العشائر المنضوين تحت عناوين مختلفة كمجالس او تحالفات
شخصيات دينية وخطباء وأئمة مساجد
شخصيات اعتبارية سياسية وإعلامية واقتصادية ورجال اعمال وتجار داعمين لشرعية الحراك ومطالبه القانونية
احزاب مختلفة متعددة البعض منها مشارك في العملية السياسية واخرين خارجها ممن يعارضون النتائج السلبية التي اخرجتها المحاصصة المذهبية والطائفية والاثنية السياسية
منظمات مجتمع مدني مختلفة
وسائل اعلام ووسائل اتصال مختلفة
طلبة الجامعات في المحافظات المنتفضة

- اساتذة الكليات والجامعات
- الشرائح المقصاة عن الحياة المؤسساتية من المتقاعدين والعسكريين
- نساء من مختلف الشرائح ومن الذين اعتقلن هم وأزواجهم وأبنائهم
- اعلاميين وشعراء وكتاب رأي عام

سير الحراك

خرج الحراك متفاعلا قويا يشتد تاثيرا على اطراف الاستئثار المذهبي ومنظومته السياسية واقتبس الحراك فلسفة الربيع العربي وثوراته عبر التجمهر ايام العطل الرسمية والتعبير عن المطالب خلال صلاة الجمعة والاستمرار بالتظاهرات لما بعدها مع وجود خيم الاعتصام للمعتصمين الباقين كنوع من التعبير القانوني والمتحضر عن ارادة الشعب ومطالبته بالتغيير وتحقيق المتطلبات ويمكن تثبيت النقاط التالية

1. اتخذ الحراك الشعبي طابع السلمية الشامل رغم السلوكيات القمعية المضادة للسلطة وأركانها وقد جرت عمليات قتول خارج القانون من قبل القوات الامنية والجيش في محافظات الانبار(الفلوجة)ونينوى وديالى وكركوك اضافة الى بغداد
2. برزت قيادات شابة في الحراك بالرغم من اعتقال البعض منهم واغتيال البعض الاخر الا انهم يشكلون جيل سياسي جديد
3. برزت القيادات الدينية وبشكل صلب كمفتي الديار العراقية الشيخ الدكتور رافع الرفاعي وكذلك العلامة عبد الملك السعدي داعمة للحراك الشعبي
4. برز جيل شاب منتفض بمختلف الشرائح ومنهم الطلاب يؤسس لنهضة مسؤولة.
5. سخر رئيس السلطة وعلنا امام الراي العام من الانتفاضة ووصفها بالفقاعة والنتنة عند انطلاقها وهدد بانهاء التظاهرات بكافة الوسائل المعتادة من سلوكياته القمعية
6. ازدادت وتيرة التظاهرات وارتفع سقف المطالب الى اسقاط الحكومة والنظام بعد السلوكيات القمعية وترهيب المتظاهرين
7. شكلت التظاهرات تنسيقيات للحراك في المحافظات المنتفضة وتمكنت من تحقيق التوافق التمهيدي نظرا لاختلاف الشرائح المشاركة بالانتفاضة
8. تمكنت اللجان الشعبية والقائمين على التظاهرات والداعمين لها من الشخصيات العراقية ان تحقق وصول اعلامي محدود ولم تتمكن من كسر الحصار الاعلامي المفروض على العراق لطمس واقع ما يجري من انتهاكات وانهيار مؤسساتي
9. استمرت الفعاليات المختلفة وبرز التنظيم الاداري لمواقع الاعتصام والتظاهر
10. شكلت السلطة عدد من اللجان الوزارية والسياسية لبحث مطالب المتظاهرين ولم تسفر عن نتائج ملموسة لتحقيق المطالب المشروعة
11. استمرت منظومة السلطة والاعلام المرتبط بها على تشويه صورة الحراك وذهبت لوصفهم بالطائفية والقاعده والبعثيين والارهابيين .. الخ ولم تنجح بذلك
12. حب الصدارة والتسرع في بث الافلام والبيانات والمواقف ترك اثر سلبيا بعض الشيئ استطاع الطرف الحكومي توظيفه عبر منظومة الدعاية لتعزيز الدعاية

المضادة وفق السنة فوبيا والبعثيين فوبيا والقاعدة فوبيا وتوظيفه على شكل مواد مسربة.

13.لم يتمكن الحراك ان يطرح رؤية سياسية او مشروع متكامل للعراق ما بعد المالكي ولم يستطع ان يغازل الراي العام الدولي والنسق السياسي لخلق الفرص المناسبة الداعمة للانتفاضة \ الحراك الشعبي

14.كالعادة برزت السلبيات المعهودة من المنفعة الشخصية وحب الصدارة والجري خلف اوهام منح المناصب والرواتب من قبل السلطة وتشكل بالفعل مجلس الصحوة الجديد في الانبار اضافة الى وقوف مجلس المحافظة بالضد من الحراك وقد ذهبت وفود وشخصيات مختلفة واحزاب تروم الدخول في العملية السياسية ولم تحظى بالقبول سابقا على اساس تمثيل الحراك الشعبي

15.كانت ايران تراقب وبحذر وخوف طبيعة الحراك خصوصا انه يشكل ايقاف الامدادات البرية الى النظام السوري ويشكل نقطة انطلاق جديدة في الحياة السياسية العراقية وحاولت استخدام وعبر ادواتها في لبنان والعراق من ترويع الاخرين بانتاج المليشيا فوبيا وقد شكلت مليشيا المختار التابعة لحزب الله اللبناني وهي واجهة تحسب لعمل الحرس الايراني والبسيج والاطلاعات وقد حضر القيادي في حزب الله سمير القنطار الى بغداد واشرف على استعراض مليشياوي في وضح النهار وعلى مرأى ومسمع الحكومة والاحزاب العاملة والبرلمان والرئاسة دون رد يذكر

16.اخيرا زار وزير الامن الايراني حيدر مصلحي الاخيرة بغداد وتدخل بشكل واضح في الشان العراقي والتقى قيادات امنية وسياسية ووصف التظاهرات بانها انقلابية بعثية بدعم خارجي وهي ذات الاكاذيب للفرز الطائفي

17.كان موقف عدد من السياسيين داخل العملية السياسية متصل ومتسق بدعم التظاهرات كرئيس مجلس النواب النجيفي ووزير المالية المستقيل رافع العيساوي والنائب احمد العلواني بينما كان الاخرون يبحثون عن منافع ومناصب لاستغلال الازمة وتوظيفها لمصلحتهم ضد رغبة الشارع

18.ادامة الحراك مرهون بالتماسك وتصحيح المسارات وتوحيد الخطاب وطرح المشروع وكسر الحصار الاعلامي المفروض والضغط عبر الوسائل الغير تقليدية.

11.يستمر الواقع السياسي الزاحف نحو الانتخابات وتحالف التشكيلات وتشكل كتلة نوري المالكي دولة القانون الكتلة الاكبر وهو يخوض انتخابات مجالس المحافظات تمهيدا لبسط النفوذ في الانتخابات البرلمانية القادمة.

المحور الثالث

السيناريوهات المحتملة

تشهد المحافظات العراقية الست ذات الاغلبية السنية حراك شعبي وتظاهرات واعتصامات تخطت 111 يوم وفي ظل تدليس وتسطيح الحكومة للمطالب والالتفاف عليها واستخدام الوسائل الشبحية في اجهاضها ما هي الخيارات والفرص المتاحة لتحقيق المطالب ويمكن

تبويب بشكل العوامل الفرضيات التالية:

فرضيات

1.اتساع التظاهرات لتشمل كافة المحافظات
2.الاستمرار بالتظاهرات حتى اسقاط الحكومة مع بقاء نظام الحكم الحالي
3.الاستمرار بالتظاهرات حتى اسقاط النظام وإعادة تشكيل النظام السياسي
4.التفاوض مع الحكومة والحصول على مكاسب وقتية والدخول في العملية السياسية بمساعدة المشاركين بالعملية السياسية
5.تشكيل اقليم بطابع مذهبي سني عربي
6.تشكيل اقاليم منفصلة ذات طابع جغرافي
7.اجهاض الحراك والاستسلام
8.امتداد السيناريو السوري
1.الخيار المسلح

لغرض استعراض كل سيناريو يتسق بظواهره الظرفية لابد الاخذ بنظر الاعتبار خصائص اساسية لكل مشروع محتمل او سيناريو مفترض وبالتأكيد وفقا للمنهجية البحثية في اختيار وتحديد الاهداف الواجب الوصول اليها او المشروع السياسي المفترض تحقيقه على ارض الواقع يجري مناقشة العناصر التالية لمقاربتها مع الموارد المتاحة وما يمكن تحقيقه ويفترض عند الذهاب الى الفرضيات نكون قد حددنا المشكلة الاساسية ويمكن تحديدها ((كيفية تطويع الحراك لكسب نظام سياسي جديد يؤمن التعايش السياسي ويحقق العدالة الاجتماعية والتنمية المستدامة للطرف الاكثر ضررا من المعادلة السياسية)) ويفترض اننا قد ناقشنا الموارد الذاتية والقدرة الكامنة والبيئة المناسبة لتحقيق ذلك في ظل مناخ سياسي دولي وإقليمي وعربي ايجابي يمنح الفكرة عاملا مساعدا للتحقيق , ومنها يجري الانطلاق للمناقشة وفق منهجية التحقق من البيئة الداخلية والخارجية وبيان الاستطاعة من عدمها, ولعل المناقشة الواقعية والفرضيات القريبة تحقق الوصول الامن للفكرة.

(فرضية رقم0)

نقاط القوة نقاط الضعف

1.تعاطف خجول غير معلن
2.اختلاف سياسي افقي
3.فشل الحكومة امني وخدماتي
4.واقع اجتماعي وخدمي بائس
5.استهلاك الشعارات المذهبية
6.فساد وانتفاع الطبقة السياسية على حساب المجتمع
7.سلمية التظاهرات وتقليص الشعارات المذهبية المنفرة
8.التدخل والنفوذ الايراني المروع والهيمنة على المقدرات الاقتصادية
٩.عمليات الاجهاض وقتل المتظاهرين والتعذيب
١٠. اصرار وإرادة المتظاهرين وعبور حاجز الخوف
11.اهتمام عربي شعبي ونسبي حكومي وإعلامي

1.انحسار الفعاليات في المحافظات السنية وعدم الاتصال الافقي
2.الدعاية المضادة الحكومية والحزبية والإيرانية والتي تركز على السنة فوبيا
3.ركوب الموجة من قبل تيارات سياسية وتنظيمات مسلحة ضمن مبدأ الصدارة وتجيير الاحداث
4.عدم تماسك الحراك وفق منهجية ثابتة موحدة
5.اغراءات الحكومة بالمال والمناصب
6.تشكيل مليشيات سنية تابعة للحكومة
7.سيولة المليشيات المذهبية التي تمارس الترويع على المجتمع
8.دخول مليشيا حزب الله الى الساحة العراقية علنا
٩. الجولات المكوكية والإسناد العسكري للنظام السوري عبر الاراضي و لاجواء العراقية مما يحقق سيولة التحول الى الاراضي العراقي دون عوائق
١٠. الاعلان الواضح عن الهيمنة الايرانية على العراق

التهديدات الفرص

1.عدم التماس الجماهيري
2.استمرار الشحذ المذهبي
3.ادامة التدخل المرجعي
4.صناعة العمليات الارهابية وسط الشعب لخلق حالة الرعب الموظف سياسيا
5.استخدام القوة المسلحة الرسمية لإجهاضها تحت مبرر الارهاب
6.استمرار الحرب الشبحية
7.اشعال حرب طائفية شاملة
8.اجهاض الحراك

كسب الرأي العام العالمي والعربي لاتساع الحراك ودخوله فلسفة الثورة الشعبية او الانتفاضة الشاملة

2.دعم عربي وأممي اوسع
3.اجبار عجلة السياسة الاميركية على التخلي النظام الحالي وفشله
4.اعادة رسم السياسة من جديد
5.التوازن في الحقوق والقفز على القطبية السياسية
6.المشاركة الحقيقية في رسم السياسة واتخاذ القرار
7.انقاص النفوذ الايراني
8.تحديد مسارح المليشيات العاملة والحد من الاستهداف المنظم

(فرضية رقم4)

البيئة الداخلية

1.نقاط القوة

من الصعب ايجاد نقاط قوة من الاستمرار بالعملية السياسية في ظل ثماني سنوات من الفشل والإقصاء والاعتقالات والتعذيب

2.نقاط الضعف

- غياب المنظومة القانونية التي تؤسس لدولة ناشئة
- قانون الارهاب الذي اصبح سيف سياسي يقطع عوامل التقدم والنجاح والتعايش
- مشاركة هزيلة بأشخاص وليست بمشروع سياسي
- دستور مجافي لأي نجاح ممكن
- التلاعب بالدستور وفقا للباروميتر السلطوي والحزبي
- مؤسسات فاشلة وفاسدة ومؤدلج الكثير منها نحو طائفة السلطة
- الدعم الاميركي للحكومة ومنهجيتها
- الهيمنة الايرانية شبه الشاملة على الادوات العاملة في السياسة والبرلمان والامن والمليشيات والمنابر المذهبية
- فشل النظام السياسي الذي اسس على معادلة الغالب والمغلوب
- استئثار طائفة السلطة بمقدرات القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلامية
- فقدان الحصانة القانونية والأمنية للساسة المشاركين
- غياب فصل السلطات وغياب العدالة
- تغول القوات الامنية وممارسة فلسفة حكومة الظل الطائفية
- التزوير محتمل والواقعي في الانتخابات والتي تؤسس لواقع مزيف
- بقاء الواقع البائس على ما عليه وقد يتطور نحو الفناء المذهبي وباستخدام ادوات السلطة الامنية والعسكرية والقضائية والإعلامية مقارنة بالسنوات الماضية
- عدم مقدرة الساسة المشاركين وحسب التجارب من تغيير الواقع السياسي
- المشاريع الانتخابية حزام ناقل للسلطة ولم تتحقق على ارض الواقع
- فقدان المجتمع ثقته بالعملية السياسية ومخرجاتها وبات ينظر للمرشحين والسياسيين كمنتفعين نظرا لسلوكيات سلفهم
- المشاركة عبارة عن منح الشرعية لعمليات الابادة والفناء والتطهير المذهبي
- لم تنتج المشاركات السابقة عن خلق وإرساء مؤسسات حكومية عاملة على تخفيف الاعباء عن المواطنين
- الهيمنة شبه الشاملة على القرار السياسي العراقي من قبل ايران
- تدهور الامن وشياع ظواهر المليشيات المذهبية داخل السلطة
- منظومة الفساد والإفساد المنظمة والمسلحة
- غياب الموارد الاساسية لإنجاح اي مشروع سياسي

البيئة الخارجية

3.التهديدات

- استمرار الاضطهاد والبؤس المجتمعي
- ديمومة بقاء طائفة السلطة
- استمرار هيمنة ايران على العراق
- ادامة اقطاعيات السجون ومواردها

- ابقاء عقيدة حكومة المذهب وجيش الطائفة وبمشاركة شكلية
- ادامة الاعتقالات والسلوكيات المذهبية الدموية
- عدم نجاح المشروع السياسي
- استمرار سياسات العزل الطائفي
- استمرار اخضاع المجتمع لسياسات الفساد والترويع
- استمرار سلوكيات القوات الامنية وأجهزتها
- عدم منح الكتلة الفائزة حقوقها الانتخابية كما حصل بالسابق
- القبول بالأمر الواقع مشاركة هزيلة ومجتمع بائس يروع بالإرهاب السياسي

4.الفرص

- مشاركة محدودة
- تمثيل هش
- منافع شخصية
- زيادة التغول الايراني

(فرضية رقم5)

البيئة الداخلية

1.نقاط القوة

قد يجد الكثير ممن يؤمنون بضرورة انشاء الاقليم عدد من نقاط القوة وهي

- ايقاف عجلة الابادة المذهبية
- وجود خمس محافظات ذات اغلبية سنية
- وجود كفاءات وقدرات نخبية في كافة المجالات
- اقليم كردي مجاور بتوافق مذهبي نسبي
- وجود ثورات طبيعية كالأنهار والمعادن
- وجود منافذ حدودية خارجية مع ديموغرافية مؤاتية
- دعم عربي افتراضي
- دعم اقليمي افتراضي
- دعم دولي افتراضي
- حوافز تقدم لشركات
- خبرة قتالية سابقة
- دستور يسمح بتشكيل اقاليم

2.نقاط الضعف

- الانسياق الطوعي لتنفيذ مشروع بايدن غليب 2115 لتقسيم العراق وتنفيذا لاقتراح وتوصيات مركز سابان للسياسات الخارجية معهد بروكنيز والتي اعدت دراسة تطبيقية لتقسيم العراق بثلاث دويلات مذهبية قومية وأسميت التقسيم السهل للعراق الخطة بي وهي رغبة اميركية اوربية اسرائيلية ايرانية مشتركة
- السماح لانطلاق مشروع الدولة الشيعية المرسوم لها والتي تعتمد على موارد العراق المالية والنفطية والبشرية

- فقدان المقدرة الاقتصادية الكبرى
- فقدان المنفذ البحري جنوب العراق
- ضم بغداد العاصمة السياسية الى اقليم الجنوب نظرا للهيمنة الشاملة والقوة المنتشرة فيه
- ابتلاع الحدود الشرقية من قبل اقليمي الشمال الوسط
- غياب المشروع السياسي والمأسسة المنهجية للعمل
- شياع ظواهر الزعامة وحواشي الزعيم المنتفعة
- عدم وجود قوى عسكرية للتوازن مع الطرف المفترض
- عدم الاجماع الشعبي والسياسي على هذا المطلب
- غياب الاستفتاء الجماهيري الذي يشرعن الاقليم
- غياب الغاية السياسية- اقليم سني في بيئة دولية مجافية
- اقليم سني في بيئة ديموغرافية مجافية
- غياب تدرج المؤسسات الفاعلة لتشكيل الاقليم
- غياب المنظومة القانونية التي تؤسس له
- عوامل التقدم والنجاح والتعايش لتزال غير متوفرة في ظل التشظي المجتمعي للسنة العرب وفقا للشرائح – الحكومة – الكتل السياسة – البرلمان – الصحوة القديمة –الصحوة الحديثة – مجالس الاسناد – المخبر السري – التنظيمات المسلحة – شيوخ العشائر – الاحزاب التاريخية – الاحزاب الدينية – المشاريع العابرة - روح الانا الشخصية – حب الصدارة – عدم المقدرة على التجانس والتكامل النخبي – دور دول الجوار والاختراق الايراني
- غياب التاثير السياسي والبرلماني لتفعل الاقليم
- مؤسسات حالية فاشلة وفاسدة وتابعة للأحزاب الوافدة ومتنازع على منافعها
- انشطار الكتل والأحزاب والسعي نحو المنافع الشخصية
- فقدان الثقة بالتشكيلات والكتل والمشاريع السياسية من قبل الحاضنة الشعبية مما يعيدنا الى فلسفة السلطة بالإكراه ولكن بأيادي داخلية
- التوقيت المناسب

البيئة الخارجية

3.التهديدات

- الاعتراف الدولي والعربي
- الملف السوري
- ضم جنوب العراق الى ولايات ايران والسماح للمشروع الايراني الصفوي بالتمدد عبر العراق
- الشروع بتشكيل الدولة الشيعية والخليج الفارسي
- الاستمرار بالمنهج المذهبي وتوسعه وتوظيف المقدرات العراقية له
- شياع ثقافة الاكراه والترويع الفكري والجسدي والاغتيالات لتوطين مشاريع غير مقنعة وسلوكيات منفرة وقد يكون الاقليم السني ليحضا بقبول شعبي وسياسي

- فشل التطبيقات الخاصة بالإقليم لغياب العقيدة الجامعة
- احتراب افقي نحو الرئاسة والصدارة والهيمنة على المدن والقصبات
- التغول المفترض للطرفين الاقوى تسليحا وعددا وتنظيما
- توقع التغول الايراني اكثر عبر خلق الفتن وزج المليشيات وإدخال الاقليم بحرب عامودية مذهبية او حرب قومية مذهبية
- تعاظم منظومة الفساد والإفساد المنظمة والمسلحة
- غياب الرؤية السياسية المقنعة والاعتماد على فلسفة الخلاص من الاضطهاد كعامل اساسي في بناء مشروع الاقليم
- اختلاف الفرق والفصائل والكتل السنية باتجاهات مختلفة بين مروج للإقليم وبين رافضا
- غياب المطاولة بالصراع وانتظار قطف الثمار والتسرع الناتج من اليأس والإحباط
- استمرار الاضطهاد والبؤس المجتمعي
- حرب اهلية شاملة لإخضاع الاقليم للهمينة
- ثقافة الاستئثار المسلح

4.الفرص

- نجاح محدود
- توافق متوتر
- اضطراب مزمن
- توقيت بالانتظار

جميع التجارب الدولية التي اتخذت نظام الاقاليم هي مزج وتفاعل دويلات وإمارات متقاربة تربطهم وشائج مشتركة , وتتفق على مصير مشترك ووحدة هدف لتكون دولة مركزية فدرالية فاعلة تردع خصومها الطامعين , ويمكن وصفها بتوزيع المهام بشكل لا مركزي يضمن مركزية الموارد والدفاع والسياسة الخارجية وتعايش المكونات والأعراق ,وفقا للخطوط العامة للمصلحة الوطنية العليا , وقد نجحت دول متعددة بلغت 23 دولة فدرالية جمعت ولايتها لتصبح دولة , ويشار بنجاح الى الولايات المتحدة عالميا ودولة الامارات العربية عربيا , وكان لكتابات اثنين من المراقبين السياسيين الإنكليز(ألبرت دايسي وجيمس برايس) تأثير كبير على بدايات نظرية الفدرالية , لقد حدد دايسي شرطين لتشكل الدولة الفدرالية.

1.وجود عدة دول" وثيقة الارتباط ببعض محليا وتاريخيا وعرقيا أو ما شابه يجعلها قادرة على ان تحمل في نظر سكانها هوية وطنية مشتركة

" 2.الرغبة الوطنية في صيانة الوحدة الوطنية والتصميم على المحافظة على استقلال كل دولة في الاتحاد الفدرالي

الخاتمة

تستعد احزاب السلطة في صراع محموم على الانتخابات المحلية التي تمهد للهيمنة على مقدرات الانتخابات الرئاسية , وعلى عكس فلسفتها كون تلك الانتخابات كان

من المفترض ان تنتج حكومات محلية وبمركزية تشبه الفدراليات , وترتبط ب(مجلس الاتحاد)الذي رفضت الكتل تشكيله لأنه يفقدهم سيطرتهم على المحافظات ,وبكل الاحوال استبق رئيس السلطة الاحداث وأعلن انه الفائز في جميع المحافظات في جزم قل نظيره , ويبدوا انه يراهن بالدرجة الاولى على الانتخابات الخاصة لمليون ونصف عسكري , وتشغيل منظومة الدعاية والحرب النفسية , وترسيخ مناخ الارهاب المفتعل , لحشد الشارع طائفيا في ظل صراعات سياسية مختلفة , وهنا تبرز خيارات متعددة البعض منها يعتمد على فلسفة الصبر الاستراتيجي , اوخرى تعتمد استراتيجية الاقتراب الغير مباشر نظرا للإنهاك وشحه الموارد, والبعض ينتظر المتغير الاقليمي والذي اصبح بعيدا في ظل المتغيرات الدراماتيكية التي تشهدها سوريا, على كل النقاش يغني الافكار وكل الخيرات مفتوحة في عالم متغير ومضطرب , نامل ان يكون بحثي منهجي يعتمد الواقعية السياسية بلا عواطف وبشكل ملموس , وليس من حقي مصادرة تفكير الاخرين او بحثهم عن الخلاص من بطش طائفة السلطة التي ليس لها لا دين ولا مذهب ولا وطن سوى التغول في الظلم والباطل , لعلي اقول كلمة اخيرة لا نهرب الى الامام ونرمي العيوب والأخطاء على شماعة الاخر والعيب فينا ,والبوصلة مفقودة , والإبحار في امواج متلاطمة بلا ربان ,وطاقم كفئ تعد مغامرة غير محسوبة , وفوضى ملاحية ونتائجها وخيمة.

المصادر

أ - تقارير المرصد الاعلامي لعام – 2113 مركز صقر للدراسات
ب - المرصد السياسي للحراك الشعبي والسياسي العراقي
ت - ورقة الدستور العراقي
ث - الاعلان العالمي لحقوق الانسان
ج -2112 - تقارير السفارة الاميركية لعامي2111
ح - منهجية المسح التحليلي سوات وسمارت
خ - متابعات مباشرة للواقع السياسي العراقي والحراك الشعبي
د - تقرير خبير جامعة هارفرد – ستيفن والت
ذ - التقارير الاممية ومنظمات حقوق الانسان بخصوص العراق
ر - تقرير منظمة العفو الدولية بخصوص العراق

الخاتمة:

تشكل الوثائق والمحفوظات والأرشيف ذاكرة الأمم والمجتمعات، وتشكل هويتهم وانتمائهم، ويعد مقامها في تلك المجتمعات معيار لتقدمها، وتمثل في الوقت نفسه حجر الزاوية لمجتمع المعلومات من خلال تقديم الأدلة الصحيحة والكاملة على الأعمال البشرية والمعاملات، وتعد إدارة المحفوظات الدعم الذي يكمن ورائه استحصال حقوق الأفراد والمنظمات والدول. ولأجل ضمان حقوق المواطنين في الحصول على المعلومات الرسمية لما يمس حياتهم بشكل خاص وبما يتصل ببلدهم العراق بشكل عام وبكل ما يتعلق بالديمقراطية والمساءلة والحكم الرشيد، وإلى معرفة تاريخهم من خلال ما تقدمة الوثائق والمحفوظات الأساسية، تقوم المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث في ذلك من خلال تعزيز كيفية تصنيف وحفظ واستخدام الوثائق من جميع أنحاء العالم لأجل خدمة القضية العراقية.

وسعيا لتحقيق هذه المهمة تعمل المؤسسة من أجل حماية وتعزيز ذاكرة العالم لتحسين الاتصال لتعيد استكشاف الدور المركزي للعراق في كل من السياسة في الشرق الأوسط وتشكيل السياسة العامة للحكومات المتعاملة معه. والوثائق التي تم اختيارها لهذه المجموعة تتعلق بالفكر الاستراتيجي والعسكري من أجل تغطيتها للتاريخ والحاضر السياسي العام في العراق وتشمل هذه المجموعة بيان التحول الهائل في موازين القوى التي وقعت، خلال الحرب الأخيرة والاحتلال وأثرها على الاقتصاد والسياسة الخارجية وبصورة أعمق مما يمكن أن يتوقع، فدروس التاريخ لهذه المجموعة من الوثائق الأصلية مهمة لتعلم المهمة التي تقع على كاهل المجتمع العراقي للنهوض والتقدم والسلام.

لقد ازداد وعي المؤسسات المختلفة والأفراد بالمجالات المشتركة بينهم وبين احتياجاتهم في تفعيل التعامل مع فهارسهم، وهذا ينطبق بالأخص على الأرشيف ومصادر المكتبات والتي تقوم بتطوير معايير لتتفق مع احتياجاتهم الخاصة فيما يتعلق بتوصيف الوثائق، ولذلك تسعى المؤسسة الوطنية للدراسات والبحوث إلى إقامة تعريف وتحديد مجموعة متناسقة من المعايير التي يستطيع بها المهنيون في مجال الأرشيف والمكتبات والمثقفون والطلبة من الرجوع إليها فيما يتعلق بالموضوعات التي تخص وصف الوثائق..